سادة القافلة 19

تلّة جاويدي

وسرّ اشلو

تدوين: أكبر صحرائي

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: **تلة جاويدي وسرّ اشلو**؛ سادة القافلة - 19

تدوين: **أكبر صحرائي**

إعداد: **مركز المعارف للترجمة**

ترجمة: **عزة فرحات؛ سمية يوسف**

إصدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية** ـ بيروت 2017

إخراج فني: **علي عليق**

تصميم وطباعة: DBOUK 00961 3 336218

ISBN 978-614-467-047-7

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سادة القافلة 19

تلّة جاويدي
وسرّ اشلو

تدوين: أكبر صحرائي

فهرس المحتويات

إشارة		11
مقدمة الكتاب		15
1. شجرة النارنج	10 كانون الأول 1977	16
2. البرواز المائل	1 شباط 1979	21
3. الرقيب	10 شباط 1979	25
4. عمر نوح	31 آب 1980	33
5. كوني مستعدة!	1 أيلول 1980	36
6. القلق الحلو	24 نيسان 1981	40
7. مثل المرآة	31 آب 1981	43
8. آخر الأغنية	26 أيلول 1981	46
9. قصة حنظلة	28 شباط 1982	49
10. الواقع والخرافة	5 أيار 1982	52
11. المقهى الصلواتي	15 تموز 1982	56
12. العشق ها هنا	18 تموز 1982	60
13. فندق إسترا	11 أيلول 1982	64
14. اشلو	30 آذار 1983	70
15. النفطة والثفنة	4 نيسان 1983	74

16. التلة 175	10 نيسان 1983	79
17. مطر الأقاحي	10 أيار 1983	85
18. «عموزنجير باف»	15 أيار 1983	89
19. حوالة البغل	31 أيار 1983	73
20. الشيار تسعة	5 حزيران 1983	99
21. إبراهيم الزّمِك	10 حزيران 1983	103
22. الملّا مصطفى	22 حزيران 1983	109
23. كاني خدا	25 حزيران 1983	113
24. الفالوذج الزعفراني	29 حزيران 1983	120
25. حلوى الرنكينك	7 تموز 1983	126
26. قشرة البيضة	17 تموز 1983	130
27. الضيافة	18 تموز 1983	134
28. سراج الليل	19 تموز 1983	139
29. المقنبلة	20 تموز 1983	143
30. الكتابة على الظهر	20 تموز 1983	148
31. كمبا 11	20 تموز 1983	152
32. عشق كرب وبلاء	20 تموز 1983	157
33. اكسر الجنزير	20 تموز 1983	164
34. تلة الفولي بول	20 تموز 1983	168
35. داريوش الكبير	20 تموز 1983	172
36. جبل النور	20 تموز 1983	177
37. الملك	20 تموز 1983	182
38. الرّباعي	20 تموز 1983	189
39. فلّ يا فلّ	20 تموز 1983	194

40. انعطافة الشَّعر	20 تموز 1983	197
41. التنصت، مثلُنا	20 تموز 1983	200
42. ماء الرادياتور	20 تموز 1983	204
43. النملة الجندي	20 تموز 1983	207
44. تلة أُحُد	20 تموز 1983	211
45. الهجوم المضاد الأول	20 تموز 1983	217
46. أنا عينك، أنت قدمي	20 تموز 1983	222
47. أبو الفضل	20 تموز 1983	226
48. قصّة أُحد	21 تموز 1983	231
49. الألمان	21 تموز 1983	236
50. الخيار	21 تموز 1983	243
51. نذر الأمّ	21 تموز 1983	247
52. القنبلة العنقوديّة	21 تموز 1983	251
53. عنبر الجرحى	21 تموز 1983	254
54. مخيّم الأسرى	22 تموز 1983	257
55. محور المعركة	22 تموز 1983	261
56. جيش الخميني	22 تموز 1983	263
57. زيبايي عالم	22 تموز 1983	270
58. طلوع القمر	22 تموز 1983	275
59. الحافّة الغربيّة	22 تموز 1983	278
60. المحظوظون	22 تموز 1983	283
61. داريوسلمان	22 تموز 1983	287
62. جناح الملائكة	22 تموز 1983	294
63. معاملة	22 تموز 1983	298

64. المصباح البحري	22 تموز 1983	301
65. الحلقة الأولى	23 تموز 1983	306
66. الآليّة الحربيّة العجيبة	23 تموز 1983	310
67. تلّة العقاب	23 تموز 1983	316
68. اشلونك	23 تموز 1983	319
69. قِفْ!	23 تموز 1983	324
70. مرق اللحم والخبز المغمّس	23 تموز 1983	328
71. السلّم الحدودي	23 تموز 1983	332
72. المنسيّون	23 تموز 1983	336
73. جيش العشرين مليونًا	23 تموز 1983	340
74. المجزرة	23 تموز 1983	344
75. فسبّح باسم ربك العظيم	23 تموز 1983	349
76. ثمانية عشر جسدًا	24 تموز 1983	354
77. المفتاح	25 تموز 1983	360
78. تشومان	26 تموز 1983	365
79. الانسحاب	29 تموز 1983	368
80. الميثميّان	31 تموز 1983	374
81. لقاء في الرّدهة	6 آب 1983	376
82. بهشت آباد	8 آب 1983	381
83. قصف مرعب	23 أيلول 1983	386
84. الوليّ الصالح إسماعيل	24 أيلول 1983	392
85. الخطّ الأمام	25 أيلول 1983	398
86. بيت الأحزان	3 ت1 1983	401
87. داخل البئر	28 ت1 1983	404

88. المراحل السبع	12 ت2 1983	407
89. المشارطة	22 ت2 1983	409
90. عراك صادق	28 ت2 1983	413
91. عهد الدم	5 ك2 1984	416
92. الشرط الثاني	15 ك2 1984	419
93. مثيرٌ للعَجَب	4 شباط 1984	422
94. جُفير	21 شباط 1984	425
95. حياة الرجال	5 آذار 1984	430
96. قصف الأهواز	17 آذار 1984	433
97. زينب	27 آب 1984	437
98. الحنّاويّ المشويّ	27 ت2 1984	440
99. أصحاب اليمين	20 ك2 1985	444
100.لعبة الحرب	22 ك2 1985	446
101.جسد مقابل دبابة	16 آذار 1985	449
102.مقرّ المحاربين	17 آذار 1985	455
103.عشرة أشخاص	17 آذار 1985	464
104.بدونك	18 آذار 1985	468
105.الحجر والبشر	19 آذار 1985	473
106.الأسير	19 آذار 1985	477
107.ملح البرتقال	20 آذار 1985	481
108.نظر آباد	30 آذار 1985	485
109.الكابوس	9 نيسان 1985	489
110. رقائق بطاطا بطعم الملح	21 ت2 1985	492
111.قنّاص	2 ك1 1985	495

112. القبلة الأسبوعيّة	8 آذار 1986	498
113.نهر الجنة	11 آذار 1986	501
114.خور عبد اللّه	12 آذار 1986	507
115.العقدة المستعصية	12 آذار 1986	511
116.سكر حافظ	13 آذار 1986	516
117.عاد المطر	16 آذار 1986	518
118.ليلى والمجنون	11 ك1 1986	524
119.المختضبون بالحنّاء	22 ك1 1986	527
120.أربعة جنود	24 ك1 1986	531
121.الإعدام	25 ك1 1986	540
122. زياد المشهدي	26 ك1 1986	545
123.مسرحيّة التكفين	28 ك1 1986	548
124.القنّاص الثاني	8 ك2 1987	551
125.خمسمئة شخص	10 ك2 1987	556
126.اقتلوني	10 ك2 1987	559
127. أيّ شي لونك	11 ك2 1987	563
128.مرتضى آويني	12 ك2 1987	569
129.عزيزي أبا عَجَلة	26 ك2 1987	571
130.انتهت الحرب	26 ك2 1987	573
131.العمّ الخالد	28 ك2 1987	578
132.أبو التراب	29 ك2 1987	582

ملحق الهوامش	585
ملف الصور	587

إشارة

«..منذ عقد الثمانينات؛ أنا مشترٍ وقارئ لهذه الكتب، ولطالما تأثرت بجاذبيــة وخلوص هــذه الكتابات والمقــولات وصدقها. وهــذا ما أقوله حقيقة؛ إن ذكـرى الذين أوجدوا هذه المرويّات وأنتجوها لن تمحى من ذاكرتي، والأسماء التي قرأتُها خلف هذه الكتب، وكتبهم التي شاهدتها وقرأتها غالباً ما زالت في ذهني؛ وأنا أحترمها وأعرف قيمتها، وإذا ما قدّر لي أن أمدح هذه الأعمال فإني أمتدحها». ويكمل الإمام الخامنئي: «من ذا الّذي يمكنه أن يُظهر لنا هذه العظمة؟! وهي موجودة، لكن يجب أن يُظهرها لنا شخصٌ؛ فمن هو؟ هو أنتم[1].. إذا عرفتم قدر أنفسكم، يمكنكم أن تكونوا حاملين لمثل تلك النورانية التّي تهزّ الإنسان. فمثل تلك الحقائـق، واقعاً، تحدثُ تحوّلاً فينا؛ حصلـت هذه الحقيقة (الحادثة) وفي لحظـة ذهبت. بالتأكيد هي باقية في الملكوت؛ تقع الحادثة في عالم الناسوت والمادة وعالم الزمان والمكان في لحظة ثم تذهب وتختفي. من الـذي بإمكانه أن يخلّدها؟ ويُظهّرها ويلقّنهـا قلب الإنسان وبصيرته؛ بعـد أن تحدث وتغيب عنا!؟..إنه الفن!. للفن هذا الدور ويمكنه القيام بهذا العمل. لقد رأيت بأمّ العين حوادث، ربّما تعجز العين عن إدراكها، لكنّنـي عندمـا أعـاود مشاهدتها، بعـد أن حرّرتموها أنتـم الفنّانون، فبيّنتموهـا إمّا في قالب المسـرح، أو بلغة القصّة، أرى كم كانت حوادث عجيبة، وأبدأ بإدراكها من جديد..»(1991/7/16م)

1- مخاطبًـا مسؤولـي، كتّـاب وفنانـي مكتـب فـن وأدب المقاومـة، 25/4/1370 هــ. ش.(المصدر: روايتى از زندكى وزمانه آيه الله خامنئي؛ جعفر شير علي نيا؛ الفصل6).

إن كان انتصار ثورة الإمام الخميني قدس سره قد ولّد مرحلةً جديدة من الوعي الإسلامي، وبنى أعظمَ مشروع نهضوي على مستوى الأمة؛ وأحيا قيمًا ووظائفَ مطويّة في بطون التاريخ الإسلامي وتراثه؛ فإن الحرب المفروضة قد فجّرت معها طاقات الثوار وأبرزت تجليات العظمة والتضحية في أرواحهم، فكانوا أبطالًا حقيقيين في ساحات القتال وميادين العشق؛ وكانت نتائج هذه الحرب أحد تجليات نهضة الإمام؛ رجال آمنوا بربّهم فزادهم هدًى، ومنهم القائد الشهيد مرتضى جاويدي«اشلو» الذي عشق الإمام عشق الفراشة للنّور فذاب فيه.

هذا الكتاب..

رواية حقيقية دوّنها أكبر صحرائي في 600 صفحة، شارك في سرد قصصها الـ133 قرابة 40 راوياً، تحدثوا جميعًا بضمير المتكلم عن مواقف ومشاهد فريدة شكّلت صورةً رائعة لحياة هذا القائد الاستثنائي. من بين هؤلاء الرواة السيد مرتضى آويني ومحسن رضائي وصياد شيرازي، وجعفر أسدي (راوي كتاب الهداية الثالثة). كما تمّ الاعتماد في المسائل المتعلقة بحياته الأسرية على ما روته زوجته.

مرتضى جاويدي قائد كتيبة الفجر في لواء المهدي الذي شارك في أشد الهجمات التي قادتها القوات الإيرانية في الخطوط الأمامية من الجبهة خلال سنوات الحرب المفروضة، وكان حلّال المشاكل والعقد.. وقد ذاع صيته ما حدا بالكثيرين ممن كانوا يلتحقون بالجبهة من محافظة فارس للالتحاق بكتيبة الفجر حصرًا للقتال معه والانضمام إلى لوائه.

تبدأ الرواية من قرية جليان التابعة لمدينة فسا في محافظة فارس،

محـل ولادة مرتضى، بالتظاهرات الأولى التي عمت أرجاء إيران على مشــارف انتصار الثورة الإسلامية عام 1978 وتتوالى الأحداث زمانيًا حتــى تختتم بشهادتــه عن عمر ناهــز الثامنة والعشريــن في عمليات (كربلاء 5) أوائل العام 1987م.

يواجه القارئ مع مطالعته عنوان الرواية اسم «اشلو» الذي عُرف به الشهيد طوال سنوات الحرب، إلى درجة أن البعثيين كانوا يعرفونه بهذا اللقب ويذكرونه في نشراتهم الإخبارية حتى أعلنوا فيها كذبًا شهادته عدة مرات. ويكتشف ضمن طيات الفصول سر «اشلو» والمسؤولية التي تصدى لها هذا البطل في صناعة رفاق جهاده.. ويصوّر الكتاب بالإجمال مشاهد من عمليات (كربلاء4) و(كربلاء5) .. وبالخصوص ما جرى من بطولات لفتح تلة «برد زرد» في عمليات (والفجر2)؛ التلّة التي تبعد مسافة 30 كلم داخل الأراضي العراقية في ظل حصار شديد ييأس منه من لم يمتحن الله قلبه للإيمان. شارك في هذه العمليات حوالي 380 مجاهدًا من خلّص المجاهدين،.. بقي منهم 18 مجاهدًا فقط؛ 15 منهم كانوا جزءًا من رواة حكايات هذا الكتاب.

وكان لنــا شرف إعداد هــذه الترجمة[1]، وقد ترجمنــا سابقًا نظير هــذا الكتاب في أسلوبه الأدبي (سلام علــى إبراهيم) غير أن الكتاب الحاضر يمتاز بالترابط والمتانة بحيث تتضافر عدة شخصيات لتروي حدثًا من زوايا عدة، فتعطينا مشهدية بأبعاد مختلفة.

1- أضفنا بعض الهوامش التوضيحية في ما يتعلق ببعض المصطلحات والأمثال والتعابير الفكاهية والقصص المشهورة في التقاليد الإيرانية؛ تسهيلًا على القارئ. وجعلنا بعض الهوامش في ملحقٍ مختصر..

شكر وتقدير

يقدّم مركز المعارف للترجمة هذا الإصدار الجديد «تلة جاويدي وسر اشلو»؛ في سلسلة سادة القافلة ضمن مجموعة أدب الجبهة؛ ولا يسعنا إلا أن نشكر كل من ساهم في إعداده ليبصر النور بهذه الحلّة؛ الكاتب: أكبر صحرائي. فريق الترجمة: عزة فرحات وسمية يوسف. فريق التحرير والمراجعة في مركز المعارف. المدقق اللغوي: عدنان حمود. رضوان راغبي التي أفادتنا بملاحظاتها في تدقيق الترجمة. المخرج الفني: علي عليق.

والشكر موصول لناشر النسخة الفارسية: (انتشارات ملك أعظم) والأستاذ سعيد عاكف؛ ولا ننسى دار المعارف الإسلامية الثقافية ناشر النسخة العربية.

مركز المعارف للترجمة

20شوال 1438هـ

مقدمة الكتاب

هو الله العلي الأعلى

لقد وفّر لي العمل في مجال التأليف والنشر لحوالي ربع قرن تجاربَ ومعارفَ بمقدار ما هي غالية ومكلفة هي أيضًا قيّمة ورفيعة القدر. وطوال هذه المدة لم أشارك في أي مباراة أو مهرجان، وكنت دائمًا يائسًا من اختيارات هذه المهرجانات. لقد استهدفت المحسوبيات على الدوام معايير سلامة وصحة أكثر هذه البرامج، والتي كانت قطعًا تنطلق في بداية الأمر بنية حسنة.

وقد عزمت منذ مدة أن أبادر في هذه الأجواء الصعبة وبمقدار الوسع والقدرة التي أملكها، إلى التعريف بأرفع آثار دائرة أدب الدفاع المقدس. وأكون بهذا الشكل قد بيّنت وجهة نظري وكذلك وفّرت للمتعطشين الحقيقيين لهذه الآثار شروط الاختيار؛ من أجل أن لا يبتلوا عند انتخابِ أثرٍ للمطالعة بالضياع والحيرة على أثر تجاذبات محسوبيات الآخرين وتحزّباتهم.

«تلة جاويدي وسر أشلو» هو اختياري الأول في هذا المجال. وأنا عازم بحول اللّه وقوته، وبعيدًا عن أي نوع من الحب والبغض، أن أقوم باختيار ونشر آثار من هذا النوع. أسأل اللّه أن يكون هذا الاختيار والنشر محل رضى الباري تعالى، وجوابًا لطلبات الأعزاء المتكرّرة الذين يشملونني دومًا بلطفهم ويطلبون مني أن أعرّفهم إلى آثار جيدة.

سعيد عاكف

1

شجرة النارنج[1]

10 كانون الأول 1977

– أخرجي صورتي من تحت التراب!

قفـزتُ من نومي مضطربة في الصباح. رأيت في المنام سيدًا، أشار لي بإصبعه إلى باحة[2] منزلنا.

– أخرجي صورتي من تحت التراب!

البارحة بعد الظهر وصل مرتضـى حاملًا حقيبته الصغيرة. ألقى التحية وذهب إلى جوار التنّور في زاوية الباحة. أخرج أشياء من داخل الحقيبة ودفنها تحت إحدى البلاطات.

أسرعت مذعورة نحو مرتضى وأيقظته.

– ماما، مرتضى..

فتح عينيه.

– ما الذي حصل يا أمي!

– رأيت منامًا يا بني!

– خيرًا إن شاء الله!

– ما الذي أخفيته يوم أمس في باحة المنزل يا عزيزي؟

جلس متعجّبًا في الفراش.

1 - شجر مثمر من الفصيلة البرتقالية، يسمى بالعامّية «أبو صفير».

2 - بالفارسيــة «حياط» وتعنــي الباحة أو الفناء؛ وهي ساحة صغيــرة داخلية مسوّرة أمام المنــزل (front yard) أو خلفه (backyard) وقد يكون من ضمنها حديقة، موجودة في أغلب البيوت في جمهورية إيران الإسلامية.

– هل حصل أمرٌ ما؟

– سيّد ممشوق كان في منامي يقول، أخرجي صورتي من تحت التراب.. ما القصة يا أماه؟

نهض من دون أن ينبس ببنت شفة وتوجه نحو باحة المنزل. سرتُ خلفه قلقة. مستعيناً بالمعول، نحّى التراب سريعًا في زاوية الباحة وأخرج مغلّفًا بلاستيكيًّا. أخرج من داخله صورة وتأمل فيها. أربكني شغف وجهه وحرارته. قبّل الصورة مرات عدة. شمّها ومسح بها عينيه ووجهه. انتابني الشكّ وقلت: «أماه، هل أصبحت عاشقًا!».

– أجل يا أماه، وأيّ عشق هو!

ارتجف قلبي. رفعتُ حاجبيّ وقد امتقع لون وجهي من سرعة جريان الدم فيه.

– أعدمني الله الحياة، دعني أرى.

أخذت الصورة بسرعة من يده. أصابتني رعدة حين حدّقت في الصورة! أشرتُ إليها مدهوشةً.

– الله أكبر.. هذا هو السيد الذي جاءني في المنام يا ولدي! من هو هذا يا روحي؟

تأبّطني وقال: «يا لعظمتك يا الله! أماه لقد رأيت الإمام الخميني في منامك!».

عندما جلستُ بجوار تنّور خبز الرقاق ذهب ووارى الصور في الحديقة أسفل شجرة النارنج!

مع تتابع الطرقات على الباب الخشبي، سبقني زوجي «مش رضا»[1]

1 - مش رضا، بمعنى رضا المشهدي، ومعلوم أن كل من يزور مشهد الإمام الرضا عليه السلام يلقبه الإيرانيون بالمشهدي، واختصارًا ينادى باسمه مسبوقا بلفظ «مش».

في الوصول إلى باحة المنزل.

- ها قد أتيت.. ما الخبر يا بني؟ لقد خلعتَ الباب من مفاصله!

- افتح وإلا سوف نكسره!

حدقت من نافذة الغرفة الحديدية في باحة المنزل. بالإضافة إلى الجلبة والصياح خلف باب المنزل ارتفع نباح كلب بيت الجيران أيضًا. انقبضتُ. جاء مرتضى مرتديًا السروال، والقميص مرخيًّا فوقه، ووقف بجانبي. قلت: «حبيبي إياك أن تخرج! قلبي مضطرب!».

- لا تقلقي يا أماه!

قال كلمته وصار في الباحة. دعوتُ وسرت في أثره. ما إن فتح مش رضا الباب، حتى دفعه رئيس المخفر ببنيته الضخمة عنوةً بحيث وقع زوجي وسقط على قفاه. اندفع مجندان أو ثلاثة ومعاون المخفر بأسلحتهم إلى باحة المنزل. وضع رئيس المخفر يدًا على خصره العريض ورفع إصبعه مهددًا بالأخرى بصوت جاف ووجه خشن.

- يجب أن تُحرقوا أنتم مع هذا المنزل.

تأتأ مش رضا وقد تملّكه الخوف قائلًا: م.. ما.. ما الذي حصل يا سيادة الرقيب؟

اكفهرّ وجهه المنتفخ الأغبر وحملق بعينيه الحمراوين من غليان الغضب في وجه زوجي الذي لوّحته الشمس. تقدم وأمسك بتلابيب مش رضا وقال: «ها.. هل تعلم ماذا تعني الخيانة لجلالة الشاه المعظم؟».

انعقد لسان مش رضا.

- لـ.. لا.. صـ.. صدّقني!

- أين هو هذا الولد الخائن للوطن..

– استقويتَ على رجل عجوز!

عندما تقدم مرتضى أفلت الرقيب تلابيب زوجي واتجه نحو ابني. كانت عيناه تقدحان شررًا من شدة غيظه. أرجع يده إلى الوراء وصفع وجه ولدي صفعةً قوية، وقال بصوت ممزوج بالغضب:

– يا رعاعة[1] صرتَ ثوريًا؟! ألا ترعوي؟ كل العقاب الذي أذقتُكَ إياه في المخفر كان بلا فائدة! سأرسلك إلى سابع أرض حيث لا يعلم بأمرك أحد[2]. ستعرف قيمتك في سجن عادل آباد في شيراز حيث يسحبون أظفارك واحدًا واحدًا وتعود إلى رشدك[3]!

اغرورقت عيناي بالدموع. صرخت قائلة: «ماذا تريد من ولدي أيها الحقير!».

توجّه نحوي. خزّر[4] عينيه ازدراءً:

– أنعِم بهذا الابن الذي قمتِ بتربيته! المقصّر هو أنتم! لو كنتم صفعتموه على فمه لما كان ليقف الآن في وجه الرجل الأول لهذا البلد، الشاه المعظم والقائد الأعلى للجيش.

عاد نحو البقية. لدى سماعهم اسم الشاه صفّ الجنود والعريف أقدامهم وأدّوا التحية العسكرية. عاد ثانية نحو ولدي.

– توزّع بيانات الخميني وصوره؟ أين هي البيانات؟ أتظن أني لا أعرف؟

1 - رعاعة: جمعها رعاع؛ غوغاء الناس وسفلتهم.

2 - جايى كه عرب نى انداخت؛ مثل شعبي يستخدم عند الغضب للتعبير عن إرسال الشخص إلى مصير مجهول لا عودة منه.

3- يه من ماست چقدر كره داره؛ مثل شعبي يستخدم للدلالة على التهديد والانتقام؛ويرادفه في أمثالنا: بدي مسح فيك الارض.

4- خزّر عينيه: ضيّق جفنيهما.

أشار إلى معاون المخفر ونادى:

– عريف شاطري!

– نعم سيدي.

ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء، وأشار بحاجبين معقودين إلى نقطة من باحة المنزل.

– جد تلك الصورة والبيانات! ولتكن الفضيحة أم جلاجل[1]!

أخذ العريف معه جنديًّا وتوجّها مباشرة نحو رمال أرض الباحة. كانوا مطلعين على كل شيء. وبدأوا يحفرون الباحة بدقة. كلما أكثروا حفرًا وتنقيبًا قلّ أملهم بإيجاد شيء. رفع العريف رأسه. مطّ شفتيه وقال: «سيدي، ليس هناك من شيء!».

لم يكن الرقيب ليصدّق. توجه بنفسه نحو العريف شاطري. وعندما رأى بأم عينه أنّ سهمه قد خاب، ذهب ناحية مرتضى وقال بصوت مرتجف: «أفلتَّ، ولكن كن بانتظاري!».

ثم ذهب ووقف بجوار شجرة النارنج. قطف حبة نارنج من الشجرة وتوعّد مش رضا.

– في النهاية ستسلّم ابنك للقتل!

1- تا سياهى بمونه به ديك؛ مثل شعبي للدلالة على الفضيحة والعار.

2

البرواز المائل

1 شباط 1979

– سيادة الرقيب، الجندي أسدي فرّ البارحة!

استشطـتُ غضبًا، وضعتُ إصبعي على فمي وقلت للعريف شاطري مغتاظًا:

هس، ما الخبر! فرّ مع سلاحه؟

– نعم سيدي، مع بندقية G3!

– قضي علينا، إذا ما علم فوج «فسا»[1]! كيف تجرّأ أن يفرّ بسلاحه؟

– سيدي، كله من تحت رأس مرتضى جاويدي!

– ذاك الذي أرسلناه الأسبوع الفائت إلى فسا!

تقدّم العريف وقال: «يقول الجندي غلامي إنّه في آخر مرة سجنّاه، لم يتوقـف، وعلـى مسمع من الجندي أسدي، عـن الحديث عن الثورة وفتوى الخميني بشأن الفرار من الثكنات والمراكز العسكرية!».

هززت رأسي وقلت: «وما الذي قاله أيضًا مما لم أُخبَر به؟».

قلّـب العريف شاطـري كفيه وقـال مرتابًا: «سيـدي، يعني سيعود الشاه المعظم إلى إيران..».

صحتُ: «أيها العريف، تكرّم الشاه المعظم وغادر البلاد لمدة قصيرة لأجـل تهدئة الأوضاع. فإذا ما عـادت المياه إلى مجاريها سيرجع؛ كما حدث مع مصدّق!».

خاف شاطري وتراجع.

1- فوج الدرك في مدينة «فسا» في محافظة فارس في إيران.

– نعم سيدي، كما تتفضلون!

عضضت على شاربي وتباهيت مختالًا:

اعتقِلـوا أباه كما فعلتم مـن قبل، هو سيدلّنا عليـه. وهذه المرة أنا سأسحقَ عظامه!

– سيـدي، لقـد نسيتم أننـا سلّمنا مرتضـى للفوج. إنـه حسب ما أعرفه، لا يخاف إلا الله فقط!

استشعـرت السخريـة في عمق نظـرة العريف. وضعـت يدي خلف ظهـري وجُبتُ الغرفـة مرات ذهابًـا وإيابًا. توقفـت وتأملت في برواز صورة الشاه المائل. كنت ساخطًا من كل شيء ومن كل أحد. صرخت:

– أيها العريف!

– نعم سيدي!

– سوِّ برواز صورة فخامته! واطلب أن يحضروا لي فطوري أيضًا.

لما غرب العريف عن وجهي، سرت خبط عشواء ووقفتُ خلف نافذة المخفـر أتأمل الخارج. نظـرت إلى نخلات القرية الثـلاث الباسقات المعمـرات فيما كان مطر الشتاء يغسـل عنها آثار الغبار والتراب، وقد عبقت في أنفي رائحة المطر الرطبة. فكرت في مستقبلي وثورة الخميني التي امتدت فجأة في غضون أشهر على كامل أرض الوطن وبلغت قرية جليان. منذ وقت غير بعيد كان العباد والبلاد يخافون المخفر والدرك ويحسبـون لهم الحساب. لكن الآن الكبـير والصغير ينظر إليّ شزرًا. أصبح شغلهم الشاغل الإسلام والخميني والمسجد وشعار الموت للشاه! عـدت من أفكاري وإذا بشاب ملتح أمام باب المخفر يثرثر كلامًا تحت المطر مع حارس باب مدخل المخفرً.

استشطت غضبًا وصرخت:

– هاي أيها العريف!

وصل العريف بسرعة البرق.

– نعم سيدي!

أشرت إلى الشاب والحارس بإصبعي.

– أنا متأكد أنه يخادع الحارس! اذهب وانظر ماذا يقول هذا النذل!

سرعان ما وقع نظري على شعار «الموت للشاه وعاش الخميني» على الجدار الآجري أمام المخفر. استشطتُ غضبًا. أغمضت جفنيّ بشدة.

– أيها العريف! انظر حراس الأمس في أي جحيم كانوا عندما كُتبت الشعارات مجددًا!

– سيدي! يوجد من هذه الشعارات الكثير!

رجعتُ وحدّقت في وجه العريف النحيل وذقنه البارزة:

– مع من أنت يا شاطري؟

– البلد!

كان في جوابه هذا معان ودلالات! كنت قد سمعت أنّ ابن العريف الجامعي قد تم اعتقاله داخل شيراز. لم يكن لدي ثقة بأحد. كنت أرى نفسي وحيدًا في القرية وفي المخفر وفي المنزل. فكرت في كلام زوجتي البارحة: «يا رجل، عن أي شيء تدافع؟ الشاه نفسه قد فرّ، وغدًا يأتي السيد الخميني إلى إيران. والكل يتحدث عن الثورة والخميني، والجيش قد أعلن حياده. جِدّ حلًّا! أهل القرية يبصقون علينا ويلعنوننا..».

كنت أعلّق آمالي على كلام رئيس الوزراء «شاهبور بختيار» وتهديده: لا أسمح للخميني بالدخول إلى إيران، ومطار مهرآباد مغلق! ألقيت نظرة على الساعة. كانت تشير إلى التاسعة وعدة دقائق صباحًا.

توجهت إلى التلفاز الأسود والأبيض ذي الـ 14 إنشًا، المتهالك في زاوية المخفر وشغّلته. كانت مراسم استقبال الخميني تُبثّ مباشرةً. بدت صالة المطار مزدحمة فيما كان البعض يُنشد «خميني أيها الإمام». جلستُ خلف الطاولة منهكًا وخائبًا. قبضت على شعري بيدي، ورحت أفكر بابن مش رضا ـ مرتضى جاويدي. كلما كنت أكثر من ضربه داخل المخفر كان يزداد دفاعًا عن الخميني والثورة. لقد زلزلت مقاومته وإصراره أسس دعمي للشاه. فكرت في المستقبل وأسرتي التي قد تتعرض للخطر مع سقوط النظام.

– سيدي، الفطور!

كان الجندي نادري؛ وضع صينية الزبدة والمربى والشاي على الطاولة بعد أن أدى التحية العسكرية بهدوء. تأملت في وجهه. لاحت لي الثورة في عينيه أيضًا. قلت: «أنت لماذا لا تهرب؟».

سألني مبهوتًا: «ماذا قلتم سيدي!».

– لا شيء.. اذهب!

3

الرقيب

10 شباط 1979

– جيلا..جيلا.. جيلا

الساعة العاشرة صباحًا، في جوّ الشتاء الغائم، وصلتُ خبط عشواء إلى داخل باحة المنزل، مناديًا زوجتي بنفس واحد وبنحو متلاحق. خرجت جيلا من الغرفة مذعورة.

– مـ.. ما الخبر برويز!

وضعتُ يديّ على ركبتيّ وأخذت نفسًا عميقًا.

– أسرعي أنت والأولاد واركبوا سيارة الجيب! الأوضاع متدهورة.

قالت جيلا مشوّشة: «لم أجمع الأمتعة بعد!».

– دعي الأمتعة. لقد سقطت البلاد! الآن ينقضّ الرعاع وعندها سيقطّعوننا إربًا إربًا!

قالت جيلا مذعورة: «يا الله! رحمتك!».

زاغت عينا جيلا وهي تتلفّت حولها. نهرتُها زاجرًا دورانها حول نفسها وقد اختفى اللون من وجهها.

– لقد حاصروا المخفر. استطعت الفرار بشقّ الأنفس، هيا أسرعي يا امرأة! لقد هلكنا!

دخلت جيلا إلى الغرفة وأمسكت بيد «منيجة» ابنتي ذات الأربع سنوات و«هرمز» ولدي ابن السبع سنوات وخرجت. قلت: «أسرعوا، السيارة في الخارج!».

طبقات الشحم والدهن حول بطني وصدري من جهة، والخوف

والاضطـراب مـن جهة أخـرى كانا يعيقـان حركتـي. بصعوبة ونفس منقطـع أركبتُ زوجتي وطفليّ سيارة المخفـر. بظنّي كان صوت نفسي واصـلاً إلى المخفـر! قالت جيلا: «أمـا كان لك أن تحضـر معك عدة جنود على الأقل!».

بابتسامـة صفراء ولهـاث مضنٍ قلـت: «أنائمةٌ أنـت.. لم يبق من الخمسة عشر جنديًا غير ثلاثة، ولا ريب أن هؤلاء قد استسلموا الآن!».

– أين العريف إذًا؟

– ذلك الجبان، لم يكن الرعاع قد وصلوا بعد حين لاذ بالفرار!

فيما كانت شفتاها ترتجفـان، غطّت جيلا شعرها بوشاح برتقالي وكحلي، وسألت: «ماذا نفعل الآن يا برويز؟ إنني خائفة. علينا أن نعبر من وسط القرية! وإلّا وقعنا في البلاء..».

– لا أعلم. ما لم يشملنا الله برحمته..

أخرجت سلاحي الشخصي من غطائه الجلدي ورفعته عاليًا.

– سوف أردعهم بهذا!

– برويز، وماذا عن أمتعتنا؟

– الآن يجب أن ننجو بأنفسنا!

وقع نظري على ابنتـي منيجة التي كانت قد التصقت بحضن أمها خوفًـا. أعدت السلاح إلى غمده الجلدي علـى وسطي. وأدرت محرك السيـارة. كان صـوت دعاء جيـلا ومناجاتهـا ونذرهـا متواصلًا: «يا فاطمة الزهراء.. لقد أخطأنا يا إلهي.. نذرًا عليّ خمسون تومانًا للولي شاه تِشراغ[1].. ولداي..».

أدرتُ محـرك السيارة وانطلقت نحو ساحـة القرية. أثناء الطريق

1- لقـب يطلقه أهل شيراز على السيد أحمد ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، المدفون في شيراز وله ضريح ومزار مهم فيها.

ألقيتُ نظرة على بستان البرتقال والرمان الكبير الممتد؛ سوف يذهب أدراج الرياح. فجأة قالت جيلا: «برويز، إلى أين نذهب بدون أمتعتنا؟».

– علينا الوصول كيفما كان إلى فوج فسا. ومن هناك نذهب إلى مدينتنا!

تجاوزنا نصف الأزقة والبيوت الطينية لجليان من دون خطر ولم نصادف أحدًا من الناس. استبشرت وقلت: «لقد احتشدوا صغيرهم وكبيرهم حول المخفر!».

وما إن اقتربنا من الساحة، حتى انصبّ أهالي القرية، فجأةً، كالجراد المنتشر يحملون العصي والهراوات وقطعوا الطريق على السيارة. دستُ على الفرامل. وأنشأتْ جيلا تقول بتتابع: بـ.. برويز.. لا تتوقّف.. تـ.. تحرّك..

التفتّ إلى الخلف لأرجع بالسيارة، ولكن الجموع قطعت طريق العودة أيضًا وبتّ محاصرًا. كان الشباب والشيوخ يرفعون قبضاتهم المحكمة ويردّدون شعار: الموت للشاه!

وكأنني كنت أنا الشاه! وكانوا يريدون أخذ ثارهم مني. جمدتْ قطرات العرق البارد على وجهي. بلعت ريقي. كنت أسمع دقات قلبي. أصيب زجاج الجيب الأمامي بحجر.

– أيها الجبان، ترجّل من السيارة..

باضطراب وتردّد وضعت يدي على مسدسي. أخرجته من غمده وفتحت باب السيارة. لم يتوقف صوت بكاء منيجة الخافت ورنين جيلا الضعيف في أذني.

– لا يا برويز.. لا تنزل.. سوف يقتلونك!

ترجّلت مـن السيارة خائفًا، للحظة مرّ أمامـي ظلمي وجوري على الناس. تراءى أمام ناظريّ العنف والابتـزاز والرشى المالية والعينية طـوال سنوات خدمتي في الدرك والمخفـر. لم يكن كبريائي وافتخاري قـد انهار بعـد، وكنـت أرى نفسـي مختلفًا عـن أهل القريـة. صوّبت مسدسي نحوهم وقلـت مهدّدًا: تنحّوا جانبًا.. سـوف أرديكم جميعًا، تغلقون الطريق على موظف الحكومة! أتعلمون في وجه من تقفون؟

هتـف شاب مـن بين الأهالي: «ها هو الذي أمعـن في ظلم النـاس.. لقد انتهى عهدك يا حضرة الرقيب. تشهّد على روحك!».

أغاروا عليّ مغضَبين. كان افتراقهم عما كانوا عليه قبل عدة شهور كافتراق الأرض عن السماء. رفعت المسدس نحو الأعلى.

– كل من يقترب، فقد أباح دمه..

لم يخافـوا واستمـروا بالتقـدم. خاتلتهم[1]: «لقد اتصلـت لاسلكيًّا بفوج فسا. الآن ستأتي كتيبة عسكرية إلى هنا!».

– يا حضرة الرقيب، لقد حان أجلك!

أطلقـتُ رصاصـة في الهـواء. أصابنـي حجـر في رجلـي وآخر في خاصرتـي. اجتاحنـي الألم. شاهدت مجموعة تحمل بنـادق يدوية[2]. ترجّلت زوجتي من السيارة وتوسلت: «بالله عليكم دعونا وشأننا!».

– لا شأن لنا بكم يا أختي!

– إذًا دعونا نذهب!

عندما اطمأننت أنهم لن يتعرضـوا بالحدّ الأدنى لزوجتي وولديّ، ولأول مـرة في حياتي، وجدت أنني أتجاوز نفسـي اضطرارًا. خنقتني

1- خدعتهم مراوغًا.

2- بنادق قديمة يتم تلقيمها عند كل طلقة.

الغصة. تقدم شاب يحمل عصا.

- أيها الخائن، يجب أن أقتلك كالكلب ها هنا!

وما إن رفع عصاه حتى أغمضتُ عينيّ.

- يا هذا ما الذي تفعله..

- دعني.. هذا الجبان هو نفسه الذي عذّبك مرارًا وتكرارًا.. وأهان مش رضا في المخفر..

بعث فيّ الصوت قوة. بقلق وارتياب فتحت جفوني. كان مرتضى جاويدي ابن مش رضا بقامته المتوسطة وقدّه النحيف ولحيته التي نبتت حديثًا على ذقنه. كان قد أمسك بيد الشاب حامل العصا ورفعها عاليًا. قرّع الشاب:

ثورتنا هي لأجل أمن الناس وراحتهم، وليست للتخويف والإرهاب!

- أمن الناس! وليس هذا الظالم..

جاء لدعم مرتضى جاويدي صديقُه المقرّب ومعلمُ قرية جليان؛ داراب عليزاده:

- كلام السيد مرتضى هو كلام الإمام الخميني!

لدى سماع اسم «الخميني» ارتفعت أصوات الجميع بالصلوات ثلاثًا، واستحالت الصلوات ماءً باردًا أطفأ نار غضب الأهالي. أنزل الشاب عصاه. قلت في نفسي: «على الأقل لن يُردوني قتيلًا.. لا بد أنهم سيسجنونني و..».

نظرتُ إلى جيلا والطفلين، كانوا يرتجفون كورق الصفصاف! توجه مرتضى نحو زوجتي قائلًا: «أختاه، اركبي إلى جانب طفليك في المقعد الخلفي للسيارة!».

عندمـا ركبتْ جيلا السيارة من الخلف تقدم ابن مش رضا وانتزع مسدسـي من يدي وقال: «هلـمّ إلى داخل السيارة!». ثم أردف بصوت عال: «اجلس خلف المقود، أعلم كيف أسقيك من الكأس نفسه[1]».

مـا إن جلسـتُ خلف المقود جـاء وجلس بجانبي. قلـت في نفسي: «لا يكوننّ بلاءً أسوأ سينزله على رأسي.. أي مصيبة هذه التي وقعتُ فيها»..

أحاطت الجموع المذهولة بالسيارة.

- إلى أين تذهب بالخائن.. يجب أن نسلّمه!

قال مرتضى: «أعرف ماذا أفعل به. تحركوا نحو المسجد!».

تدريجيًّـا، تفـرّق الجمـع وظلّـت أعين البعضـ تراقبنـي. قرّعني مرتضى جاويدي: «أدِرِ المحرك يا رقيب!».

على أثر الصدمة، أدرت مفتاح التشغيل بالعكس وعلا صوت صرير مزعـج. حرّكت ناقل السرعة وقدت السيارة باتجاه الشارع المعبّد فيما كانـت عيناي تراقبان السلاح في يد ابن مشـ رضا وتزدحم في رأسي الأفـكار السلبية بأنه لن يدعني، يريد أن يعدمنا جميعًا.. بعد كل تلك المصائـب التي جلبتها عليه.. ليتني بقيت في القرية وأسرني الأهالي.. ما الذي يريد إنزاله بنا.. ليتني توسلت إليه..

سألتْ جيلا: «إلى أين تأخذنا أيها السيد؟».

التفت مرتضى إلي وقال: «إلى أين كنت تنوي الذهاب؟».

تقمّصت حال الثكلى وقلت متلعثمًا: «ف.. فسا!».

دخلـت في الشـارع المعبّد. كانـت السحب مكفهرة وعلـى وشك أن تمطر. وصلت إلى ضريح ابن الإمام «السيد شمس الدين»[2].

1- أعرف كيف أجعلك تدفع ثمن فعالك!

2- امـام زاده سيـد شمس الدين: سيد جليـل القدر عظيم المنزلة؛ يرجـع في نسبه إلى

- دس على الفرامل ها هنا!

انهدم حيلي. دست على الفرامل. ترجّل. دار بهدوء حول السيارة ولما وصل إلى جانبي وضع يده على كتفي اليسار. حين نظرت إليه باستعطاف شاهدت بريقًا خاصًا في عينيه الشفافتين.

أشار لي إلى المسدس.

- هذه أمانة تبقى في عهدتنا حتى يتّضح الأمر بشأنك.

نظر إلي مرة أخرى. بدأ المطر يتساقط. وعبقت رائحة التراب الرطب. استقام ثم أدنى رأسه وقال: «أوصل زوجتك وولديك إلى مكان آمن يا رقيب!».

بعينين متسعتين استوضحت: «يعني أذهب؟».

- هل لديك شك؟

لم أتريّث. نجوت بنفسي وضغطت على دواسة الوقود إلى الحد الأقصى. حين ابتعدتُ نظرتُ في المرآة الأمامية إلى الخلف، كان ابن مش رضا على الشارع يمشي باتجاه ضريح السيد شمس الدين.

بعد أن زال الروع عني أخذت نفسًا عميقًا وركنت السيارة بجانب مقبرة قرية «كبك آباد»، ورحتُ أتأمل في حبيبات الثلج المتراقصة وقطرات المطر الكبيرة التي كانت تتساقط على زجاج السيارة الأمامي. سألتْ جيلا: «لماذا توقفت يا برويز؟».

ألقيت نظرة على مقبرة القرية، وارتسمت ابتسامة مريرة على شفتي:

- كنت على وشك أن أصير في حفرة القبر!

- أطال الله في عمر ذلك الشاب! كان ملاك الرحمة!

الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

عدت بنظري إلى مجسّم أسد حجري قديم وسط المقبرة. اغرورقت عيناي بالدموع وبعد سنوات طويلة من جفاف الدمع، أجهشت بالبكاء:

– جيلا، لقد أسأتُ إلى ذلك الشاب..

وضعتُ رأسي على مقود السيارة. سألت جيلا: «ومن كان ذلك الشاب؟».

– مرتضى جاويدي. ابن مش رضا!

رفعت رأسي من على المقود:

– ضربتُه مرات في المخفر حتى شارف على الموت. سلّمتُه إلى سجن فسا. قمتُ بإهانة والده..

– برويز.. لماذا لم ينتقم منك؟

– ماذا أقول؟ مبهوتٌ أنا من تصرّفه اليوم!

– ماذا كان جرمه؟

– كان ينشر صور الخميني وبياناته!

فكرتُ وتابعت: «فجأة انهار كل شيء؟ الشاه والجيش، كل شيء تبخّر وطار في الهواء!».

استدرت إلى الخلف وحضنت منيجة وهرمز وقبّلتهما. نظرت إلى جيلا وقلت: «في المرة الأخيرة ظللت أضربه في المخفر حتى ازرقّ تمام بدنه! قلت له: متى ستكفّ عن أعمالك التخريبية؟ قل «اللّه، الشاه، الوطن!»، ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة باردة وقال: اللّه والوطن لا ضير! لكن ضع خطًّا أحمر على الشاه!».

بلعتُ ريقي وتأمّلت في عيني جيلا وقلت: «حين قال كلامه هذا انقضضنا عليه واستمررنا بضربه ما دام فيه رمق».

4

عمر نوح

31 آب 1980

كنت جالسة في باحة المنزل بعد ظهر يوم الجمعة، أضرب العجين في الطست وأفكر في مرتضى: رؤيا الإمام الخميني في المنام.. صورته.. وكأنه البارحة هاجمَ عناصرُ الدرك منزلَنا.. إلهي! لم أرَ ولدي منذ انضمامه إلى الحرس. أين هو الآن.. وماذا يفعل؟ لقد ذاب قلبي عليه..

- السلام عليك يا أماه!

جفِلت! قمتُ مدهوشة من مقعدي قرب الطست وحدّقت في مرتضى. كان واقفًا فوق رأسي حاملًا حقيبة ظهره. بدا أكثر نحافة وقد ألقى على بدنه قميصًا كاكيًا تركه من دون عناية فوق سرواله. وكأنني قد مُلِّكتُ الدنيا. قلت: «فدتك أمك!».

ضحك. تقدم وقال: «لا قدّر الله!».

ثم تنشّق.

- يااا.. أي رائحة خبز زكية هذه يا أمي!

- أيها المحتال، لم أخبز العجين بعد!

- أعلم، ولكن إذا ما خبزته فسيكون لا أطيبَ منه!

تقدّمت متحمّسة نحوه، وكأنّما لم أره منذ سنين رحت أتحسّسه بيدي وأقبّله من رأسه حتى أخمص قدميه وقلت: «ليتني سألت الله لك عمر نوح يا روح أمك!».

مسح وجهه ولحيته الملطّختين بالعجين. قبّل جبيني وقال: «رأيت منامًا من جديد؟».

- لا يا قلبي! كنت للتو أفكر فيك.

ركع على ركبتيه وفتح حقيبة ظهره الكحلية وأخرج منها زيّ الحرس الأخضـر. فتحه على وُسعه. كان كبيرًا وفضفاضًا. قلت: «حبيبي! هذا اللباس يتسع لاثنين معًا!».

ابتسم ومسح بيده على لحيته السوداء وقال: أصلحيه!

أخـذت بيده وسقته إلى داخل المنزل. لقد دوّى خبر مجيئه كالمدفع في جليـان! جاؤوا صغارًا وكبـارًا لأجل رؤيته. أدركت في الحال أنه كان قد ذهـب مدة إلى كردستان لقتـال أعداء الثورة. أخـبر الشباب عن المذابح التي ارتكبها أعداء الثورة بحق الشعب.

وحينمـا تفرقـت الحشود من حولـه، حملقتْ فيه عمّتـه وقد أدنت خرطوم النرجيلة إلى شفتيهـا. تبسم مرتضى وقال: «عمتي، ألم تري إنسانًا من قبل؟».

سحبتْ أخت زوجي، التي تجاوزت الستين من العمر وقد ذاقت حلو الحيـاة ومرّهـا، نفسًا من النرجيلة حتى علا صـوت بقبقة الماء فيها. أفلتت الخرطوم من فمها وقالت:« بلى، رأيت!». ثم هزّت برأسها.

- ولكن.. متى سيصبح رجلًا؟

أجاب زوجي مش رضا: «ما هذا الكلام يا أختي! لو وُجد رجل واحد في هذه المعمورة لكان مرتضى!».

هزّت رأسها متذمرة وقالت: «لا.. لا.. ما دام لم يتّخذ لنفسه زوجة فإيمانه ورجولته لم يكتملا يا أخي!».

عادت وقالت لولدي: «أنا نفسي سأدبر الأمر لك».

قال مرتضى ممازحًا: «ومن سيزوّجني ابنته يا عمة؟!».

عـادت العمة وكأنها قد حبكت مخططًا في رأسها من قبل وتوجهت

بنظرها نحو أختي.

– ومن أفضل من ابنة خالتك، آمنة! أليس كذلك يا شهربانو؟

تراجعتُ إلى الوراء ونظرت إلى أختي وقلت: «واللّه لا أدري ماذا أقول!».

عادت العمة وقالت لأختي: «ما رأيك؟».

أرجعت أختي رأسها وتأملت في عيني مرتضى، لعلّها تقرأ فيهما شيئًا ما. لكنّ ولدي طأطأ رأسه.

قالت أختي بفرح وسرور: «كل فتاة تتمنى زوجًا مثل مرتضى!».

هذه المرة، حينما تمعّنتُ في عيني مرتضى بنظرة الأم وشاهدتُ فيهما بريق الرضى، وضعتُ يدي على فمي وأطلقتُ زغرودة.

5

كوني مستعدة!

1 أيلول 1980

عند المغرب، كان طقس قرية جليان يميل نحو البرودة. أشعلت أمي سراج الكاز[1] ووضعته في الغرفة إلى جانبي. كان الفرحِ باديًا بوضوح على محياها. احتملتُ أنها كانت مرتبكة وتخفي عني شيئًا ما. وفي نهاية المطاف استجمعتْ شجاعتها وتقدّمت مني. أمسكتني بكتفيّ وأخفت ابتسامة على شفتيها وقالت بسرعة: آمنة، لقد طلبوا يدك لمرتضى!

انهدم حيلي وقلت بلا إرادة: مـ... مرتضى!

احترّ بدني وازداد خفقان قلبي. لقد انتابتني حالٌ لم أكن قد اختبرتها من قبل، أنا ابنة الخمسة عشر عامًا، الزواج؟! عمري خمس عشرة سنة.. زواج.. بيت.. أطفال.. مرتضى.. بيت..

كانت المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي أن أفكّر بشاب غير محرم. وبسرعة الضوء شغل الزواج وأحلام المستقبل بالي. عندما خلوت بنفسي تراءت أمام ناظريّ حادثة كانت قد حصلت قبل سنوات..

- آمنة!

قمت من مقعدي في الصف. سارعت السيدة اشرافي، معلمة الصف الابتدائي الخامس، مقطّبة حاجبيها المرسومين بنحو رفيع وعينيها المكحلتين، وقالت بحدّة: مجددًا وضعت الحجاب على رأسك؟ ألم أقل لا ينبغي أن تغطين رؤوسكن!

شعرت برعشة تسري في بدني.

- لـ لـ لكن.. يا آ.. آنسة!

1-كان مشهورًا في تراثنا باسم (سراج أبو فتيلة) أو قنديل نمرة 3.

مرّرتْ يدها على شعرها الأسود المجعد والقصير ورفعت صوتها.

- لكن «السمّ الهاري»[1]!

وفيما اقتربت مني رجّ صوت طقطقة حذائها طبلة أذني! وكما في كل مرة تغضب فيها أخذت تحرّك وتدير خاتمها الذهبي المرصع في إصبعها وأشارت إلى عريفة الصف صائحة: «كشاورز»، اذهبي ونادي السيدة المديرة!

خطت بتنورتها الضيقة بحذر واضعة يدها على خصرها، وقالت: بحسب أوامر «التربية والتعليم» لا يحق لأحد أن يضع غطاء الرأس أو يرتدي العباءة (الشادور) داخل حرم المدرسة.. تمامًا مثلي أنا، انظرن.. التمدن والعلم والحرية يعني هذا! أنتنّ الآن لا تدركن معنى خلع الحجاب.. جناب حضرة فرح.. ملكة إيران تريد صلاحنا.

- وقوف!

دخلت السيدة فروغي، مديرة مدرستنا المتمدّنة[2]، إلى الصف سافرةً ترتدي جاكيتًا وتنورة كحليتي اللون تشبهان الزيّ الرجالي. أدارت قضيب الرمان في يدها وهزت رأسها بعصبية، وقالت: ما الذي يجري هنا؟ للمدرسة نظامها، والويل لمن لا يراعي هذا النظام.. من المخالف؟

كنت أعلم أنها عرفت «البير وغطاه»[3] من العريفة أثناء مسيرها إلى الصف. أشارت المعلمة إليّ.

1- بالفارسية «زهرمار»؛ ومعناها الحرفي سم الحية، وتقال للتوبيخ والإسكات بصيغة اللعن. ويقابلها في العربية المحكية «السمّ الهاري»، والهاري من هرى بمعنى أبلى وأهلك.

2- ابنة المدينة.

3- بمعنى أنها عرفت كل تفاصيل ما جرى.

- جناب المديرة، آمنة.. أتت مجددًا إلى المدرسة بالحجاب.

لم تدع المديرةُ المعلمة تنهي كلامها واتجهت نحوي مباشرة. بنحو لا إرادي أخذت شفتاي ترتجفان. كنت أسمع صوت خفقات قلبي! وصلت أمامي وحملقت في بعينيها السوداوين الواسعتين وقالت بلهجة شديدة وحاسمة: سوف تخلعين حجابك الآن حالاً!

كنت أظن أن روحي ستغادر جسدي في تلك اللحظة، وإذ بقوة داخلية تنبعث منّي وتمدّني بالعون. ازدادت شجاعتي ومقاومتي وتزايدت. وكلما زاد تهديد المديرة كانت مقاومتي تزداد.

- أيتها العنيدة المتعنتة، اخلعي حجابك!

- لا أريد.. اللّه قال..

- ستُطردين من المدرسة.

- القرآن قال..

حميت حجابي بيدي. امتقع لون وجهها الأبيض واستشاطت عيناها غضبًا وأنزلت الضربة الأولى من قضيب الرمان على يدي.

- ارفعي يدك!

- لن أرفعها!

سرى الوجع من داخل يديّ إلى دماغي. كانت السيدة فروغي تنهال عليّ ضربًا ودموعي تصب مدرارًا فيما أحكمتُ إمساك حجابي! كانت عيون التلميذات مسمّرة عليّ. زعقت السيدة فروغي بصوت كان يرتجف من شدة حنقها: حسنًا.. من الغد إذا أردت أن تأتي محجّبة فلا تأتِ من الأصل! أنتِ مطرودة..

انتشر خبر مقاومتي في قرية جليان كالنار في الهشيم.

في صبــاح اليوم التالي، دخلتُ الصــف متأخّرة وأنا خائفة أترقب. لكن ويا للعجب؛ استقبلتني المعلمة ببشاشة! أثناء الفسحة أوضحت لي زميلاتــي وحارسة[1] المدرسة الخالــة «دولت» بكل سرور: «لقد جاء ابن خالتك مرتضــى إلى مكتب المدرسة بعدمــا دقّ الجرس الأول وأحدث ضجة كبيرة»..

لقــد رمتنــي والدتي بجملتها تلــك في بحر الحيــاة المتلاطم؛ إلهي كيــف أمنع قلبي عــن الوساوس المادية والنفسانيــة لأتمكن بهدوء بال من الســير قُدُمًا في تحقيق إرادتكَ؟ وفيمــا كان هذا السؤال يمر على خاطــري كأنما ألقــى الله جوابه في كل كيــاني: آمنــة، لا تطلبي شيئًا لنفســك، لا تسعــي للحصــول على شــيء وتجنبي الانفعــال والحسد، مستقبــل النــاس ومصيرك أنت أيضًا يجــب أن يكونا محجوبين عنكِ. عيشــي على نحو تكونين فيه مستعــدة لأي شيء.. كررتها مرات: كُونِي مستعدة.. مستعدة..

كانــت والدتي قــد خرجت من الغرفــة فيما كانــت عيناي تحدقان بالسراج. كانت فراشتا شجــرة النارنج الخضراء والصفراء تحومان حــول الســراج. منذ تلك اللحظــة وما تلاها، كلما فكــرت في مرتضى استحال شكّي وتردّدي شغفًا وحبًّا.

1 -حارسة المدرسة: من يحرس بابها ويراقب الداخل والخارج محافظًا على أمنها.

6

القلق الحلو

24 نيسان 1981

- الليلة يأتي مرتضى لخطبتك.. بماذا تشعرين؟

في ليلة ربيعية داخل الباحة الترابية كانت أختي الكبرى تروح وتجيء وتستفزني ممازحة.

- هيا اذهبي وضعي الحناء!

- لا تقولي فول حتى يصير في المكيول![1]

- كنتُ قلقة، ولطالما فكرت في مرتضى خلال هذه الشهور التي مضت، وحلّلت شخصيته في ذهني: هل سأكون محظوظة؟ أي صنف من الرجال هو مرتضى؟ مثل أبي أو أخي أو..هل هو رجل يكد وراء العيش الرغيد. سوف يسعدني! مرتضى شهم غيور. قبل سنوات جاء إلى المدرسة ووقف أمام المديرة والمعلمة معترضًا على طلبهما من ابنة خالته أن تخلع حجابها.. مرتضى رجل حرب. لا يعرف الخوف. ماذا لو أصابه مكروه؟ سيكون عُمرًا من الوحدة! التوكل على الله! كل الرجال يذهبون إلى ميادين القتال.

- يا ابنتي ادخلي إلى المنزل، إنهم قادمون.. أعدي الشاي..

كان صوت أمي. جاء مرتضى مرتديًا قميصًا أنيقًا أزرق قد تدلّى فوق سروال كاكي برفقة الخالة وزوجها وعدة أشخاص آخرين.

- يا الله .. يا الله..

لم أكن حتى ذلك اليوم قد رأيت كل هذا العدد من مصابيح الكاز

1-مثل شعبي يعني ألّا تعتمد على أمر لم تتأكد من حصوله بعد، أو لا تقل سأفعل كذا وكذا حتى تتأكد من قدرتك على القيام بهذا الفعل.

مضـاءة في مكان واحد! كانوا قد تحلّقوا بجـوار بعضهم البعض تحت نـور المصابيح ودفئها يتبادلـون أطراف الأحاديث الطيبـة، وكنت أنا أروح وأجيء وأقدّم الضيافة.

مع النسائـم العليلة، كانت فراشات الليل بغيـة الوصول إلى النور والـدفء تحوم حول المصابيح وترتطـم بزجاجاتها فتحرق أجنحتها. وكنـت بـين الحـين والآخـر أتجـرأ أن أختلس نظـرة إلى ابـن خالتي بقميصـه الأزرق الفاتح وقـد رسم بسمة على شفتيـه وتسمّرت عيناه على السجـادة اليدوية العجمية تحت قدميه! لم أكن لأتصور مرتضى مـن دون ابتسامةٍ على محياه. كانوا يتجاذبون شتى أنواع الأحاديث إلا موضوع خطبتي!

- لعنة اللّه على صدام.. بإذن اللّه سينتصر المجاهدون.
- لقد أضحى المنافقون الجاحدون الطابور الخامس للعدو!
- لم يتم الإعلان عن كوبونات[1] السكر!
- لقد شيّعت فسا البارحة ثلاثة شهداء!
- مع هذه الحرب ما الذي سيحل في النهاية؟
- كمـا قال الإمام الخميني، لقد جـاء مجنون اسمه صدام وعرقل الأمور. هؤلاء الشباب والناس أنفسهم سوف يذيقونه جزاء عمله!

في نهاية الأمر تدخلت العمة وقاطعت الأحاديث الدائرة لتدخل إلى صلب الموضوع.

- صلّوا على محمد وآل محمد.. تفضل ابدأ يا مش رضا!
- المهر أولًا..
- هؤلاء ليسوا غرباء..

1- كوبونات: مفردها كوبون؛ قسيمة تموينية: جذاذة صغيرة توزعها الحكومة في الأغلب بين الناس ليتمكنوا من شراء بعض حاجياتهم الضرورية بسعر أقل من سعر السوق.

وبسرعة تمّ الاتفاق على كل التفاصيل بسلاسة وحميمية.

- نسخة من القرآن الكريم.. وكذلك 120 ألف تومان مهرًا..

- صلوا على محمد وآل محمد..

وأنا التي ارتديت عباءة (شادورًا) جديدة زهرية اللون منقوشة بالورود، كنت أنصت فقط فيما رحت ألاعب أصابعي. وحين اختُتِم الكلام قام مرتضى فجأة بين الحاضرين.

- أرجو المعذرة، من دون تجرؤ.

ساد الصمت وتسمّرت العيون عليه. كان مرتضى يقف بنحو جعل نور المصابيح تضيء نصفًا من وجهه أكثر من النصف الآخر. تابع كلامه: من بعد إذن الأفاضل! يجب أن ألفت النظر إلى مسألة الآن. الجميع يعرف أن من يعمل في الحرس يمضي أكثر وقته في جبهات الحرب وقليلًا ما يحضر في المدينة والبيت. عندي رجاء!..

سكت. أخذ نفسًا ثم قال: أتمنى على ابنة خالتي وخالتي وزوج خالتي أن يراجعوا أفكارهم حتى لا يندموا فيما بعد لا سمح الله. دعوا المجاملات جانبًا!

لقد استدعت كلمات مرتضى تفكير العائلتين للحظة. ثم كسرت والدتي جليد الصمت.

- أنا أعرف ابنتي. وأدرك ضمنًا جميع هذه الظروف. أنت تذهب إلى الجبهة دفاعًا عن الإسلام ولأجل رفاهنا. أنا راضية بهذا الارتباط! وفيما عدا ذلك فلنسلّم الأمر لله!

دعا والدي الجميع للصلاة على محمد وآله وتقرّر موعد الشراء[1] للغد. في الليل، مهما سعيت أن أنام، لم أتمكن!

1- شراء جهاز العروس والعريس.

7

مثل المرآة

31 آب 1981

– آمنة يا ابنتي، استيقظي فقد حان وقت الصلاة..

قمت عند أذان الصبح على صوت والدتي. بعد الصلاة لم يأتني نوم. كنت أنتظر أن يدق باب المنزل ويأتي ابن خالتي. كنت أتأمل باستمرار «المحبس الذهبي» في يدي. كان مرتضى قبل أيام قد اشتراه لي بالإضافة إلى طقم ثياب جديد بقيمة 800 تومان.

عند الثامنة صباحًا طُرق باب المنزل ودخل مرتضى وعائلته. ركبنا معًا سيارة جارنا من نوع بايكان[1] وانطلقنا نحو «فسا» لأجل عقد القران.

عند الساعة العاشرة تمّ إجراء عقد الزواج من قبل السيد شريعتي في مراسم بسيطة من دون تكلّف أو إسراف.

وضعت النسوة أيديهنّ على أفواههنّ وعلت الزغاريد. تقدم مرتضى ووضع في فمي قطعة حلوى وقال: بالصحة والهناء ابنة خالتي!

وكأن مرتضى قد قرأ لي هذا الشعر ألف مرة حتى حفظته عن ظهر قلب! كنت سعيدة وأشعر بالفخر لأنني تزوجت من ابن خالتي. قالت أمي: بماذا تشعرين يا آمنة؟

ألقيت نظرة على وجه زوجي المبتسم ويديه المخضبتين بالحناء وقلت: أنتِ خير من يعلم يا أماه أن لا شيء عند المرأة أفضل من تقوى زوجها وحيائه!

قالت أمي: أسعدك اللّه!

1- Paykan سيارة إيرانية الصنع.

– ماما!

– يا روح أمك!

حدّقتُ في عيني مرتضى وعدت لأتأمّل في والدتي وقلت بحيرةٍ وتردّد: هل سيعيش مرتضى حتى يكبر ويشيخ!

قبلتني أمي في وجهي ووضعتُ رأسي في حضنها، وقالت: سوف تكبران معًا يا ابنتي!

لقد بثت نبضات قلب أمي السكينة في نفسي.

عند الظهر وأثناء مسير العودة إلى «جليان» اشتدّ بي الجوع فقلت ممازحة: يا بن خالتي ليتنا كنا ذاهبين إلى بائع كباب!

– لقد أعِدوا الغداء في المنزل وينتظروننا! وحتى يمضي الوقت بسرعة سوف أُشغلك بالكلام!

وعلى امتداد الطريق حدثني مرتضى عن الإمام والثورة والجبهة! لقد كنتُ مأخوذة بكلامه إلى درجة أنني لم أنتبه متى وصلنا إلى القرية.

عصرًا مدّت الخالة سُفرة متواضعة، وجاء أفراد العائلتين، وأقيم احتفال صغير. ورغم بساطة المراسم كانت لحظات مفعمة بالسعادة.

أمضينا يومين في أجواء الخطوبة. كنت أتمنى أن يتوقّف الزمن وأبقى للأبد إلى جوار مرتضى. صبيحة اليوم الثالث جاء ابن خالتي إلى منزلنا. أحضرت الشاي ووضعته أمامه.

– شكرًا لك يا بنت خالتي!

كنت أشعر في تلك الدقائق العذبة أنني أسعد امرأة في أرجاء المعمورة. لقد وجدت في هذه الأيام القليلة أملًا وسندًا قويًا. حملت صينية الشاي وأدْنيتُها منه.

- اشرب الشاي، سيبرد!

- يجب أن أذهب إلى الجبهة!

عرقت أطرافي الأربعة، شعرت بنوبة برد أعقبها حرّ! بدأت الصينية تهتز في يديّ واندلق كوب الشاي الحار على مرتضى.

- ليت الله أعدمني الحياة!

- لا قدّر الله يا بنت خالتي!

خلع قميصه الكاكي ذا الجيبين.

- ما الذي حصل حتى ذُعرتِ يا بنت خالتي!

نظرت إلى القماشة الرقيقة الخضراء على ذراعه. أشار هو إليها.

تذكار من والدتي، لقد علقته بشالي منذ أيام الطفولة.

قلت: آغا[1] مرتضى، لماذا بهذه السرعة! لقد عقدنا قراننا للتو!

سكتُّ. وقع في قلبي شيء من الخوف والاضطراب. أمسك بذقني ورفع وجهي وتأمّل في عينيّ. هدّأتني حرارة يده ونظرة عينيه المشعتين. ابتسم وقال متمنّيًا: أنا أيضًا أرغب في البقاء يا بنت خالتي. لكن الجبهة الآن في حاجة ماسة إليّ!

تسمّرت عيناي عليه. لقد انعكس هدوء عينيه في داخلي كانعكاس الصورة في المرآة، واستسلمت!

1- آقا بمعنى السيد؛ لقب يعتمد للنداء؛ عادة يدل على الاحترام.

8

آخر الأغنية

26 أيلول 1981

– آمنة يا ابنتي، المذياع.. هناك هجوم..

الساعة العاشرة صباحًا ولدى سماعي صوت أمي تركت من يدي حلب الماعز، وخرجت من الزريبة راكضة نحو باحة المنزل وقلت: ماذا هناك يا أماه؟

– ألا تسمعين صوت المذياع.. هناك هجوم..

لفح نسيمُ الخريف وجهي ورأسي المتعرّق وارتجف بدني. طرق سمعي صوت المذياع آتيًا من غرفة الاستقبال الكبيرة. كان المذياع يبث الموسيقى العسكرية يتخلّلها صوت المُذيع يعلو كل حين.

نصرٌ من اللّه وفتح قريب..لقد تمكّن المجاهدون المتصدّون والتعبويّون الفرسان والحرس الشجعان والجنود الشرفاء..أثناء عمليات ثامن الأئمة ومن خلال تجاوز العوائق والدفاعات الكثيرة للعدوّ البعثي العراقي المُعتدي.. من تدمير معدّاته وتجهيزاته.. وفكّ الحصار عن عبادان بعد أشهر عدة.. وقتل وجرح وأسر عددٍ كبير من المُعتدين البعثيين.

كنت من جهة سعيدةً بنصر المجاهدين ومن جهة أخرى قلقةً على مرتضى: لا بد أن مرتضى كان مشاركًا في هذا الهجوم.. أيكون سالمًا.. إلهي احفظه بحفظك.. لم يقرّ لي قرارٌ ولم أشعر بالهدوء. قلت لوالدتي: مرتضى؟!

قالت أمي وهي تدُقُّ اللحمة في الهاون الحجري في زاوية الباحة: توكلي على اللّه يا أمّاه!

بعـد كسـر الحصار عـن عبادان ظلّـت أذني ترقب صـوت المذياع وعينـي على الطريـق لعل أحد المجاهدين يرجع مـن الجبهة بخبرٍ لي عن مرتضى. في الأسبوع الذي تلا عاد مرتضى من الجبهة. كان يحمل حقيبـة الظهـر الصغيرة الكحليـة نفسها. ومجدّدًا نبـت لي جناحان وشعـرت أنني أحلّق في القمّة. غمرتنـي السعادة برجوع مرتضى سالمًا من الحرب.

- مرتضى متى يكون عرسنا!

- لقد قدمنا شهيدًا الآن في القرية. سنقيم زفافنا في أقرب فرصة!

ومجـدّدًا مثلَ ثلج تمـوز لم يبق إلا صباحات ثـم اختفى ذاهبًا إلى الجبهـة! وعـود على بـدء، صار الانتظـار قاتلي وبـتُّ أترصّـد أخبار المذياع. مجدّدًا رُحت أسألُ عن أخباره وسلامته من القريب والغريب!

- مرتضى بخير.. رأيته بنفسي.. ما شاء الله أسدٌ..

كان الوقـت يمـرُّ عليّ ثقيـلًا مغبرًّا كقطيع الغنم الـذي ينزل عند الغـروب مـن الجبـل إلى القرية. كنت أعُـدُّ الأيام داخـل المنزل، وفي الليالي أبقى مُستيقظةً قسمًا من الليل أُفكر في مرتضى.

في نهايـة الأمـر وبعد شهرين، يوم 29 تشريـن الثاني 1981م.، بث المذياع الموسيقى العسكرية وأعلن المُذيع خبرَ تحرير مدينة بستان.

.. عمليات طريق القدس وبالنداء المقدّس «يا حسين».. وبعد مُضي 420 يومًا على بدء الحرب المفروضة.. تمكّن جنود الإسلام في المنطقة المحيطـة لسوسنكـرد وبستـان أن يستقـرّوا عند الحـدود.. ويحرّروا تشزابه.. ويحرّروا بستان..

بعـد شهرين وعدّة أيام، رجع مرتضـى من الجبهة وباغتني قائلًا: ابنـة خالتي، الآن يمكننـا أن نقيم مراسم العرس! لكن من دون ضجّة

وصخب! أهل جليان لا يزالون في عزاء!

ابتسمت وقلت: لا اعتراض لديّ.

رجع وتأمّل في عينيّ جيدًا.

– آمنة لقد غارت عيناك، هل أنت حزينة؟

ضحكت وقلت: لا، ليس هناك أي شيء!

أُقيمت مراسم العُرس من دون طبل وزمر. مرتضى صار عريسًا بلباس الحرس الأخضر الواسع على بدنه النحيف وأنا صرت عروسًا بعباءة بيضاء مُزينة بورودٍ زهريّة!

9

قصة حنظلة

28 شباط 1982

صبيحــة يــوم شتوي رحت أراقب مــن داخل عتبــة الغرفة حبيبات الثلــج البيضاء. كان الثلج يتساقط بهدوء من سماء جليان بعد انقطاع لسنــوات ويُلْبس شجرات البرتقــال الثلاث وشجرة النــارنج الوحيدة ثــوب البياض. تناهى إلى سمعي صـوتُ لعب أطفــالٍ في الزقاق حين وضع مرتضى يده على كتفي.

– هل تُحصين حبيبات الثلج يا بنت خالتي؟

– وهل يمكن إحصاؤها يا بن الخالة! الثلج في منطقتنا جديدٌ! ليته يبقى محفوظًا ولا يصير ماءً، مثلك أنت!

– وضــع كلتا يديه الدافئتــين على وجنتيّ وقال: كيف فهمتِ أنّ عليّ أن أذهب!

تضخّمــت كلمة مرتضى (علــيّ أن أذهب) في دماغــي واستحالت محيطًــا من الماء البارد الذي انصب على بدني. شعرت أن يديه بردتا ولعل بدني أيضًا كان قد برد. قلت بفمٍ مفتوح: يعني عليك أن تذهب؟!

رفع يده وقال بهدوء: أنا مسافر.

نظــرت إليه بوجهٍ خائب ومتجهّم ورجوته: بهــذه السرعة؟! لا أقله ابقَ حتى العيد، ثم بعدها..

لم أستطع أن أُكمل، أحسست بالغصّة كالشفرة في حنجرتي! يبست شفتــاي وتخدّر بدني. تبسّم ونظــر إليّ بوجهه الجبلي الصافي واضعًا يده خلف رأسي.

– يا بنت الخالة أتعلمين كم يوجد في الجبهة الآن شبانٌ مثلي تركوا

أُسَرِهم وراحوا يقاتلون؟

تجرعت غصّتي.

– ولكننا أقمنا عرسنا توًّا.

– هـل سمعتِ بقصـة حنظلة، ذلـك العريس زمـن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي التحق بالجهاد فور عُرسِه واستشهد!

انعقد لساني وحاولت جهدي أن أمنع دموعي.

مثـل جميع الفتيـات الحديثات الزواج كنت أتمنـى أن يبقى زوجي إلى جانبي، كان ذهابه صعبًا عليّ. أدرت ظهري للباحة والثلج، حتى لا يرى دموعي، لكنه استدار ووقف مقابلي.

– هل تعارضين ذهابي يا بنت خالتي!

جعـلَ صوتُه بدني يرتجـف تدريجيًّا، وفيما كانـت تتساقط الدموع من عينيّ رفعت رأسي وقلت: لا.

مسحتُ دموعي وتابعتُ: أنا أفتخر بك! ولكنني أخاف عليك أحيانًا..

– تبسّمي الآن!

تبسّمتُ، ومجدّدًا وضع يده الدافئة على وجهي وقال: نعيش حياةً هانئة هناك، نأكل.. وننام.. وأحيانًا نمارس الألعاب النارية مع العراقيين!

رفع يده وقال: أتحبّين أن تواسي السيدة زينب عليها السلام؟

نظرت في عينيه الصافيتين والمُشعّتين بالنور:

– أتمنى ذلك.

– يـا بنت خالتي، إذا لم تكوني حاضرة في زمان السيدة زينب عليها السلام يجب عليك الآن أن تُظهري أنك مُسلِمة ومن أتباع الحسين عليه السلام. أتظنين أن الإمام لم يكن يعلم أنه سيستشهد وأنّ أهل بيته سيكونون أُسارى؟ في

الوقت الذي كان قادرًا على أن يُبايع يزيد ويعيش حياةً رغيدة، لكنه لم يَقم بهذا الأمر ولم يقبل الذلّة. قاتل واستشهد عطشان!

أخذ نفسًا ومن جديد وضع يده على وجهي وذقني، شعرت أن مرتضى يتقصّد تلقيني بشفتيه ودفء أصابعه تلك الكلمات المهمة كلمةً كلمة لتستقر في نفسي.

- يجب الدفاع عن الإسلام العزيز. ليس هناك فرق بين هذا المكان وكربلاء. اليوم أيضًا يجب أن تُراق الدماء لحفظ عزّة الإسلام. وأنا مستعدٌّ أن يراق دمي على يد المعتدين البعثيّين الذين لا يعرفون الله لئلا يضيع شبرٌ واحدٌ من تراب وطني. والأعمار بيد الله..

مذهولةً تأملتُ شفتيه فقط وفكّرت بكلماته. وكأنه كان يضيء لي مسيرة حياتي. وفي نهاية المطاف حمل حقيبة ظهره الكُحلية وودّعني.

جعلتُهُ يمُرُّ من تحت القرآن، وحين صببت الماء وورق النارنج خلفه عاد وقال: ابنة خالتي عندما تشعرين بالضيق والوحدة اقرئي سورة الواقعة! سوف تهدئين.

وأطبق جفنيه وتلا بصوته الحسن آيات من السورة.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۞ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۞ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾.

واختفى عن ناظري وغاب مجدّدًا، هكذا بكل بساطة!

عدتُ وحدي من جديد، وانقبضت نفسي مجددًا. جلست في زاوية الغرفة. أردت أن أستسلم للبكاء، لكن كلماته التي ملأت كل وجودي لم تدعني! فكّرتُ فيما جرى بيني وبينه، وبالليالي والأيام العديدة التي ينبغي أن أصنعَ فيها نفسي بوحدتي وأُفكِّر بكلامه.

10

الواقع والخرافة

5 أيار 1982

في عيد النوروز أيضًا لم يأت مرتضى إلى المنزل. خلال هذه الأشهر المعدودة التي لم أره فيها كانت قد أنجزت عمليات الفتح المبين وبيت المقدس في الجبهة الجنوبية، وتمّ تحرير خرّمشهر ومناطق كثيرة من خوزستان. وكانت سورة الواقعة قد باتت أنيس نفسي.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ.. فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

عند الغروب كنت داخل الغرفة ذات السقف الخشبي أقرأ مجدّدًا آخر رسالةٍ من مرتضى تحت نورِ السراج الأصفر.

- يا ابنتي، يُشاع أنّ مرتضى قد وقع في الأسر!

كانت عيني على الرسالة حين خرق صوت أمّي دماغي كالسهم.

- هل أنتِ معي! أين أنت يا ابنتي؟ لقد سرت شائعة أسر مرتضى في كل مكان!

هالَني الخبر فارتطمت يدي بزجاجة مصباح الكاز واحترقت! وبسرعة صار تمامُ بدني يتصبّبُ عرقًا. عُدت وتأمّلت في وجهِ أمّي المجعّد وعينيها المحزونتين. انتصبتُ واقفة وكأنني قد خرجت لتوّي من صدمة.

- يا زينب الحوراء! من الذي يقول هذا يا أمي؟

- لقد ذاع الخبر في جليان!

فزِعتُ، وبسرعة هاجت في رأسي الأفكار والخيالات، ورأيتُني امرأةً

يُشيرُ إليها بالبنان آحاد أهالي القرية ويتحدّثون عنها.

- منحها اللّه الصبر.

- عليها أن تعُدّ الليالي والأيام حتى تنتهي الحرب ولعلها حينذاك ترى زوجها!

- هذا إن خرج سالمًا معافى من الأسر!

- ليته استشهد، لكان أفضل من أن يؤسر!

- لم تذهب، يجب أن تعود إلى منزل أبيها!

لم أكن لِأُصدِّق أن أخسرَ مرتضى بهذه السرعة! كان هناك نداء من أعماقي يصرخ بي: ما زلنا في البداية، إنها الحرب!

مرَّت أيام، وشيئًا فشيئًا صدّقتُ أنّ مرتضى بات أسيرًا، وأنّ عليّ أن أبقى أسيرة الانتظار مدّة مجهولة من الزّمن. لكن فجأةً باغتني مرتضى بلباسه الكاكي واقفًا على عتبة باب الغرفة!

- السلام عليك يا بنت خالتي!

يبسَ حلقي. أغلقتُ جفوني وفتحتُها مرات عدّة. فَركتُ عينيّ. ولكنه كان لا يزال واقفًا بتلك الابتسامة المُشرقة والجميلة. أدركت حينها أنّ حياتي من تلك اللحظة وصاعدًا ستكون مملوءةً بالقصص والخرافات، وفي داخلي بالتأكيد حربٌ فظيعةٌ وحماسية!

اقتربت منه. تحسّست نفسَهُ. رغبت في أن أُمسك به وأحجزه بآلاف السلاسل والأغلال لنفسي.

- ماذا، لم أكن أعلم أنك تحبينني بهذا المقدار!

جلس وجلستُ. قلت باكية: أنت لا تعلم أي عيدٍ مرّ عليّ.. لقد قالوا إنّك أُسرت.

- أُسرت! كيف فهمتِ أنني أُسرت؟

- إذًا..

- كانت نقاهة! أثناء العمليات ضلَلنا الطريق وحاصرَنا العراقيّون، وبعد أيام عدنا!

- بهذه البساطة! عليك أن تخبرني القصة حرفًا بحرف.. هل تعلم كم عانيت!

- أثناء عمليّات بيت المقدس قمنا بهجوم على العراقيّين فاستشهد مسؤول الاتصالات وحُوصرنا. كانت منطقةً رمليّة وحارة. أصابنا العطش. فأوصلنا أنفسنا إلى خلف أحد المتاريس. سمعنا أصوات أشخاص فظننا أنهم من شبابنا. سُررنا وتقدمنا نحوهم وناديناهم، ولكننا اكتشفنا أنهم عراقيّون، وما لبثوا أن بدأوا بإطلاق النار علينا. علقنا بينهم ثم لذنا بالفرار مجدّدًا وتُهنا في المنطقة. بعد يوم وليلة وصلنا إلى قوّاتنا. عندما عدنا كان قد شاع في كل مكانٍ أننا وقعنا في الأسر. وها أنا قد جئت بسرعةٍ لأُثبت أنني بخير وأرجع!

كانت يداي ترتجفان وقد انتابتني حماسة من حكاية ابن خالتي. حين سمع صوت زقزقة صغير البلبل البني قال: أنتَ أيضًا خرجتَ من وحدتك!

قلت: أقدّم له الماء والحَبَّ ليكبُرَ ويتمكن من الطيران!

ذهب وأخرج البلبل الصغير من صندوق الكرتون ووضعه في كفّه وأتى ناحيتي. كان البلبل فاغرًا فمه يريد أن يأكل. تبسّم مرتضى وقال: إنه جائع، لقد بات أليفًا وسيكون جليسك دومًا! فقط انتبهي عليه من أن يصير لقمةً سائغةً للقطّة!

حين أتى أهل القرية، صغارهم وكبارهم، فردًا فردًا، وسألوا عن أحواله علمتُ أنه كان قد جُرح ولكنه لم يخبرني!

كانـت تلك الأيام القليلة حلوةً وجميلـة. وكم تمنّيت أن تستمر هذه اللحظـات حتى قيـام الساعة. لكـنّ الزمن كان في حـرب معي، فعلى خـلاف الأوقات التي كنتُ أنتظرُه فيها ليعـود من الجبهة، سرعان ما مضى لقاؤنا معًا وانتهى، كمثل حبيبات الثلج تحت حرارة الشمس!

- يا بنت خالتي، ألك حاجة؟

- هكذا! إلى أين يا بن خالتي؟

- إلى الجبهة!

انقبضـت مجدّدًا. حمل حقيبتـه الكُحلية وأودعنـي بسمته الحلوة الخاصة وذهـب! استطعت فقط أن أجعلَهُ يعبُر مـن تحت القرآن وأن أرش خلفَهُ الماء وورق النارنج وأقرأ:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

11

المقهى الصلواتي[1]

15 تموز 1982

ظهـيرة اليوم الثاني لعمليات رمضــان في منطقة شلمجة القتالية، لاحظت سيــارة جيب لاند روفر عراقية يقودهــا اثنان من المجاهدين المتحمســين، تـذرع الساتــر الترابي ذهابًــا وإيابًا تحــت مرمى نيران العــدو: ما الذي يفعله هذان؟! ما الــذي سيحدث لو أن قذيفة سقطت على رأسيهما؟ هل يظنان أنهما يؤديان دورًا في فيلم حربي!

ناديــتُ أصغر نجفي مسؤول الآليات في لــواء المهدي: تلك السيارة باستلام من؟

وفيمــا كان يتصبــب وجهه ورأسه عرقًا من شــدة حرارة الجنوب، قلّص أصغر حجم عينيه أمام نور الشمس المباشر وقال:

يــا حاج أسدي السيارة غنيمة، هــذان الشابان هما اللذان غنماها الليلة الماضية!

– وهــل تمّ تسجيلهــا وتحويلهــا إليهما؟ هل هنــاك حاجة لأن تكون معهما؟

مسح أصغر عرق جبهته وقال متلعثمًا:

– لا يا حاج. لم تسنح الفرصة بعد.

عقدتُّ حاجبيّ.

– يجب أن يتم تسجيل السيارة أولًا، وبعد ذلك إن كان هناك حاجة

1- «صلواتــي» كلمة تُقال عندما تقدّم الخدمات أو الأشياء والبضائع والأموال.. للآخرين مقابــل «الصلاة على محمد وآل محمد» ومن دون مقابل مادي؛ وهي تنمّ عن ثقافة البذل والخدمة والعمل الحسن.

لتسليمها إليهما فلتسلّم. كن حريصًا في هذه الأمور فهي حق لبيت المال.

– على عيني يا حاج أسدي[1]!

كنت مشغولًا مع «خليل مطهرنيا» نبحث أوضاع الجبهة حين علت الضجة. كان أصغر نجفي يتنازع مع الشابين وهما لا يستسلمان له. في نهاية المطاف ضاق أصغر ذرعًا بهما فواجههما بحدّة ثم أشار بإصبعه من بعيد ناحيتي كأنه يقول إنها أوامر قائد اللواء جعفر أسدي وأنا مأمور ومعذور!

رمقني الشابان الغريبان من بعيد بنظرة، وركبا السيارة متجهين نحوي. وصلا إلى قربي وكبحا الفرامل.

ترجل الشاب الأنحف الذي كان خلف المقود وقال:

– السلام عليكم يا حاج. أنتم طلبتم أن يأخذوا السيارة منّا؟

كان وجهه مفعمًا بالحماسة والمشاعر، فرأيتُ من الصلاح أن أوضّح له بدل أن آمرهُ. ابتسمتُ وقلت: صحيح. قلتُ فلتسجّل السيارة أولًا ثم إن كان هناك حاجة تُسلّم إليكما!

فجأة نطق الشاب النحيف الذي تعلوه سيماء القرويين البسطاء مهددًا: كنّا في مأمورية لثلاثة أشهر وقد انتهت. والآن نريد أن نرجع إلى المدينة.. إنها تصفية حساب*..

نظرتُ إلى لباسه الأخضر والشعار المخملي الأصفر والأزرق على صدره.

– أنت من الحرس إذًا؟

اتخذ شكلًا جديًّا وحرّك جفنيه المغبرين.

1- القائد أسدي راوى كتاب «الهداية الثالثة».

* معاملة خروج العناصرفي مأذونية بعد أدائهم الخدمة.

- نسأل اللّه القبول!

قلتُ بدقة ولطف:

- هل انزعجت؟!

نفض التراب والغبار عن شعر رأسه القصير.

- من حقّي أن أنزعج!

- لماذا؟

- وهل كنّا في صدد سرقة السيارة؟ لقد عانينا الأمرّين حتى أحضرناها بنفسينا ليل أمس من الساتر الترابي للعراقيين وأوصلناها سالمة إلى هذه الجهة!

هززتُ رأسي.

- لم يكن هذا مقصدي. ما اسمكما؟

- مرتضى جاويدي، ورفيقي حسين إسلامي!

- لا مشكلة إذا كنتما تريدان تصفية الحساب، أيمكن أن تدخلا الدشمة لنتحدّث قليلًا.

لم تمهلنا صواريخ الكاتيوشا العراقية، فسرعان ما انطلقت صلية صواريخ كاتيوشا لتدكّ الساتر الترابي ضربة إثر ضربة. انبطحنا جميعًا خلف الساتر الترابي الثنائي الجدار، وبعد انفجار جميع صواريخ الصلية كانت سيارة الجيب قد أصيبت بعدة شظايا. وقفت وقلتُ للشابين:

- تعالا معي يا أخويّ!

مشيا في أثري حتى وصلنا إلى داخل دشمة تكتيكات خط الهجوم. تبعنا مباشرة الحاج صلواتي مسؤول الإعلام في اللواء يحمل برّاد

عصير ليموناضة إلى داخل الدشمة وقال:

- صلّوا على النبي أيها المحمديون!

- اللهم صل على محمد وآل محمد.

بعد أن ارتفعت أصواتنا بالصلوات وضع العجوز براد العصير أمامنا وأحضر عدّة أكواب بلاستيكية حمراء اللون استعملت لآلاف المرات من قبل وملأها عصيرًا! وقال:

- هذا عصير المقهى الصلواتي. اشربوه هنيئًا مريئًا ولا تنسوا الصلوات..

فيما كانا منهكين لا يقويان على شيء، حدثتُ مرتضى وحسين عن الجبهة وأهداف الثورة وتكليفنا في الحرب وأوضحت لهما في نهاية المطاف مقصودي من أخذ السيارة. ثم رميت سهمًا أخيرًا وقلت:

- الآن الجبهة بحاجة إليكما، بالخصوص أنتم الحرس الذين اخترتم لباسكم الأخضر بمحبة ووعي!

من دون كلام كانت عيونهما وآذانهما وكل حواسهما معي. وما إن توقفتُ عن الكلام، قال مرتضى: البقاء في الجبهة هو تكليفنا لكننا نحتاج إلى السيارة!

سررتُ من جرأة وشجاعة مرتضى وحسين. كنت أرى فيهما خصالًا كثيرةً يحتاجها اللواء. قلتُ:

- إن شاء الله بعد تسجيل السيارة نتوصّل إلى تفاهم!

12

العشق ها هنا

18 تموز 1982

– آمنة، هل سمعتِ أنّ مرتضى قد أصيب؟

– لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا «زينت».

– ألستِ قلقة؟!

– وما الذي يمكنني أن أفعله يا عزيزتي؟

قبل ظهيرة يوم صيفي حار داخل الغرفة، مسحتُ على رأس البلبل البني وفكرتُ في كلام ابنة الجيران زينت يوم أمس. شيئًا فشيئًا كنت أزداد نضجًا في مواجهة الأحداث! لقد بات جسمي وروحي الآن أكثر انسجامًا مع حوادث الحرب الفجائية! وضعت بعض فتات الخبز داخل فم البلبل البني وتأملت في الريش الأصفر المتناثر بالقرب منه.

اشتد طرق الباب فشرع البلبل البني بالزقزقة. وضعت على رأسي العباءة المرقطة وتوجهت نحو الباحة. وقفت خلف الباب وقلت:

– من؟

– أنا يا بنت خالتي!

انخلع قلبي وفتحت باب البيت بسرعة. كان مرتضى واقفًا أمامي يحمل حقيبته في يده ويرتدي قميصًا أبيض بياقة مشيخية، وقد بدا خلفه بعض الشباب والعجائز من المارة يعبرون الطّريق.

– مرتضى، سـ... سلام.

ذهلتُ عند رؤية وجهه الأصفر الذي ازداد نحولًا.

– يا بنت الخالة، لقد متُّ من شدة الحر، ألا تفسحين لي المجال لأدخل؟

حين وقع نظري على القطة الشقراء واقفة على الجدار الطوبيّ

صرختُ: مرتضى، البلبل!

ركضت على عجلة نحو الغرفة، وحين رأيت البلبل البني تنفستُ الصعداء.

- حسنًا لقد وجدت أنيسك.

استدرتُ ونظرتُ إلى مرتضى، كان واقفًا داخل الغرفة مع حقيبة ظهره الكحلية. وقلتُ:

- يا بن الخالة، لحظة واحدة أمضيها معك لا أستبدلها بكل الدنيا وما فيها! خفتُ على هذا المسكين أن يصير لقمة سائغة للقطة!

عندما جلس على البساط البدوي بان الألم بوضوح في وجهه.

- أأقول.. جُرحت مجددًا؟

- خدش بسيط.

قلت بسرعة: أرني.. أين؟

- وهل تنوين إذاعة الخبر!

ووضع أمامي حقيبة ظهره الكحلية.

- ابنة خالتي فديتُ تلكما اليدين؛ أرجو أن تغسلي الملابس داخل الحقيبة!

عندما علت زقزقة البلبل، أخذه من يدي ووضعه على سبّابته وقال:

- إنّه يغرّد من أجلي، ما أجمله وأنظفه!

حمل البلبل وأدناه من وجهه وضمّ شفتيه وصار يصفر له ويزقزق. قلتُ مبتسمةً: مرتضى لا تنظر إليه هكذا، سيظن أنك تريد أن تأكله!

ظلّ مرتضى يغرّد والبلبل يجيبه حتى تعبا معًا في نهاية المطاف، وخفتت أصواتهما. فتحتُ الحقيبة فوقعت عيناي على لباس ملطخ بالدماء، شعرت بوخز في بدني وأصابتني قشعريرة. حاولت أن أتجاهل الأمر وقلت: بتّ ترتدي الأحمر؟!

- إنه عراقي!

- ولماذا ترتديه؟!

تبسم ولم ينطق، قلت بنحو أكثر هدوءًا:

- اعذرني، لم أتمالك نفسي.

لم يقل شيئًا.

- باللّه عليك لا تلبس هذه الملابس، سوف أمزّقها!

رفض ذلك.

- رزقـك اللّه يا بنـت الخالة. وهل عـدتِ ولدًا؟ أتعلمـين ما الذي أصنعه بهذا اللباس في الجبهة؟!

حملتُ اللباس العراقي الملطخ بالدماء وتوجهتُ نحو الباحة الترابية. جلست تحت نور الشمس ووضعته داخل الطشت النحاسي حتى يتبلّل. عندمـا كنتُ أغسـل اللباس كان يسيل منه الماء أحمـرَ ويقشعرّ بدني. جاء وجلس بجواري، كنت أدعـكُ اللباس وأنظر إليه. أخرج من جيبه صورة ووضعها أمام ناظري.

- انظري يا بنت خالتي!

تأملتُ في الصورة، كانـت لمرتضى داخل الجبهة وهو يركب سيارة جيب أخضر. كان مرتديًا اللباس الذي أغسله مع طاقية حمراء ملوية علـى الرأس وقد رفع إصبعيه على شكل علامة النصر وأخرج يده من السيارة ضاحكًا. وضـع إصبعه على صورة السيارة وقال: إنها غنيمة، ونحـن نجول فيهـا داخل المنطقة. بهـذه الملابس التـي تغسلينها الآن أذهب إلى مناطق العراقيين وآكل معهم الخبز واللبن!

- معهم؟

نفضـتُ اللباسـ العراقـي. عندما ألقيتـه على حبـل الغسيل أمام الزريبة اخترقته أشعة الشمس في عدّة ثقوب. جاء ووضع إصبعه داخل

ثقب عند الوسط.

– معـك حق يا آمنة. الأفضل أن أعطي هذه البدلة لأخي «مصيب» حتى يصلحها!

ليـلاً، جلستُ في زاويـة الغرفة أخيط قميصـه العسكري تحت نور سراج الكاز، وكلما رفعت رأسي رأيته ينظر إليّ.

– ماذا يا بن خالتي؟

تنهّد.

– لو أنكِ في تلك الليلة التي طلبتُ فيها يدك قلت لا!

على حدِ قول أهل شيراز، «زرعنا «لو» فأنبتَت «يا ليت»»[1]!

سكتُّ ثم قلتُ: لعلك عاشق لأحد ما؟

ردّد مرات: عاشق.. عاشق.

أصابني لحن قوله بغصة في حلقي، قلت:

– يا بـن خالتي، لقد اخترتُ عن وعي ولست نادمة. والآن أيضًا أنا سعيدة جدًا، أسعد من ليلة العرس!

جاثيًا على ركبتيه وكما يحبو الأطفال توجه نحوي:

إنّ أمنية كل زوجة وزوج أن يكونا معًا ويعيشا حياةً هانئة!

فتحتُ عينيّ متعمدةً على اتساعهما وقلت: حسنًا!

تنهّد.

– ولكـن ما الـذي يمكن أن أفعله؟ لقد جاء العـدو إلى دارنا ونحن مسلمـون ومكلفون بالعمل. سامحيني يا بنت خالتي، حتى الآن لم أكن زوجًا صالحًا، أرجوك أن تتحملي معي من أجل الإسلام!

وأنـا التي لطالما أحببـتُ أن أسمع، كنت فقط منصتـةً إلى كلماته الجديدة التي كانت تسري في روحي وجسمي.

1-مثـل شعبي يضـرب للتعبير عن عدم جدوى كلام المتكلم فـي الظرف الذي يقال فيه، وأنه لن يغيّر شيئًا.

13

فندق إسترا

11 أيلول 1982

كان شابًّا متوسط العمر يقود الحافلة ليلًا، وكنت أرى بين الحين والآخر في المرآة الكبيرة أمامه جَفنيه يطبقان من النّعاس. أرجعت رأسي بهدوء ناحية الكرسي الخلفي. كانت خديجة مأخوذة بمراقبة إغفاءة «كرامة الله رفيع»؛ كانت مستغرقة في النظر إلى وجه زوجها وكأنها تحملُهُ قربانًا إلى المذبح، وعليها أن تدرك قدر اللحظات ما قبل ذبحه! وكنتُ مسرورةً وقلقة في الآن نفسه. ابتسمتُ وهمستُ لخديجة: تراقبينَهُ حتى في نومه؟

ومن دون أن تُدير نَظرها عن وجه زوجها أجابت: يجب أن تُعرف قيمة الفرص يا سيدة جاويدي! إن يقظتهم ليست لنا، لعلّ نومهم يكون!

جلس على صف الكراسي إلى جواري كلٌّ من فاطمة وأكبر نورافشان. لم يكن قد مرّ بعدُ على معرفتي بخديجة وفاطمة ساعات، وكأننا كنّا نعرف بعضنا بعضًا منذ سنين! لقد أحكمتِ الخصائصُ المشتركة الكثيرة الرابطةَ بيننا. وكأنّ الحافلة باتت مهدًا لرجال الحرب! أشارت فاطمة إلى الرجال.

- لا أظنهم نائمين!

همس مرتضى وهو مُغمَض العينين: الغيبة حرامٌ يا أخوات!

- أرأيتِ يا سيدة جاويدي قلت إنهم مستيقظون!

قال أكبر نورافشان: نمنا ساعات وإذا بيزيد الكافر «صدام» قد ضغط على دواسة الوقود واجتاح المناطق بسرعة حتى وصل إلى خلف معمل «نَفَرْد» في الأهواز!

كنـا قد أخذنـا مقاعدنا على عدّة كراس في آخـر الحافلة وقد ملأ الصف أمامنا وما بعدَهُ أفرادٌ من الحرسِ والتعبئة المتطوّعين للحرب.

توقفـت الحافلة أمام محطّـة تفتيش. كان الجميـع مندهشين من حضور ثـلاث نساء بالعباءة السوداء في جمع مـن المجاهدين. وكانت كلٌّ واحـدة منّا قد حزمت أمتعتها داخـل حقيبة صغيرة. كان يعتريني شعـور بالفخر والاعتـزاز؛ فبمقدار المسافة التي كنـت أبتعد فيها عن القريـة كنت أسبق نساء المعمورة وأختبر حياةً جديدة. وبات أوّل سفرٍ لي عبارة عن حركة باتجاه جبهات الحرب! استغرقت في التفكير حتى غمضتْ عيناي.

مـع بزوغ الفجـر استيقظت من شـدة الحرّ. كنـت أتصبب عرقًا. أرجعت رأسي ناحية زجاج الحافلة، وما إن أزحت الستارة حتى انخلع قلبي. أشرتُ باضطرابٍ إلى ألسنة النيران.

- مرتضى، هل وصلنا إلى الجبهة؟!

- كنتِ نائمة يا سيدتي، لقد أمطر العراقيّون كل الأمكنة بالقذائف!

هـدّأت ابتسامة مرتضى وبـرودة أعصابه من روعـي. أشرت إلى لهيب النيران خلف التلال.

- وما هذه؟

- إنها العفاريت ترحّب بنا!

- لا تمزح يا بن خالتي!

ضحـك وأجاب: حسنًا إنّهم خبّازو الأهـواز؛ كلٌّ منهم يُشعل تنوره لخبز عجين الصباح!

سمعت قهقهة ضحكات أكـبر نورافشان وكرامة اللّه رفيع. همست لمرتضى: هكذا إذًا يا بن الخالة!

– لا تنزعجي، إنها الشمس تطلع من خلف الجبل!

– تمزح مجدّدًا؟

لم يدعنـــي أنام حتى قُبيل الصبــح وراح يشاكسني. كنت مضطرة لِقَبول كل ما كان يقوله. في نهاية المطاف أوضح السيد أكبر نورافشان لِفاطمة: إنّها بئر النفط؛ الغاز فوق البئر يشتعل!

حــين بزغ النور، ناحية اليمين، حيث كانت الشمس تشرق، شاهدت تســع أو عشر إسطوانات إسمنتية كبيرة مدمّرة. سألت بحشرية: سيد مرتضى؛ ما هذه؟ أرجوك أن تجيبني صدقًا!

– إنها خزانات وإهراءات القمح، تمّ قصفها في بداية الحرب!

كانت شمس الجنوب الذهبية قد أشرقت على الحافلة بأكملها حين دخلنا مستديرة «تُشَهَارْشير» في الأهواز. عبرنا شارعًا أو شارعين.

– هذا شارع نادريّة حيث سوق السمك والخضار!

كانــت المدينة خاليــةً ويسكنها الصمت، وكنــتُ مُتحفّزة أبحث عن آثــار دمــار الحرب وخرابها. شاهــدت عدّة أماكــن في المدينة مدمّرة ومُنهدِمة.

عــبرت الحافلة مــن فوق جسر الأهــواز الحديدي واجتــازت المياه الملوّثة لنهر «كارون». شاهدت عدّة زوارق وقوارب في مياه النهر. كانوا يصطادون السمك غير آبهين بصخب الحرب!

عَــبرَت الحافلــة شارعين آخريــن وتوقفت عنــد بناء قــديم يُشبه الفنــدق. حالمــا ترجّلــت العائــلات أكملــت الحافلــة بعيــدًا مــع بقيّة المجاهدين. قرأت لافتة الفندق القديمة: فندق إسترا!

الطقــس القائــظ جعــل جسمــي ووجهي شديــدي الرطوبــة. كنت أتصبّب عرقًا من رأسي حتى أخمص قدمي. دخلنا فندق إسترا الذي

كان يشبه كل شيء إلا الفندق! ودخلنا غرفة خديجة لأجل الاستراحة.

بعدما استرحنا قليلاً قالت خديجة: ما رأيك أن نذهب مباشرة إلى غرفة السيدة بروين[1]؛ إنها امرأةٌ صالحة؛ زوجها في الحرس أيضًا. من الأفضل أن تتعرفي إليها!

سرنا داخل الممر الضيّق للفندق الذي كانت أوراق جدرانه البُنية قد تآكلت وعفا عليها الزمن حتى اسودّت. في وسط الممر ضغطنا على جرس الغرفة رقم 110. فتحت لنا الباب سيّدةٌ شابّة وطويلة ترتدي عباءة بيضاء منقوشة بالورد. قدّمتني خديجة: آمنة، زوجة السيد جاويدي!

حين ابتسمت بروين استقرت محبّتها في قلبي.

– سلام.. تفضّلا، أتيتما في الوقت المناسب!

ألقينا التحيّة ودخلنا غرفة بمساحة (3×4) م. كانت عدّة نساء أخريات قد جلسن في الغرفة. وَقَفْنَ وتبادلنا السلام والقُبلاتً. وأخذتْ بروين تُقدّمهن: آسية زوجة مطهرنيا؛ زهراء زوجة رحمانيان؛ ومرضية زوجة محسن نيا؛ وهذه ليلى زوجة بهمن زادكان! وبالتأكيد هذه سيدتي الصغيرة سمية خانم!

كانت طفلة لها من العمر سنتان، بيضاء مشربة حمرة، وبسمتها لا تفارق وجهها. وحالما أردت تقبيلها فتحت فمها تريد أن تأكل أنفي وشفتي!

لا أدري لماذا كنا – نحن النسوة – كلما احتضنت إحدانا الأخرى استسلمت كلتانا للبكاء من دون اختيار. لا بد أنه القاسم المشترك نفسه! الصمت والوحدة والانتظار! انتظارٌ وصمتٌ تواءما مع صراع

1 - تكتب بروين وتلفظ برفين.

داخلـي فينـا ولم يكن لينتهي في نوم أو يقظة، حتـى يُختتم دائمًا بهذه النتيجـة: الشهادة، الأسـر، الإصابة، وفقد الأثـر؛ أيٌّ من هذه الأمور سيكـون مصير زوجـي؟ وكانت هـذه المشاعر قاسمنـا المشترك نحن نساء فندق "قيام"*.

تحلّـق بعضنا حول بعض وتبادلنا أطراف الأحاديث. وكأنه كُتِبَ لنا أن يحبَّ بعضنا بعضًا وإلى الأبد. وهذه كانت إحدى خصائص العيش المشـترك في الحـرب! وكأننـا البارحة عبرنا في الحافلـة جميع حدود القبائح والأحقاد ودخلنا أرض المحبة والصلاح؛ بل لعلها الجنّة!

بغمضة عينٍ حمـل الرجال حقائب الظهر واستعـدّوا للوداع. سرّح مرتضـى شعـر لحيته بمشط صغير أزرق وقـال: الحمد لله، لم تعودي وحيدةً الآن. يجب أن نذهب إلى الخط الأمامي. سأسعى أن أرجع آخر الأسبوع!

خنقتنـي الغصّـة، لكنني رسمـتُ ابتسامة على وجهـي. غير بعيد ذهـب محمود ستوده نحو زوجته وطفلته. احتضن ابنته وقال: سمية يا روحي، ما اسم أبيك؟

أجابت سمية بلهجتها الحُلوة: اسم بابا محمود ستوده!

ضحكنـا جميعًـا. حمـل محمـود طفلتـه باتجـاه صـورة جماعية موضوعة على الرفّ في الغرفة رقم 110 تحوي الرّجال جميعهم، أشار إلى الصورة وسأل ابنته: سمية حبيبتي أيُّ واحد من هؤلاء هو أبوك؟

أشارت سمية بإصبعها الصغير إلى صورة أبيها.

- هذا بابا!

استدار ستوده وقال: أترون أي زمن هذا الذي وصلنا إليه؟ ابنتي لا

* وردت هكذا (قيام) ولعله اطلق عليه ذلك الاسم بعد حين.

تعرفني ولكنها تعرف صورتي!

قالت بروين: لا ذنب للطفلة، هي بالكاد تراك مرة واحدة كل شهر. لكنها ترى هذه الصورة كل يوم!

جعلتنا إجابة محمود ستوده نستغرق جميعًا نحن النساء في التفكير.

– هكذا أفضل؛ أن لا تعرف وجهي! أن تعتاد على هذه الصورة أفضل من أن تعتاد عليّ!

وَدَّعَنا الرجال واحدًا واحدًا، وظلّت عينا كل واحدة منّا نحن النساء مسمّرة عليهم حتى اختفوا عن أنظارنا!

15

اشلو

30 آذار 1983

قبيل أذان الصبح عمّ جبهة «حيّ الستين» نداءٌ مسموع.

– أي شَي لَونَك.. أشلونك..يا أخي.. صباح الخير!

في عتمة الفجر قفزتُ من نومي قلقًا محتارًا. حملت سلاح الكلاشنكوف وخوذتي من دون وعي ورميت بنفسي ناحية انعطافة الخندق (الدشمة). لم أعرف كيف حشوت قدميّ بسرعة في حذاء زميلي الموحل والواسع وارتميت خارج الدشمة المؤقتة. التفّ رباط الحذاء المنسدل حول قدميّ واختل توازني خلف الساتر القليل الارتفاع فوقعتُ واصطدمَ رأسي ببطن «حيدر يوسف بور» الذي كان يحمل بيده إبريق الحمام وقد خرج للتو من المرحاض. التففنا بعضنا حول بعض وانقلبنا رأسًا على عقب حتى ارتطمنا بالأرض. قال يوسف بور: هاااااي حسين قلندري، تشقلبتَ حتى أزبدتَ! ما بك لا تدري رأسك من قدميك!

سألتُ بسرعة: يا حسين، ما الذي حصل؟ لقد هجم العراقيون. سمعت صوتًا عربيًّا!

حينما شاهد يوسف بور حالي وضع يده على صدره وانفجر ضاحكًا! صحتُ منفعلًا: لماذا تضحك أيها المعتوه!

وجّه الإبريق الأحمر نحو الساتر الترابي وقال: افتح عينيك جيدًا لترى، مرتضى جاويدي على الساتر يعظ الإخوة العملاء البعثيين!

دقّقت النظر في الساتر. كان مرتضى آمر «السريّة الأولى»[1] يقف

1- اعتمدنا في النصوص لاحقًا: «السرية1»؛ «السرية 2» بدلاً من «السرية الاولى» و «السرية الثانية»

فوق الساتر الترابي على بعد سبعين أو ثمانين مترًا من العراقيين وقد وضع يديه حول فمه وراح يحدثهم:

- أي شَي لونك..أشلونك..يا أخي..صباح الخير!

سألت يوسف بور: ما معنى «أي شي لونك؟».

- يعني كيف حالك وأحوالك..

لم يكن مرتضى قد أنهى بعد سؤال العراقيين عن أحوالهم حين سقط ناحيته فجأة وابل من النيران وقذائف (الهاون60) وعندما رأى أن جواب «السلام عليكم» التي أرسلها كان نارًا وقذائف شرع بترديد شعار: الموت ليزيد الكافر صدام..

عند الظهيرة أيضًا تكررت نفس المراسم! لم يكن مرتضى ليرتدع، بل كان يعتلي الساتر الترابي في وضح النهار ليقف أمام أعيننا وأعين العراقيين ويلقي على الأعداء درسًا في العقيدة. كان أحيانًا يقرأ من خلف مكبر الصوت سورة الواقعة:

﴿.. **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين۞ في سدر مخضود۞ وطلح منضود۞ وظل ممدود۞**..﴾.

لكن جواب العراقيين، كما عند الصباح، كان رصاصًا وقذائف، ومجدّدًا لجأ مرتضى إلى الخيار الأخير.

- الموت لصدام..

جاء عدد من الإخوة في السرية لمشاركته أيضًا وردّدوا: الموت لصدام..

هذه المرة تركزت نيران العدو على الساتر بأكمله. تعجّبت من عدم تدخل قائد الكتيبة «جليل إسلامي» ليمنع مرتضى عن فعله. قلت في نفسي: لا بد أنّ مرتضى يريد أن يثبت أنّه في غاية الشجاعة! والقائد

أيضًا يحسب له حسابًا.

كان كـريم الأبرص قد أصيب بشظيـة في ذراعه وذعر إلى حدٍّ ما، فقـال: ما هـذه التصرفات يا حسـين قلندري؟ سوف يـودي مرتضى بحياتنا جميعًا!

مططت شفتي.

- ماذا أقول يا أخ كريم! اذهب إلى المستوصف.

عدتُ وحدّقتُ في وجه مرتضى الأسمر وهو ينزل بكامل هدوئه من على الساتر ويدخل مع قوات سريته إلى الدشمة.

طـوال الليل وحتى الصباح كان ذهنـي مشغولًا بما قام به مرتضى جاويدي الذي كرر عمله عند أذان الصبح. هذه المرة، كان يحمل معه مكبّر الصوت الخاص بمسؤول الإعلام الحاج صلواتي.

- أي شي لونك.. أشلون صحتك..صباح الخير.. الله يسلمك..

كان مرتضى يحـدّث العراقيين بالعربية، وعمـدة كلامه على كلمة أشلو التي كانت برأيي تخفيفًا لـ«أي شي لونك» نفسها، أي كيف حالك. وكان مسؤول الإعلام، العجوز السبعيني النحيف، الحاج صلواتي كمثل الشباب أيضًا ينتقل على الساتر من هذا الطرف إلى ذاك ويستمع إلى مرتضـى. وأما العراقيـون الذين قاموا غاضبين مـن نومهم فقد ردّوا مجدّدًا بالقذائف والرصاص. ثم علا شعار الموت لصدام من مرتضى والحاج صلواتي وعدد من الإخوة في السرية الذين جاؤوا لدعمهما.

شيئًـا فشيئًا حين بدأ عمل مرتضى يُلقـي الرعب والخوف في قلوب قـوات العـدو، أدركـت أن وراء سلوكه هدفًا. وسرعـان ما سرت عدوى مرتضـى في باقي شباب كتيبة الفجر، وانجذب الإخوة إلى عمله بحيث بات الجميع في منافسة من أجل الانتقال إلى سرية السيد مرتضى أشلو!

بعـد مـدة وبينما كنت أعـبر من أمـام دشمة مرتضـى في منطقة

عمليـات «حــي الستـين»، شاهدت لوحـة منصوبـة إلى جـوار دشمة مرتضى مكتوب عليها: دشمة أشلو!

دشمة يتناهى منها كل ليلة إلى مسامعي صوت قراءة سورة الواقعة:

﴿إذا وقعت الواقعة ۞ .. وماء مسكوب ۞ وفاكهة كثيرة ۞ لا مقطوعة ولا ممنوعة ۞ وفرش مرفوعة ۞ ..﴾

كان علـيّ أن أدقّ الحديد وهو حـام. ذهبت من فوري في أثر حسن مايلر، قناص سرية أشلو، وسألته:

– هل يمكن أن تتوسّط لي لأنضم إلى السرية؟!

حكّ أذنه وقال: بهذه البساطة؟!

– ماذا، وهل تريدني أن أدفع رشوة يا عديم المعرفة!

– أغلى من الرشوة، الانضمام إلى سرية أشلو له شروطه.

– لا تتعبني، وهل تتطلّب التضحية بالنفس شروطًا أيضًا!

– لأجل هذا النوع من التضحية طاااابعًا..

مطّ كلمة طبعًا ليؤكد صعوبة ولزوم الشروط. قلت: ما هي الشروط المطلوبة؟

– صـلاة الليـل، التدخـين ممنـوع، المشاركة في هجومـات عدة.. وآخرها امتحان التوكل والشجاعة!

– ما هو هذا الامتحان المطلوب؟

– أن تذهب في لحظة استثنائية في وضح النهار أمام أعين الأعداء لتعتلـي السـاتـر الترابي وتخلع قميصك فتجعل صـدرك درعًا في وجه الرصاص والقذائف وتقول عشر مرات:

– أسأل اللّه أن يعطيني مئة ألف روح لأموت مئة ألف مرة في سبيلك!

16

النفطة[1] والثفنة[2]

4 نيسان 1983

عنـد شمس الظهـيرة، جثـوت في ناحيةٍ مـن صحـراء نينوى وقد أعيـاني العطشـ. لجهة اليمين كانت قـد نُصِبت خيـامٌ بيض وخضر للإمـام الحسين عليه السلام، وفي الجهـة الأخرى كانت خيـام حشود جيش يزيد باللونين الأسود والأحمر. تتناهى إلى مسامعي الأصوات النسائية المتعاليـة مـن ناحية جيشـ يزيد بالأهازيـج والهتـاف تهييجًا للجنود وتحريضًا. وكان فتى شجـاع في قلب المعركة يضرب كالصاعقة جنود يزيـد المدججين بالسـلاح. وفي كل مـرة كان يسقط فيهـا جندي من الأعداء، كانت جراحات الفتـى الممشوق تزداد، وتتكسر النصال على النصال. وسط الغبار وقعقعة الـدروع وصليل السيوف وبوارقها، يخرّ الفتى أرضًا فتصخ سمعي صلصلة سيوف الأعداء ورماحهم ممزوجة بضجيجهم وصياحهم فرحًا:

- (ولدي) قاسم..

وفيما تُنهَك ساحة المعركة وقد حمي الوطيس، ومن دون أن أقوم من مـكاني، أقتربُ أكـثر وأكثر إلى ميدان المعركة ولا يـراني أحد. الأشلاء المقطعة والأجساد المضرجة لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام تناثرت في كل بقعة من الميدان. يؤخذ بي ناحية خيمة كبيرة مشرفة على ساحة المعركة. يتكئ علـى سيفه سيد ممشوق القامة نوراني الطلعة كأنما وجهه القمر ليلة اكتماله. ويقترب رجلٌ أسود طويل القامة حاملًا سيفًا وترسًا، يجثو بهدوء على ركبته ويقول: مولاي! أَطلبُ الإذن بالنزول إلى الميدان!

1- بثرة يتجمع بداخلها سائل بين الجلد واللحم جراء العمل الشديد أو الحرق أو الاحتكاك المتكرر. 2- الجزء من الجلد يغلظ وييبس من كثرة العمل.

يرفع السيد رأسه.

- أنت في حلٍّ مني.. انجُ بنفسك!

- إلى أين يا مولاي؟ أنا خادمك!

- أنت حرّ! يمكنك الذهاب حيث تريد!

- إن حريتي وحياتي الأبدية عندكم يا مولاي!

يبكي الرجل الأسود ويقول: أعلم لماذا لا تعطيني إذن القتال في سبيل اللّه!

وتصبّ عيناه مجددًا الدمع مدرارًا. يقف السيد ويضع يده على كتف الرجل الأسود.

- اذهب وعِش حياتك!

- إلى أين أذهب يا مولاي! لا طيّب اللّه العيش دونكم، أعلم أن لوني الأسود لا يمنحني لياقة القتال في ركبكم يا مولاي!

- ما هذا الكلام أيها العبد الطيّب!

- إذًا امنحني شرف الجهاد والشهادة في ركب إمامي!

- حسنًا..

- لي طلب آخر يا مولاي!

يشير الغلام الأسود إلى صدره ويتابع قائلًا: سيدي، عندي أمنية، أن أقف حين أضرب بسيفي في سبيل دين اللّه بصدر عارٍ أمام سهام الأعداء وسيوفهم.

أُشاهد ذلك الرجل الحر الأسود يخلع قميصه عن بدنه بمرح وسرور، وينزل ميدان القتال. ومن جديد تتناهى إلى سمعي صلصلة السيوف والدروع وتخنقني الغصة. مُشاهِدٌ أنا لمعركة عاشوراء بلا

حول مني ولا قوة. حين يصيب السهم الأول صدر الرجل الأسود نصف العـاري.. أصرخ: أسأل اللّه أن يعطيني مئـة ألف روح لأموت مئة ألف مرة ﻓﻲ سبيلك!

– حسين قلندري..قلندري! لماذا تصرخ ﻓﻲ الجبهة.. أنا أكلمك.. يا عزيزي لم يحن وقت امتحانك بعد.. أيعقل أن يكون الخوفُ تملّكك.

أيقظتنـي الرطوبـة والبلـل. فتحـت جفنيّ. تحـت أشعـة الشمس الحارقـة شاهـدتُ فـوق رأسـي وجهًا مدهوشًـا مبهمًـا. صرخت من أعماقـي: يا حسين.. لقد وقعتُ ﻓﻲ دشمة المذبحة.. الشمر الملعون.. يا حسين.. الموت ليزيد الكافر صدام..

– أدام اللّه رزقك، هيا قم. ما كان عليك أن تحفر الدشمة ﻓﻲ هذا القيظ حتى تغيب عن الوعي!

مـا إن أكمل صبّ ماء المطرة على وجهي حتى انقشعت الغشاوة عن عينـي ورأيت نفسي مجددًا ﻓﻲ جبهة «شرهـاني» بالقرب من مرتضى جاويـدي. أمعنت النظر ﻓﻲ ملامـح مرتضى فاجتاحنـي شعور حسنٌ برؤيـاي وقلت بـلا وازع: الرؤيا.. طلـب الغلام الأسـود ﻓﻲ الرؤيا من الإمام الحسين عليه السلام الإذن بنزع درعه وقميصه عند النزال.. مرتضى يقلّـده.. جلسـت وألقيت نظرة على وجه «أشلـو» وقد تماهى مع العرق والـتراب، وأنهكـه التعـب. بنحـو لا إرادي خرجـت من داخـل القناة الرملية. أمسكت بياقة «أشلو» ورحتُ أقبّل رأسه يمينًا وشمالًا. ضحك مرتضى وقال: ﻓﻲ النهاية فعلت الحرارة فعلها!

قلت: سيد مرتضى أنا ﻓﻲ ركبك حتى النهاية!

وضـع المعول من يده على الأرض. تبسم وقال: إن شاء اللّه ﻓﻲ ركب مولانا الإمام الحسين!

– لا أدري ما الذي حصل، فجأة فقدت وعيي. لكنني مسرور!

– أدام الله رزقك! اذهب إلى الدشمة واسترح!

حمل معوله وشرع بحفر التراب الأحمر والقاسي للقناة التي تقابل إلى جهة اليسار الخط الدفاعي للعراقيين. تزامن ضرب أشلو للمعول مع السقوط الفجائي لقذائف (الهاون60) ملم من قبل العدو.

بعد إلحاح، أخذت المعول من مرتضى وتَفَلْتُ لعابي على باطن كفي وبدأت أضرب في الأرض. أثناء سقوط القذائف علا صياح حسن مايلر. وصل إلى داخل القناة بسرعة البرق وقال لاهثًا: الحاج أسدي آت ليتفقّد الخط!

في تلك الناحية من القناة كان مرتضى، ومن دون انتباه لأمر مجيء جعفر أسدي قائد لواء المهدي، يحفر الأرض الصلبة بنسق سريع. كنت أجفّف عرقي بالكوفية حول عنقي حين رأيت قائد اللواء فوق رأسي.

– بارك الله بكم!

كان جليل إسلامي قائد كتيبة الفجر ومحمد رضا بديهي وكيهان بور معاون قائد الكتيبة موجودين أيضًا. تركت ما في يدي ووقفت بنحو مستقيم قائلًا: مشكور يا حاج!

مد يده ناحيتي ليصافحني. بسرعة مسحت يدي المعفرة بالتراب بسروالي الكاكي ومددتها. صافحها بشدة، شعرت أنه أحسّ بالنفطات والتورمات في باطن كفي. وحين صافح أشلو قال: ماذا حصل لأيديكم؟ دعني أرى!

كالأطفال سارعت إلى إخفاء يديّ من دون قصد خلف ظهري وقلت: لا شيء يا حاج!

توجـه قائد اللواء إلى جليـل إسلامي قائلًا: أعـطِ هذين مأذونية واصرفهما من العمل ريثما يرتاحان!

ضحك جليل إسلامي وقال: «يا حاج أسدي، إذا صرفتهما سيتحتم علـيّ حينهـا أن أعطي الجميع إجـازة للراحة، فجميع مـن في الكتيبة مُنْهَكون وقد مجلت[1] أيديهم من العمل!».

فكّر قائـد اللواء قليلًا ثـم أمسك بقبضة جليـل إسلامي وفتحها. وحين رأى نفطات وثفنات يده شاهدتُ الدموع في عينيه.

1 - أي تقرّحت وتكوّن بين الجلد واللحم ماء بإصابة نار أو مشقة أو معالجة الشيء الخشن.

17

التلة 175

10 نيسان 1983

منتصـف الليل، كنتُ منبطحًا أسفل «التلـة 175» الحدودية برفقة قوات «السريّة1»بالقرب من المعبر الذي فتحه سابقًا شباب الهندسة. كانـت قذائـف الكاتيوشـا والمدفعيـة تتساقـط قـرب الإخـوة وتنشر شظاياها وكتل التراب في جميع الأرجاء. ارتددتُ على ظهري وحدقتُ للحظة في القنابل المضيئة الفضية التي كان يرميها العدو فوق رؤوسنا. مباشرة أحسستُ بنفسٍ دافئ على عنقي، استدرت على كتفي الأيمن. كان «حسن مايلر» يحدق بي بعينيه البراقتين في الظلام!

سأل: قلندري، هل جرحت؟!

– لقد أخفتني. كلا.. كنت أحلّق في السماء!

– إذًا قل إنّك كنت في غاية الأنس!

أعلن «نداء العمليات» من جهاز السرية اللاسلكي:

– يا الله، يا الله، يا الله، إلى الأمام..

لقـد أعطى العم مرتضى الأمر بالهجـوم. نهضتُ، وجدت الشريط الأبيض (الفوسفوري) الحاجز ودخلتُ المعبر. ركض الجميع خلف العم مرتضى مباشـرة باتجاه سفح «التلة 175». كانـت رصاصات الدوشكا العراقية تمشّط كل المكان. أصابت قذائف الـ(B7) كومة تراب فارتدّت علينا شلالات الطين والشظايا ثم سمعتُ من بعدها صوتًا.

– أخ يا إلهي! لقد عميت!

أمامـي وتحت غبـار البارود والتـراب كان «ناصـر براري» قد وضع بندقيتـه (الكلاشنكـوف) علـى الأرضـ وراح يعيد بأعصـاب باردة

تركيب قدمه الصناعية التي انفكّت من مكانها تحت الركبة. قلت: ألا تريد أي مساعدة يا ناصر؟

رفع رأسه وقال: لا يا قلبي، فديتُك!

حين وصلت إلى حقل الألغام الثاني كان إطلاق الرصاص الخطّاط قد جعل الجميع تحت مرمى النيران. كنتُ أشعر مع إطلاق رصاصات الدوشكا وكأن مطرقة تنزل فوق رأسي. لقد شلّني صوت انفجارات القذائف المفاجئ ووابل النيران داخل حقل الألغام. تفحصتُ المكان حولي. كانت الحُفَر التي يخلّفها سقوط قذائف الكاتيوشا والمدفع قد ملأت جميع الأرجاء. فورًا وقع نظري على حذاء عسكري بقيت فيه قصبة رجل أحد المجاهدين: لا بدّ أنها قدم أحد شباب الاستطلاع.. بقيتْ هناك!

زحفتُ إلى داخل إحدى الحفر التي خلفتها القذائف، ومددتُ عنقي متلصصًا. كانت نيران قذائف مدفعية العدو المضادة للطيران تتناغم مع النجوم في السماء. وكان العم مرتضى أسفل التلة يطلق قذائف الـ(B7) من على كتفه باتجاه المرتفع (175) ويتقدم: لا يصيبَنَّ العمَّ شرٌّ؟ عار ألا أمضي قُدُمًا! غير آبه بالألغام، أخفيتُ رأسي وبدأتُ زحفي على مرفقي متجهًا نحو أشلو. أثناء المسير كان فتى مجروح ببطن ممزق ينادي الإمام الحسين عليه السلام. وفي ناحية أخرى كان هناك جسدٌ متفحم عبقت منه في أنفي رائحة اللحم والجلد المحترق، وبعيدًا عنه كانت جثتان مقطعتين إربًا إربًا.

وصلتُ إلى العم مرتضى بشق الأنفس، فيما كان هو يتقدم بشباب الكتيبة. كان العراقيون يقاومون من فوق التلّة وقد جعلوا الإخوة هدفًا لقذائف الـ(B7) والرشاشات والقنابل اليدوية. ورغم هذا الظرف فإن التقدم لم يتوقف، وبدأنا بالصعود من سفح التلة نحو الأعلى.

مـع بزوغ الفجر وصلنـا إلى أعلى «التلة 175». صـاح أشلو: طهّروا الخنادق!

وتحـت إشـراف أشلو دخلنـا الممـرات المتعرجة وبتنـا في مواجهة مباشرة مع قوات العـدو. أصيب مسؤول الاتصالات (عامل الإشارة)، الفتـى المرافق لمرتضى، وسقط أرضًا. وبدأ الجنود المعدودون المتبقون من قوات العدو بالتراجع، وتم تحرير «التلة175».

مـع إشراقـة الصباح لم يكن قد تبقى من المئـة شخص في السرية إلّا ثلاثون على قيد الحياة مع عشرة أسرى كنّا قد أسرناهم من قوات العدو. جاء العم مرتضى وأعاد تنظيم الإخوة من جديد وقال: يُحتمل بدرجـة عالية أن يقوم العراقيون بهجوم مضـاد لاستعادة التلّة، يجب أن نستعد للدفاع!

فتـحَ جهاز اللاسلكي وطلـبَ من قائد اللواء قـوة دعم. كنا متعبين وعطاشـى، ومهما طال انتظارنا لم يكن هناك أي خبر عن قوة الدعم. عند الساعة العاشرة صباحًا ولأجل استعادة «التلة 175» قام العراقيون بهجوم مضاد برّي وجوّي. هاجمتنا كتيبة كومندوس مسندة من المدفعية ونيران الهيلوكوبتر. نظر العم إلى «التلة 179» على يميننا وقال: لا يبدو أن شباب «السريّة2» قد تمكّنوا من السيطرة على «التلة 179»!

وكان حقًّا مـا قـال. نزلت علينـا أول زخـة رصاص (ملـوّن) من جهـة العدو في «التلة 179»، وتبعهـا انفجار تلك القذائف الحربية فوق رؤوسنـا! اتصـل العم بجليل إسلامـي الذي كان قد ذهـب مع شباب «السريّة2» للاستيلاء على «التلة 179».

- جليل، جليل، مرتضى..

- مرتضى على السمع!

- في الموقع يا جليل، نحن بتنا هدفًا..

- مرتضى نحن لم نتمكن من السيطرة على 179 واضطر الشباب للتراجع!

- ما هي الأوامر؟ بتنا نتلقى النيران من جميع الجهات!

- سوف أتصل بالحاج أسدي. أعلمك بالمطلوب.

كنّا تحت مرمى النيران من ثلاثة اتجاهات، وكان العراقيون ينصبّون من دون تردّد كالجراد من الأعالي. استشهد عدة إخوة آخرين وجُرح البعض الآخر، وفي آخر الأمر اتصل جليل إسلامي.

- ما الوضع يا مرتضى؟

- ليس على ما يرام، نحتاج قوة دعم.

- مرتضى، جناحاك الأيسر والأيمن لم يتمكنا من السيطرة على المواقع المطلوبة، قال الحاج أسدي انسحب مع شبابك بحذر! مفهوم؟ ما هي خطتك من أجل الانسحاب؟

- ولكن بهذه الطريقة سوف نترك جثث الشهداء خلفنا!

- ليس أمامنا حلٌّ آخر يا مرتضى، تراجع بالأحياء معك.

عند الظهر قسّم مرتضى الإخوة المتبقين إلى مجموعتين وقال: المجموعة الأولى تُطلق النيران على العدو حتى تتمكّن المجموعة الثانية من إخراج الجرحى!

بقيتُ أنا ومرتضى في المجموعة الأولى وتولت المجموعة الثانية عملية التراجع بالجرحى. فُتحت الجبهة واستمر إطلاق النيران حتى تمكنوا من النزول إلى أسفل التلة وبعدها وصلوا إلى حقل الألغام. كان مرتضى قد وضع جثث عشرين شهيدًا من أفراد سريته في مكان مناسب من التلّة وفصل قلاداتهم، وبدأنا بعيون غرقى بالدموع عملية التراجع.

وحيث لم ترافقنا قوة إسناد ناري فقد كان تراجع مجموعتنا صعبًا. كان علينا أن ندخل حقل الألغام في وضح النهار وأمام أعين الأعداء. لقد كان حقل الألغام بالنسبة إلينا بمنزلة كعب آخيل وعين اسفنديار[1] .

داخل حقل الألغام كانت نيران العراقيين المباشرة تنهال علينا من كل جانب؛ لقد تحوّلنا إلى أهداف للرماية! تحت وابل النيران كنت أنتظر حصتي من الرصاص. لفت ًانتباهي صوتُ مرتضى:

لا تتحلّقوا حولي.. انجوا بحياتكم.. اسمعوني.. أنا لا أسامحكم إن لم تبتعدوا من حولي.

بعد جهد جهيد تمكّنت من الاقتراب من مرتضى. كان المشهد الذي تراءى أمامي غير قابل للتصديق! في تلك الأوضاع المحتدمة والقتل الجاري كان الإخوة المتبقّون قد تحلّقوا كالفراشات حول مرتضى وراحوا يتحركون خطوة خطوة معه حتى يمنعوا عنه الرصاص!

- لا تصيبنّ العمّ رصاصة وفينا عرق يجري!

كان مرتضى يتعذّب. يضج وينوح. يبكي ويترجى الإخوة أن يتفرقوا عنه: أقسم عليكم بروح الإمام أن تبتعدوا..

وكان الإخوة يذرفون الدمع ويطلقون النار باتجاه العراقيين وقد اشتدت عزيمتهم وأحكموا جمعهم أكثر حول مرتضى حفظًا له وهم يصرخون: .. كلنا فداء للعم مرتضى..

بشكل تلقائي صرت جزءًا من ذلك الدرع البشري. وحين تجاوزنا حقل الألغام وخرجنا من مرمى النيران لم يكن قد تبقّى سالمًا منّا إلّا العم مرتضى وأنا وشخصان آخران.

1- يراجع الملحق: كعب آخيل.

عندمـا وصلنا إلى ساترنا الترابي لم يكن مرتضى ليهدأ أبدًا. كان يتنقل من مـكان إلى مكان بحثًا عن جليل إسلامي قائد الكتيبة، يريد أن يرجـع ليلًا ويعيد جثث أفراد سريته. لكـنّ الخبر وصل: جثةٍ كيان بـور معاون قائد كتيبة الفجر بقيت أيضًا على «التلة 179»، وقد أُصيب كلٌّ من جليل إسلامي ومحمد رضا بديهي.

18

مطر الأقاحي

10 أيار 1983

﴿إذا وقعت الواقعة.. إنّا أنشأناهن إنشاء۞ فجعلناهن أبكارا۞ عربًا أترابا۞ لأصحاب اليمين۞ ثلة من الأولين۞ وثلة من الآخرين۞ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال.. فسبح باسم ربك العظيم۞﴾

- سلام ابنة خالتي!

أغلقت المصحف، قبّلته واستدرتُ بسرعة ناحية مدخل الغرفة رقم 120. كان مرتضى، بعينين دامعتين ورأس ووجه معفّرين بالتراب وشعر رأس قصير، واقفًا داخل إطار باب الغرفة ينتظرني حتى أنهي قراءة سورة الواقعة. تبادلنا النظرات وتلعثم لساني.

- يا إلهي! .. مـ..رتـ..ض...ى!

مسح بيده على لحيته الشعثاء.

- ماذا يا بنت الخالة، أرأيت جِنًّا!

حين تمالكت نفسي مسحتُ دموعي وقلت: الحمد لله! كنتَ واقفًا تستمع أيها الماكر!

- كنت أظن أنك تقرأين سورة الواقعة ليلًا!

- الليل له عمله. عندما وصلتُ إلى أصحاب اليمين وصلتَ أنت، ماذا يعني هذا.. مرتضى؟

شبك أصابع كلتا يديه خلف رأسه، فكر وأخذ نفسًا عميقًا. حدقتُ في وجهه الأغبر. تمنيتُ أن أبقى أنظر إليه حتى قيام الساعة. وضع يده أمام وجهي وحرّكها مرات وقال: استغرقتِ في الهلوسة؟ ألا ترين إنسانًا أمامك؟

مسحتُ بيدي على رأسه المعفّر ومسحتُ عينيّ بها.

– وهذا كحل عيني.. أليس هناك وقت للاستحمام في الجبهة؟

تبسّم.

– كيف لا.. هناك حديقة عامة وسينما وكأننا في الكويت! تقرأين رسالة الإمام العملية أيضًا؟

– نعم، صحيح، تعال واسألني!

حين جلس ذهبتُ وأشعلتُ مدفأة الكاز في زاوية الغرفة 110 ووضعتُ إبريق الماء عليها.

كان الوقت يميل نحو الغروب. ضغطت مفتاح المصباح الدائري المعلّق بالسقف. عدتُ ووضعت الشاي في الإبريق وقدّمته لمرتضى. شرب الشاي وقال: سلمت يداك! لقد قرّر اللواء الانتقال إلى غرب البلاد، إلى كردستان!

– لماذا؟!

– مهمة جديدة!

– وهل ينبغي أن أحزم أمتعتي في حقيبة!

– لا يا آمنة، هذه المرة يجب أن تعودي إلى فسا.

أطلقتُ العنان لغضبي وقاطعته قائلة: لن أعود إلى جليان إلّا معك!

– يا بنت خالتي بقية النساء أيضًا سيرجعن.

– لا شأن لي بهنّ! أذهب معك إلى الغرب وإن لم يكن الأمر ممكنًا سأبقى أنتظرك هنا!

– تبقين وحيدة!

– ههنا أكثر راحة لي من جليان. هناك عليّ أن أجلس وأغرق في

الكآبة والحزن.

- كما تفضّلين!

- مرتضى!

- يا روح مرتضى!

- ألا يمكن أن تتأمّن غرفة هناك كما هنا!

- لا يا بنت خالتي؛ لا يوجد فندق هناك!

ضحكت.

- كيف هي الكويت؟

- منطقة كردستان فيها معارضو الثورة، وهناك حضور للحزبين الكرديين «الكومله» و«الديمقراطي»[1]، وهم يطعنون بالخنجر في الظهر. ليست مكانًا مناسبًا للأُسَر.

ضحك وواصل كلامه: بالطبع هناك الثلج والمطر والأقاحي الجبلية.. فكردستان جميلة!

- أنا أعشق الأقحوان والخطر!

- لقد صدقتُكِ القول. مجيئك إلى هناك سيبقيني قلقًا عليك!

- إذًا أنتظرك هنا!

ظهيرة اليوم التالي دخل مرتضى بهدوء وصمت إلى الغرفة 110. رسم ابتسامة على شفتيه. سرّح بالمشط الأزرق في يده شعر رأسه الذي تمّ تقصيره للتوّ، ثم سرّح شعر لحيته.

- إذا كنّا عبئًا فنحن راحلون إذا كنّا قساةً فنحن راحلون!

خنقتني الغصة. ودّعني وخرج من الغرفة. حبستُ دموعي. كدتُ

1- يراجع ملحق (كومله).

أنفجر من الداخل! ذهبتُ خلف نافذتي الصغيرة وأزحتُ ستارتها البنّية ورحتُ أحدّق في الخارج. كان مرتضى ومحمود ستوده قد صارا داخل موقف الفندق.

- سلام، عذرًا على الإزعاج.

استدرت. كانت بروين زوجة ستوده وسمية ابنتها الصغيرة قد صارتا داخل الغرفة. تقدمتا بعجل نحو النافذة. قالت بروين: اعذريني لقد أفقدَتْني سمية صوابي، تقول إنها تريد أن تشاهد من خلف النافذة والدها وهو يذهب. وأنت تعلمين أن نافذتنا تطلّ على كارون!

- أهلًا وسهلًا بكما!

تقدمتُ واحتضنتُ سمية، وصرنا أنا وبروين نتأمل زوجينا اللذين ركبا في سيارة التويوتا الرمادية اللون.

وكأن مرتضى كان يعلم حين تحركت السيارة أنني أراقبه من خلف النافذة. ألقى نظرة على النافذة ورفع إصبعيه راسمًا علامة النصر نحوي. مرّت السيارة بجانب النخلات المغبرّة لفندق استرا ثم اختفت عن ناظري. همستْ بروين وقد خنقتها الغصة: آمنة هل سنراهما مرة أخرى!

ارتجفتْ شفتاي وانفجرتُ بكاءً.

19

«عمو زنجير باف»[1]

15 أيار 1983

عند الظهيرة، بعد تسلّق خمسة كيلومترات محمّلين بالعتاد في جبال بيرانشهر، وصلنا إلى داخل القاعدة منهكين وبلا رمق. صاح العم مرتضى الذي كان أكثرنا نشاطًا وهمة: من المتعب؟

صرخنا في الكتيبة جميعًا بصوت واحد: العدو!

من الأبتر؟ أمريكا!

الروحية؟ عالية!

وحين سكت العمّ، انطلق «مش موسى»، مسؤول الدعم:

البطون؟ خالية!

التعبوي؟ مقاتل!

حزب الله؟ مقاتل!

أمريكا؟ بائسة!

السوفياتية[2]؟ بائدة!

إسرائيل؟ زائلة!

في نهاية التدريب اليومي؛ لم يبقَ فينا رمق أو حناجر؛ ولكنّ خطوات العمّ مرتضى الشامخة والثابتة كانت تبعث فينا جميعًا الحياة من جديد. من ناحية أخرى كنا مسرورين أنّ هجومًا جديدًا يوشك أن يشنّ وسوف نغير على العدو البعثي. ابتسم العم ويده على وسطه وقال

1 - يراجع ملحق: العم زنجبير باف (العم رابط السلسلة).

1-اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية أو ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي سابقًا.

بحزم: جلوس!

الخوذات على الرؤوس والحقائب والأغطية على الظهور، والأسلحة في الأيدي، جلسنا متناسقين وصرخنا: يا حسين!

- قف!

وقفنا جميعًا وهتفنا: يا علي!.

كنا مسرورين من انتهاء تدريب هذا اليوم المنهك، لكن صوت العم فجأة خرّب علينا فرحتنا.

- اليوم نريد أن نمشي ضعف المسير اليومي!

جمدت تعابير البعض وصرنا نتبادل النظرات فيما بيننا. قال أحدهم من خلفي: لقد مجلت أقدامنا!

كثر التهامس بين الأفراد. رفع العم مرتضى يده عاليًا.

- التسلّق المضاعف اليوم ليس إلزاميًا! كلّ من لديه عذر يمكنه الخروج من الصف والذهاب للاستراحة في خيمته!

كانت الشمس في كبد السماء. زادت الهمهمات. صرنا نحدّق في بعضنا بعضًا الواحد تلو الآخر. كنا مستعدين أن نضحّي بأرواحنا لأجل مرتضى، ولكن في ظلّ هذا التعب المضني، كان من المستحيل أن نتحمّل مسيرًا مجهدًا آخر! قال جليل إسلامي الذي كان قد تنازل عن قيادة كتيبة الفجر لمرتضى تطوعًا والتحق هو في ركبه: كل من لديه اعتراض فليخرج من الرتل.. ليذهب للصلاة وتناول طعام الغداء!

توانيت متردّدًا وانتظرت. طال الوقت حتى خرج أول شخص من الرتل. تبعه عدد آخر. من بين ما يفوق الثلاثمئة شخص في الكتيبة كان لا يزال هناك مئتان. أشار العمّ إلى إسلامي فأوضح الأخير مشيرًا بإصبعه إلى المرتفع والوادي الرماديّين أمامنا اللذين كنا جلنا

فيهما صباحًا.

– ليس الأمر مزاحًا، علينا أن نذهب إلى هناك مرة أخرى!

توقف قليلًا، وتراجع خمسون أو ستون شخصًا آخر. تقدّم العمّ بحيث يراه الجميع.

– أما من أحد آخر يريد أن يذهب ليستريح! أكرّر مرة أخرى، ليس الأمر إجباريًّا، والوقت ليس ليلة عاشوراء، كما إنّني والعياذ باللّه لست الإمام الحسين عليه السلام!

أعطى كلامه الحجة للبعض وانسحب عدد أكبر من الرتل فلم يتبقّ إلا سبعون شخصًا. هزّ العم يده مرخّصًا لهم في الانسحاب وقال للبقية: امشوا خلفي في صف واحد!

بدأ المزاح والضحك، وأمسك كل واحد بالحزام العسكري لمن يتقدمه وانطلقنا.

وصار حسن مايلر ينشد أنشودة: «عمو زنجير باف»!

ونحن بدورنا صرنا جميعا نمطّ حروف كلمة نعم خلفه ونقول:نعم!

– هل ربطتَ سلسلتي؟ نعم!

– هل وضعتها خلف الجبل؟ نعم!

– جاء العم! ماذا جلب؟

– سندويش وعصير! كل وتعال.

انعطفت الكتيبة التي تقلصت إلى سرية خلف أول مبنى في القاعدة.

– بأي صوت؟ الهاون.. الهاون..

كُپ كُپ كُپ.. كُپ..

أثناء المسير كانت جفوننا قد أطبقت من كثرة الضحك المكتوم،

وكنـا نرتجف من شدة الضغط الذي مارسناه علـى أنفسنا! ذهب بنا محمـد رضـا بديهي، المعاون الثـاني لقائد الكتيبـة، مباشرة إلى باب خيمة الدعم الخاصة بالكتيبة وأعطى الأمر بالتوقف: اجلسوا!

جاء العم وجليل يضحـكان. كانت ضحكات صامتة سبّبها الإنهاك الذي أضنى أجسامنا. قال العم: قوّاكم الله، وعافاكم دومًا!

نـادى «مش موسى»، مسؤول الدعـم في الكتيبة فظهر مع أشخاص عدة يحملون في أيديهم صندوقًا من الثلج.

– هذه مكافأة إيثاركم!

أخـرج «مشـ موسـى» ذو الشعـر الرمادي مـن داخـل الصندوق المطاطـي علب عصير، وصار يوزّعها علـى الإخوة ويقول ما بين الجد والمزاح: خسارة أن يضيع هذا العصير المنعش والصافي في بطونكم!

وُزّعت علب العصير وكأن «مش موسى» كان هو الذي تمّ توزيعه! في النهاية قال العم: لم يكن هناك عدد كاف من علب العصير لكل أفراد الكتيبـة، فـكان لا بدّ من أن أختبركم، الآن أكملـوا المسير بالعودة إلى خيمتكم واستريحوا!

شربنا العصير البارد دفعة واحدة، وعدنا ننشد «عمو زنجير باف» من جديد حتى خيام الاستراحة.

– «عمو زنجير باف».. نعم..

20

حوالة البغل

31 أيار 1983م

صباحًا، عندما ركبت الجيب العسكري برفقة صالح أسدي وجلال كوشا قاصدين ثكنة الجيش في بيرانشهر، ظهر مرتضى أمام السيارة بغتة.

- حاج كاظم.. إلى أين تذهب بهذه السرعة؟

رفعت إصبعيّ عاليًا مشيرًا إلى علامة النصر.

- ينقصُنا بَغلان لأجل الهجوم، ونحن ذاهبون لاقتراضهما من الإخوة في الجيش!

- حاج كاظم حقيقت، بعد إذنك أريد أن آتي.

قفز صالح من المقعد الأمامي للجيب المكشوف إلى المقعد الخلفي وأخلى المكان. جلس مرتضى بجانبي، وضع كفّيه خلف رأسه، واتّكأ على الكرسي.

شهر التدريب المكثّف هذا قد أجهدني. أنا خجلٌ من شباب كتيبتي! لقد استنفدوا وُسعهم.

ضغطت على دوّاسة البنزين وخرجنا من المقر. كانت الطريق الجبلية شديدة الخضرة وكثيرة التعرّج، وكان النسيم البارد يلفحُ وجهي. رأيتُ جنودًا بأيديهم بنادق (G3) وقد تموضعوا كلَّ مئة متر فوق التلال ضمن مجموعات. لوّحت لأحدهم بيدي. قال مرتضى: «حاج كاظم، هل تعلم كم عدد الجنود الذين يسقطون لأجل حماية طرقات كردستان حاليًا!».

- أهلك الله أعداء الثورة الذين استحالوا عملاء ومرتزقة لصدام!

غيّر صالح موضوع الكلام.

هل تعلمون أنّ قيمة البغل في الجبال أغلى من «التويوتا!».

استدرت قليلًا ونظرت إليه: «صالح، من سيتولى ركوب البغال؟».

– أنا، أعرف ركوب البغل.

قال جلال: «هذا رائع!».

قلت: «جلال، وماذا عنك؟».

– في الحقيقة في أيام طفولتي رفسني حمارٌ تحت عيني.. وهذا مكان الضربة!

نظرتُ إليه من خلال المرآة الأمامية وقلت: «يا فصيح، ليس الحمار، البغل!».

– وما الفرق، كلاهما يرفس!

– ما إن تركبه، سوف تبتهج، وأعدك أنّك سوف تقع في غرامه!

– وقعتُ في الغرام مرّة وكانت كافية للعمر كله! ولكن برأيي، الحياة بلا غرام كالسندويش بلا مرطبات.

قال مرتضى: «تذكّر يا حاج كاظم ما إن نرجع إلى الأهواز علينا أن نُبلِّغ زوجة الحاج!».

– عم مرتضى، لا توقع الخلاف بيني وبين زوجتي!

رمى جلال الكرة في ملعب صالح أسدي.

– صالح، كم غيارًا للسرعة لدى البغل؟

وضع صالح يده على صدره وتحسّس أضلاعه.

– هذا الغيار[1] لن أُخبرك عنه!

1-في النص الفارسي لعب على الألفاظ، حيث استخدمت كلمة «دنده» كمشترك لفظي بمعنى غيار سرعة مرة، والضلع مرة أخرى.

قلت: جلال، يجب أن تكون رفيقًا بالبغل، أن تُعايشه.. علينا أن نذهب بواسطة هذه البغال إلى عمق 30 كلم داخل الأراضي العراقية!

قال مرتضى: بدون هذه البغال، لن نصمد حتى يومًا واحدًا!

أشار جلال بإصبعه إلى جانب الطريق.

- ما هذا يا حاج كاظم!

التفتُّ إلى سيارة تويوتا عسكرية مدمّرة يتصاعد منها الدّخان الأسود!

- لم تكن هنا البارحة!

قال مرتضى: لقد كمن لها الـ«كومله» البارحة، استشهد على الأثر اثنان من شباب التعبئة في اللواء وقاموا بقطع رأس شابٍّ آخر!

لمحتُ إلى جوار السيّارة المحروقة لوحة مخطوطة.

«يا كُتّاب التاريخ! فليُكسَر القلم الذي لا يكتب عمّا جرى على الخميني وأصحابه».

تنهّد مرتضى تنهيدة طويلة.

- إلهي.. متى يحينُ الوقت الذي نعبر فيه الحدود ونحرق مقر هؤلاء!

شاهدتُ الدمع في عينيّ مرتضى. أَمَلْتُ مِقوَد السيّارة وانعطفتُ مبتعدًا عن المنطقة الجبلية ودخلتُ في السهل.

حين شاهدتُ الجدران العالية لثكنة الجيش خففت من سرعة السيارة وقلت: «مع الاعتذار من العم؛ للعسكر في الجيش نظامهم، أرجو أن تلزموا الآداب لعدّة ساعات!».

دُستُ على الفرامل أمام باب التفتيش وأبرزتُ للجنديّ المسلّح تصريح المرور وورقة الحوالة، فأمسكها وراح يتأمّل فيها. لكمني جلال

على جانبي.

- لقد حمل الورقة بالمقلوب!

دفعتُ صالح بهدوء على جانبه:

قلتُ لك، أحسنوا التصرف!

ظلّ الجندي محتارًا في الأوراق المقلوبة التي يحملها بين يديه وقال في نهاية المطاف:

- ماذا لديكم؟

قال صالح: جنابكم، يجب أن ندخل لنستلم الحمار.

أخذ الجندي نفسًا عميقًا. رمقنا بنظرة حادة وهزّ رأسه.

- أعلم ذلك!

أعاد إلينا تصريح المرور والحوالة وأشار بإصبعه إلى إسطبلٍ كبير.

- اذهبوا إلى قسم البغال!

- شكرًا جنابكم!

ما إن تحرّكتُ، خرج راكضًا من المرحاض خلف حجرة التفتيش جندي آخر وبيده إبريق بلاستيكي أحمر! نظر إلى سيارتنا. وضع الإبريق أرضًا. شدّ حزام وسطه وصاح بالشرطي: من كان هؤلاء.. ألم أقل لك.. لا تعط إذنًا بالمرور لأحدٍ حتى أرجع! يا عديم الفهم..

ضغطت على دوّاسة البنزين وتوقّفت أمام الإسطبل الكبير. استلمنا البغلين ورحنا نتأمل فيهما. لم يمتلك أيٌّ منّا جرأة ركوب أيّ منهما. قال مرتضى: «أنا سأجرّب!».

قال جلال كوشا: «لا يا عم.. وهل متنا نحن؟».

ركب جلال البغل بسرعة. انحنى. وأمسك لجامه.

– لا لا لا لـ.. لست سيّئًا.. الأمر سهـ..

جَمُـدت الكلمـات في فم جـلال واهتزّت الأرض مـن تحت قدميه. تذكّـرتُ أفـلام رعـاة البقـر (الكاوبـوي) وراكبي الحمـير الوحشية ورفسات الأحصنة!

– يااااا أماااااه.. يـ يا إمام شاه تشراغ[1].. لقد أ.. أ..أخطأت..

شرع البغل يهُزّ جلال كمثل مادة هلامية وانطلق يعدو! وكان جلال كمثـل القُراد[2] ملتصقًا بظهـر البغل المسكين! أمـا البقية، فلم نتمكن مـن الحركة أو الكلام من شـدّة الضحك اللاإرادي. وما إن أفقنا من الصدمـة، حتى انطلقنا في أثر البغل! الحيوان يعدو ونحن نعدو خلفه! اتجـه البغل نحو حجـرات الإسطبل وأخذ يدخـل الواحدة ليخرج من الأخرى وهو يرفس ويـركل. ساد الهرج والمرج. كان الجنود والضّباط الذيـن تجمعـوا جراء صراخ جـلال وصياحه قد وضعـوا أيديهم على بطونهم من شدة الضحك المتواصل.

دخل البغل وجلال إلى كراج تغيير الزيت وبعد العدو لمسافة تزحلق البغـل وتوقّفا. كشفنا على البغل الذي كان يعرج في حركته وأدركنا أنّ عينه اليسرى كانت منطفئة!

بدّلنـا البغـل الأعـرج والأعمى. هذه المـرة قال صالـح «بسم اللّه» وركـب البغل الجديـد. خائفًا ومرتجفًـا تحرك صالح مـا أمكنه على مهـل. زفر الحيوان وهزّ قليلًا. حفّ الأرض برجله الأمامية ثم فجأة قلـع صالح من مكانـه بسرعة مذهلة وفرّ به مثل الريـح! قلت: «اللهم

1 - لقـب يطلقـه أهل شيراز على السيد أحمد بن الامـام موسى الكاظم (عليه السلام)، المدفون في شيراز وله ضريح ومزار مهم فيها.

2- القراد: دويبة متطفلة من المفصليات ذات أربع أزواج من الأرجل تعيش على الدواب حيث تلتصق بها وتمتص دمها.

الطُفْ بصالح!».

قفز مرتضى خلف مِقود الجيب.

- اركبوا!

لحِقْنا البغلَ الهارب بالسيّارة! أمام مقرّ المراقبة في الثكنة كان الجنديان لا يزالان يتشاجران بشأن فتح الطريق أمامنا! تجاوزناهما وتواصلت عملية التعقّب والفرار خارج الثكنة. كان صالح محنيًّا وقد أمسك برقبة البغل بكلتا يديه بإحكام. وكان البغل يعدو بسرعة نحو بيرانشهر. أكثر من مرّة ظلّ صالح معلّقًا بالبغل من جهة واحدة فيما كانت قدماه تشحطان على الأرض، كأنّما كان قد التصق برقبة البغل! قلت: «مرتضى، تجاوز البغل وسدّ عليه الطريق!».

ضغط مرتضى على دوّاسة البنزين وصِرنا أقرب من البغل الجامح. قلت: «يا عم.. لقد اصطدمنا به، خُذ يسارك.. احتياطًا..».

وصل البغل إلى شوارع بيرانشهر واستمرت الملاحقة والفرار أمام أعين الناس الضاحكة في الأزقة والسوق. في نهاية المطاف انعطف الحيوانُ داخلَ زقاقٍ وسلك مرتضى طريقًا مختصرة ليقطع الطريق على البغل. عندما وصلنا إليهما كان صالح مرميًّا على الأرض ملطّخًا بالدماء وتغطي الجراح جميع أنحاء بدنه، والبغل فوق رأسه يلهث ويدُقّ الأرض بحافره!

21

الأخدود[1] تسعة

5 حزيران 1983

– صالح يجب علينا أن نستطلع كل معسكر العدو بدقة.

أكد «كاظم حقيقت» مسؤول المعلومات العسكرية للواء المهدي مرات عدة: يا صالح، يجب إرشاد مرتضى إلى المنطقة كأحد أفراد فريق المعلومات. انتبه له! إن أصابه أدنى مكروه فإن الحاج أسدي سيسلخ جلدنا!

مساءً، شكلنا فريق استطلاع مؤلّفًا من ثمانية عشر شخصًا ونزلنا من مرتفع قمطرة الحدودي العالي مرتدين اللباس الكردي نحو وادي الحاج عمران في عمق أرض العراق.

استغرق الأمر أربعًا وعشرين ساعة حتى ابتعدنا عن العدو بالالتفاف حول محور منطقة «الحاج إبراهيم»، ووصلنا إلى معسكر أكراد الحزب الوطني الكردستاني المعارض في العراق. عندما دخلنا إلى الشيار رقم تسعة، حضر لاستقبالنا الأخ إدريس من قادة الحزب الوطني لكردستان العراق. همس كاظم في أذن العم مرتضى: الأخ إدريس هو أخو مسعود البارزاني، رئيس الحزب الوطني لكردستان العراق! وهو إنسان مميز!

سأل مرتضى متعجبًا: ابن الملا مصطفى البارزاني المعروف؟!

– نعم.. الأخ إدريس أكثر تحصيلًا من أخيه مسعود. لقد درس في أوروبا، ويتقن لغتين أجنبيتين، وهو أيضًا حافظ لكلّ القرآن!

– حافظ لكلّ القرآن؟

1- (شيار نه)؛ أخدود أو منخفض تسعة.

بعـد ساعة شـدّ صوت تلاوة مرتضى للقـرآن الأخ إدريس إلى جوار النار.

﴿إذا وقعت الواقعة.. في سَـمُوم وَحَميم۞وظلٍّ منْ يَحْمُوم، لا بـارد وَلا كَريم۞إنَّهُمْ كانُوا قبْلَ ذلكً مُتْرَفينَ۞وَكانُوا يُصرُّونَ عًلَى الْحنْثً الْعَظيمً۞وَكانُوا يَقُولُـونَ أَإذا متْنا وَكُنَّا تُرابًا وَعظامًا أَإنَّا لَمَبْعُوثُونَ۞أَوَآباؤُنا الْأَوَّلُونَ، ..﴾.

في منتصـف العمـر وبابتسامة علـى الشفتين اقـترب الأخ إدريس ووضـع سلاحه الكلاشينكوف الأخمس بجـوار النار. فتل شاربه الكث والأسـود وتحت انعكاسـ ضوء شعل النيران أمعـن النظر في مرتضى الذي كان يقرأ سورة الواقعة غيبًا.

﴿..قُلْ إنَّ الْأَوَّلينَ وَالْآخرينَ۞لَمَجْمُوعُونَ إلى ميقات يَوْم مَعْلُوم ۞ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّـالُّونَ الْمُكَذّبُونَ۞لَآكلُونَ منْ شَـجَر منْ زَقُّوم۞ فَمالؤُنَ منْهَا الْبُطُونَ۞فَشاربُونَ عَلَيْه منَ الْحَميم۞فَشاربُونَ شُرْبَ الْهيم۞هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّين۞.. فسبح باسم ربك العظيم﴾.

عندمـا أتم مرتضـى قراءة القرآن قـال الأخ إدريسـ: لقد سمعت الكثـير عن رجال الحرس! وهذه فرصة جيدة لأفهم لماذا وضع صدام جائزة بقيمة خمسين ألف تومان مقابل رأس كل واحد منكم!

سكت قليلًا ثم تابع: يقولون إنّ كل واحد منكم يقاتل بمقدار عشرة من البشمركة[1]! كم كنت أتمنى أن أحظى بكتيبة منكم!

قال العـم مرتضى ضاحكًا: يا أخ إدريسـ، تحمّلنا نحن عدة أيام، وإن لم تندم فكتيبة الفجر مباركة عليك!

1- البشمركـة أو الفدائيـون كما تعني الكلمـة بالعربية، وهي ترمز إلـى القوات المسلحة الكردية الموجودة في شمال العراق.

هــز الأخ إدريســ رأسه وقال متأمــلًا: لا يبدو مــن قوامك النحيل وعظامك البارزة.. أنك تتمتع بالقوة! وضع مرتضى يده على قلبه:

– يا أخ إدريس قوة أفراد الحرس ها هنا، وليس في عضدهم!

حدق الأخ إدريس في وجه مرتضى.

– لا بدّ أنك القائد.. أليس كذلك؟

تسمّرنا في مكاننا. سأل كاظم: أتعلم بالغيب يا أخ إدريس؟

– كلا.. العينــان، القلب، تلاوة هذا الرجل لســورة الواقعة، تنطق بذلك. فلندع ذلك جانبًا..

أشار إلى الرجل الضخم المتوسط العمر إلى يمينه.

– الأخ ملازم علي. الضابط الفارّ من الجيش العراقي، ابن بلدكم ومن بلوشستان! يعرف المنطقة مثل كفّ يده!

بعــد ساعات من الاستراحــة، بدأنا برفقة مــلازمٍ علي وشخصين كرديّـين باستطلاع المواقــع الموجودة فوق المرتفع. شيئًــا فشيئًا رمّمنا الخرائــط الناقصة للمحاور ووصلنــا إلى مرحلة كان يجب علينا فيها أن نذهب لنشاهد عن قرب الموانع الدفاعية للمواقع العراقية ونعاينها. قلت للأخ ملازم علي: هل تأتي معنا؟

– إلى أين يا أخ صالح؟

– قريبًا من المواقع؟!

عقد الأخ ملازم علي حاجبيه الكثيفين وخزّر عينيه.

– أجُننت يا أخ صالح؟ هل تريد أن تقتل نفسك!

قلت ببرودة أعصاب: لدينا تجربة. لن تحدث أي مشكلة!

– لا أستطيع أن آذن لكم. قم بالاستطلاع من هذه المسافة!

- يجب أن نذهب ونعاين عن قرب! أن ندرس بدقة موانع الأسلاك الشائكة وحقل الألغام والمحور.

مسح على شاربه الرمادي الكثيف.

- لا علاقة لي بذلك. اجلس فوق المرتفع واستطلع بواسطة المنظار!

ومهما قلت، لم ينثن عن قراره. واصل قول لا بشكل متلاحق. ضحك مرتضى وقال: لا تلوموه، هم يعيشون في الأخدود رقم تسعة[1]!

قلت للأخ ملازم علي محاولاً للمرة الأخيرة: سنذهب أتى من أتى أم بقي من بقي.

زمجر ملازم علي قائلًا: أنتم أفراد الحرس مجانين. لا تشيخون أبدًا!

- لا نشيخ أبدًا، هذا أمر حسن جدًّا!

- قصدي أنّكم تُقتلون في سنّ الشباب!

ضحكنا وتركنا الأكراد المعارضين وانصرفنا إلى العمل. من خلال الاستطلاع الأول التفتنا إلى أنّه لم تشيّد حقول ألغام حول المواقع العراقية، واستطعنا أن نتقدم حتى مواضع هوائيات إرسال أجهزة اللاسلكي في مواقع العدو!

1- في النص الفارسي لعب على الكلمات، فكلمة (نَه) تعني لا، وكلمة (نُه) تعني تسعة، وفي اللغة المحكية يتشابهان حتى يصيرا كالمشترك اللفظي؛ والمعنى المقصود في النص هو أن كثرة قوله (نه/كلا) ترجع إلى عيشه في الاخدود (نه/تسعة).

22

إبراهيم الزِّمك[1]

10 حزيران 1983م

عند الغروب جاءني إسماعيل توكّلي.

– أخ صالح، الشباب مستعدّون للتحرك!

– أين هم الآن؟

– في دشمة[2] الاستطلاع؟

أشرت بإصبعي إلى سفح مرتفع القمطرة وقلت: «أخ إسماعيل، إلى حين ذهابي عند كاظم لأستوضح مهمّة الليلة، استلم أنت جهاز اللاسلكي وأحضر الإخوة إلى أسفل القمطرة!».

استلمتُ برنامج استطلاع الليلة من كاظم حقيقت وذهبتُ إلى مجموعة الاستطلاع. كانوا قد تجمّعوا كلُّهم باللباس الكُردي ومعهم المعدّات العسكرية التي يحملها المغاوير. وطبقًا لمعظم الأوقات كان إسماعيل يُشاكس إبراهيم كاركر، الفتى الصغير الجثّة في مجموعة الاستطلاع.

– إبراهيم الزِّمكّ، طلبوا ألا نأخذ معنا الليلة للاستطلاع من كان تحت الخامسة عشرة من العمر!

– احلف بحياتك يا إسماعيل.

– بحياتيش يا برهوم[3]!

1- الزّمكة: القصير القامة الصغير الحجم، باللغة المحكية «الزّمكّ».

2- يراجع ملحق الكتاب (الدشمة).

3- –في الفارسية استخدمت كلمة «ابرام» بدل «برهوم» والمقصود هو اسم الدلال المتداول لاسم إبراهيم.

– وضعت حرف شين في آخر قَسَمِكَ، أرأيتَ، أنت تكذب؟

– إبراهيم، إن تُعطِني بعض علب الكرز (الكمبوت) قد أتوسّط لك!

– ومن أين آتي بالفاكهة المعلّبة؟!

– اختفت في لباسك الكُردي يا إبراهيم الزّمكّ!

أحلف عليك بأبيك ألا تناديني بإبراهيم الزّمكّ!

حين لمحني قاسم معماري قال: «سكوت يا شباب لقد جاء مسؤوله!». تراجع الشباب وعلّقوا أنظارهم عليّ. قلت: «لقد جَمّعت الناس حولك مجدّدًا يا إسماعيل. فلنذهب لقد تأخّرنا!».

في ظلمة الليل عَبرنا من بين المتخفض (الاخدود) ومرتفعات إيران الحدودية ودخلنا أرض العراق. راح إبراهيم كاركر، وكأنّه حمل مُزاح اسماعيل على محمل الجدّ، يتقمّز[1] في مشيته كالوعل[2] أمامنا.

– يا إبراهيم الزّمِك إذا استمررت في ركضك هكذا فسنضطر في نهاية المطاف إلى أن نحملك على ظهرنا! لا تركض يا ولد..

– أنت الولد يا أخ إسماعيل!

– انتبه. ستصطدم فجأة بكمين العراقيين!

أشرتُ إلى المجموعة.

– يا شباب من الآن فصاعدًا صمتٌ مطلق!

سُرعان ما واجهنا الرّعاة الأكراد المحليين وقطعان الغنم العائدة من الجبال إلى القرى. اختفينا خلف الصخور الكبيرة حتى يعبروا.

1- تقمّز في مشيته: هرجل في خطوه؛ لم يسلك في مشيه مسلك النظام وكان بعيد الخطو واسعه.

2- الوعل: تيس الجبل؛ نوع من المعز الجبلية.

دخلنا في حقل قمحٍ كبير وبدأنا بصعود المرتفع العالي.

عند الساعة العاشرة ليلاً وصلنا إلى قرية «زينو» داخل منطقة الحاج عمران في العراق. ناديت إسماعيل توكّلي: «إسماعيل، يجب أن يدخل أحدنا قرية زينو ويُعلم الأخ قادر بشأن الانضمام إلينا».

- أنا أذهب يا سيد أسدي!

كان إبراهيم الزّمِك. قلت: يجب أن يذهب أحدٌ على معرفةٍ بالقرية!

يا أخ صالح! لقد ذهبتُ عدّة مراتٍ مع الأخ قادر حتى باب منزله!

استدرتُ ونظرتُ إلى البقيّة الذين كانوا في حال اضطرابٍ وتشوّش. قال إسماعيل ما بين الجدّ والمزاح: إبراهيم هذا هو وديعتي، وإن أصابه مكروهٌ فإنّ والدته ستطردني من جَهرَم. أنا أذهب.

- كن حذرًا يا إسماعيل! لا ينبغي أن يراك أحد.

ذهب إسماعيل توكّلي وسرعان ما عاد مع الأخ قادر. قلت: عُدتَ سريعًا يا إسماعيل؟ هل رآك أحد؟

- كلا يا أخ صالح! حتى إنّني لم أطرق الباب لئلّا ينتبه أحد. لقد قفزتُ من فوق جدار باحة منزل الأخ قادر وطرقَتُ باب غرفته من الخلف.

التفتَ إلى الأخ قادر، المقاتل الكردي البارزاني، وقال: «بالتأكيد بعد إذن الأخ قادر!».

فَتّل الأخ قادر، المربوع القامة والذي كان يرتدي اللباس الكردي الأسود، شاربه وقال: الضيف حبيب الله! وهو أنت! والآن إلى أين ينبغي أن نذهب؟

- باتجاه النهر!

- وما هي المهمّة؟!

- استطلاع!

- أعرف هذا يا أخ صالح، اها؛ فهمت.. كالعادة المهمة سرية.

تقدّم الأخ قادر وسِرنا خلفه. همست لإسماعيل: «تمّ إبلاغ اللواء أنّ العراقيين قد وضعوا مدافع (130 ملم) على ضفة نهر شمشير. علينا أن نتأكد من صحّة الخبر. وإذا ما كانوا قد نصبوا تلك المدافع فعلاً فكم عدَدُها!».

التففنا بحسب إرشادات الأخ قادر حول منبسط كبيرٍ تُحيط به سلسلة تلالٍ متعدّدة الارتفاع ووصلنا إلى مشارف النهر. قال الأخ قادر: يا أخ صالح، ها هو النهر.. هناك.

جاء إبراهيم كاركر وهمس في أُذني: سيد أسدي، أنا كنت أعرف هذا المكان تمامًا ككفِّ يدي. لم يكن هناك أي حاجة لقادر!

عُدتُ ونظرتُ إلى إسماعيل وضحكنا معًا. أخرجتُ المنظار الليلي من حقيبة الظهر وتفحّصتُ النهر.

سأل إسماعيل: هل ترى شيئًا؟

- أجل.. مدافع عدّة!

- من نوع 130؟

- في الأمر مخاطرة، من الممكن أن يرونا!

- ليس أمامنا طريقٌ آخر!

- ابقوا أنتم هنا. أنا أذهب وحدي!

- وأنا آتي يا أخ صالح أسدي!

وضعتُ يدي على رأس إبراهيم الزّمِك، الذي لم يكن شعر لحيته

قد نبت بعد، وقلت: مشكور يا إبراهيم! لا داعٍ.

قمتُ وسرتُ مُنحني الظهر وسط الظلام حتى صرت بمحاذاة نهر شمشير. أنساني خرير الماء وصرير صراصير الليل داخل الأشجار الحربَ لبعض الوقت. دخلتُ مرجًا وإذ بي أغرق حتى رُكبتَي في الوحل والطين. امتلأ حذائي بالماء والوحل. خفتُ أن أكون قد سقطتُ في أحد المستنقعات. خرجتُ بشقِّ الأنفس ووصلت إلى ضفّة النهر وجثوتُ على رُكبتيّ. شعرتُ بالبرد وصرتُ أرتجف. كنت أنا على هذه الضفّة من النهر وعلى الضفة الأخرى ثلاث منصّات مدافع منصوبة تفصل أمتار بعضها عن بعض. لقد كان البلاغ صحيحًا، والمدافع من نوع 130 ملم. وفيما كنت أستطلع لمحتُ فجأة جنديًّا عراقيًّا بجوار أحد المدافع وانتصب شعر بدني! تحت نور القمر بدا أنّ الحارس العراقي قد اتّكأ على مدفع الـ 130 وراح يُحدّق بي. كان قد انقضى نصف عمري حين تبيّن لي أنّه غارق في النوم. لو أنّه فتح عينيه لكان رآني. استدرتُ بهدوء.

في مسير العودة وبعد انفصالنا عن الأخ قادر شاهدنا عدة دوريات عراقية كانت تسير خلفنا. قلت للشباب: فلنتوجّه إلى أعلى المرتفع. علينا أن نُضيّعهم. يجب أن لا يصلوا إلينا.

بدأنا بصعود المرتفع وسط الظلام. تقدّم قاسم معماري حاملًا بندقية G3 وسبقنا بمسافة. قبل أن نبتعد عن العراقيين كانت قريحة إسماعيل مفتوحة على المُزاح.

- هل تريد أن أحملك على ظهري يا إبراهيم؟

كان إبراهيم يلهث ويقول: أيًّا يكن، لا يحتال عليّ!

- إذا لم تقع في الأسر سوف أحملك على ظهري!

حين تجاوزنا العراقيين تنفّسنا الصّعداء وتابعنا سيرنا صعودًا

بشكلٍ مريح. فجأةً وبنصف وَعيِه، ظنًّا منه أنّنا عراقيّون وأنّنا نطارده، رشّناً قاسم بزخّة من الرّصاص.

ريثما انبطحنا جميعًا على الأرض، واستعدنا انتباهنا كانت طلقة قد أصابت باطن قدم «مجيد محمّدي مقدّم». صاح إسماعيل: أيّها الأحمق لا تطلق النار!

حين جاء قاسم عند مجيد لم يدرِ ما يقول من شدّة الخجل. أمّا «مجيد محمدي» فقد ربط قدمه بكوفيّته وضحك.

23

الملّا مصطفى

22 حزيران 1983م

- أخ حقيقت، كيف تجـرّأت وذهبت برفقة عدد من شبان الحرس والتعبئة لأجل الاستطلاع!

كان الأخ إدريسـ يناديني دائمًا بالأخ حقيقت. أجاب مرتضى بدلًا عني: «الحرب مغامرة! وفيما عدا ذلك فنحن نتوكل على اللّه!».

صباح ذلك اليوم كان من الأيام النادرة التي جاء فيها الأخ إدريس لمهمة الاستطلاع. ولكـي لا يرانا العراقيّون أثناء النهار كنّا مضطرين أن نتحـرك داخـل الوهـاد والمنخفضـات. تجاوزنا عـددًا من الجبال والمضائـق المعقّدة وقرب الظهر وصلنـا إلى منخفض (اخدود) مملوء بالثلـج بالكامل. فـوق رؤوسنا كان مـاء الثلج الذائـب يتساقط قطرة قطـرة ويظهر مـن نور الشمس على الأثر مشهـدٌ جميلٌ جدًّا. كان ماء الثلج يجري تحت أقدامنا أيضًا.

تحـت الثلـوج وبواسطة البغـال تقدّمنـا بحذر مسافـة كيلومترين داخـل المنخفض. لم نرفـع رؤوسنا خوفًـا من أن تتساقـط عليها كُتل الثلـج الكبيرة التي بـدأت تذوب مع بداية فصـل الصيف. وصلنا إلى مكانٍ قد سدّته الثلوج واضطررنا أن نحفر في قلب الثلج حفرةً ونواصل المسيرَ حتى نصل إلى خطِّ الرأس ونبقى في مأمنٍ من أعين العراقيين. بتنا خلـف العراقيين بالكامل. حين التففنا حـولَ المعسكرات العراقية ووصلنـا إلى نقطة جبليّـة صعبة العبور قال ملازم علـي: «أخ حقيقت ينبغي أن نقلل من عدد البغال!».

- لماذا؟

- العبور صعبٌ وخطر!

حين وافقنا على التخلّـي عن بغلين بحمولتيهما من المعلبات باغَتَنَا ظهـور كرديٍّ معارض أَخَذَ البغلـين الإضافيين معه وغادر! حين وصلنا إلى آخـر مرحلـة في الاستطلاع كانت البغال العشـرة التي رافقتنا في البداية قـد نقصت شيئًا فشيئًا حتى صـارت خمسة بغال فقط. وكان الأخ حقيقـت يسأل ملازم علـي بين الحين والآخر: «لمـاذا لم تقل من البدايـة أن نحضر معنا خمسة بغـال فقط، ومن أين يظهر أصدقاؤك الغيبيون هؤلاء فجأة، وإلى أين يأخذون البغال؟».

وكان ملازم علي يهزّ رأسه ويضحك ويقول: «لا تستغرق في التفكير بهذا الأمر يا مرتضى، سوف تكتسب الخبرة!».

وصلنـا إلى قريـة زينو بعد الظهر. جلسنا علـى أعلى المرتفع الذي كان يُشـرف علـى زينو لأجل الاستراحـة. كنا قد عَبَرنـا خمسة عشرَ معسكـرًا عراقيًّا وبقي أمامنا ثلاثـون أو أربعون معسكرًا آخر! كان في القرية نفسها ثكنـةٌ للعراقيين أيضًا. قال لي الأخ إدريس: «أخ حقيقت هل تريد أن تستطلع كل وادي الحاج عمران؟!».

- أجل يا أخ إدريس!

- لا بدّ أنّك تريد فيما بعد أن تسيطر على ثكنة الحاج عمران.

قال مرتضى: إن شاء اللّه!

ضحك الأخ إدريس وهزّ برأسه.

- أخ مرتضى أنت شابٌّ لافت، أنا معجبٌ بك، لكنّ الأمر غير ممكنٍ!

تقـدّم مرتضى ووضع يده على كتـف الأخ إدريس العريض وقال: يا أخ إدريس لقد سمعتُ كثيرًا عن شجاعة الكُرد، لكن شبابنا بحول اللّه

وقوّته أحالوا الكثيرَ من المستحيلات أمورًا ممكنة في هذه السنوات!

أجاب الأخ إدريس الذي كان يظهر عليه أُنسه واستمتاعه بالحديث مع مرتضى: والدي بارك اللّه فيه، الملّا مصطفى، رغم كل جهاده في عهد حكومة حسن البَكر، لم يتمكن من السيطرة على ثكنة الحاج عمران!

- إمامنا يقول، نحن نقدر!

- أيُّ إمام؟

- روح اللّه الخميني!

شدّد مرتضى على كلمة روح اللّه الخميني بقوّة وأتبعناها نحن بالصلاة على محمد وآل محمد، فتوقف الأخ إدريس قليلًا ثمّ أجاب: إذا استوليتم على الحاج عمران فإنّني سأُقدّم مفتاح بغداد هديّةً لكم!

مغتاظًا من كلمات مرتضى، ضرب ملازم علي على صدره.

- يا أخ إدريس لو كانوا يملكون ألفًا مثلي لربما استطاعوا!

نفيًا للضعف والانهزام بدأ ملازم علي يتبجح بقوّته وشجاعته. وقرّر صالح أسدي أن يصبّ الزيت على النار فقال: أخي ملازم، إن كان صِدقًا ما تقول، اذهب أنت إلى زينو وأحضر لنا بعض الخبز واللبن!».

- الأمر سهلٌ!

- يا علي!

لم تكن رمية صالح موفّقة. نفخ ملازم علي صدره وقرّر أن ينزل من الجبل باتّجاه قرية زينو. لجمه جلال كوشا.

- أنا آتٍ معك؟!

أجابه وكأنّه قد اصطدم به: لأجل أيٍّ شيء؟

- أريد أن أرى شجاعتك!

- هكذا يا أخ جلال، لا مشكلة الآن.. تعال!

مــرّت ساعتان، وحين بدأنــا نقلق بشأن عودتهمــا أطلّ الأخ ملازم علــي مزهوًّا منتفخًا كقربة المــاء الممتلئة يرافقه جلال مع صينيّة فيها الشاي والسكّر ووعاء لبن كبير.

24

كاني خدا

25 حزيران 1983

دخلنـا ليـلًا برفقة مرتضـى واثني عشـر شخصًا آخـر من المحور لجهة يسار «منطقـة الحاج إبراهيم» إلى عمق الأراضي العراقية. كان مرتضى كما في أغلب الأوقات وكيلنا، فسأل: سيد كاظم، ما هي المهمة؟

وصلنـا تقرير بأن العـراق قام بتدعيم المعسكـرات المحيطة بقرية «رايات»، علينا أن نستطلع ونتأكد من صحة التقرير الوارد!

كان لدينا أربع وعشرون ساعة من المشي حتى منطقة قرية رايات. بعـد مسير 20 كيلومـترًا وصلنـا إلى «الأخدود تسعـة». بقينا ساعات وعند السحر حين هممنا بالذهاب ناحية المدفعية العراقية، صار الأخ ملازم علي مجدّدًا أحنّ من الأم.

– هذا العمل ليس صحيحًا. لا ينبغي أن تذهب يا أخ حقيقت!

وكأنه اعتاد على قول لا! عندما قلت يجب أن نذهب، جاء معنا.

– لو أن الأخ إدريس لم يوصِ بك، لما أتيتُ معك، أنت عنيد جدًّا!

وسط الظلام تقدمنا حتى أسفـل مرتفع «كاني خدا». هنـاك صاح مرتضى فجأة: يا إلهي، ما أجملها!

في الظلام الممتد أمامنا كانت هناك نقاط صغيرة من النور تومض كمـا الضـوء المتلألئ، وتبـث نورًا يشبه نـور القمر. قـال ملازم علي: سراج الليل![1]

مع بزوغ الفجر، عبرنا نهر «تشومان مصطفى» ووصلنا إلى غابات

1- سراج الليل: اليراع: حشرة تضيء ليلًا.

البلوط على أطراف قرية رايات. وقف «حسن خسرواني» يمعن النظر في غابة البلوط. رفـع إصبعه متأملًا وصار يحرّك رأس أنفه وكأنه قد شاهد في ذهنه شيئًا ما. قال: كاظم سيد الحقيقة[1]، إني متوجس!

– ما الذي حصل؟

– لو أنني كنت مكان العراقيين لنصبتُ كمينًا في هذه الغابة.

قال «داوود عبدوس»: مجددًا تفتحت حاسة شمّك البوليسي يا حسن! للعلم فقط! برأيي يجب أن ننقسم إلى قسمين!

لم يكن عندي شك بدقّة «حسن خسرواني» ويقظته، لكن حين وافقه مرتضـى في اقتراحه قسمتُ القوات إلى مجموعتين، واحدة مؤلفة من تسعة أشخاص والأخـرى من سبعة. رجعت مجموعة التسعة أشخاص إلى ناحيـة الشيـار وتحرّكت أنـا ومرتضى وملازم علـي مع المجموعة الثانيـة من طرف قرية رايات باتجـاه مدفعية العدو من دون أن ندخل في غابة البلوط.

كانــت الشمس قـد نشــرت أشعتها بالكامـل فوق الجبـال. توقفنا وحملنا المـاء من العيون التي تنبع في جبال كردستـان العراق، وتوضأ بعضنا استحبابًا. بدأ «ميثم كوشكي» يمازح مرتضى قائلًا: يا عم، هل الوضوء في الأرض المغصوبة مقبول!».

– عندما نصل إلى بغداد نطلب براءة الذمة من صدام.

كانت شمس الصباح تبزغ على أجسادنا وتشعرنا بالدفء والراحة. قرب الظهر وصلنا إلى تلة «كوران». كان علينا أن نحوّل النهار إلى

1 - حقيقـت بالفارسيـة تعنـي الحقيقة، وهي في الوقـت نفسه اسم عائلـة «كاظم»، وفي النص أحيانًا لعب على استخـدام الكلمة فمرة تستخدم كاسم العائلة ومرة يستفاد منها بمعناها اللفظي الحقيقي.

ليل ونقترب في الظلام من مواقع العدو. اخترنا عدة صخور بنفسجية واختبأنا خلفها. كان يمكن لعبور الرعاة والأغنام أن يفضح أمكنتنا. كنّا الآن في عمق ثلاثين كيلومترًا في الأراضي العراقية! مع حلول المغيب كانت قطعان الأغنام العائدة إلى القرية قد اقتربت عدة مرات من ناحيتنا. وكان ملازم علي يتقدم بسرعة إلى الأمام ويمحو آثارنا.

حين ادلهمّ الليل، بدأنا عملية الاستطلاع. تحركنا بداية نحو تلة «بهن» الحيوية والمهمة للعدو. كانت التلة تشرف على الجادة المعبدة وثلاث طرق أخرى تدعم الخطوط الدفاعية الأولى للعدو. وكانت الجادة تعبر في مضيق. قمنا باستطلاع التلّة بإشراف ملازم علي وصولًا إلى الموانع الموجودة تحتها.

أنهينا الاستطلاع منتصف الليل. كنّا نشعر بالتعب والجوع، وبينما نحن عائدون مرتاحي البال إلى «الأخدود تسعة» دهمنا صوت مرتفع لأحد العراقيين.

- قف!

قلت أنا أيضًا بشكل تلقائي ومن دون تفكير: قف!

مع كلمة قف التي قالها العراقي وكلمة قف التي قلتها أنا، رجع حسن خسرواني الذي كان من عادته دائمًا أن يلقّم سلاحه الكلاشنكوف ويعلقه في رقبته، وأطلق النار نحو صدر العراقي ما أدّى إلى رميه إلى الخلف وانبطحنا جميعنا أرضًا. حصل كل هذا في ظرف عدة لحظات. ساد الصمت في البداية. ناديت مرتضى وأنا ممدّد فوق الأرض الصخرية الباردة. أجابني حسن خسرواني بدلًا عنه: أخ كاظم، لقد وقعنا في كمين!

قلت: البارحة لم يكن أي شيء هنا!

أجاب «سالار أنصاري»: يبـدو أنهم استشعروا الخطر ونصبوا لنا كمينًا.

قطعـت كلامنـا رصاصة أصابـت طرف سروالي الكـردي. طويتُ قدمي بسرعة وبدأ إطلاق النار من الجهتين. عندما استعدتُ انتباهي كانت صليات النار تنزل علينا من أمامنا ومن خلف رؤوسنا. لقد وقعنا في الفـخ. من جهة كان هنـاك المرتفع، ومن الجهـة الثانية كان النهر الغزيـر بالمياه، وخلفنـا وأمامنا قد أغلقت مجموعتـا الكمين العراقي الطريق علينـا. جعلتنا نـيران الرصاصات المجهولـة المصدر نلتصق بالأرض. كنت شديد الالتصاق بالأرض وكأنما أريد أن أختفي داخلها. لم يكن ظلام الليل يدعنا نرى لعدة أمتار أمامنا. ظننتُ أن العراقيين كانـوا يخمنون مكاننـا ويطلقون النـار علينا. علا صـوت ملازم علي المرتجـف: لقد قضي علينا. لم تسمعوا كلامي. تبًّا لك يا أخ حقيقت.. إذا خرجت سالمًا من هذا المأزق سأريك ماذا أفعل بك!

أثنـاء طقطقة رصاص العراقيين المتفرق ارتفـع شيئًا فشيئًا صوت مرتضى يقرأ سورة الواقعة.

﴿إذا وقعت الواقعة۞.. نحن خلقناكم فلولا تصدقون۞أفرأيتم ما تمنون۞أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون۞نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾

ط.. طق.. طاق! ط.. طق..

كان مرتضـى يتلـو الآيـات بصوت عالٍ مـا بين زخـات الرصاص ويترجمهـا أيضًا. وكان لقراءة هـذه الآيات الخاصة من سورة الواقعة في تلـك الظـروف القاتلـة والحابسـة للأنفاس أثر عجيـب في مدّنا بقـوة القلب، وكأنّ مرتضـى كان يقارننا بأصحـاب أهل الجنة الذين

تخاطبهم السورة.

﴿علـــى أن نبدل أمثالكم وننشــئكم فيمـــا لا تعلمون ۝ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ۝..﴾

عندمـا أتمّ قـراءة القرآن قال بهـدوء تام: يا حـاج كاظم، قبل أن يتأخر الوقت يجب أن نعبر من قلب الكمين!

قال داريوش سليماني: يا عم، سوف نقتل جميعًا!

قلت: الحق مع الأخ مرتضى، فلو أنّ أحدنا وقع في الأسر ستنكشف العمليـات! وإذا مـا طلع الصبـح علينا هنا فسنقـع جميعنا في الأسر، يجب أن نستغل الظلام!

زحف حسين جعفري باتجاهي.

- أنا أطلق النار وأنتم تتحركون!

قال ملازم علـي فيما اشتدّت نيران العراقيـين بصوت قد اختفت منه الرجفة:

- يا أخ «حقيقت»، أنا أعترف الآن!

قلت مصدومًا: بماذا ستعترف؟

- الاستيـلاء على ثكنة الحاج عمران. أنتـم الرابحون في الحرب. إنني أضع شاربي رهنًا.. شاربي..

صرختُ: استعدوا جميعًا!

مع وميض نيران الأسلحـة العراقية أطلق حسـين جعفري مسؤول الهندسـة (التخريب) في المجموعة أول رصاصة وبدأت الحركة باتجاه العدو. كان العراقيون قد قطعوا الطريق من خلف بلاطة صخرية كبيرة فـوق رؤوسنا. انتهزنا فرصة انشغالهم بنيران حسين وتقدمنا منحنين

وبهـدوء إلى مـكان لا يفصل فيه بيننا وبـين العراقيين إلا تلك البلاطة الصخرية الكبيرة التي بلغت مساحتها عدة أمتار فقط. وفيما لو بقينا بجوار تلك البلاطة الصخرية لهلكنا جميعًا. بدأنا نتبادل إطلاق النيران من الطرفين، العراقيون من فوق البلاطة الصخرية ونحن من أسفلها ببنادق رُكزت بقوائمها. لا نحن كنا نستطيع الخروج من خلف البلاطة الصخرية ولا هم! لا رصاصنا كان يصيبهم ولا رصاصهم كان يصيبنا! ومن شدّة قرب المواجهة وكثافة النيران، كانت رائحة البارود الحادّة قد عبقت في أنفي وأخذت تحرقني. قال مرتضى: القنابل اليدوية!

قلت: سوف تصيبنا شظاياها!

– ليس هناك حل آخر، إذا استمر الأمر على هذا النحو فسيقضى علينا مع طلوع الضوء!

قلـت: ننقسـم إلى مجموعتـين، مجموعـة تطلق النـار والمجموعة الثانية تتقدّم وتفرّ ثم بالعكس.

رمى خسرواني وأنصاري وصالح النار حتى تمكنّا من مغادرة جوار البلاطة الصخرية. بعد ذلك بدأنا نحن بإطلاق النار حتى التحق بنا أولئك الثلاثة. مجددًا عاد إطلاق نيران العدو باتجاهنا! قلت: نركض باتجاه المرج!

لم يكـن العراقيون ليكفّـوا واستمروا بإطلاق النـار. وسط الظلام أصابـت الرصاصـات النباتـات اليابسـة إلى جوارنا واشتعلـت النار. باحتراق النباتات والأعشاب اليابسة أضيء الشيار! فجأة سمعت صوت الأخ مـلازم علي. كان يلعـن نفسه ويوبخها بأن كيـف سلّم نفسه لعدّة شباب من الحرس!

حين وصلنـا إلى «الأخدود تسعـة» كان كريمي مفقـود الأثر! قلت:

أخفقنا، إذا وقع في الأسر فالعمليات ملغاة!

ضحك مرتضى وقال: توكل على الله!

كنّا منهكي القوى ونشعر بالجوع. جاء الأخ إدريس لاستقبالنا وأحضر معه خبزًا وبطيخًا. أكلنا ومن شدّة التعب نمنا على أن نعود للتفكير بخطة ما فيما بعد.

عند صلاة الصبح طار النوم من عيني وأنا أفكّر بكريمي وانكشاف أمر الهجوم. كنت أحدّق بالجبال البنفسجية والزرقاء المحيطة بنا: ماذا أقول للحاج جعفر أسدي. هكذا وبالمجّان وقع في الأسر.. ذنبه في رقبتي.. عملية لأجل..

- سلام يا أخ كاظم. أراك مشغول البال..

كان كريمي نفسه! قفزت من مكاني كالزنبرك. احتضنته بحماسة شديدة. وجرّاء ارتفاع صوتي وجلبتي احتشد الجميع وجاء أيضًا الأخ ملازم علي.

- أين كنت؟

- بعدما ذهبتم سدّوا الطريق عليّ! اضطررتُ أن أختبأ داخل غابة البلوط. مع إشراقة الصباح بحثوا عنّي كثيرًا، اقترب مني أحد العراقيين إلى درجة أني قرأت الفاتحة على روحي. لكن عندما رأيته وتلاقت نظرتانا سعل واستدار وأثناء استدارته سعل مرة أخرى. وأنا أفكّر حتى الآن في السبب الذي منعه من القيام بأي عمل حين تلاقت نظرتانا؟

ضحك الأخ ملازم علي وقال: لقد رآك ذلك الجندي العراقي!

- رآني نعم، ولكن لماذا لم يعتقلني؟

إنه من العرب الشيعة، عندما يرون شخصًا ولا يريدون أن يفضحوا أمره يقومون بالسعال مرتين تفصل بينهما مدة قصيرة!

25

الفالوذج[1] الزعفراني

29 حزيران 1983

صباحًـا، على مرتفع القمطرة الحدودي العـالي، كانت عينِيَّ على كاظم حقيقت. كان يشـرح آخر الأوضاع لقادة كتائب لواء المهدي من خـلال الخريطة الممدودة على أرض الدشمـة: للمنطقة ثلاثة محاور، لجهة اليمين هناك (قلعـة) گرد كوه، في الوسط (مزرعة) تمرتشين، ولجهـة اليسار أرض الحاج إبراهيم الخصبة أو (گره مند) (الوعر)! للعدو معسكر على «مرتفعات 52». هدفنا السيطرة على هذا المعسكر!.. هل من سؤال؟

– سيد صالح، تفضل الفالوذج بنكهة الزعفران!

حدّقـتُ مدهوشًا في الصينية البلاستيكيـة الحاوية على الفالوذج الزعفـراني بيد «مش موسى». وكأني قد أُعطيتُ الدنيا وما فيها! كنت مـن أهل شيراز[2] ولم أكن قد أكلـت الفالوذج العادي منذ سنوات، فما بالك بالزعفراني! حملتُ وعاء الفالوذج وهمستُ في أذن «مش موسى» المتوسط العمر: أحضرتَ الفالوذج بطائرة حربية نفاثة من شيراز؟

أجابنـي بملء حنجرتـه: سيد صالـح! ألا تعلم أن معلّـم الفالوذج المشهـور في شـيراز، «كل خليل»، قد أقفـل دكانه وجـاء بكامل أدوات صناعة الفالوذج إلى لواء المهدي!

1- الفالوذج: فالوده بالفارسية؛ حلوى إيرانية باردة تتكون من شعيرية الأرز أو الذرة التي توضـع في ماء الـورد والسكر والماء المثلج؛ ويضاف إليها بعضـ من عصير الحامض أو غيره من عصائر الفاكهة.

2- أهـل شيـراز هم أول من صنـع الفالوذج بحسب المشهور، ويقـال الفالوذج الشيرازي نسبة إلى المدينة التي هي أصل انتشاره.

قـال ذلك وقد قـرّب صينية الفالـوذج من العـم مرتضى. وضعت اللقمـة الأولى في فمـي فقرقشـت شعيريـة الفالـوذج الرقيقـة تحت أسنـاني. بعدمـا طـرح سـؤالًا أو سؤالـين علـى كاظم حقيقت وضع مرتضـى جاويدي الفالوذج على الأرض وسأل: في كم محور يجب على لواء المهدي أن يعمل؟

هـمّ كاظـم بالإجابة لكن أخـي جعفر أسدي قائد اللـواء، قال من أسفل الدشمة: بعد إذنكم يا حاج كاظم، أنا أشرح لك!

نهضـ جعفر وقد رمى معطفه الكاكي على كتفيه وتقدّم إلى الأمام ليقف إلى جوار كاظم حقيقت.

- سيكـون الهجـوم الأول علـى المحـور إلى يميننـا. إذا لم تحصل عراقيـل بحـول الله وقوته نسيطر علـى مواقع العدو، ثـم نسلّمها إلى وحدة أخرى! في المرحلة الأولى سوف تعمل خمس عشرة كتيبة مدعّمة قتاليًّـا، اثنتا عشرة كتيبة من لواء المهـدي وثلاث كتائب من «اللواء2» التابع للفرقة 77 في الجيش!

مسـح «علي أصغـر سرافراز» قائد كتيبة كميل علـى رأسه الكثيف الشعر وقال: يا حاج أسدي، يجب أن نؤمّن الاستقرار في المواقع؟ ليس الهجوم إيذائيًّا فقط؟

هـزّ جعفر أسدي رأسه وقال: سـؤال جيد! العمليات ليست بأي وجه إيذائية فقط، أنتم تعلمون أنه خلال هذا العام أو العامين أُقفلت العمليات في منطقة الجنوب بالكامل، ورأي قيادة المقر أنّ القفل يجب أن يُفتح ها هنا! هذا الأمر يزيد من أهمية الهجوم! الهزيمة في هذا الهجوم تعني أن تُشلّ القدرة على القتال وتقفل! ومفتاح القفل بيد لواء المهدي.

سكت قليلًا وأشار بيده إلى العم مرتضى.

– وبالتأكيـد كتيبة الفجر؛ فعلـى مرتضى وكتيبة الفجر أن يحكموا الخنـاق على العـدو ويزيدوا ضغطهـم لتتمكّن الوحـدات الأخرى من تسديد الضربة القاضية إليه!

هـزّت أصـوات التكبير فضـاء دشمـة التكتيكات. أكلـتُ الفالوذج الزعفـراني بسرعة حتى آخـره. تابع أسدي: أوضّـح أكثر في الجلسة التاليـة. يجب أن تبحثـوا الآن في مسألة ذهاب قادة الكتائب والسرايا إلى عمـق العدو، يجب أن تذهبوا وتشاهدوا عن قرب المحاور والمخافر التي ينبغي السيطرة عليها! وإن كان البعض قد ذهب قبلاً.

رمق جعفـر أسدي مرتضى بنظرة ذات معنى ثـم أشار إلى كاظم حقيقت وقال: تابع!

وما إن جلس أسدي حتى واصل كاظم كلامه.

– قبل الهجوم يجب أن تعاينوا المحور والمسير مع شباب الاستطلاع ويتم توجيههم.

حـين انتهت الجلسة حـان دور الحاج صلواتي، العجـوز الشيرازي مسـؤول الإعـلام، ليدخـل إلى الدشمة حامـلاً الكيس ووعـاء حلوى الرنكينـك[1] الخاصـة بأهل جهرم. وضـع الكيس علـى الأرض وصفّق بكفّيه وأنشد مثل الحكواتيين:

قلبي مليء بحبك يا تعبوي؛
رأسي تحت قدميك يا تعبوي؛
آه فلتكسر يد التعبوي[2]..!

1- يراجع ملحق الكتاب (حلوى الرنكيك).

2- هـا هنا لعب على الكلام لأن فعل «شكستن» بالفارسية، أي الكسر، يستخدم لازمًا مرة ومتعدّيًـا مـرة أخرى مـن دون تغيير في التصريـف. ولذا فالمستمع هنا يظـن أن القائل

سكـتَ. رجع الجميع وحدّقـوا محتارين في الحــاج صلواتي. تابع : ..رقبة صدام!

تقـدم الحاج صلواتي ووقف مختالاً أمام «مش موسى». رفع إصبعه نحـو سقف الدشمـة وتابع إلقـاء الشعـر والحكاية: اهـاااا.. مدفع الـ(106)؛ مسدسي أنا!

حَجَـل[1] «مش موســى» مستجيبًا وفتح ذراعيه للدلالـة على البحر، وأجـاب بصوت جهـوري وبأسلـوب الحكواتي نفسه: مـاء بحر الخزر جرعتي أنا![2]

سروال رستم[3] شورتي[4] أنا!

غطاء الدبابة بشكيري[5] أنا!

أرض الصحراء السوداء مهدي[6] أنا!

دويّ المدفع صفيري أنا!

الإعصار والريح نفختي أنا!

قَنّع[7] البوق شياعي[8] أنا!

يدعـو علـى التعبوي بكسر اليد فيحتـار، ولكن عندما يكمل الكلام يتضـح أن الفعل متعد والمقصود رقبة صدام.

1- حجل في مشيته: تبختر فيها.

2- الجرعة من الماء: حسوة منه ملء الفم.

3- رستم: أشهر بطل أسطوري في الأدب الفارسي.

4- شورت: سروال قصير يمتد للركبة أو فوقها.

5- بشكير: منشفة للحمام أو فوطة كبيرة.

6- المهد: السرير الممهد لنوم الطفل أو الصبي.

7- القنع: صوت البوق.

8- الشياع: صوت المزمار.

وأعلن الحاج صلواتي ختام المغامرة: أيها المحمديون صلوات!

مطّ العجوز قوله «صلوات» حتى انتفخت أوداج عنقه النحيفة.

- انبسطتَ يا عجوز؟! هذا ما يسمى الروحية!

ثــم وقــف وسط الدشمــة ووضع حلــوى الرنكينك علــى الأرض في الوسط وأفرغ كيس رسائل الناس المرسلة إلى المجاهدين.

- تذكــروا يا مؤمنين، الرنكينك مــع الرسائل. كلوا واقرأوا واكتبوا ردودكم!

وضع كاظم لقمة من الرنكينك في فمه، وشاهد قرب العلبة رسالة. حمــل الرسالــة وفتحها. نظــرت إلى ما في يد كاظــم. وكأن الرنكينك كانــت من تلميــذ جهرمي اسمه «مهــدي صحرائيان»، وقــد طلب بعد الدعاء للمجاهدين ونصرهــم طلبًا لافتًا! بلع كاظم لقمة حلوى التمر وقرأ الرسالة بصوت عال:

.. أيها المجاهد الذي تقرأ رسالتي الآن، أنا تلميذ في الرابعة عشرة من العمر أعشق بكل وجودي الحضور في الجبهة ومقاتلة العدو البعثي. ولكنهم للأسف لم يسمحوا لي بالمجيء إلى الجبهة. أقسم عليك بروح الإمــام الخميني إن كنت قــادرًا، أن تسعى لتأمين شروط مشاركتي في الجبهة.. إلهــي إلهي حتى ظهور المهدي احفظ لنا الخميني! قال العم مرتضــى لكاظــم: أكلت من خبزه وملحه وصــرت مرهونًا له. بما أنك أكلت من حلواه عليك أن تساعده.

قلت: لو كنت مكانك يا كاظم، لذهبت إلى جهرم وأحضرته!

تحمّس كاظم لاقتراحي.

- صالح أسدي، كفّ عن التلحين! هات أعطني قلمك!

حمــل كاظم المغلف والورقة الخاصة بالإجابة. وضع لقمة ثانية من

تمرية الرنكينك في فمه وبعد التحية والسلام على مهدي صحرائيان كتب له ما بين الجد والمزاح رسالة في نهاية المطاف.

«أنا كاظم حقيقت ولديّ تأثير في الجبهة؛ ولكني أحقق طلبك وأتابعه بشرط أن ترسل لي علبة كبيرة من تمرية رنكينك جهرم الشهية. فإذا ما قمت بهذا الأمر سوف أوصي بك مسؤول حافلة لجنة إمداد الإمام الخميني الذي يُحضر إلى الجبهة عشاق زيارة جبهات الحرب. والسلام، كاظم حقيقت».

وضع العم مرتضى لقمة من الحلوى في فمه وقال لكاظم: لو أنك كتبت، والسلام، صديقك الشرهان[1]، كاظم سيّد الحقيقة!

1- شرهان: شديد الشهوة للطعام حريص عليه.

26

حلوى الرنكينك

7 تموز 1983

داخل معسكر جلديان كنت منكبًّا فوق آخر خريطة استطلاع قبل الهجوم.

– سيد كاظم، لقد جاءت فرقة إنشاد طلاب مدرسة جهرم!

أشار لي صالح أسدي بإصبعه إلى الحافلة الحمراء التابعة لجمعية إمداد الإمام الخميني في جهرم.

– يا حاج كاظم، لماذا الآن؟ وفي مثل هذه الأوضاع أيضًا؟!

قلت: من المقرر أن يؤدّوا الأناشيد للكتائب لعدة ليالٍ.

– الآن ونحن على أعتاب الهجوم؟

– ليس من المقرر أن يكونوا أثناء الهجوم! يقومون بجولة في المعسكر وفي سردشت ويعودون إلى جهرم!

خطر في ذهني: أسأل الله أن يكونوا قد أحضروا حلوى الرنكينك!

قال صالح بتعمق: سيد حقيقت، هل دققت في الحافلة! وكأنّ فيها شيئًا..

ظلّلت عينيّ بيدي من نور الشمس وتأمّلت في الحافلة القادمة. كانت ملطخة بالتراب كمثل الجرحى المنهارين. كانت تسير بنحو يثير الانتباه. انقبض قلبي! ازدحم المعسكر بكل حناياه، وخرج أفراد الكتائب من الخيام والأبنية. تابع صالح: يا ستار، لقد حدث أمر ما!

توقفت الحافلة الحمراء وسط ميدان الرياضة الصباحية. توجهت ناحية الحافلة. بالقرب منها غار قلبي وشُلّت قدماي وتوقّفت! كان

واحد أو اثنان من إطاراتها مثقوبًا وزجاجها الأمامي مخروقًا برصاص الرشاشات! قفز السائق المتوسط العمر من السيارة يضرب على رأسه ووجهه وقال بلسان متهدج: آآآآاااه إلـــه..هـــي.. وا ويلا ااه.. مصيبة.. يا اللـــــــــه .. خذني.. أمتني!

ركضت إلى الأمام. وأرجعت الجموع إلى الخلف. كان قميص السائق من الأمام مشبّعًا بالدماء! وكأنهم سددوا النيران نحوه! لكن مهما أمعنت النظر لم أرَ علامة على وجود الجراح داخل بدنه! كان مرتضى أول من وصل إلى السائق وهزّه.

– ما الذي حصل؟ تكلّم!

أشار السائق المتوسط العمر بعينين مدهوشتين ووجه مضطرب إلى الحافلة.

– قـ..قـــطعوا.. الرؤووسسس.. الـ..كومله[1]..

هجم صالح وهاشم ومرتضى والبقية إلى داخل الحافلة. ساد الصمت، ثم أخذت الهمهمات ترتفع ونداء: حسين.. حسين..

كانت النداءات تعلو وتعلو أكثر، ثم تعود لتخرج بصورة همهمة غير مشخّصة.

التعبويون والحرس يلطمون الصدور! والحافلة تهتز. صاروا يترجّلون كل عدة أشخاص معًا، ويُشاهَد فوق أيديهم أجساد نحيلة ونحيفة بلا رؤوس!

في وقت قصير أنزلوا من الحافلة أجساد 14 فتىً مقطوع الرأس!

غير بعيد، وقعت عيناي على مرتضى. كان قد جلس القرفصاء على حجرٍ ووضع رأسه بين يديه. وقف وتوجه نحو السائق. كان السائق

1- يراجع الملحق كومله.

قد خرج من الصدمة إلى حدّ ما. سأله مرتضى: ما الذي حصل؟!

رفع السائق يديه عاليًا.

– الكفار قطعوا الرؤوس!

– من؟! أين؟

– الـ كومله.. الديمقراطي.. أعداء الثورة.. هل رأيت ما جرى على فلذات أكباد الناس ورياحينهم، كم أوصى بهم آباؤهم وأمهاتهم!

ضـرب علـى رأسـه وتابـع: الكفـار الذيـن لا يعرفـون اللّه، قبيل بيرانشهـر، وادي الشيطـان، قطعـوا الطريـق وحجزوا السيـارة.. آه وأنزلـوا أعـزة الناس منهـا. سألوهم: مـن أنتم وإلى أيـن تذهبون؟ وهـم في المقابل من منطلق صدقهم وأمانتهـم أخبروهم عن زيارتهم وعشقهم للجبهة وعن عزمهم على الإنشاد لكم.

انقطـع تفجّـع السائق. سكت. مسح يده على الـدم الذي يبس على وجهه وصدره.

– أشبـاه الشمـر الذين لا يعرفون اللّه أطلقـوا عليهم جميعًا نيران رشاشاتهـم. لم يتركوا جثثهـم أيضًا. صاروا يبحثـون في وجوه الفتية الذيـن لم تنبت لحاهم بعـد ولا يناسب العـراق أخْذهم! قال قائدهم شمـر بن ذي الجوشن، نحتجـز الرؤوس حتى تتشوّه وتتحلّل فلا يُدرى أكانوا ذوي لحى أم لا!

كان لصـوت السائق نشيج مؤلم وكانت عينـاه تفيضان بالدمع من دون توقّف. ضرب مرارًا على أم رأسه. أشار إلى مكان انتفاخ حنجرته!

– يا اللّه... جلسوا وأخذوا يقطعون رؤوس الأطفال الأبرياء من هنـا واحدًا تلو الآخر!

تعرّقت أطرافي الأربعة. أردت أن أبلع ريقي لكن المرارة والغصة في

حنجرتــي لم تسمح. أحسست بالخواء في ركبتي وجلست. بعد ذلك لم أرَ أو أسمــع شيئًا. كأنما كانــوا يذبحونني من منحري أنا، حين شعرت بضغط يدٍ على كتفي. جاهدت لأستجمع قواي ورجعت بشقّ الأنفس.

- كاظم.. كاظم..

فتحــت عيني مذهــولاً، كان صالح أسدي واقفًا ومعــه علبة السبعة عشر كيلوًا من حلوى الرنكينك. سألت: ما الأمر؟

تأمّل صالح في عينيّ المغرورقتين بالدموع.

- لقــد كانت هذه في الحافلــة أيضًا، مكتوب عليها، إلى أخي كاظم حقيقت من قِبل مهدي صحرائيان!

بــدأت شفتــاي ترتجفــان. اختفى اللون مــن وجهي. واشتــدّ نبض صدغــيّ. همهمــت: كان مهدي صحرائيــان معهم أيضًــا.. كم أبغض الرنكينك..

27

قشرة البيضة

17 تموز 1983

بعد الظهر، على الطريق القَدَمِيّة[1] في مرتفع القمطرة كنت أدقّق النظر في البغال. بادرتُ «أبو القاسم تشوبان»، قائد «السريّة1».

– أبو القاسم، لقد تحوّلت وحدة التجهيزات إلى وحدة البغال (المجهّزة)!

حكّ أم رأسه من فوق القبعة الصوفية الخضراء. أخرج من جيبه حبة تين مجففة وضيّفني.

– نوذري، البغل هذه الأيام في بيرانشهر أغلى من شاحنة التويوتا!

أخذتُ حبة تين استهبانات[2] ووضعتها في فمي وقلت: وما هي قيمة السيارة في الطريق القَدَميّة؟

سوّى نظارته الأنفية[3] أمام عينيه وربّت على كتفي:

– ينتابني شعور مختلف في هذا الهجوم!

وعندما تجاوزني وقع نظري على المكتوب على ظهر لباسه الكاكي.

«لا تقل لأحد إنّي كنتُ!

أين كنتُ! كيف كنتُ!

أريد أن أبقى مجهولاً!».

خطوت خلفه فتفرّقت تحت قدمي حصوات الجبل الصغيرة. شارفتُ على الانزلاق ولكنني سيطرت على نفسي. لمحتُ أمامي مكتوبًا

1- الطريق القدمية؛ أو الأدومية بالعامية أو المعبور: الطريق الضيق الوعر في الجبل الذي لا يسلك إلا مشيًا على الأقدام أو من قِبل بعض الدواب، يقال له أيضًا: طريق قدَم.

2- استهبانات أو اسطهبانات: مدينة تدعى اليوم استهبان، تقع في شرق محافظة فارس في إيران. تشتهر بالمحاصيل الزراعية وأهمها التين.

3- النظارة الأنفية: عدستان بإطار؛ تثبت على الأنف من غير مسكتين خلف الأذنين.

على صخرة:

قوِّ الدعسة ولا تخفّف!

ضحكت: وكأن كل من يصل إلى هذا المكان تزلق قدمه!

استدار تشوبان. وضع حبة تين أخرى في فمه وقال: صدقًا يا نوذري، لقد رأيت البارحة منامًا عجيبًا، إذا استشهدتُ، لا تدع شباب سريتي يتفرقون!

- (ما بك) توصي مثل الأمهات. وهل شاركت في عملية قبلًا من دون أن توصي!

- هذا الهجوم مختلف!

ازدادت حدّة صعود ممر الطريق القَدَميّة لمرتفع القمطرة، وبدأت ألهث. وعند ذاك ضرب نور الشمس الذهبي على وجهي. أشار أبو القاسم تشوبان إلى رأس جبل القمطرة العالي المغطّى بالثلج.

- يبدو بياض الثلج كقشرة البيضة!

رغم أننا كنّا في فصل الصيف، لكنّ البخار كان يخرج من فمي جراء البرد الشديد. وصلنا أعلى المرتفع فشاهدنا دشمة العم مرتضى.

- أيها التعبوي، أشلونك!

بعد صلاتي المغرب والعشاء تحلّق قادة سرايا الفجر حول مدفأة الكاز في الدشمة. كان العم مرتضى يشرح تفاصيل منطقة الحاج عمران في العراق من خلال الخارطة.

- قبل ليلة من الهجوم يجب أن نخلي مرتفع القمطرة الحدودي نزولًا! نسلك هذا المسير وننفذ بمسافة خمسة عشر كيلومترًا في عمق الأراضي العراقية. ينبغي أن نصل قبل طلوع الفجر إلى مضيق تشومان مصطفى! أسفل هذه التلال الثلاث علينا أن نُخفي أنفسنا في

النهـار داخل الفجوات والمضائق.. ثم نستولي على التلّة عند منتصف الليل.. هل هنالك أي سؤال؟

رفعت يدي. أشار العم إليّ.

– ماذا يا نوذري!

– إنّ استتـار قـوة بحجـم كتيبة أثنـاء النهار في ظـل تحكّم العدو وتحـت مرآه هو أمـر غير ممكـن! إذا كنت تذكر قبـل أسبوعين حين ذهبنا للاستطلاع اصطدمنا بالرعاة وأمور أخرى!

ابتسـم مرتضـى وقال: ولهذا السبـب فإنّ التنبّـه ورعاية الصمت التام أمران لازمان. نحن لدينا مرحلتان في هذه العمليات، في البداية المسير المجهد ومن بعد ذلك الهجوم!

رفـع أبو القاسـم تشوبان قبعتـه الصوفية عـن رأسه وسـأل: عم مرتضى، ما الذي يحدث لو انكشفنا؟

وضع مرتضى يده خلف مدفأة الكاز الخضراء القديمة.

– أدام الله رزقك، نؤدي تكليفنا!

سقطـت قذيفة مدفعيـة على مرتفـع القمطرة واهتـزت الدشمة. لمعـت لمبة المئة شمعة التي كانت تُضـاء بالمولد الكهربائي وسقطت من السقـف الترابي الناعم حيث كانت معلّقة. أشـار مرتضى إلى التلال الثلاث التي تشبه المثلث على الخارطة.

– لو فرضنا أن هذه التلال الثلاث هي مثلثٌ، والتلّة الكبيرة الوسيعة رأسـه، والتلّتين الأصغر حجمًا اللتين تتقدّمانها وتفصل بينهما مسافة 25 مترًا همـا قاعدته، فإنّ التلّة الكبيرة وبسبب إشرافها على المضيق وثـلاث طرقات معبدّة هي بمنزلة خناق العدو! ولو أنّنا سيطرنا عليها نكـون قد أحكمنا خنق العدو بقبضتنا. وبذلك لا يصل إليه الطعام ولا العتاد!

سكت قليلًا ثم نادى: يا أخ تشوبان!

– في الخدمة يا عم!

– «السريّة1» تتولى عملية السيطرة على التلة الوسيعة! أنا آتي معك. التلتان الأخريان ليستا أقل أهمية أيضًا، وهما تحميان التلّة الوسيعة!

رجع وحدّق في وجه «فرهاديان فر النضر».

– وأما سريتك يا خال شيرازي!

ضرب على كتف محمد رضا بديهي المعاون الثاني لقائد الكتيبة.

– يرافق محمد رضا سريّتَك وتستولون على التلّة لجهة اليمين! وهو يعطي التوضيحات اللازمة!

نظر إليّ وقال: وكذلك فضل الله نوذري يتحرك مع فصيلين باتجاه التلّة ناحية الشمال ويستولي عليها. من خلال استطلاع الأيام القليلة الماضية بات طريق النفوذ إلى التلة محفوظًا عن ظهر قلب. ولذلك ليس هناك أي داعٍ للمواجهة المباشرة مع العدو! صحيح يا نوذري؟

– تمامًا يا عمّ. على مدى ساعتين كنت أشاهد العراقيين يلعبون الكرة الطائرة.

أخذ جليل إسلامي يمزح ويقول:

– بعد السيطرة على التلّة ننظّم مباراةً في الكرة الطائرة مع العراقيين!

نظر مرتضى إلى معاونه وقال باحترام خاص: السيد جليل أيضًا سوف يمنّ عليّ ويرافق نوذري مع «السريّة3» حتى يقوم بتنظيم مباراة كرة الطائرة بنفسه؛ نتحرك غدًا!

28

الضيافة

18 تموز 1983

أدّينا صلاتَي المغرب والعشاء داخل مُصلّى مُعسكر جلديان في بيرنشهر. جاء الحاج صلواتي عجوزُ إعلام «لواء المهدي» المؤنس. وقف خلف مُكبّر الصوت اليدوي وقال بلهجته الشيرازية الثقيلة: «لجمال وجه الخميني صلوات!».

وحين لم يُلاقِ ارتفاعُ أصوات الصلوات استحسانَه صاح بحماسة وابتهاج: «هاي يا خالو[1]! وكأنّكم لم تأكلوا بعد؟».

ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وأطلق من عمقِ حُنجرته صيحةً:

– فلتَكسر يد التعبوي!

سكت قليلًا. انصدمتُ مثلَ بقيّة الشباب ونظرتُ مشدوهًا إلى وجهه النحيف ومحاسنه البيضاء، ثم تابع بشكل أقوى:

– رقبة يزيد الكافر صدّام.. صلوات بأعلى الأصوات!

هذه المرّة هزّت أصوات الصلوات أنحاء قاعة الاستقبال. قال الحاج صلواتي: «الخال صار خالو[2].. يا إخوان ها هنا سيتم تناول طعام العشاء. تحلّقوا يا خالي واجلسوا على شكل سفرة الطعام! وبعد العشاء سوف يأتي العم مرتضى فلديه شغلٌ معكم!».

استدرتُ وسألتُ رفيقي سيد علي الحسيني مستفهمًا: يقصد قائد

1- بالفارسية «كاكو»، أي الخال (أخو الأم) بلهجة أهل مازندران.

2- بالفارسية «حالوشد كاكو»؛ والكلمتان حالو (بلهجة أهل لرستان) وكاكو (بلهجة أهل مازندران) لهما نفس المعنى: الخال (أخو الأم). وفي الجملة تهكم وسخرية من اختلاف اللهجات.

كتيبة الفجر؟

– أجل! مرتضى جاويدي.. أشلو المعروف نفسه!

– وماذا لديه معنا؟

– التّعرُّف إلى الشباب؛ هذا منهجه في العمل!

– سيد علي، هل حقًّا تمّ تكليفنا بالعمل داخل كتيبة الفجر؟ بات الأمر محسومًا؟

– إذا شاء اللّه.

– العمليات باتت قريبة، أنا لا أكذب!

– حسين بنائيان؛ إنّني أستشعر رائحة الهجوم.

– لعلّهم يريدون مجددًا أن ينتخبوا من بيننا عددًا! نحن الذين قدّمنا الامتحانات مرارًا وتكرارًا وتحوّلنا من كتيبة تتألّف من أربعمئة شخصٍ إلى أقل من سريّة.

– كلا يا كبير!

– من فمك حتى أبواب السماء! يقولون إنّ مرتضى مغوارٌ!

– ليس له ندّ.. لقد خضع لجميع دورات المغاوير وحرب العصابات.

– لقد ذاع صيت تقواه وشجاعته على كل لسان..

– كم أشتاق لرؤيته!

– لا بدّ أنّه ضخم الجثّة والهيكل، أليس كذلك؟!

كالبرق مُدّت سفرة العشاء ولم نسمع خبرًا عن مرتضى جاويدي. كان هناك شابٌّ فقط، في العشرين والنيّف من العمر، متوسّط القامة،

نحيل البدن، يتولى أمر توزيع الملاعق وأباريق الماء بسرعة أمامنا.

أشار السيد علي الحسيني إلى الشاب بإصبعه.

- المسكين يقوم وحده بعمل أشخاص عدّة!

- ليتنا قُمنا لمساعدته!

- اجلس يا حبيبي، لكلّ شخص في الجبهة عملُه. نحن نقاتل في الكتيبة، وهذا المسكين وظيفتُه تقديمُ الطعام وأمثال ذلك!

كالصقر كان الشاب ذو اللباس الكاكي والكوفيّة الملقاة حول العنق يجول بيننا، يرفع بشغف ومحبّة صحون العدس بالأرز (مجدّرة الأرزّ) من الصينية ليضعها أمام الإخوة. قلت: هل ترى أيّ عشقٍ هو فيه؟

أنهينا طعام العشاء فجاء الشاب نفسه وجمع الصحون ولَمَّ السّفرة. ومجدّدًا حمل الحاج صلواتي مكبّر الصوت وأدناه من فمه وصدح بصوته خاتمًا بالمسك عشاءنا:

لعن اللّه في العالمين صدّام الملعون

فقد عزم على قتل وسحق جنى عُمرِ الناس

ثمّ على طريقة الإنشاد والمدّ قال: قولوا لأمريكا أن تغتاظ منّا وأن تموت في غيظها. الإمام الخميني!

حين رفعنا أصواتنا بالصلوات ثلاثًا أعطانا الحاج صلواتي علامة النجاح قائلًا: هكذا ترفع الصلوات!

أحضر الشاب مسؤول الضيافة كرسيًّا حديديًّا قديمًا قيّمًا ووضعه في وسط القاعة ووقف عليه. تعجّبنا من فعله وتسمّرت عيوننا عليه. قلت: انظر يا سيد، إنّه الشاب نفسه الذي مدّ سُفرة الطعام، يريد أن

يتكلم!

– وما الذي يريد قوله!

– لا بدّ أنّه يريد أن يُحدّثنا عن الطعام والمستحبّات والإسراف.

– ولكنّنا أكلنا حتّى حبّات الأرز التي سقطت على الأرض.

أعطى الحاج صلواتي مكبِّر الصوت للشاب.

– تفضّل يا سيد مرتضى!

قلت مباشرةً: مرتضى!

أدنى الشابّ ذو اللباس الكاكي المُرقّط مكبّر الصوت من فمه.

– يا إخواني! السلام عليكم.. سامحونا إذا كان الطعام سيّئًا أو غير كاف، نعتذر من حضراتكم.. ونُحيّيكم ونرحّب بكم في كتيبة الفجر.. سوف تكونون ضيوفنا لمدّة.. إنّني مسرورٌ أن وفّقني اللّه بدءًا من هذا اليوم لأكون في خدمتكم أيّها الإخوان المؤمنون.. مهمّتنا الجديدة ليست إجبارية.. في هذه المهمّة هناك طريقان لا ثالث لهما، إمّا النّصر وإما الشهادة.. فكّروا جيّدًا..

حين أنهى العم مرتضى كلامه مسح الحاج صلواتي بيده على لحيته البيضاء فرتّبها وشرع بإنشاد الشعر على طريقته الخاصة.

قوموا! قوموا! فالعاشقون يبثّون الليلَ سرّهم.

يطوفون حول باب المعشوق وحرمه.

انظر الدّيكَ فليس له إلّا الجناح والرّيش

وهو من أول الليل حتى السحر، اللّه اللّه يصيح

يا مجاهد الإسلام.. تهيّأ لدعاء التوسّل.. صلوات.

وكزتُ السيد علي على جانبه وقلت: أيّها الدّيك كن مستعدًّا!

ضحـك السيد علـي ضحكةً طفولية حلوة وقال: بـتُّ عاشقًا للحاج صِلواتـي. انضمّ شيخ الكتيبة الحاج بنائي إلى بقيّة أفراد كتيبة الفجر وأُقيم دعاء التوسّل. لم أنتبه إلى نفسي إلّا بعد وقتٍ طويل من السجود والمناجـاة مع اللّه. ومهما طـال انتظاري فلم يكن صـوت نواح الإخوة وضجيجهـم لينقطـع. التفقـت ونظرتُ بغصّـة في عينـيّ السيد علي المحمرّتـين والغارقتـين بالدمع وقلـت: «أريد أن أكون فـردًا من كتيبة الفجر بشكل دائم!».

29

سراج الليل

19 تموز 1983

في عتمـة منتصف الليل تمتمت لأول مرة بآيات سورة الواقعة أثناء المسير باتجاه العدو:

﴿إذا وَقَعَـت الْواقعَةُ ۞ .. أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُون﴾

عـلا صوت «جليل حمامي»، مسؤول الاتصـالات اللاسلكية الشاب مع العم مرتضى: أخ داريوش!

أجبته بسرعة: حمامي، صار اسمي سلمان.

– عُذرًا أخي داريوش، لم أنتبه أنه يجب أن لا أقول داريوش!

– لقد قلت داريوش مجدّدًا!

– عفوًا.. سلمان! هناك شيءٌ دخل في يدي وهو يؤلمني كثيرًا!

تقـدّمَ لِيُريـنـي يـده فسقطـت خوذته الواسعـة على مقدمـة أنفه. أَرْجَعَها إلى الخلف وقال: ها هنا..

– في هذه العتمة أنا لا أرى شيئًا، يُحتمل أن تكون شوكة توت العليق قد غرزت في يدك، فهي وافرة في كُردستان. هي سامّة أيضًا!

– سـ سـ ســـامّة؟!

– خفتَ؟ ابن فسا وتخاف..

ضحـك حمامـي وشدّ لجام البغـل المُحمّـل بالعتاد وقـال: أنا ابن منطقة زاهدون في فسا والتي صار اسمها بعد الثورة زاهدشهر!

قلت: حمامي، سمعتُ أنك صرت طالب علوم دينية؟

- نسأل اللّه القبول! آه.. ما أجملها!

- ما هي؟

- سُرج الليل! اليراعات!

في وسط العتمة كان اليراع يضيء مثل النجوم الساطعة ويفتح الطريق أمام كتيبتَي التعبئة والحرس، الفجر وكُميل. سوّى حمامي جهاز الـ «PRC» على ظهره وقال: «أخ سلمان، يعني هل تكون الشهادة من نصيبي في هذا الهجوم؟».

باغتني لحن قوله وتذكّرت تلقائيًا ما حصل في اليوم السابق. كان أول شخص في الكتيبة يغتسل غسل الشهادة في ماء النبع البارد! قلت له: «ننتصر إن شاء اللّه ونعود ونستعدّ للهجوم التالي، حتى نقضي على يزيد الكافر صدّام!».

همس بهدوء: ولكن ألا توافقني بأن الشهادة شيء آخر!

رأيتُني منزوع السلاح أمامه فحاولت أن أُغيّر الموضوع بنكتة عسكرية. همستُ في أذنه قائلًا: «محقّقٌ عراقي يسأل أسيرًا إيرانيًا شابًا: ما الذي تحمِلهُ عن الحرب يا بُني؟ يجيبه الشاب مُضلّلًا: لا شيء! حملتُ فقط زوجي أحذية ومعطفًا وساعة يد!».

ضحك حمامي وكان جوابه حاضرًا: في أحد الأيام يجمع صدام قادته ويقول: ها هي السنوات تمضي على الحرب ولا تزال حسرةً في قلبي أن يأتيني أحدُكم ومعه عدد من التعبويين أسرى! وها أنا أعلن الآن أن كل من يتمكّن من فكّ هذه العقدة ويأتيني بأسير فله جائزة قيّمة عندي. في اليوم التالي يرى صدّام وقد أخذته الدهشة أحد ضبّاطه يكبح فرامل حافلة مملوءة بالتعبويين ويوقفها أمام مركز القيادة. يُربّت صدّام على كتف الضابط ويقول: أحسنت! أحسنت!

والآن قـل لي كيف استطعت الحصول علـى هذا الصّيد الثمين؟ يؤدي الضابط التحيّة ويقول: سيـدي! ذهبتُ خلف الساتر التّرابي الإيراني وفتحت باب الحافلة ووقفت عنده وصِحتُ: كربلاء! كربلاء! ثمّ بطرفة عين امتلأت الحافلة بالتعبويين. في الحقيقة كان هناك أكثر من هؤلاء بكثير ولكن الحافلة امتلأت!

قلت: ليس إخفاقًا أن صرت شيخًا!

- هذا إذا كنت لائقًا!

أخافَـه صـوتُ خشخشـة اللاسلكـي خلفي فعَـلَا شحيـج[1] البغل، ومباشرة علا صوتُ الهسهسة[2] والصهصهة[3] والزجر من الإخوة.

- يا حبيبي أسكِت الحمار.. لقد فُضحنا.. شُدّ لجامه..

بدأ حمامي يُلاطف البغلَ بالمسح على رأسه وعُنقِه حتى هدّأه. هذه المرّة ارتفع صوتُ خشخشة جهازه اللاسلكي هو.

- سلمان، سلمان، مرتضى..

أدنى حمامي السمّاعة من فمه وأجاب من عمق حُنجرته: مرتضى، مرتضى.. على السمع..

مدّ سمّاعة اللاسلكي ناحيتي.

- أخ داريو.. آه.. عفوًا.. العم مرتضى يريد أن يكلمك.

تقدّمت من اللاسلكي لأحكي، ولم أفهم كيف استطاع العم مرتضى بخطـوات صامتة أن يصِلَ برفقـة الأخ مُلازم علي ومُرشد كردي آخر إليّ مـن آخر الطّابور وقَال: «سلمان صفـري، يقول الأخ مُلازم إنّه ما

1- الشحيج: صوت البغل المرتفع.

2- الهسهسة: قول «هس» بنحو خفي بقصد الإسكات والتهدئة.

3- الصهصهة: قول «صه» بنحو النهي بقصد الإسكات والزجر.

زال لدينـا ساعة حتى نصـل إلى نقطة الانطلاق. علينـا أن نزيد من سرعة الطابور لئلا يطلع علينا الضوء. فمن الممكن حينها أن يرونا!».

– على عيني يا عم! أخبروا الجميع لئلّا يتخلّف أحد.

اجتاز صفّنـا الطويل المنطقة الجبلية البـاردة والزرقاء في العراق كالبنيـان المرصوص، ثـم انحدر كالسيل نـزولاً حتى وصـل في نهاية المطـاف إلى الجادّة الواسعة في قاع الـوادي. دخلنا من بعدها في نهرٍ ضحلٍ ووصلت المياه إلى ركبتي.

30

المقنبلة

20 تموز 1983م

عنـد الصباح أضاء خطّ الأفـق الأحمر خلف الكتيبتين كلَّ الأرجاء وامتـزج صوتُ تدفّـق المياه المنحدرة من زاوية الجبـل بتغاريد الطيور البريّة. عـبرتُ فوق المياه المتجمّدة وجثوت بجانـب نبعة وشربت. كان الشبـاب قد اختفوا ضمن مجموعـات مؤلفة من أشخاصٍ عدّة في ظلّ النباتـات وتحت الأشجار مـن أجل الاستراحة. وكان شـابٌّ من طلبة العلوم الدينية بلباسه التعبويّ الكاكي وعمامته البيضاء قد وقف داخل انحدار في الجبل للصلاة.

وجدتُ مكانًا قليل الانحدار واتّكأت على جذع شجرة ضخم. لففتُ معطفي حولي بشدّة اتّقاءً من البرد. أسفل مني كان «حسين بنائيان» الفتى الشيرازي الطويـل والضخم برفقة زميله السيد علي الحسيني يتحدّثـان مع ضابط من الدرك قصير القامة في الأربعين والنّيف من العمـر.

- أيُّ نوعٍ من الأسلحة هذا يا سيد غلامي؟
- سلاحٌ ثقيل! يسمّونه المقنبلة!
- تُشبـه طلقاتُه البيضَ، ولكن أكبر! لمـاذا ذخيرته كبيرة إلى هذه الدرجة؟
- لأجل هدم المتاريس؛ يجب أن تكون كبيرة هكذا!
- سيد غلامي، هل بقيّة أصدقائك معهم مقنبلاتٌ أيضًا؟
- أجل، في كل فصيلٍ يوجد مقنبلة مع أحد الأفراد.
- سيد غلامي، جنابكم تخدمون في الجيش؟

رمـق غلامـي كُلًّا مـن حسين ورفيقه مـن قمة رأسـه إلى أخمص قدميه.

– كلا، في الدرك.

– أنتم تعبويّون..

– لا؟

– حقًّـا كـم يبلغ عمركمـا؟ أربع عشـرة أو خمس عشـرة سنة؟ ألا تخافان في عمق أرض العدو وهذه المنطقة الجبلية..

– كلا.. ولأجـل أيِّ شـيءٍ نخـاف؟ المهم الآن هـذه البندقيّة، كيف تعمل؟ علّمنا كيف تُطلق النارَ منها يا سيادة العريف.

– ليسـت سهلة كالكلاشينكوف! إنّها أكثر تعقيدًا. لن تتعلما. ثمّ ما حاجتكما إليها؟

– يا سيد غلامي! بما أنّنا جئنا، يجب أن نتمكن من الاستفادة منها إذا ما استشهدتَ.. هل انزعجت؟ هل قُلتُ كلامًا سيئًا يا سيد غلامي؟

– الشهـادة.. ألا يُمكـن أن تُفكّـرا بالحيـاة؟ لا تـزال فتـى في أول حياتك. يجـب أن تذهب وتستمتع بملذات الحيـاة. الزوجة والأبناء.. الحب.. السيارة والمال.. الأمور التي سخّرها الله لأجل فائدتنا.

– كل هـذه الأمـور هي وسيلـة لامتحـان الإنسـان.. والشهادة هي الحياة الخالدة!

– لا أعلـم كيف تذوّقت طَعمَ الشهادة أيّها الصّغير. أحد مصاديق هـذا الجنون هو مجيئك إلى عمق أرض العدو ومشاركتك في مهمّة لا رجعة منها!

– أيّهـا الرقيب غلامي! عندما يصـل الإنسان إلى المعرفة فإنّ أقلّ شيءٍ يُقدّمه في سبيل الله هو روحه!

– لا أنتم تفهمون كلامي ولا أنا أفهم كلامكم.. ما أعرفه هو هذا فقط؛ وهو أنّكم عندما تكبرون وترتبطون بالزوجة والأولاد ويشغلكم الصهر والكنّة ستفهمون عندها معنى التّعلق!

– الكثير من شباب الكتيبة متزوجون ولديهم أولاد أيضًا!

– لا بأس اضحكوا..

– يجب أن تتذوّق حياة الشهيد يا سيادة الرقيب؛ تتذوّقها بكل وجودك! لا يكفي أن تراها ببصر عينك بل ينبغي ذلك ببصيرة قلبك. لقد عدّ أمير المؤمنين عليه السلام الشهادة فوزًا عظيمًا وعدّها الإمام الحسين عليه السلام رأس مال السعادة. الشهداء يعرفون الشهداء.

– متى تعلّمتما هذه الأمور..؟ لأقم وأذهب حتى لا تجعلا مني شهيدًا..

وقف الرقيب مُحتارًا ومُشوّشًا. وضع خوذته ذات الشبكة على رأسه، والمُقنبلة على كتفه، وذهب لينضم إلى سبعة أو ثمانية من زملائه الدّرك الآخرين الذين كانوا قد توزّعوا في فصائل الكتيبة، كلٌّ مع مُقنبلة. تسلّلتُ واقتربتُ من فصيلة الشيرازيين. كان شابّ في العشرين من العمر طويل القامة نضر الوجه يبوح عمّا يجول في خاطره: قبل أيام، في ثكنة جلديان أخبروني أن ابنيَ المُنتظر قد جاء!

قال بنائيان بسرعة: مبروكٌ يا نادر! فور استيلائنا على التلّة عليك أن تحتفل بولادته وتوزّع الحلوى أيضًا من خلال الغنائم.

– ليتني كنت رأيت ولدي! إذا بقيت حيًّا..

– حين تراه، وبحسب قول الرقيب ستخور قواك وتعلق!

– نادر، وجهُكَ يُفصح أنّك قد علقت من الآن!

لم ينبس نادر ببنت شفة وهرول مُنسحِبًا.

انضم «كريم الأبرص» والأخ «ملازم علي» إلى الجَمع. حين رآني

كريم ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال: «سيد داريوش، سلام!».

قلت: «لمحتَ أبناء مدينتك! أحقًّا تنوي قراءة الطالع؟».

غمز كريمُ الأبرص بطرف عينه.

- حتمًا من بعد إذنك!

أشرتُ إلى حقيبة الظهر الخاصة بالـ(B7) على ظهره.

- صرتَ مساعد رامي الـ(B7) أيضًا؟!

فتح حقيبة الــ(B7) ووضعها على الأرض. ثمّ أخــرج البُلبل البنّي بحــذرٍ من داخل قُبّعة صوفية زيتونية اللون وبدأ شعوذة قراءة الطالع: كيــف جلب معه في برد مناطق الغــرب البلبل البنــيّ! سيموت الطائر يا عبد اللّه! البلبل البنّي يعيش في المناطق الحارّة..

أخــرج من داخل حقيبــة الظهر الخاصة بسلاح الــ(B7) صندوق أوراق الطالع الصغير وقرأ طالعَ الأخ ملازم علي:

يا حافظ عند الفقر وفي خَلوة الليالي المظلمة

ما دام وِردك الدعاء ودراسة القرآن فلا تغتم

لم يكن الأخ ملازم علي مُستهترًا.

- ما معنى ذلك؟

- الأخ إدريســ أيضًــا يُحسن رواية الشعر عن حافظ! أخ كريم اقرأ طالِعَ أخينا أيوب هذا!

حين أفلت كريم الأبرص من بين يدي الأخ ملازم علي جثوتُ مقابله على رُكبتيّ مُبتسمًا وقلت: «هيا اقرأ طالعي فلديّ عمل!».

- اعقد النية يا سيد داريوش!

أجبته ضاحكًا: «أبوك هو داريوش!».

تحلّق حولنا عدّة أشخاص. قرأت في ذهني الحمد والسورة وعقدتُ النّية: وبنيّة معرفة مصيري والعمليات القادمة! قلت: «لقد نويتُ، اسحب الطالع!».

نقر البلبل البنّي نقرة في الصندوق الصغير وسحب ورقة. حين أراد كريم الأبرص أن يحمل ورقة الطالع أخذتها وقرأتها.

يا حافظ، الأسرار الإلهية لا يعلمها أحد، فاصمُت

من تسأل ماذا يجري بعد الحياة؟

وصل «محمد إلهي» حاملًا بيده آلة تصوير وبدأ يُصوّر الإخوة. مباشرة رفع الشباب أيديهم مُشيرين إلى علامة النصر على شكل سبعة أمام الكاميرا.

31

الكتابة على الظهر

20 تموز 1983م

استيقظت عند العاشرة صباحًا. كان قد أُغمي عليّ لعدّة ساعات على الأعشاب البريّة من فرط التعب. كان الثلج محيطًا بي من ثلاث جهات وقد تسلّل ماء الثلج المُذاب تحت بدني. ووسط البلل والصقيع كان بدني يحترق. خلعتُ عن بدني جُعبتي وعتادي بحذر. كان جلدي ولحمي جراء ضغط العتاد قد قُرِضَ وجُرح. وكنت في حاجةٍ إلى الدّفء. زحفتُ إلى مكانٍ تجمّع فيه الإخوة ونور الشمس. كان التّعبوي «حميد زارع» قد افتتح سوق الكتابة على الظهر بالقلم الخطاط الأزرق.

– هؤلاء الذين لا يريدون أن ينتهوا مفقودي الأثر فليتقدّموا إلى الأمام..

– هل تتمرّن على الخط على ثياب الإخوة يا سيد حميد؟

– يا حبيبي يجب مُراعاة الدّور!

– ليس هناك داعٍ، وضعُ القلادة في العنق إنّما هو لأجل هذا!

– الريحة ولا العدم؛ والحذر أفضل من الندم!

– يا حميد، اكتب على جيبي وتحت إبطي اسمي واسم عائلتي!

– اكتب على ظهري: مُختَرِق العدو!

– لقد لففت كل بدنك بشرشور الرصاص، فأين أكتب؟

– اكتب بخطٍّ جميل: ها هنا تربية الروح لا البدن!

– اكتب على ظهري: صيّاد الدبابات!

– اكتب على قلبي: هنا مكان الخميني لا الشظايا والرصاص!

- ذكيٌّ جدًّا!

-حسنًا اكتب: مع الخميني حتى الشهادة! جيّد هكذا..

- اكتب: تقدّم للأمام بلا كلام!

- يعني ماذا؟

- تفهم فيما بعد..

كان الدفء قد بدأ يسري في بدني حين وصل «إبراهيم كاركر الزمكّ» من منعطف الطريق.

- داريوش، يقول العم اذهب بسرعة!

وصلت أنا وقاسم كوشكي ومحمد رضا بديهي وفرهاديان فر إلى أعالي مرتفعات المنطقة. عبقت في أنفي رائحة صمغ الصنوبر. وكأنّما كان هناك خبرٌ ما في الأعالي. قُرب غابة الصنوبر العالية، وقع نظري على عدّة رجال أكراد قد غُلّت أيديهم من الخلف! ذهب الأخ «ملازم علي» ناحيتهم وهو يحمل بندقيته السيمونوف ذات المنظار وتحدّث معهم لمدّة باللغة التركيّة. ثمّ رجع باتجاه العم مرتضى وأصغر سرافرازي.

- أخ مرتضى! يقولون إنّهم مزارعون ومن أهل قرية شمشير.

- وأين تقع قرية شمشير!

- عدّة كيلومترات من هنا.. بالقرب من جبل «كاني خدا».

- وماذا يفعلون هنا!

- كانوا يسعون خلف قطعانهم وخيولهم.

حكّ العم مرتضى رأسه.

- أخ ملازم أنت تُصدّق كلامهم؟

– اللّه العالم! أنت القائد يا أخ مرتضى!

– لا يُمكننــا المخاطــرة. حتى لو لم يكونــوا جواسيس من الممكن أن يذيعوا خبر رؤيتنا أمام العدو!

– يا أخ مرتضى يعني نقتُلُهم؟

ضحك العم مرتضى وربت على كتف الأخ ملازم علي.

– لا يــا عبــد اللّه! يأتون معنا إلى قُرب الهدف وحــين تُقرّرون أنتم العودة، تُرجعونهم معكم. بهذه الطريقة لا يفتضح أمر هجومنا!

ذهب الأخ ملازم علي والأكراد الأسرى. فتح العم الخريطة الأولية لمنطقــة العمليات وثبّتها بحجارة صغيرة علــى زواياها الأربع. تجمّعنا حــول الخريطة وبــدأ العــم بالشــرح: كتيبة كُميــل تنفصــل عنّا عند نقطــة الانطلاق. سريّــةٌ منها تتقدّم من نقطة الانطــلاق مسافة عدّة كيلومــترات إلى الأمام وتستقر هناك وتتــولى مسؤولية تأمين الحماية لكتيبتنا وكتيبتهم حتى لا يُغلِق العدو أمامنا طريق العودة.

ثــمّ أخرج طلقةً من خــزّان الرّصاص ورسم برأسها النّحاسي على الأرض شكل وعاء.

– لنفترض أن منطقة العراقيين حتى الحــدود هي على شكل هذا الوعــاء فــإنّ مجرى الدخــول إلى هــذا الوعاء هو طريــق دربندخان، وكتيبــة كُميل مــن خلال سيطرتها علــى مرتفع الشهيــد الصدر تغلق مجرى الوعاء هذا. نحن أيضًا يجب أن نسيطر على تلّة بردزرد، يعني قاع الوعاء، ونُحكم الخناق على العدوّ عند مضيق دربندخان.

أشار بإصبعه إلى مسير استقرار كتيبة كُميل.

– تــدور كتيبة كميل مــن جهة اليمين حول المواقــع والمرتفعات التي تسيطــر عليهــا كتيبــة الفجر، وتتقــدّم في العمــق أكـثر لتستولي على

المعسكرات المشرفة على دربندخان. ثمّ تستقر بعد ذلك في أعلى الطريق المُعبّدة لدربندخان وتمنع (تقدُّم) ضغط العدو علينا!

أشار العم إلى فرهاديان فر.

- ينبغي أن تنقسم سريّتك إلى فصيلين، الفصيل الأول يُرافقك لتسيطروا على الناحية اليمنى من التّلة، ويسيطر بديهي مع نوذري على الناحية اليسرى من التّلة! ها هنا. أنا وقاسم تشوبان نتولى مع سريّتين أمر السيطرة على تلّة بردزرد!

32

كمبا 11

20 تموز 1983م

- إلى الأمام أيُّها المجاهدون..

غـروب اليوم الثاني، حين غَفت الشمس، عَقَد «حسن مايلر» عصبة «لبيك يـا خميني» الزرقاء حول خوذته الحديديـة، وراح يدور كدولاب الهواء بين شبـاب كتيبة الفجر يُبلغهم بأمر التّحرك. حين اقترب منّي نظرتُ إليه وقلتُ ممازحًا: حسن، لا تُضيِّع نفسك، فالمسؤوليات لا تدوم!

وقف، ابتسم وأرجع إبهامه ناحية ظهره وأشار إلى صورة الرّشاش وكتابة «مُرتاح البال!».

- أخ داريوش، مُرتاح البال!

- إذا قلت داريوش مرّة أخرى، سيكون حسابك عسيرًا!

وجّهـتُ يـدي ممازحًا نحو الأرض لأوحي له بأنّي أريـد أن ألتقط حجـرًا. سارع بالفـرار وهو يقول: «وعلامَ يلجـأ إلى الحجر من يملك بندقيةً!».

لم يكن حسن قد ابتعد بعد حين وصل «مش موسى» بالرّاية الحمراء المكتـوب عليها «يا ثار الله» واندسّ بين الشبيبـة وأوصاهم بالوصايا اللوجستية: لا تُسرفوا في طعامكم.. لا تأكلوا كثيرًا.. هذه هبات الناس وهداياهـم. ماءُ مطراتكم لا تُهدروه سُدًى.. لا تطلقوا النار اعتباطًا.. لا تغفلوا..

ارتفع صوت أبو القاسم تشوبان: ليس لدى «مش موسى» إلّا لا تأكل.. لا تغفل.. لا تلبس.. دائمًا لا.. لا.. أوصِنا ولو لمرة واحدة بالإيجاب..

قـال «مش موسى» وقد أمسك بسارية العَلم الخشبية وراح يُلوّح بها

في الهواء: أنت تنظر إلى الشَّعر وأنا أرى انعطاف الشّعر وانحناءه[1]!

وصل طابور الأربعمئة شخص من المجاهدين في نهاية المطاف إلى نقطة الانطلاق، حيث ينبغيً أن تنفصل الكتيبتان الواحدة عن الاخرى. ووصل أيضًا أصغر سرافرازي قائد كتيبة كميل. ذهب مرتضى لاستقباله. حين التقيا وأمام أعين الجميع تحدّثا أحدهما إلى الآخر بلغة العيون. ثمّ تقدّما واحتضن كلٌّ منهما الآخر.

- اشفع لي يا أصغر!

- بشرط أن تشفع لي أنت أيضًا يا مرتضى!

- ادعُ لي أن أكون لائقًا بالشهادة يا حاج أصغر!

- انتبه لنفسك يا عم مرتضى فالحرب بحاجة إليك!

- وأنت أيضًا كذلك! وفّقك اللّه..

صمتا لعدة لحظات ثم رأيت اهتزاز كتفَي كلٍّ منهما. لحظةَ استدرتُ كان الرقيب غلامي مأخوذًا بوداعهما إلى حدّ السُّكر.

بالاسترشاد بأكراد البارزاني المعروفين بوحدة (كمبا 11) انقسمت قوات الاستطلاع في الكتيبتين إلى فرعين. واصلت كتيبة كُميل بقيادة أصغر سرافرازي مسيرها في العمق وتقدّمت كتيبة الفجر بقيادة مرتضى جاويدي ناحية اليسار على شكل قوسٍ.

كان الفصل صيفًا، لكن شدّة برد المناطق الجبلية والغابة جعلتنا جميعًا نرتدي معاطفنا ونلبس الكفوف ونعتمر القُبّعات الصوفية. أطلّ علينا حسن عدّة مرات. كان يروح ويجيء على طول الطابور ويهمس في الأثناء: لا تنسوا سورة الواقعة، اقرأوها بقلوبكم!

1- بيت شعر عرفاني: تو مو مى بينى ومن پيچش مو! وهو يشير إلى دقة نظر الحبيب وملاحظته لدقائق الأمور وعدم وقوفه على الظاهر.

﴿إذا وَقَعَــت الْواقعَة ۞.. إنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُــمُ الْماءَ الَّذي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُــمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُون﴾

في الليـل وسط الظلمـة العمياء والسكوت الذي لم يكـن يكسره إلا أصـوات الحيوانـات البريّـة في الغابة وخريـر مياه الينابيـع الجبليّة، عبرنا عـدّة تلال ومعسكرات للعراقيين. كنّـا نسمع بين الحين والآخر أصـوات ضحك الحراسـ وأشرطة الموسيقى المرتفعـة. نادى حمامي العم مرتضى: الحاج أسدي على الخط!

أمسك العم مرتضى بسماعة اللاسلكي.

– على السمع يا حاج!

– في موقع العرس!

– ما زال لدينا خمسة إلى ستة كيلومترات لنصل إلى نقطة العرس! لقد واجهنا مشكلة.

– أشلـو، موعـد العرس عند الثانية عشرة ليـلاً، يجب أن تصل في الوقت المحدّد!

– أستبعد ذلك يا حاج! سوف أسعى.

انقطـع الاتصـال. وبأمر من «العـم مرتضى» أسرعنـا في حركتنا حتـى وصلنا إلى النهر. نادانا مرتضى أنا وفضل الله جمالي: يجب أن نجد طريقًا مختصرًا. فعلى هذا النحو لن نصل إلى العرس!

قلـت: علينـا أن نصـل أولاً إلى الجسر، وقبل ذلك لا بـدّ أن نقطع مسافة إلى جوار النهر!

– لا وقت لدينا، أخبرْ جميع الإخوة أن ينزلوا في الماء!

– سيهلك الشباب من البرد وأسلحتهم و..

– لا سبيل آخر لدينا، التوكّل على اللّه، فعرضُ النهر ليس أكثر من سبعة إلى ثمانية أمتارٍ!

وافق جمالي على كلام العم مرتضى أيضًا. وبصفتي عنصرًا محوريًّا في قوّة الاستطلاع في الكتيبة كان ينبغي أن أقوم بعملٍ ما. وجدتُ المكان الأكثر ضحالة في عرض النهر ونزلنا بلباسنا وعتادنا مضطرين في المياه الباردة التي كانت تصل إلى حدِّ الفخذ وفي أماكن أخرى إلى حدّ الصدر. ابتَلَّت الأسلحة وخدّرتنا المياه حتى أنهكنا. ولحظة توقّف الطابور، أوصل «ملازم علي» نفسه إليّ. وضع بندقيّته السيمنوف ذات المنظار على الأرض وربّتَ على كتفي.

– أخ داريوش!

– في خدمتك!

أخرج من خلف أذنه سيجارةً وأراني إياها: هل هناك مشكلة في أن أدخّن سيجارةً؟

– أخي ملازم علي أتريد أن تقتلنا جميعًا!

قطع كلامي وقبّلني في جبهتي.

– أنت في وحدة الاستطلاع دُلّني على طريقةٍ ما. لم أعد قادرًا على التّحمل!

قلت: ألف ما شاء اللّه عليك في هذه الأوضاع وتحمل الدخّان أيضًا!».

– يا أخ داريوش! أعتقد أنّه مع كل خزّان رصاص يتّسع لثلاثين طلقة يجب أن يتُم إحضار مئة سيجارة. الطلقات في كل مكان، لكن السيجارة لا!

ضحكت من بساطته وجوابه الحاضر. ولَمعت في ذهني فكرة. فتحتُ الكوفيّة الموضوعة حول عنقي وجلبتُه إلى زاوية تحت شجرة وقلت: «اجلس!».

جلسنا معًا. وضعتُ الكوفيّة فوق رأسي ورأس الأخ ملازم علي وقلت: أسرع.. هيا دخّن!

ضحك وقال: ما ألطفك يا أخ داريوش، حقًّا إنّك رجل أمنيّ!

أشعل سيجارته وراح يدخّن بسرعة. أخذتُ أسعل فأطفأ سيجارته في نصفها وأخذ نفسًا عميقًا.

- هل تأذيت.. أشكرك يا أخ داريوش!

- أخ ملازم علي، يا عزيزي أنت على الأقل نادني سلمان!

- على عيني!

وصل حسن مايلر بفم ممتلئ. كان صوت مضغ الطعام في فمه مسموعًا. قلت: إذا ما انفجَرت فاشفع لنا!

- على عيني يا أخ داريوش!

أثناء المسير كان قائد اللواء الحاج جعفر أسدي يتواصل ويحثّ مرتضى لأجل الوصول إلى الهدف، لكنّ ذلك كان من دون جدوى، وحانت الساعة العاشرة وكان لا يزال أمامنا ساعات حتى نصل إلى تلّة بردزرد.

لم تتبق مسافة طويلة إلى المرتفع الذي كان ينبغي أن ننحدر منه باتجاه مواقع العدو. وفق الاتفاق، كان ينبغي على «السريّة3» بقيادة فرهاديان فر وأبو الفضل نوذري أن تنفصل عنّا عند المرتفع وتتقدّم باتجاه الهدف. نادى العم فرهاديان فر: إذا ما وصلتَ في الوقت المحدّد حيث ينبغي أن تبدأ المهمة، وإذا ما قُطع التواصل بيننا تُنسِّق أنت مع اللواء أمر الهجوم عبر جهاز اللاسلكي..

33

عشق كرب وبلاء

الأربعاء 20 تموز 1983

تحـت مطر الجبال، كنت كلما تقدمـتُ أكثر في الأراضي العراقية، أرى موتي أقرب: إلهي! هؤلاء التعبويون والحرس جاؤوا بملء رغبتهم.. وأنـا مكلّف من جانب الدرك ويجب أن أحفظ حياتي. لقد خدمت لمدة ثلاثين سنة. تجربتي تنفع البلاد!

رغـم أنّ سلوك التعبويين وأفراد الحرس وهدوءهم الخاص وكلام ذلك الشاب الطويل القامة ابن الخامسة عشرة قد صفعني، لكنّ التفكير في الموت وعدم العودة كان يتعبني: زوجتي وأولادي، أمي وأبي، ما ذنبهم. أُسَرُ هؤلاء وعوائلهم مستعدّة لشهادة أعزائها.. لقد كبحوا جماح أنفسهم وهذبوها وأعدّوها للشهادة. إنّ عمري من عمر آباء هؤلاء.

ينـزل المطر كالمطرقـة الثقيلة على خوذتي. لقـد تجمّدت يداي من شدة البرد واستحالت المقنبلة كقطعة ثلج بينهما: .. كأنّ هؤلاء ذاهبون إلى عرس.. أنا إن متُّ فسيبقى جثماني في أرض العدو ويتعفّن.. أنا لا أفهم هؤلاء الناس ولا أدرك باطنهم.. وكما يقولون أنفسهم، فالشهداء يعرفون الشهداء.. أنا غريب!

- جناب الرقيب، تفضّل تين استهبانات المجفف! حلوٌ مثل الشهادة!

عدتُ من أفكاري ونظرتُ إلى الوجه الضاحك لرجل متوسط العمر نضر الوجه، كان يقسّم التين المجفف بين شباب الكتيبة بسرور. وضع في كف يدي عدّة حبّات من التين.

- كل واستمتع يا أخي! إنّها فاكهة الجنّة!

كنـت جائعًا، وضعـتُ قدمي على الطلعة الموحلـة والمجوّفة للمرتفع

وتقدّمت. بات الخطوُ صعبًا: التين فاكهة الجنة.. فاكهة الجنة[1].. ومن حظّي رأيتني فجأة أنني بتناول هذه الفاكهة صرت شهيدًا!

استقر العرَقُ البارد على جبيني ويبس حلقي. لم آكل التين ووضعته داخل جيبي: ليتني كنت الآن إلى جانب زوجتي وأولادي.. هل سأراهم مجددًا؟ أعطني فرصة أخرى يا اللّه! أليس معي حق: هؤلاء قد صفّوا حسابهم معك ومع أنفسهم. أما أنا.. حتى إنّني لم أكتب وصية..

في لحظة أضاء المكان كله ولمعت السماء في طرفها. بدأت يداي جرّاء التفكير ترتعشان وتهتزان شيئًا فشيئًا. ضربت بظاهر كفي على جبيني وأخذت نفسًا عميقًا، سرت رائحة مطر الجبل داخل أنفي. عنّفتُ نفسي: ألا تعدّ نفسك رجلًا! انظر إلى كل هؤلاء الأشخاص من حولك، شبّان صغار ومتوسطي العمر، رغم التعب المنهك هم مسرورون وسعداء وكأنهم ذاهبون في نزهة!

عدت ونظرتُ إلى اثنين أو ثلاثة أكراد في وحدة (كمبا11). كان معهم عدّة أكراد أسرى مكبلي الأيدي.

عند الساعة العاشرة والنصف ليلًا وصلنا إلى أعلى المرتفع. كان مطر الصيف قد توقف وكتل الغيم الفصلي قد اختفت من السماء. مباشرة راح شخصٌ يدور حول الأفراد ويقول: أيها الإخوة ها هنا مبيتنا الليلة.. توقُف.

تنفستُ الصعداء وتمددتُ بحقيبة ظهري وسلاحي الثقيل على الأرض الرطبة، وخلعتُ خوذتي المعدنية عن رأسي. بالتدريج جاء زملائي السبعة أو الثمانية من ضباط الصف وجلسنا متحلقين بعضنا

1- فاكهة الجنة أو عصير الجنة: مصطلح ساد في الجبهات أيام الحرب، كان يتفاءل به المجاهدون اذا ما قيل لهم عند تقديم الفاكهة أو العصير، للدلالة على قرب موعد استشهادهم.

حول بعض. وكأنهم كانت لديهم هواجسي وقلقي.

- أيها الرقيب، الأوضاع صعبة جدًا! كل هؤلاء يريدون أن يقتحموا قلب العدو، لن ينجو أحد منهم..

- ليس فيهم من يتحدث عن العودة!

- الأمر بسيط، لقد توغلنا مسافة 30 كيلومترًا في أرض العدو، فهل هناك من رجوع!

- هؤلاء كانوا يعلمون من البداية أنه لا رجعة في هذه المهمة، لكن ما ذنبنا نحن؟

العريف عبد الكريم ستايش، كان كلامه يختلف عن البقية:

في نهاية الأمر علينا أن نساعدهم. لقد أرسلونا إلى هنا مع المقنبلات من أجل هذا الهدف. مقتضى العدل!

- بات رأسك يعبق مثلهم برائحة مرق الخضراوات[1].. هل صرت تعبويًا؟

- صحيح، لقد قالوا لنا اذهبوا عدّة أيام للمساعدة وارجعوا. لا أن نسلّم أرواحنا للموت!

قال العريف ستايش: نحن في نهاية المطاف إيرانيون ويجب أن نقاتل العدو! لقد أقسمنا واخترنا هذا اللباس بملء إرادتنا.

- قتال لا رجعة فيه! نحن لم نتطوع مثل هؤلاء أصلًا.

- أيها الرقيب ماذا نفعل الآن؟

نظرتُ إلى وجه ستايش وقلت بحذر: ما باليد حيلة، علينا أن نسعى

1 - قرمه سبزي: مرق الخضراوات؛ والعبارة مثل شعبي يقال عندما يراد اتهام أحدهم بعدم النضج والتصرف الأرعن.

فقط أن نبقى أحياء.. ولنرَ ما الذي سيحدث!

– أنـا سأسلم نفسي للأسـر في أول فرصة سانحة، هذا أفضل من أن أقتل!

– تصبح أسيرًا؟!

– لديّ عرسٌ بعد شهر من الآن!

– عندي أم عجوز ستموت من دوني كمدًا!

احمرّ وجه العريف عبد الكـريم ستايش غضبًا: جميعنا لدينا أهل وعمل، مثل جميع هؤلاء.. انظروا إلى وجوه هؤلاء الشباب.

– ما الذي تقوله يا عزيزي. لقد سمعت أن هؤلاء قد وقّعوا عهد الدم.

– وأنـا وأنت أيضًـا باختيارنا لهـذا اللباس العسكـري قد انتخبنا طريقنا. قبل هؤلاء الشباب!

– رح يا عزيزي؛ قلبك طيب أيها العريف[1]!

نظروا إليّ:

– أيها الرقيب أنت أكبرنا. قائد كتيبتهم ذلك.. ماذا كان اسمه؟

– ينادونه العم مرتضى!

– أجـل عمهـم هذا. يبدو أنه رجل صالح! تحـدث معه لعله يرسلنا إلى الخطوط الخلفية!

فكرتُ وقلت: ولنفرض أنه أجاز لنا العودة. مع من؟ العودة فحسب تساوي إما الموت أو الوقوع في الأسر!

– لعلّه يؤمّن لنا مرشدًا!

ابتسمـتُ ابتسامـة صفـراء وقلـت: يؤمّـن لنـا نحن الذيـن خفنا

1- قلبك طيب؛ بلحن التهكم عبارة يقصد بها اتهام المخاطب بالسذاجة والبساطة.

وتراجعنا ونريد أن نفرّ؟!

– أنـا غير موافق. مجرد الحديـث في هذا الأمر سيزيد الطين بلّة! ولو عرفوا ما يدور في خلدنا سوف يرموننا بالرصاص ههنا!

– اسكتوا أحدهم قادم نحونا.

اقترب مسؤول التجهيزات المتوسط العمر مني.

– قوّاكم الله أيها الرقيب!

سوّيتُ طرفي شاربي وقلت: سلمت!

قال العم مرتضى: فليتجمّع الكل هناك.

أشـار بإصبعه إلى مكان في المرتفع كان قـد تجمّع فيه أغلب أفراد كتيبـة الفجـر. لقد أخرجـوا العتاد مـن أجربة عدة بغـال وقسّموها. وقفتُ، وذهبت قلقًا وانضممتُ إلى البقية. جاء قائد الكتيبة. سار حتى وقـف على صخرة تجعلـه مرئيًّا للجميع. باتـت الهمسات والوشوشات مسموعة. رفع يده فسكت الجميع.

– بسـم الله الرحمن الرحيـم.. إذا نزلنا من هـذا المرتفع باتجاه الـوادي ثـم مشينا لمـدة ساعة أو ساعتـين سنصـل إلى الهدف. على جهتنـا الشمالية تقع تلة بردزرد، وعلى جهة اليمين توجد حقول القمح وقريـة واحـدة.. صمـت مطبق.. أيهـا الإخوة لا يوجد في هـذه المهمة تراجع أو عودة، أمامنا إمّا النصر وإمّا الشهادة! علينا أن نسيطر على الهـدف حتى يتمكن الآخرون مـن الوصول إلينا. كل مـن كان عاشقًا لكرب وبلاء فبسم الله[1]..

صاح أفراد الكتيبة وقد كسروا الصمت: جاهزون.. جاهزون..

1- بمعنى: فلينطلق.

انخلـع قلبــي وامتِـلأتُ إحساسًــا بالوحشة. ومهما سعيــتُ في هذه اللحظـة الأخيرة أن أُدخـل في ذهني فكرة القتـال وتسليم المصير لم أتمكـن.. لم أكـن مستعدًا للمـوت، ففي النهاية مـا زال عندي في هذه الدنيا الكثير من الذنـوب والحاجات والحسابات غير المسوّاة مع هذا وذاك.. يا رب أنت تولَّ أمري..

تتمة كلام قائد كتيبة الفجر أعطتني الأمل بالحياة.

– لقـد قلتُ في ذلك اليـوم الأول للتدريب والآن أعـود وأكرر، ليس هنـاك إجبار في هـذه المهمة! أقسم بالله إنّني لا أسامح أي شخص في هذا العالم يوجد في قلبه ولو ذرة شك أو تردد في المجيء معنا ولا يرجع الآن ما دامت الفرصة سانحة! كل من لديه إشكال أو تردد فليرجع..

علا صوت بكاء أفراد الكتيبة. أشار القائد إلى الناحية المعتمة حيث كان أكراد (كمبا11) يقفون مع عدة بغال وكانت ظلالهم مشخّصة.

– الإخـوان في (كمبـا11) لـن يكملـوا معنـا مـن هنا ومـا بعد بل سيرجعـون. كل مـن كان غير راغـب بالمجيء معنا فليرجـع مع هؤلاء الإخـوة الأكراد. حـين يحين موعد الوداع والمسامحـة ليرجع من يريد العـودة في هـذا الظـلام مع الأكـراد. والباقـون يسـيرون خلفي وهم يقرأون سورة الواقعة في قلوبهم!

مجددًا علا صوت البكاء وتناهت الشكاوى إلى مسامعي.

– ما الذي فعلناه حتى شكّك العم بنا..

– لقد أمضينا عهود الدم.

– نحن مستعدون يا عم أن نموت معك مئة مرة.

– لا بدّ أن ذنبًا ما صدر منّا.

– تريد أن تتم الحجّة علينا.

أُنْشِـدَ صوتٌ يشبه صوت ذلك الرجل المتوسـط العمر المسؤول عن التجهيزات:

أسأل اللّه أن يعطيني مئة ألف روح

حتى أموت مئة ألف مرة لأجلك!

رجعـت ونظرت إلى ضباط الدرك. شعـرتُ أن كل واحد فينا نحن الثمانية غريب عن الآخر.

- إلى الأمـام.. بصمت تام.. أيها الإخوة.. اقرأوا سورة الواقعة في قلوبكم:

﴿إذا وقعـت الواقعـة ۞.. أفرأيتم النار التي تـورون ۞ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون..﴾

34

اكسر الجنزير

الأربعاء 20 تموز 1983

– استيقظ يا حسين! استيقظ! لقد بدأنا بالتحرك!

استيقظتُ مشوشًا.

– كيف أمكنك النوم في هذا البرد وجهاز اللاسلكي خلف ظهرك؟

– أيقظني السيد علي الحسيني. فهمتُ مباشرة أنّ النوم كان قد غلبني من شدة التعب وأنا جالس. قلت: كم الساعة؟ هل تخلفنا عن الركب؟

– إنها الحادية عشرة! لقد انفصل عنّا شباب «السريّة3»!

فركتُ عينيّ ونظرتُ إلى الأمام. كان فرهاديان فر ونوذري يودّعان العم مرتضى. قلت: رجع الأكراد!

– من نصف ساعة!

– سيد علي، هل رجع معهم أحد!

– وهل كان من المقرر أن يرجع معهم أحد!

– نادر!

– ما به نادر؟

– كان يردّد على لسانه موضوع العودة!

– كلٌّ مسؤولٌ عن نفسه.

في عتمة منتصف الليل ألقيتُ نظرة على الطّلعة الشديدة للجبل.

– يا إخوان تحركوا..

هزّني السيد علي الحسيني من كتفي.

– حسين لا تزال جالسًا، هيا قم!

مرّ بجانبي «علي سبزي» الشاب النحيف وقد لفّ الحمّالة المصنوعة من القماش المشمّع وحملها على كتفه.

– سيد بنائيان، لا تتخلّف عنا يا عزيزي!

ما من مرة رأيت فيها عليًّا إلا كان في حال الصلاة والدعاء! كان يرفع يديه طويلًا في الصلاة. يضعهما أمام وجهه النوراني الصافي ويغمض جفنيه فيما تسيل دموعه على خدّيه. اللّه وحده يعلم بما كان يقول.

خطر ببالي أنه لم يكن قد خُلق إلّا لأجل الدعاء والصلاة.. بعيدٌ أن يكون بجسده النحيف هذا من أهل الحرب والقتال..

قمت وأعـدت تسوية جهاز اللاسلكي على ظهـري، ورتّبت الأدوات المعلقة بجعبتي وبـدأتُ بالتحرك وانضممتُ إلى الرتل. وصلنا إلى وادٍ لا يمكن عبوره. وريثما استدرنا حول الوادي ووجدنا طريقًا للعبور كانَ قد ضاع منّا بعضُ الوقت.

فجأةً شاهـدتُ مرتضى قائد كتيبة الفجر إلى جـواري. سأل العم مرتضى الشاب إلى جواره: كم بقي حتى نصل إلى الهدف؟

– بحدود كيلومترين!

– الوقت يضيع، يجب أن نركض!

لم أكن أحب أن أنفصل عن مرتضى وبدأتُ بالركض. دخلنا الغابة. جاء عامل الاشارة إلى مرتضى راكضًا: عم مرتضى، إنها كتيبة كميل! علي نجفي على السمع!

أخذ مرتضى سمّاعة اللاسلكي.

– علي، علي، مرتضى!

– إي مرتضى، سلام!

أجابه مرتضى بنفس متقطع: وعليكم السلام، ما الأوضاع؟

- نحن تحت مرتفع الشهيد الصدر.. جاهزون لإقامة العرس! ما أوضاعكم أنتم؟

- نحن نركض، وها أنت تسمع صوت لهاثي..

انحدرنا من المرتفع إلى الأسفل. لم نكن قادرين على السيطرة على خطواتنا. كنّا نتزلق في بعض الأمكنة، فيصطدم الرتل الطويل بعضه ببعض. رفعت رأسي فشاهدتُ أمامي حقلًا واسعًا ومصابيح قرية مضاءة تلمع. أثناء عبورنا بجانب القرية سمعتُ صوت عواء كلب.

مع دخولنا نهاية الحقل، كان يتناهى إلى مسامعنا من بعيد أصواتُ نيران الأسلحة الثقيلة!

- هذا يعني أن الهجوم قد بدأ.. بهذه السرعة..

كان العراقيون يرمون النيران في كل الاتجاهات من أعلى المرتفع المقابل وكأنّ مرصد هداية النيران العراقية كان على المرتفع أمامنا! كنتُ أسير خلف العم مرتضى ويسير السيد علي الحسيني خلفي! جاء جمالي من شباب المعلومات وقال: يا عم، لقد تنبّه العدو فوق التلّة، أصبحت المهمة صعبة جدًّا!

ضحك مرتضى وأجاب: على العكس! حتى في منامهم لن يتخيلوا أننا موجودون تحت أقدامهم ونريد أن نشنّ الهجوم!

في قلب الظلام قدّم عدّة أشخاص لم أكن أعرفهم عدّة أدلّة أخرى على صحة شنّ الهجوم: لقد شخّص الشباب مكان رماية العدو من خلال نيران فوهات الرشاشات.

- لقد تعبوا الآن!

- هم لا يتصوّرون أنّ سريتّين سوف تضربانهم من الخلف!

قال مرتضى: الليلة ستقوم القيامة! القيامة..

أمر القائد بالتوقف للحظة ونادى جليل حمامي.

– خذ «فرهاديان فر»!.. يجب أن تبدأ «السريّة3» بالهجوم في وقت أبكر وتُحكم السيطرة على تلّة «الفولي بول»!

سأل داريوش صفري: ولأجل أي شيء يا عم؟!

– لأنهم يتقدموننا ونحن لم نستقر بعد، إذا لم تسقط تلة الفولي بول فسنكون في مرمى النيران من جانبنا، وعلى فرض أنّنا سيطرنا على تلة بردزرد فغدًا صباحًا سيكونون شغلنا الشاغل!

– شوكولاتة، تين، تمر..

كان صوت «مش موسى» مسؤول تجهيزات الكتيبة الذي كان في أوج حساسية المواجهة وخطورتها، يوزّع ما في يديه من منال وزاد مبتهجًا مسرورًا. مرّ «مش موسى» بجانبي فقلت: «مش موسى»، أنت دائمًا توصي الشبيبة بألا يأكلوا وألّا يشربوا وألّا يسرفوا، ما الذي حصل حتى انتابتك هذه الحال من السرور والكرم؟

ضحك وقال: إن لم تأكلوا الآن فمتى ستأكلون؟ هذه ليلتكم الأخيرة، قلت فلتأكلوا عشاءكم الأخير مبسوطًا!

وحين لاحظ صمتي، ضحك وقال: إنني أمزح. قلت: سوف نستولي على التلّة إن شاء الله، ونغنم أكوامًا من الطعام والمؤونة؛ وحينما يأتي الجديد يصبح القديم في الحضيض!

ذهب وأنشد: كُل التين واكسر الجنزير.. شكولاتة، تمر..

35

تلة الفولي بول[1]

20 تموز 1983

منتصف الليل، قـدّام بقية أفراد «السرية 3» تحت تلة الفولي بول، كنت مستلقيًا أنصتُ إلى مناجاة فرهاديان فر.

– يولد الإنسان من جديد في الجبهة.. لا عداوة ولا بغضاء.. صداقة وأخـوّة.. محبـة وأنس بمولانا صاحـب الزمان ﷻ بالإمـام الخميني.. عشق للّه..

أخـذ «فرهاديان فـر» نفسًا عميقًا ونـزل من عليائه وصـار ترابيًّا وقال: أخي نوذري، تتوق نفسي إلى فنجان شاي زلال ولا أطيب؛ أشربه وأنطلق باتجاه جبهة العدو.

أطلـق المضـاد الجوّي نيرانه من فوق تلة الفـولي بول وكان يرسل رصاصاتـه الخطاطـة الحمـراء والصفـراء بتـدرج وتتابـع في سماء المرتفعـات الحدودية نصف الغائمـة. انفجرت بعد ذلك قنبلة مضيئة فـوق رؤوسنـا وشاهدت وجـه فرهاديان فر بشكل أوضـح. همست في أذنــه: حـين أصل إلى الأعلى هناك، سأعد لك مـن الشاي المغتنم من الأخوة العملاء البعثيين كوب شاي على مزاجك! ولو أنك قلت في وقت أبكـر لكنت أعددت لـك أثناء المسير شاي المعركـة من أعشاب الجبل اليابسة والمقذوفات الفارغة وعلب الفاكهة الخالية والتين.

– قدم في هذا العالم، وقدم أخرى في ذاك!

– ماذا قلتَ؟!

– هذه حكايتنا..! نوذري، لِمَ أطلقت على التلة اسم الفولي بول؟!

1- الكرة الطائرة.

استـدرت ونظرت لجهة اليسار حيث تقع تلة بردزرد، وقلت: بسبب ذاك الاستطـلاع نفسه، حين جئت الأسبـوع الماضي بعد الظهر برفقة العـم مرتضى لاستطلاع التلة. وفق أوامر مرتضى بقيت مستلقيًا عدة سـاعـات فوق أعلى المرتفع وعيني على التلة بحثًا عن طريق نفوذ سهلة لأجل هجوم الليلة. عصرًا، كانت عيناي على التلّة أحدّق في مكان يكسوه الشـوك والهشيم يبعد عنها (200م). ارتفعت أصوات ابتهاج عدد من الجنـود العراقيين علـى سطح التلة. كان الجنود الذيـن أنهوا المعركة يلعبـون الكرة الطائرة بفرح وصبيانية فيما تتعالى أصوات ضحكاتهم في السمـاء. وكان الوقت يقترب شيئًا فشيئًا مـن المغيب وأملي بإيجاد معبر للنفوذ يقلّ حين ظهر جندي عراقي يصفّر آتيًا من طريق قدَميّة فرعيـة، فدخل المعسكر وانضـم إلى فريق كرة الطائرة ودلّني بمجيئه على طريق التسلل المخفي! عندها أسميت التلة بتلة الفولي بول.

- نوذري!

أدرت وجهي ناحية اليمـين. همس فرهاديان فر في أذني: يجب أن تتم السيطرة على التلة. يعتمد العم مرتضى علينا.

علا صـوت خشخشـة اللاسلكي وتقـدّم مهدي مسـؤول اللاسلكي المرافق لـ«فرهاديان فر» وقال: العم مرتضى على السمع! (وراء الخط).

قال فرهاديان فر الذي كان يتمتم بدعاء: نوذري، أجب أنت!

وضـع مهـدي سماعـة اللاسلكي أمام وجهـي. ألصقـتُ السماعة بفمـي. ضغطـت علـى الزر وقلـت بصوت أجشـ: عم ، يـا عم، معك نوذري! ما الأوامر؟

- ما الأخبار يا فضل الله؟

- كله تمام!

– إذا مـا أعلن الحاج أسـدي نداء الهجوم سـوف ألصق سماعته بسماعتي لتسمع النداء مباشرة!

وسرعان ما سمعت نداء العمليات.

– يـا اللّه، يا اللّه، يـا اللّه.. وفقكم اللّه إن تنصـروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم..

رفع فرهاديان فر يده عاليًا وبنداء «اللّه أكبر» بدأنا التقدم. كالحبل الطويل انحدر الشباب ودخلوا في المنخفضات والأخاديد المحاذية للتلة. برفقـة «مهدي باريك انـدام»[1] الذي كان يتبع خطواتـي قافزًا كغزال يلهو، وصلتُ ناحية عنق (عُرف) تلة الفولي بول.

اضطـرب قلبي، وسمعت بوضوح وسـط سكون الجبل خفقان الدم في قلبـي. قمت. تناهـى إلى سمعي من بعيد صوت إطـلاق الرصاص كفرقعـة اشتعال الحطب حين تلتهمه النار. قلت بسرعة: إلى الأمام.. الرتل رقم واحد، خلفي!

تقدمـت فيمـا تبعنـي أفـراد السريـة بالأسلحـة وحقائـب الظهر ومطـرات الميـاه يركضون بخطـوات واسعة. في غضـون خمس دقائق خرجنـا من منخفضات تلة الفـولي بول وسرنا وسـط الظلام باتجاه الطريق القَدَميّة نفسها.

– لا يتخلّفَنّ أحد!

خـلال عشـر دقائـق، ومـن دون أن تنتبه لنـا الحراسـة أو نطلق رصاصـة، استطاع أفراد السرية دخـول المعسكر. أرعبَ وقع أقدامهم علـى الأرض ونداؤهم الممـدود «اللّه أكـبر» العراقيـين وجعلهم غير قادرين على الحراك! كان صوتي يرتجف من شدة الحماسة.

1- (باريك اندام) معناها أيضا : صغير الجسم ضعيفه.

- إلى الأمام..

حين انتبهت إلى نفسي كنت فوق أول خندق كمين للعدو. كنا عدة أشخاص؛ وجّهنا معًا سبطانات بنادقنا داخل المكمن حتى نضغط على الزناد، لكن حارس الكمين، ومن شدة الخوف، وافته المنية فورًا!

- من أطلق النار على هذا؟

قال مهدي: المدد الغيبي!

هززت الحارس فسقط جسده المتخشب على جانبه الأيمن! مجدّدًا علت أصوات رماية أفراد السرية، وبمنتهى الذعر انتهى أمر الجنود العراقيين الغافين ما بين قتيل وهارب.

سقط الموقع العراقي في أقل من نصف ساعة وكأنّ العدو لم يكن قبل دقائق مستقرًّا فوقه. وعلى مدّ النظر، كانت القنابل المضيئة الصفراء تتساقط بمظلاتها البيضاء وتضيء الجبال والوديان الزرقاء من حولنا. وبدأ تمشيط المتاريس وتطهيرها بالقنابل اليدوية.

36

داريوش الكبير

الأربعاء 20 تموز 1983

وصلنا عند الثانية عشرة والنصف ليلًا الى أسفل تلة بردِزرد. كان العراقيون يطلقون نيران الرشاشات من العيارات المتوسطة والثقيلة والمضادات الجويّة من أعلى التلة على تمرتشين والقمطرة. ناداني العم مرتضى: سلمان، أنا أفهم الآن لماذا كان يجب السيطرة على تلة بردِزرد!

وصلنا خلف نهر ضحل كانت مياهه تنبع من الجبل. وكان النهر يشكّل أول عائق أمام الدخول إلى تلة بردزرد. أسفل العدو، تأملت في أعداد مظلات القنابل المضيئة التي كانت تنفجر شمالًا ويمينًا في سماء المنطقة وتترنّح في سقوطها. ربّت العم مرتضى على كتفي.

– صفري، يا الله! المهمة الآن تطلبُ يدك!

مسحت بيدي على شعر كريم الأبرص.

– لا تنس أن تقرأ طالعي هناك في الأعلى!

قمتُ وتقدمت لأقود بـ«السريّة2» وأرشد الشباب إلى محور الهجوم. انحدرت والرتل نحو الوادي. دخل الشباب خلفي في شق (أخدود) مكّننا من صعود طلعة التلة والبدء بالهجوم. نادى العم مرتضى حمامي: لا تدع الشباب يتحركون من أماكنهم حتى أرجع. سلمان تعال معي!

عدت مع العم إلى جانب أفراد «السريّة2» خلف النهر. راقب مرتضى بدقة، مستعينًا بالمنظار، أربعة إلى خمسة خنادق تشكّل معابر دخول للتلة. ثم أوصى أبو القاسم تشوبان الوصية الأخيرة في أذنه. وضع إصبعه على تلة بردزرد التي شابهت ثلاث قبب على الخريطة.

– أنتم يجب أن تسلكوا من الخلف وتحكموا السيطرة على التلة

الأعلى!

ثـم وضـع إصبعه علـى التلة الأمامية بمـوازاة التلة ناحيـة اليسار وتابع: أنا و«السريّة2» نضرب عنق التلة. ننسق الهجوم باللاسلكي.

سأل «حجة الله آذربيكان»: والعنق الثاني ناحية اليسار؛ ماذا بشأنه؟

– حالما نستولي على هاتين نتوجه جميعًا للسيطرة عليه!

ربّت العم مرتضى على كتف تشوبان.

– تحرك! ما إن تصل، نبدأ الهجوم.

استجـاب أبو القاسـم تشوبان قائـلًا على عينـي، ووضع حبة تين مجفّفة في فم مرتضى. قلت لجلال كوشا: دلّهم على الطريق!

انطلقـت «السريّـة1» لتلتفّ حول تلة بردزرد التـي كانت عبارة عن ثـلاث تلال متصلة. رجعنا بسرعة. أعلن حمامي: لقد استقر تشوبان في موقعه!

أخذ العم سماعة اللاسلكي منه وقال لتشوبان: حالما تسمع مني نداء الله أكبر تبدأ الهجوم. علينا أولًا أن نسيطر على عدة خنادق أسفل التلة الصغيرة! من بعدها تصعد بشبابك نحو أعلى التلة الكبيرة.

نادى مرتضى «حسين تشابكي» وأشار إلى حلقات الشريط الشائك في الناحية الأخرى من النهر.

– حسـين، حالمـا تسمـع نـداء الهجوم تطلـق نيران الـ(B7) على الشريط الشائك لتنفتح الطريق!

كانت الرشاشات الثقيلة في أعلى مرتفع بردزرد تصوّب بعيدًا.

نـادى العـم مرتضى حسـن مايلـر. جاء حسـن حامـلًا الـ(B7) خاصته. أشار العم إلى الرشاشات.

– مع ندائي الله أكبر ترمي متراس إطلاق الرشاشات!

قرّب حمامي السماعة من فم مرتضى. سدّد* حسين تشابكي على حلقات الشريط الشائك عند مدخل التلة بالـ(B7) وهو واقف يستعدّ، وسدّد حسن سرخي على فوهات رشاشات التلة الملتهبة. من غير قصد وقع نظري على صورة الرشاش وكتابة «مرتاح البال» على ظهر حسن. زأر مرتضى كالأسد: اللّه أكبر..

انطلقت النار من الفتحة الخلفية لقاذف الـ(B7) بيد حسن وكانت عيني على الصاروخ الذي جرّ اللهب خلفه باتجاه الرشاش. أصاب الصاروخ طرف غطاء الخيش للمتراس وانحرف مساره! صاح مرتضى: علينا أن نتقدم إلى الأمام، ليس باليد حيلة!

قمت برفقة الآخرين وعبرت النهر الذي بلغت مياهه حتى الركبة. اشتغلت الرشاشات الثقيلة، وفجأة سمعت صوت تحطّم جمجمة وأنين أشخاص آخرين!

- آه.. يااا حسين..

أشعلت قذيفة (B7) حسين تشابكي النار بالشريط الشائك وفتحت الطريق. تقدمت تحت نيران الرشاش الثقيل نحو الشق وإذ به يسكت للحظة ويعم السكوت كل الأرجاء. سمعت على الأثر صوت دويّ وشاهدت انفجار قنبلة انفجرت بين الشباب في الصف الأول.

- آه.. احترقت.. يا اللّه..

صوت الآه! من مرتضى انغرز كالسكين في قلبي. أجنّني تخيُّل استشهاد مرتضى وقفزت نحوه بسلاحي الكلاشنكوف. كان جاثمًا على ركبته.

- ما.. ماذا ج..جرى عم مرتضى!

* وجّه نحو الهدف، صوّب.

وضع إصبعه بنحو مستقيم على أنفه.

- هس! لا شيء يا داريوش الكبير..

ضحكت وتنفّست الصعداء.

- خادمك يا عم!

تحسّس بيده كتفه الأيمن. أمسكت بأسفل خصره. قال: أظن أنّ حجرًا قد أصاب ظهري. يجب أن نتقدم!

قمت، وبدأ إطلاق الرشاش من جديد. هذه المرة كان التصويب نحو الأسفل، وكان وابل النيران يصيب الشباب كزخات المطر، وكانت قنبلة مضيئة تسقط من أعلى فوق رؤوسنا وتستحيل عينًا لرامي الرشاش. علت أصوات الآخ والتوجّع من عدة أشخاص.

- احترقت.. يا الله.. يا حسين..

كانت الطلقات الخارقة تفجّر أجساد الإخوة وترميهم إلى الخلف. ألقت موجة من رشقات الرشاشات المتوسطة والثقيلة وكأنما اتصلت بالبحر، الجميعَ أرضًا، وخلال دقائق أصيب نصف الشباب.

تحت وابل النيران وأنين الإخوة كان فكري مشغولاً بالمجزرة الموحشة التي يتعرضون لها. لم يكن من الممكن الوقوف والإطلاق المباشر للنار. فجأة ارتفع صوت.

- مهلًا.. أعطونا مهلة..

وقع نظري على العريف عبد الكريم ستايش. جلس وصوّب مقنبلته ناحية دشمة الرشاش الثقيل. أصابت القنبلة الأولى طرف الدشمة وسقطت القنبلة الثانية في قلب دشمة الرماية العراقية وتناثرت الدشمة مع الرشاش في الهواء. قبّل العم مرتضى جبينه وصاح: إلى الأمام.. الله أكبر..

تحـرّك السالمون والجرحى. العم في المقدمة والإخوة خلفه انطلقوا صعـودًا. وصلنا إلى الصـف الأول من الخنـادق والمتاريس عند سفح التلة الصغيرة. اشتبكنا وسـط الظلام مع العدو ونشبت معركة وجهًا لوجـه. كانت القنابل المضيئة العراقية تشتعل في السماء وتُظهر ظلال رأس التلة. استمرّ التمشيط بطيئًا وثقيلًا. امتدت المعركة وجهًا لوجه إلى الخنادق. كنا نفجّر بالقنابل الخنادق والمتاريس والكوّات الصغيرة والكبـيرة وكل ثقب ومنفذ في التلة ونتقـدّم. ارتفعت حرارتي واشتدت سخونتـي. وصلنـا إلى مـكان تركّزت علينـا فيه من ناحيـة القمطرة وتمرتشين نيران الأسلحة الثقيلة لقواتنا!

37

جبل النور

20 تموز 1983

تملّكتني حماسة الهجوم واحتدامه. فككتُ جهاز الـ PRC اللاسلكي من على ظهري ووضعته على الأرض.

اللعنة!

قال السيد علي: «حسين لماذا وضعت جهاز اللاسلكي؟».

صرخت: «وما هي حاجته! أعطني الـ(B7)!».

أمسكت قبضة الـ(B7) من السيد علي الحسيني وركضت في أثر قائدي رحيم نعيمي. كان نظام الهجوم قد انحلّ تحت وطأة نيران العدو، وكان كل واحدٍ يتقدّم وفق هواه وإرادته.

كنتُ أفكر فيما هو أمامي فقط وأصعد طلعة التلّة لاهثًا وكأنني في صدد تحطيم الرقم القياسي العالمي لسباق المئتي متر. أثناء الطريق، أضاء جبل من النور فجأة وجمدتُ كقطّة فاجأها ضوء مصباح السيارة ليلاً وتوقّفت! لم يكن النظر إلى التّلة ممكنًا، وكأنني كنت أنظر إلى قرص الشمس.

- ارموا على الأضواء الكشّافة..

بسرعة فائقة أطفأتْ رمياتُ الإخوة الأضواء الكشّافة وبدأتُ بالتقدم مجدّدًا. وصلتُ بسرعة البرق إلى المتراس الأول للتّلة الصغيرة. كان رشاش ثنائي يقاوم من داخل المتراس ويحصد الشباب ويصمّ الآذان. كان الرصاص يتجاوزني من كل الأنحاء وأنا مدهوش كيف أنّه لم يكن يصيبني. فجأة سمعت صوت انفجار رصاصة خارقة متفجرة في جسد «غلام فرماني ها». في البداية توقّف غلام ثم رجع

إلى الوراء ثمّ تدحرج نحو الأسفل كقطعة صخر على منحدر التلة.

أثنـاء حركتي اصطدمت بعراقي كان قد خـرج من دشمته لا يلوي علـى شيء وقد عـلا صوتُه «دخيـل الخميني» وسط الغوغـاء وفرقعة الرصاص. سـار العراقي وبعد عـدّة خطوات سقط علـى رأسه. كان السيـد علي وحميد زارع وعدّة أشخاص آخرين يسيرون خلفي وكأنني قـد أخذت مكان قائـد الفصيل. وسريعًـا ما عمّت المواجهـة كلّ التلة الصغيرة وأضاءتها. كان مرتضى يردّد بسرعة: «طهّروا الخنادق!».

وصلتُ إلى منطقة سهلـة الصعود مسطّحة نسبيًّا بين التلّتين. كان علـى التلة عدد من الآليـات والتجهيزات العسكرية. رحـتُ أفتّش عن صيدٍ لصـاروخ الـ(B7) الذي أحمله على كتفي! وكان أمامي آليّة IFA كبـيرة قد غطّـت مؤخرتها خيمة قماشية. قلـت في نفسي: هذا هدف جيد! يجب أن أطلق النار.. يجب أن أقوم بعمل ما..

وقفت. وضعت القبضة على كتفـي واستهدفت ناقلة الجند الكبيرة هذه وسط الظلام المضاء بشُعـل القنابل المضيئة وانفجارات المتاريس والخنادق.

- هاي.. لا ترمِ ال IFA!

بـين أصـوات الرصاص أوقفنـي صوت تعبـوي الكتيبـة «محسن شعباني». استدرت متعجّبًا وقلت له: «ولأجل أي شيء لا أرمي؟».

- إنّها غنيمة، لبيت المال.. قد تنفعنا!

- دعك عني!

كانت ال IFA تلمعُ من الخلف أمامي. صوّبتُ على مؤخرتها.

تقدّم محسن شعباني غاضبًا وصرخ بصوت أجشّ.

- قلت لا ترمِ!

بحماسة، وبدون أن أنظـر إليه قلت: «هل نسيت أنّنا جئنا للقتال.. نحن نحارب عدوًّا».

كانـت جملة «لا ترم.. قـد تنفعنا..» تطـرق مسامعي حين ضغطت علـى الزنـاد. انطلق الصـاروخ كالطوربيـد وأصاب الزجـاج الخلفي للسيارة ثم خرج من الزجاج الأمامي واصطدم بصدر التلة وانفجر.

- شاطر!

استدرت ونظرت بانزعاج إلى محسن. كان السيد علي أيضًا وسط معركـة القتال واقفًا بدم باردٍ يضحك عليّ مثل الأطفال الصغار! كان الوقـوف وسط الهجـوم يعني أن تصير صيـدًا، ولم تكن هناك فرصة لتوقّـف الصـاروخ وقـد جعلني محسـن أيضًـا أتردّد. حـين استعدتُ انتباهي كان شباب الإعلام قد بدأوا بالكتابة على ناقلة الجند الـIFA بمسحوق الطلاء: «لواء المهدي!».

- حسين بنائيان، علينا أن نمشّط الخنادق!

وصـل أيضًا مصـوّر الكتيبة الشـاب وصوّر حركـة الشباب خطوة بخطـوة. رأيـت للحظة القائد مرتضى يُرشد الشبـاب بين التّلتين إلى ناحيـة المواقع العراقية. قلت: أيُّها الشباب لقد استشهد قائد الفصيل فلنتبَع نعيمي قائد السّرية!

وضعت الـ(B7) وحملت سلاح الكلاشنكـوف المغتنم ونظرت إلى حسيني وقلت: «يا سيد فلنذهب لنُمشّط المتراس!».

لم يكـن محسن شعباني من المتقاعسين وسار يحذو خطاي. وصلنا إلى المتراسـ الأول. حـين أردت أن أُخرج القنبلة مـن حزامي وأرميها فيه انتبهت إلى أن القنابل لم تكن على خصري! لم يُضيّع محسن وقتًا وألقـى قنبلة بدلًا عنـي داخل المتراس. إلى هذا الحـدّ كانت النتيجة:

اثنان صفر لمصلحة محسن!

أفزعني صوت الانفجار! استعدت رباطة جأشي. كانت آهات محسن شعباني وأنينه عالية ومرتفعة. صفّرَت أذني. حين استعدت انتباهي أدركت أنّ قذيفة (B7) من العدو - وربّما الصديق - قد أصابت جانب المتراس. نظرت ناحية محسن. كان قد سقط على الأرض والدّم جارٍ من رأسه. تملّكني الحزن والنّدم من مشاجرتي معه قبل دقائق. جلست ونظرت إلى رأسه.

- ما الذي حصل..

كان يتألم ويشير إلى قدمه.

- قدمي! لا أستطيع تحريكها.

كانت ساق سرواله اليمنى قد احترقت وتلطّخت بالدماء. أمسكتُ قدمه، فتبيّن أن شظايا الـ(B7) قد قطّعت قصبة ساقه. لكنّ جرح رأسه كان سطحيًّا. قال السيد علي: «ماذا نفعل!».

قال محسن: دعوني وشأني.. اذهبوا أنتم لمساعدة الإخوة..

- ما الذي حصل؟

كان علي سبزي. وكأنّ مَلاك الرحمة قد وصل. جلس وأخرج الضمادات من حقيبة ظهره وضمّد بدقّة وعناية جرح قدم محسن ورأسه وقال: أنا أحمله إلى مكانٍ آمن.

- أيُّها الشباب تقدّموا باتّجاه التّلة العليا..

كان قائد السرية رحيم نعيمي. حين اطمأننت على محسن أسرعت في الركض ناحيته.

كانت «السريّة1» بقيادة أبو القاسم تشوبان قد سيطرت أيضًا على التلة من خلف المرتفع وانضمّت إلينا. جلب شباب «السريّة1» معهم

مجموعة جنود أسرى. فرّ عددٌ من العراقيين تحت انعكاس أشعّة النور الناشئة عن تدمير الذخائر العراقية والقنابل المضيئة ولاذوا ناحية المرتفع الشمالي لتلّة بردزرد. رافَقَنا نعيمي نحو المرتفع لكنّنا وُوجِهْنا بنيران العراقيين ومقاومتهم الشديدة. وأصيب عدد آخر من الإخوة. لم يكن ممكنًا الاستيلاء على المرتفع ناحية الشمال، الذي كان أعلى من التلتين الأخريين، بعدد محدود من القوات المنهكة والجريحة! أوصل إلينا جليل حمامي أمر القائد مرتضى الجديد: أحكموا السيطرة على هذين العنقين واضمنوا استقرار الأوضاع فيهما. لا تذهبوا باتجاه مرتفع التلة، فمن الممكن في ظل الخسائر أن نفقد هذا المكان أيضًا!

38

الملك

الأربعاء 20 تموز 1983م

عندما تمّ إطلاق قنبلـة مضيئة صغيرة واحدة حمراء اللون بمظلّة مقوّسة من فوق قمّة كينغ وتساقطت بشكل حلزوني فوق رؤوسنا وسط الظـلام، ألصـق الرّائد قادري، قائـد «الكتيبـة 551» في «اللّواء2» في الفرقة 64 – أرومية، فمه بأذني وسأل:

– ملازم بانوسان؛ الأوضاع ملتبسة! أليس كذلك؟

استدرت وأنـا مستلقٍ ونظرت إلى الرائد الذي كان قد موّهَ أطراف وجهه المحلوق بالشفرة بالشمع الأسود فبات يلمع كالمعدن، وكان بياض عينيـه يزيغ فيتلألأ وسط الظـلام! وأجبته بصوت أجشّ: برأيي هي كذلك سيدي!

خائبًـا قال بـتردّد: «أتعرف هـذه المنطقة والمحور جيّـدًا يا ملازم بانوسان؟».

عملـتُ لمـدّة شهرين مع شباب الاستطلاع في لـواء المهدي على هذا المحور!».

حدّق بي متعجّبًا.

– مع الحرس والتّعبئة؟! وأنت أرمنـي!

– نعم سيدي!

عـلا صـوتُ وشوَشَـة بين جنديّـين. استـدار الرائد وقـال بصوتٍ منخفض: «هس.. وهل أتيتم للاستجمام!».

للحظـة، جلبت الريح صوت خشخشة تبديـل موجات راديو العراق مـن أعـالي مرتفع كينغ. لم يكـن الرائد انهزاميًا، وبظنّـي كان يُكابد

خوف ما قبل الهجوم ويريد بالحديث معي أن يُقلّل من فزعه.

- بانوسان، في كم عمليّة استطلاعٍ شاركت مع شباب الحرس؟

جلب نسيم منتصف الليل لسعة الصقيع معه من مرتفع كينغ ولفح وجهي. نفختُ نَفَسَ فمي الحار داخل قبضتي وفركتُ يديّ الاثنتين وأجبت: كثيرًا يا جناب الرائد؛ حصار عبادان، الفتح المبين، بستان، بيت المقدس، كنت مع شباب الحرس في أغلب العمليات!

- ملازم زوريك بانوسان، هل ألفظ اسم عائلتك بشكل صحيح؟

- كلا سيدي! بانوسيان.

- اسمك صعب. بانوسيان، ألم يكن شاقًّا عليك أن تكون أرمنيًّا بين مسلمي جبهتين!

- في الحقيقة كانت من أفضل أيام عمري!

- ملازم بانوسيان، أنت لا تخاف؟

- الكل يخاف سيدي، الحب والخوف متقابلان! وكلّما ازداد الإنسان حبًّا قلّ خوفه!

سأل الرائد الذي كان قد تغلّب إلى حدٍّ ما على ألم خوف ما قبل الهجوم: ملازم بانوسيان، لماذا يسمون هذا المرتفع كينغ؟».

- سيدي.. إنّ كلمة كينغ بالإنكليزية تعني الملك! وكينغ هو أعلى مرتفع في المنطقة!

هزَّ رأسه متحيّرًا.

- بانوسيان، وهل يمكن الإطاحة بالملك؟

- لقد حصل ذلك في الثورة! بالتوكّل على الله حتمًا!

- إنّ كلامك يفوح منه عبق الحرس والتعبئة يا بانوسيان!

قال الرائد وقد نظر في الساعة المضيئة على قبضة يده.

– إنّها الثانية عشرة إلّا عشر دقائق! لم يبقَ شيءٌ على إطلاق الإسناد النّاري، هل في المحور حقل ألغام يا ملازم بانوسيان؟

– كلا سيدي، سنواجه حوافّ منحدرةً وأشرطة شائكة فقط!

أخرجتُ من جيب لباسي العسكري حبّة شوكولا بطعم الكاكاو، وقسّمتها نصفين وضيّفت الرّائد.

– تفضّل الشوكولا يا جناب الرائد!

– شكرًا..يا لك من رجل.. لقد سدّ الإجهاد والتوتّر مجرى حلقي.

وضعتُ النصف الثاني من حبّة الشوكولا في فمي وطحنته بأسناني.

– سيدي، تناول الكاكاو يُهدّئ!

دوّت صاعقة مدفعيتنا من خلفنا، متلاحقة كالبرق والرعد. وبسرعةٍ انصدع الهواء فوق رأسي وخرقت النيران الثقيلة التي حطّت فوق مرتفع كينغ جدار الصمت والظلام.

– بووم.. بووم

ظلّ مرتفع كينغ لمدّة نصف ساعة تحت نيران مدفعيّتنا. استدرتُ وأنا مستلقٍ على ظهري وسمّرت عيني بالقنابل المضيئة الصفراء والبيضاء فوق رأسي. كانت القنابل المضيئة تترنح في احتراقها وتسقط بمظلاتها بشكل لولبيّ. كان كينغ من هذه النقطة يبدو في انعكاس الشعل المتلألئة للقنابل المضيئة وانفجار صخور الجبل عظيمًا ومخيفًا!

عند الساعة الثانية عشرة والنّصف بعد منتصف الليل أُعلن النداء عبر لاسلكي قائد «الفرقة 64 –أرومية»: يا الله، يا الله، يا الله..

- إلى الأمام أيُّها الملازم.. بدأ الهجوم.. دُلّنا أنت على الطريق!

أحكمتُ إغلاق رباط خوذتي الحديدية ووضعتُ أخمص بندقية الـ(G3) الذي يُطوى آليًّا على الأرض وانتفضتُ من مكاني صائحًا: أيّتها السّريّة، خلفي!

بدأ التقدّم من ثلاثة محاور. تحرّك الجنود خلفي في اضطرابٍ وحيرة. كانت الحصى تحت قدميّ تنزلق وتتدحرج، وكنتُ في بعض الأماكن أتوقف قليلاً. بحماية الإسناد النّاري للمدفعيّة تقدّمنا حتى أعلى مرتفع كينغ. عبرنا الأسلاك الشائكة والموانع بسهولة. وحين وصلنا إلى خنادق كمائن العدو كانت خالية: هل فرّوا جراء الإسناد النّاري؟!

كان المانع الوحيد من الصعود تحت النور الملوّن للقنابل المضيئة ماء النبع البارد الذي كان يجري منحدرًا من المرتفع إلى الأسفل، وحيوان برّي اصطدم بقدميّ فجأة وأصدر صوتًا يُشبه عواء ابن آوى ثم قفز فارًّا إلى الناحية الأخرى. لم يكن هناك حاجة إلى أي مشابك أو أدوات تسلّق حديدية لأجل الصعود. مع اقترابنا من المرتفع سكنت نيران مدفعيّتنا. وقفت: الأوضاع جيّدة أكثر مما ينبغي.. لم يصدر من العراقيين أيُّ ردّ فعلٍ، حتى طلقة رصاص واحدة! لعلّهم عرفوا وأخلوا المرتفع..

أمسكت بيدي الصخرة إلى جانبي. جاءني الرّائد وهو يتنفس بسرعة من شدّة الاضطراب والتعب. وضع يديه على ركبتيه وأخذ يلهث ويزفر الهواء من رئتيه بسرعة وقد ضاع صوتُه في طيّات انفجارات غير واضحة فلم أسمعهُ.

- بانوس...، تـ... تقدّمنا على ما يرام؟ أ.. أليس كذلك؟

قلت بسرعة: سيدي الأوضاع مُريبة!

- مُريبة!؟ ماذا تقصد..

- سيـدي حتـى الآن لم يتـمّ إطـلاق رصاصـة واحدة مـن جانب العراقيّين!

- ماذا تقول أيُّها الملازم؟

- سيدي اطلب من الجنود أن يتوخّوا الحذر..

تب!! تـب!! قطع كلامي صـوت انفجارٍ مع نور أحمـر خفيف، تبعه مباشرة صراخ أحد الجنود عاليًا:

- آخ.. يا أماه لقد احترقت..

سـرت الهمهمات والهمس وتتالت الانفجـارات الصغيرة المترافقة مـع النور الخفيف وأصوات أنـين الجنود تتعالى من الواحد تلو الآخر. كان الجنود يطلقون باضطراب وذعر نيران الرشاشات والـ(B7) من دون استهـداف محدد. صرخ الرائد في وجهي بصوتٍ مرتجفٍ وكأنّني كنت مسؤولًا عن إتلاف أرواح الجنود.

- ما الذي حصل يا ولد.. أنا آمرك.. المحكمة العسكرية.. أنقذنا..

- سيدي أنا أُفكّر في حلٍّ.

حاولـتُ السيطرة على أعصابي. أخذتُ نفسًا عميقًا: ماذا يُطلقون علينا.. يجب أن أستطلع مكان إطلاق النيران..

سمّرتُ عيني بدقة على القمّة. لم أرَ وميض نار أيّ بندقيّة أو رشاش! لم يكـن واضحًا من أين يتمّ الإطلاق على الجنـود وبأيّ أسلحة يجري تقطيعهـم! كلّمـا تقدّمنـا أكثر كانـت الانفجارات الخفيفـة بين جموع الجنود المتراكمة تزداد أكثر. بات نصف الجنود ما بين قتيلٍ وجريحٍ.

- ويحك أيُّها الملازم.. افعل شيئًا!

لم تتوقّـف تمتمات الرّائد وتهديداته لحظـة واحدة. كانت الحيرة

وخيبة الأمل قد تملّكتني حين خبط شيءٌ كالحجر على مقدّمة خوذتي وسقـط أمام قدمي. وقفتُ وبحثتُ تحت ضوء القنابل المضيئة كلمبات الشوارع الغازيّة وحملتُ جسمًا ما: يا إلهي! قنبلة.. صرختُ:

– قنبلة.. لا تتقدّموا.. اختبئوا..

أسرع الجنـود مذعورين وانبطحوا بعجلة أرضًا. لم يكونوا يعرفون أين يستهدفون بنيرانهم. ومجدّدًا جاءني الرّائد وبدأ يتمتم في أذني:

– لقد حلّ بنا البلاء! ما القضيّة.. ماذا يجب أن نفعل؟

قلت بصوتٍ عالٍ: أيّها الرّائد لقد انكشف أمر الهجوم.. العراقيّون كانوا ينتظروننا!

– ولماذا أماكن تموضعهم غير محدّدة!

– إنّهـم لا يُطلقـون النـار. يرمون علينـا قنابل فقـط، ولذلك فإنّ خنادقهم لم تُكشف!

قلتُ في نفسـي: ما أدقّ هذه الخطّة! بهـذه الطريقة سوف يقضون على آخر نفسٍ منّا بانفجارات القنابل!

– ماذا نفعل الآن؟

– أَبلِغ اللواء أوضاعنا! إذا طلع علينا الصبح فلن يبقى منّا مبشِّرٌ!

وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة، صاح الرّائد: مسؤول الاتصالات..

جاء الجندي مسؤول الاتصالات (عامل الاشارة).

– نعم سيدي!

– اطلب اللواء!

كان صـوت انفجار القنابل يعلو بـين الحين والآخر مع أصوات أنين الجنود. وضع الجنديّ سمّاعة اللاسلكي في يد الرّائد.

– سيدي، اللواء!

وضـع الرّائد السمّاعـة أمام فمه ونشر خبر الأوضــاع الوخيمة: .. كانوا ينتظروننا.. مجزرة.. ليس هناك أمل.. الكلُّ جرحى..

- انتظروا الأوامر!

سمعتُ صوت انفجار وأصابت شظيّةُ قنبلة خوذتي وارتدّت. جمعتُ رأسـي وبـدني واحتميتُ بيديّ ولجـأتُ إلى صًخـرة. أخرجت القطعة الثانيـة من الشوكولا من جيبي وبدأت بأكلها. حين استجمعت تركيزي قليـلًا سمعـتُ صوت خرير مـاء النبع ثمّ بالتدريج لحـنَ قطرات الماء التـي كانت تتساقط علـى رأسي وجسمي، وطار خيـالي بعيدًا في هذه اللحظات! سرت البرودة والبلل شيئًا فشيئًا داخل جسمي وإذا بصوت خشخشة اللاسلكي يعلو ويصدر الأمر بالتّراجع.

- لقـد أُقفـل محـوران آخـران والعراقيّـون يهاجمون مـن الأعلى بالقذائف والقنابل! عليكم أن تتراجعوا قبل طلوع الصبح.

لم يتعطّل الرائد لحظة.

- بانوسيان اطلب من الجميع التراجع.. بسرعة.. بسرعة..

قلت: نُعيد أجساد الشباب!

وجَّهَ سلاحه الرشاش بعصبيّة ناحيتي وصاح: تريد أن تقتل الجميع أيّها الأحمق! نفّذ الأوامر.

استدرتُ مارًّا على الجنود واحدًا تلو الآخر وقلت:

- أوقفـوا إطلاق النـار.. تراجعوا بهدوء إلى الوراء.. تحركوا معي. اتبعوا خطواتي.. من هذه الجهة..

حين أرجعتُ بقية السّريّة ثمّ الكتيبة إلى الخطوط الخلفية كان الصّبح قد طلع. صعدتُ منهكًا المرتفع الحدودي ونظرتُ إلى قمّة كينغ بالمنظار. كان العراقيّون يرمون جثث الجنود من أعلى القمّة إلى الأسفل!

39

الرّباعي

20 تموز 1983م

كنت أصعد التّلة العليا مع أكثر من ثلاثين عنصرًا خلف نعيمي. وكانت برودة نسيم الصّباح تلفح وجهي وأنا أتقدّم. فجأة وُوجهنا بنيران المضادات الجوية الرّباعية والثنائية ذات عيار 23 ملم. انبطحنا وصاح نعيمي: إذا لم نتقدّم إلى الأمام فلن يبقى منّا حيٌّ يُرزق..

لم يكن نعيمي قد أتمّ كلامه بعد حين حمل حسين تشابكي الـ(B7)، وما إن وقف حتى أمطرته رصاصات المضادّ الرّباعي. انطلق صاروخ الـ(B7) في يده بشكلٍ عشوائي، واهتزّ هو كمن قد مسّته الكهرباء ووقع على الأرض.

- رحمكم الله، لماذا أنتم منبطحون!

نبّهنا جميعًا صوت القائد مرتضى. لا أعلم كيف ظهر مجدّدًا في ذلك الوضع الذي كان كل شيء فيه قد أُقفل.

- بهذا النحو لن يصل أيٌّ منكم إلى الأعلى!

عندما رأيت القائد في وضح النّهار واقفًا في وجه المضادّ شعرتُ بالخجل. صاح «مختار عاشوري»: يا حسين.. إلى الأمام..

انسلختُ من مكاني بلا تفكير وبدأتُ بالركض مع مختار عاشوري والبقيّة. فجأةً لمحتُ المضاد الثنائي يطلق النار وارتفع صوت مختار عاشوري.

- آخ.. احترقتُ.. يا مهدي..

تقدّمنا جميعًا مع القائد مرتضى حتى صرنا أسفل متراسي المضادين. ذهب اسماعيل توكّلي ومحمد إلهي وأبو القاسم تشوبان

برفقــة القائــد مرتضى وأسكتــوا الرّشاشين بالقنابــل. خرجنا وبقيّة الإخوة من موقعنا وبدأنا بتمشيط التّلة العليا.

في غمــرة هــذا الحيصــ والبيصــ أضعــتُ السيد علــي الحسيني وانشغــل بالي خوفًا من احتمــال استشهــاده. كان العراقيّ الذي يبرز أمامنــا من بين القليلين الذين تبقّوا منهم يصاب مباشرة برصاصنا. فيمــا كنت أتقدّمُ مشغولَ البــال ظهرَ أمامي رجلٌ محروقٌ بوجهٍ مروّع. حين نظرت إلى وجهه انتصــب شعر بدني بأكمله! كانت جميع ملامح وجه العراقي الدّقيقة والغليظة قد ذابت وكان الدّم واللحم يتدافع منه كفوران البركان الأحمر! حتى عيناه تحلّلتا وسالتا. كان ينتحب ويُولوِل بكلمــات عربيّة غــير مفهومة تُبقبق من فمِه المُــذاب. وصل علي وقالَ: أرحه! المسكين يتعذّب.

جمدتُ وأنا لم أكن سوى شابٍّ يافع.

– علي أين.. وجهه، ما الذي جرى له؟

– لا بــدّ أنّ رفاقه رموا الـ(B7) وكان واقفًا خلفه! حُرقُه عميق، إذا لم ترحه فسيموت من المعاناة!

صارعتُ نفسي: لماذا لا يرميه عليٌّ بنفسه!

لم أمتلك الجُرأة لأنظر إلى وجهه مرّة أخرى وابتعدت عنه. أمسكت بيد علي.

– تبقى إلى جانبي ولا تتحرك!

ضحك ببرودة.

– ولأجل أيّ شيء؟

– من دون كلام.. تعال!

كان علــى التّلة، كما التّلة السفلى، مهبط مروحية وعدّة آليات IFA

وجيب ومضـادات دفاع جوّي. أطللتُ برأسي علـى أوّل متراس نصف مظلم كان فيه عراقيٌّ مصابٌ ينتحب.

- لا تدخل.. في الأمر مجازفة. ارمِ قنبلة!

خرجتُ وقلت لعلي: ارمِ طلقة وأرحِ ذلك المجروح!».

وضع علي فوّهـة رشاشه داخل المتراس وأفرغ مخزن رصاص فيه. اقتربنـا مرّة أخرى فكان صوتُ أنين الجريـح أعلى من قبل. استدرتُ وقلـت: أين أفرغت مخزن الرصاص بأكمله! هيّا لنذهب.. أنا وأنت لا ننفع للقتل!

ذهبنا مباشرة باتجاه ناقلة الجند IFA. تهكّم علي قائلًا: أخ حسين أتريد أن ترمي الـ(B7) مجدّدًا؟

ضحكتُ وقلت: لا يا عزيزي!

- لنذهب ونرَ ماذا يوجد فيها!

اقتربـتُ من الآليّة. استدرتُ حولها. شاهدتُ خطّ ماء رفيعًا يجري من تحت السيّارة.

- ما هذا؟

- لا أعلم لعلّه ماء الرادياتور..

- ولكنّ رادياتور الآليّة في الأمام!

تمـدّدت على الأرض ونظـرتُ أسفل السيّـارة. كان تحتها جنديّان عراقيّـان قد انبطحا مرتجفـين وكان البول يجري من تحت قدميهما. أشرتُ إلى أسفل الآليّة.

- علي، لديك ضيوف! أخرجهما..

انحنـى علي وضحك ضحكته الخاصّة بهدوء ولامبالاة وقال: «اها!

اها! ومن هما هذان.. تعال.. تعال..».

كرّر الكلمة العربيّة الوحيدة التي كانت على لسانه. أخرجتُ برشّاشي الأسيرين المُبلّلين من تحت السيّارة ورفعتُ أيديهما فوق رأسيهما. كان علـيّ قد ربض غـير بعيد تحت جِيب القيادة الزيتـوني اللون. وكأنّه قد اكتشف أمرًا مهمًّا، قال: حسين هناك واحدٌ آخر هنا أيضًا!

توجّهـت نحو الجيب. انحنيت ونظرت أسفـل السيّارة. كان عراقيًّا سمينًا قد انبطح أسفلها ونظر عابسًا في وجهي. أشرتُ بسلاحي.

- هيّا اخرج!

لم يهتـم وكمثل الأطفـال المستائين هزّ بدنه. عندمـا كرّرت طلبي عـدّة مرات ولم يخرج أدخلت سبطانـة السلاح تحت السيّارة ليخرج، لكـنّ يدي ضغطت على الزّناد وانطلقـت رصاصة وارتفع صوت نحيبه ولعْنِـه. زحـف خارجًا. أشار إلى جـرح فخذه وبدأ يسـبّ ويشتم! كان ينظـر إليّ بنحوٍ لو استطاع معه أن يشرب من دمي لما قصّر، وكالعادة ضحك علي.

- من الواضح أنّه بعثي! إنّه يسبّ!

وصل علي سبزي. جلس وعالج جُرح العراقي وأخذه معه إلى خندقٍ أسفـل التّلّـة. كان إحساسي بالعطش يزداد شيئًا فشيئًـا. أشرتُ إلى الخندق الكبير الذي بدا مجهّزًا.

- علـي، لندخل تلـك الدشمة.. فلربمـا كان فيها مـاء، شيء ما.. يمكن أن يكون مفيدًا!

أخذنـا الأسيرين معنـا إلى داخل الدشمة الكبـيرة بجوار الجيب. لمحتُ شنطة وحقيبة ظهرٍ ولفائف قماشٍ عسكريّ مرقّط وراديو.

- علي انتبه لهذين الاثنين!

أسنـدتُ سلاحـي الكلاشنكوف إلى جـدار الدشمة وبـدأتُ أُفتّش داخـل الشنطـة وحقائب الظهر وانشغلتُ في البحـث. عندما اصطدم رأسي برأس علي وتلاقت نظرتانا قلتُ: ..عافاك اللّه.. أين سلاحك؟!

كمـن قـد مسّته الكهربـاء انتصـبَ شعرنـا وتأمّلنـا في الأسيرين العراقيين. كانا قد وقفا إلى جانب سلاحينا ينظران ببلاهة* .

* بالعامية اللبنانية: مسطولين.

40

فلّ يا فلّ

20 تموز 1983

عند الثامنة صباحًا، هدأ الاشتباك فوق التلة. انتهزتُ الفرصة لأجلس على صخرة وأشاهد من ذلك العلو المسيرَ الذي عبرناه الليلة الفائتة لنهاجم تلة بردزرد. تحت قدميّ كان المشهد الطبيعي البديع لكردستان العراق يبدو كملصق جميل! قرية نضرة بسقوف وباحاتِ منازلَ متراكبة في الأعلى والأسفل ونساء ورجال أكراد في الباحاتِ. تبسّمت: وكأن هؤلاء لا يصدّقون حتى اللحظة أن هذا المرتفع بات تحت سيطرتنا..

أدرتُ نظري نحو النهر الذي يلفّ القرية وينتهي إلى التلة. ناحية اليسار، كان هناك طريق قَدَميّة وجسر كان ينبغي أن يتفجّر الليلة الماضية ولم ينفجر!

استقرّت يد السيد علي على كتفي.

- أخ حسين، اختليتَ بنفسك!

أشرتُ إلى القرية أسفل منا.

- أترى، وكأنه ليس هناك حرب! الرجال والنساء يجولون في القرية كما اعتادوا! مرتاحي البال منّا؟

ضحكت وقلت: حظّنا عاثر! لا أحد يحسب لنا حسابًا!

مسح السيد علي بيده على شعره الأسود الخشن وقال: يتذكر الإنسان تلقائيًّا اعتداءات الجنود العراقيين على الهويزة وسوسنكرد وخرمشهر! لقد قتلوا العباد ودمروا البلاد، حتى إنّهم اعتدوا على أعراض العرب في تلك المناطق.

قلت: أتعلم، نحن الآن سافرنا إلى الخارج بدون جواز سفر!

– إذا ما وصلَ شبابُ المحاور الأخرى نقوم بجولة ونجوب المنطقة بشكل جيد!

– فَلْنَجِدْ مذياعًا، الآن تُبثّ الموسيقى العسكرية وأُعلن خبر انتصارنا عبر الأثير!

أشار علي إلى مطرته الفارغة من الماء.

– حسين، أنا ظمآن جدًّا! جد لنا حلًّا للماء.

كان «سعيد حفار» ينقل عددًا من الأسرى نحو الأسفل ليسلّمهم إلى دشمة الأسرى. قمنا وذهبنا ناحية الخنادق فوق التلة. وصلتُ إلى الدشمة التي كان ينتحب فيها العراقي قبل ساعة.

– علي، هي الدشمة نفسها التي أفرغتَ فيها مخزنًا من الرصاص وكان العراقي حيًّا ينشج وينتحب. لنقصدها لعلّ داخلها برادًا، فنجد فيه ماء، شرابًا، شيئًا من هذا القبيل!

ما إن دخلنا الدشمة فغرتُ فاهي مدهوشًا وقلت: يا رب بارك!

كانت الدشمة مخزنًا للعتاد، حيثما نظرت رأيتها تعجّ بصناديق الأسلحة الخفيفة والثقيلة! بلعتُ ريقي وقلت: علي، لقد أفرغتَ مخزن رصاص داخلَها؛ فلا العراقي أصيب ولا شيء من هذا العتاد؟! لو أن رصاصة واحدة أصابت شيئًا من هذه لكانت كافية لتفجير الجبل بأكمله، وليس كلينا فحسب!

وقع نظري على عدد كبير من بنادق السيمينوف ذات المنظار والبرنو القصير ورشاشات الغرينيف.

– كل شيء متوافر إلا الماء! ينبغي أن نُبلّغ!

خرجت من الدشمة. في أعلى التلة كان يقف بابتهاج وسرور العم

مرتضى وعلي نعيمي قائد السرية ومحمد إلهي وسعيد حفار و«جواد خيرات»؛ يتبادلون أطراف حديث عمليات الليلة الفائتة.

– لو أن معنا مذياعًا لنستمع إلى ما ينشر عن عمليات ليلة الأمس!

– كانت رقعة الهجوم واسعة!

– هذا يفرح قلب الإمام.

– الناس يستمعون الآن إلى الموسيقى العسكرية وأخبار انتصار الشباب!

– الحمد لله!

جاء جليل حمامي مسؤول الاتصالات راكضًا وسماعة اللاسلكي في يده. أصابت رصاصةٌ الأرض بالقرب منه. وقف قليلًا ثم تابع حتى وصل إلى مرتضى.

– عمّ، علي نجفي على الخط!

أخذ مرتضى السماعة ووضعها على أذنه.

– علي، علي، مرتضى!

– مرتضى، مرتضى، عليّ على السمع!

– أوضاعكم!

– استقررنا فوق المنطقة المحررة. كيف هي أوضاعكم؟

أجاب العم مرتضى ببشاشة وسرور: حبيبي علي، فُلّ يا فُلّ!

برمتُ شفتي وقلت لعلي حسيني: يعني؟

ربّت محمد إلهي على كتفي.

– يعني الأوضاع جيدة!

أعاد العم السماعة إلى حمامي وأشار إلى مضاد الطيران الرباعي.

– ابحثوا عمّن يستطيع تشغيل الرباعي!

41

انعطافة الشَّعر

20 تموز 1983م

عند العاشرة صباحًا، تضعضع هدوء التلّة وعلا صوت إطلاق النار مـن أسفل التلّـة الصغيرة! صعد التعبوي «مرتضـى مُحب» من هناك راكضًا.

- عم مرتضى، العراقيّون يستولون على التّلة السفلى!

نادى القائدُ أبو القاسم تشوبان ورحيم نعيمي.

- أنتمـا راقبـا هـذا المكان مع القـوّات القديمـة، وكل من بقي من سريّة الشيرازيين فليأتِ معي!

حمل العم مرتضى رشاش الغرينيف المتوسط ونزل إلى الأسفل مع مُحب. ربّتُّ على جانب علي حسيني.

- حان عملُنا!

وضعـت الـ(B7) على كتفي وتبعتُ القائـد برفقة حميد زارع وعليّ سبـزي وعدّة أشخاص آخرين. كانت الاشتباكات أسفل التلّة من جهة النهـر. شغلتنـا وآلمتنا عدّةُ خنـادق تشـكّل معابر دخـول للتلّة، كانت تبـدو تحت السيطرة، لكـن العراقيين من داخلها جعلـوا شبابنا تحت مرمى نيران الـ(B7) والرشاشات المتوسطة. شكّلنا طابورًا من عشرة أشخاص خلف القائد. قال مرتضى: رامي الـ(B7)!

وكأنّـه قد قال: «حسين بنائيان أنـِت ارم!» قمت من مكاني ممسكًا بقبضـة الـ(B7)، وحـين هممت أن أُطلـق أَعاقني الرشاشـ العراقي وسقطـتُ علـى أم رأسي وسقط سـلاح الـ(B7) الملقّـم بالقذيفة من يـدي. كنـت أُلملم نفسي حين وقـف حاملًا الـ(B7) أمـين زاد الله من

شبـاب الحرس الثوري في مدينة فسا، لكنّ الرشاش المتوسط العراقي رماه بزخّة رصاص وأصاب صدره بطلقة. سقط من دون أن ينطق بآه أو يتألم وفار الدّم من صدره! كنت ما أزال مذعورًا من إصابة أمين زاد اللّه حين أُصيبـت دشمة الرشاش العراقي وتهدّمت، وارتفعت أصوات التكبير في الأرجاء.

كان القائد قد أمسك بقبضة الـ(B7) التي سقطت مني المجهّز للإطلاق ورمى الدشمة. بتدمير دشمة الرشاش ضعفت معنويات العراقيين. وضع مرتضى الـ(B7) وحمل سلاحه الأخمص القصير وتقدّم.

- الجميع خلفي!

تحرّكت بسرعة في أثـر العم وخـلال أقل من نصف ساعة قمنا بتمشيط بقيّة الخنادق المسببة للمشاكل في أنحاء الوادي والنّهر، وفرّ عدد من العراقيين باتجاه الغابة. قرب النهر تمّ استهداف مرتضى مُحب برصاصة قنّاصة سيمينوف وسقط على رأسه في الماء! نزل مرتضى بنفسه في النهر وسحب جسد «مُحب» على كتفه وأخرجه من الماء.

- لا تتقدّموا.. العراقيون يسيطرون على النهر!

حـين وضعوا جسد مُحب داخل دشمة «روضـة الشهداء» إلى جوار باقـي الشهداء كان الـدّم يسيل من فوق خصر مرتضـى. شاهد علي سبزي الجُرح خلف كتفه فحمل ضماداته واتّجه نحوه.

- يا عم، جرحكم ينزف، دعني أُضمده!

استـدار البقيّة ونظـروا باستهجان خاصّ إلى جـرح القائد. وكأنّ أحـدًا لم يكن يتوقّع أن يصـاب مرتضى، وكأنوا يرونه منيعًا. حين رفع علي سبزي يده ليضمد الجرح منعه العم مرتضى.

- إنّه خدشٌ بسيط، لا حاجة للضماد.. سوف يلتئم بنفسه!

استغـرب علي سبزي سلوك القائد وتراجع. ذهب إلى جوار «جواد

محمدي» وسأل: جرح السيد مرتضى ينزف لماذا لا يدعني أُضمده؟».

تبسّم محمـدي وقال: أنت تنظر إلى الشعـر والعمّ يرى انعطافه[1]! أنت نفسـك؛ أتحبّ في هذه الأوضاع أن يكون قائـدك جريحًا مُضمّدًا أم سالمًا معافى؟

حين أتممنا عملنا نادى مرتضى الشباب.

- نحّوا جثث العراقيين جانبًا.

نقلنـا ستة عشر أسـيرًا جديدًا إلى داخل خندق كبير كان في وسط التلّة، وجُعل علي خليلي من أفراد الحرس حارسًا للأسرى.

صعد العم مرتضى من التلّة السفلى برفقتنا وأعاد تنظيم الشباب. ربّضنـا على مرتفع التلّة مدفع 120 وآخـر 81 وغطّينا الطرق المحتمل التسلل منها برشاش غرينيف متوسط ومضاد جوي من عيار 50.

أوكل العم إلى «حجّـت الله آذربيكان» ومعه فصيلان مهمة الدّفاع عن الضلع الجنوبي للتلّة المُشرف على مضيق «دربندي خان» والطريق المُعبّـدة. وجعـل إمرة بقيّة الشباب على التلّة العليـا بعهدة أبو القاسم تشوبان ورحيم نعيمي.

- الدفاع عن الضلع الغربي موكول إليكما!

وأوكل أيضًـا مسؤولية عشرة أشخاصٍ في وسط (سفح) التلّة إلى سلمان صفري.

- سلمان، عليك تغطية الشقوق بين المجموعات الثلاث!

كانـت مقصورة كبيرة قد بُنيت بإحـكام من قطع الإسمنت فجُعلت محـلًا للعنايـة بالجرحى، ووضـع خمسـة مسعفين لمراقبـة الجرحى ورعايتهم.

1- يراجع هامش ص(154)، كمبا 11.

42

التنصت، مثلًا

20 تموز 1983م

على تلّة بردِزرد، كنت أستمع إلى المذياع الثنائي الموجة الذي غنمناه، ولم يكن من خبرٍ عن انتصارنا الليلة الفائتة! لا موسيقى عسكرية تُعزف ولا بلاغ عسكري يتلى. وبدأ كلٌّ يدلي برأيه وتحليله: محمد إلهي! لماذا لا يُبث خبر الهجوم عبر الأثير؟

– لا بدّ أنّهم تركوه لنشرة أخبار الثانية بعد الظهر!

– الموسيقى العسكرية تُعزف دائمًا عند العاشرة صباحًا!

– لا يكوننّ لا سمح الله..

– كلا يا عزيزي.. أنت ترى أنّنا وكتيبة كميل سيطرنا على الأهداف..

– إذًا لماذا ليس هناك أيٌّ خبر؟

– تعال.. وهذا أذان الظهر!

– انظر هناك..

من ناحية خطّ القمطرة الحدودي، كانت قافلة من الآليات العسكرية آتية باتجاه تلّة بردزرد. سُرِرت.

– إنّهم قوّاتنا.. في نهاية المطاف سقطت جبهة العدو!

– لا يبدو أنّهم من قوات التعبئة والحرس!

– لا بدّ أنّهم من قوّات الجيش!

عندما صار الطابور العسكري داخل «حديقة موتورى» العراقية، ذُهلت!

– إنّهم عراقيون!

– هذا يعني أنّ جبهة العدو لم تسقط بعد!

– لقد هدأت أصوات الاشتباكات وإطلاق النيران منذ ساعات!

– يا ربي رحمتك!

– يعني أُغلقت الطريق في وجهنا؟

– لعلّنا بتنا محاصرين أيضًا!

– أبلغوا العم مرتضى!

وضعت المذياع الثنائي الموجة أرضًا واستدرتُ إلى الناحية الأخرى من الأراضي العراقية، نظرتُ إلى مضيق دربندي خان: وما هو ذاك؟ يبدو ناقلة جند للعدو.. أشرتُ بإصبعي لنعيمي ناحية الأرض العراقية.

– رحيم، ألقِ نظرة هناك.

– إنّها ملّالة عراقيّة ذات عجلات!

– مصيبتنا سوداء.. هذا يعني أنّ كتيبة كميل أيضًا لم تتمكن من إغلاق مضيق دربندي خان!

– تتقدّم ناقلة الجند المرقّطة ذات العجلات عاتية جامحة.

– يعني نحن محاصرون أيُّها الشباب..

– علينا أن نستعدّ لأيِّ حدث!

ناداني نعيمي: محمد إلهي، اذهب إلى العم وأخبره بالمجريات!

وصلتُ إلى العنق الممتدّ ما بين التلّتين الصغيرة والكبيرة. لم أكن قد ركضت عدّة خطواتٍ بعد حين سقطت قذيفة مدفع (106) إلى جواري ورفعني عصف انفجارها عن الأرضِ ورماني بعيدًا. شعرتُ بألم في جسدي، ومن حُسن حظّي أنّني لم أُصب بشظيّة. رجّحتُ أنّهم رموا قذيفة (مدفع 106) المضاد للدروع بقصد استهدافي! هذه المرّة تقدّمتُ

منحنيًا ووصلتُ خطوة خطوة إلى دشمة العم مرتضى.

- سلام يا عم..

أدركتُ من الأجواء داخل الدشمة أنّه على علم بالمجريات قبلي. كان أبو سجاد أحد الضبّاط اللاجئين قد ضبط جهًاز اللاسلكي على تردّد موجة العراقيين وراح يتنصّت. نظر مرتضى إلى جليل حمامي وقال: جليل اطلب أنت مقرّ اللواء!

ثبّت حمامي بسرعة الجهاز على موجة المقرّ وأعطى سمّاعة اللاسلكي للعم. نادى مرتضى قائد اللواء جعفر أسدي.

- جعفر، جعفر، أشلو!

- جعفر على السمع!

- جعفر، نحن مستقرون على الهدف وننتظر الأوامر!

- إمكانات وأوضاع القوة القتالية!

- الشهداء أربعون.. والجرحى مثلهم!

- كن منتظرًا، لقد واجهتنا مشكلة!

حين انقطع اتصال مرتضى، توجّه داريوش صفري ومرتضى ناحية «أبو سجاد» الذي كان لا يزال يتنصّت على تردّد موجة العراقيين. وضع مرتضى يده على كتف «أبو سجاد». استدار وحدّق في عيني مرتضى ثم ابتسم وقال: تبارك الله يا أشلو..

قال داريوش صفري لـ«أبو سجاد»: هل أنت مهلوس؟

- هلوسة.. يا سيد سلمان؟!

أبعد أبو سجاد سمّاعة اللاسلكي عن فمه وحدّق بحماسة في وجه مرتضى وقال: كان العقيد فاتح قائد لواء «المغاوير 202 الخاص»

يُقـدّم تقريرًا تفصيليًّا لقائد فرقته بأنّ الإيرانيين قد هُزموا في جميع المحاور واضطروا للتراجع من قبـل القوّات العراقيّة، وأن عناصر من كتيبـة الفجـر فقط قد تمكنوا مـن السيطرة على التلّـة الممتدة! وقال القائد الركن بغضب، أيّها الأحمق! التلّة الممتدة تقع في عمق الأراضي العراقيـة، أنت مشتبـه، الأمر غير ممكـن! وكان العقيـد فاتح يُجيب أيضًـا، للأسف لقد انتصـر أشلو. والقائد الركن مـن الطرف الآخر لخـط الاتصـال يأمره بغضـب وسبٍّ وشتـم أن يبذل أقصـى ما لديه ليستعيد السيطرة على تلّة بردِزرد..

قلـت: أبـو سجاد، وكيف عرفـوا أنّ كتيبة الفجر قـد سيطرت على بردِزرد؟!

ضحك وضرب على جهاز اللاسلكي.

- التنصّت يا سلمان آغا.. مثلُنا!

43

ماء الرادياتور

20 تموز 1983م

كان العطش على التلة يفتك بأفراد التعبئة والحرس على حد سواء. أصبح شحّ الماء المشكلة الأساسية! قال علي: حسين، أنا ذاهب لجلب الماء.

كنت وعلي في السن نفسها ورفيقَيِ الحمّام[1]، كان صغير القامة نحيفًا؛ وكنتُ ضخمًا وأكثر طولًا. لم تسمح لي مبادئي أن يذهب هو.

- يا سيد، أنا أذهب بحثًا عن الماء! ابق أنت هنا.

دخل حميد زارع، تعبوي فصيلنا، على خط الحوار مباشرة.

- دعوا ثواب جلب الماء على عاتقي.

كان عازمًا وحاسمًا وقد نفخ صدره بحيث لم يدع لي مجالًا للمعارضة.

- فليكن، ولكن انتبه على نفسك!

حمل حميد عددًا من مطرات الماء وعلقها بحزام خصره وتوجه نزولًا نحو نهر الماء. ما هي إلا لحظات حين تناهى إلى مسامعنا صوت إطلاق ناري. اضطرب قلبي وقلت: علي، لستُ مطمئنًا، لقد حدث سوءٌ لحميد.. أنا ذاهبٌ في أثره!

قال السيد علي: بما أنك ذاهب، احمل معك وعاءً لجلب الماء!

ولكي أجد وعاءً ذهبتُ إلى الجيب العراقي فوق التلة. خلف الجيب كان يوجد غالونات 20 ليترًا مملوءة بالبنزين. لم يكن أمامي إلا

1- الحمّام الشعبي القديم الذي كان أهل المحلة يستحمون فيه لعدم توافره أو توافر خدماته في البيوت. والمقصود من التعبير أنه كان بينهما صداقة لذهابهما معاً إليه.

أن أحمـل عدة مطـرات وأبحث أثناء مسيري داخـل الخنادق. وجدتُ داخلها أنواعًا من الأسلحة والذخائر والحليب المجفّف واللحوم المعلبة وبسكويت «tuk» ومأكولات أخرى، إلا قطرة ماء!

وصلـت إلى مكان يبدو أنه مركز التمويـن والدراجات النارية على التلـة. وصلـت إلى ملّالة الـ(IFA) نفسها التي رميتهـا الليلة السابقة بالـ(B7)؛ ولم تُصَـب. صعدت السيـارة من الخلـف وأزحت الغطاء المشمّع ذا اللون الزيتي الداكـن؛ وكانت المفاجأة: هوووو..وه! معلبات، حليب مجفف، لحوم، شاي، بسكويت.. وما رزق الباري! لحسن الحظ لم تصبهـا الـ(B7).. الحق مع شعباني.. وعندمـا لم أجد ماءً سرت باتجاه أسفل التلة نحو النهر.. قطع طريقي سلمان صفري.

- إلى أين؟!

- أريد أن أجلب الماء للشباب!

- لا يمكـن.. العراقيـون مسلّطـون علـى النهـر ويرمـون ببنـادق السيمينوف. قبل دقائق فقط أصابوا واحدًا!

قلت بسرعة: التعبوي نفسه الذي علّق مطرات الماء على وسطه!

-نعم!

- ماذا حصل له؟

- جُرح..

- جرحه بسيط!

- كلا! رموه في كتفه.. تمّ نقله إلى خندق الجرحى!

- الشباب فوق، يلهثون من شدة العطش وليس من قطرة ماء!

- مـا باليد حيلة، يجـب أن يصبروا حتى الليـل. لربما أمكن جلب

الماء في الظلام.

وحيث اطمأن بالي بشأن حميد زارع حملتُ من مؤخرة الـIFa بعض الحليب المجفف والبسكويت وأشياء أخرى ورجعت إلى أعلى التلة. رسم علي ببشاشته المعهودة بسمة على شفتيه.

- بدل الماء جلبتَ الخبز!

- أُصيب حميد.. لم أجد ماءً، وسنجوع في آخر المطاف.

هزّ عليّ رأسه وقال: حسين، هل شربتَ قبلًا ماء الرادياتور!

انفرجت أساريري وقلت: علي، أحسنتَ التفكير.. لماذا لم تبكّر..

سارعتُ بمساعدة عليّ وأمام الأعين الزائغة المترقّبة للبقية إلى فكّ البرغي الصغير أسفل رادياتور الجيب وسحبتُ ماءه الأصفر الصدئ حتى آخره وصببته في المطرات. وكذلك سحبتُ ماء رادياتورات عدة آليات أخرى، ولحستُ القطرات الأخيرة.

- من أنت يا رجل المهمات الصعبة؛ يا حسين بنائيان!

- قليلٌ، كيفما كان، خيرٌ من الحرمان!

قسّمتُ الماء الأصفر الصدئ بين ثلاثين شخصًا، لكل واحد نصف كوب! ووزّعت الحليب المجفّف والبسكويت على الجرحى أولًا ثم السالمين. كانت حصتي التي جرعتها من ماء الرادياتور مُرّةً علقمًا! لكنّ الجميع شربوا الماء الأصفر بلذة خاصة، وكذلك وضع البعض مقدارًا من الحليب المجفف في حصتهم من الماء وارتشفوه مع البسكويت.

44

النملة الجندي

20 تموز 1983

- گرومپ.. گرومپ..

كان صوت المدفعية العراقية المتقطع يدوّي في أذني.

- سلمان!

كالسهم وصلتُ إلى مرتضى.

- في خدمتك عمّ مرتضى!

تفحّصَ بالمنظار أطرافَ تلة بردزرد الأربعة بدقة.

- سامحك اللّه يا سلمان!

سألت بقلق: هل صدر مني خطأ يا سيد مرتضى؟

تبسم وأبعد المنظار عن عينيه.

- أسأل اللّه أن أكون مخطئًا. الهدوء الذي أراه أشبه ما يكون بهدوء ما قبل العاصفة.. جد لي من يصلح المضاد الرباعي!

عندما انطلقت، شاهدت ما بين التلّتين الكبيرة والصغيرة سقيفة مغطاة بحصير. كانت الأعشاب البرية تحيط بالسقيفة حتى أسفل التلة. وقد رتبت صناديق العتاد الزيتونية الفارغة فوق بعضها من الجهات الثلاث للسقيفة حتى نصف ارتفاعها. كانت مكان هدوء مناسبًا للاستراحة والفرار من الحر! وبسبب ندرة الماء تيمّمتُ وبدأت بصلاة الظهرين. حين تشهدت وسلّمت شاهدت جموعًا من جنود النمل الطويلة الأرجل كانت تخرج بسرعة حبوبًا بيضاء من عدة ثقوب في وكرها، واللّه يعلم إلى أين كانت تحملها. ضحكت: إنها تفرّ من الحرب.. سمعت أن الحيوانات تستشعر الزلزال قبل وقوعه.. وإنما

الحـرب زلزال.. لعـن اللّه صدام البعثي.. لأذهب فـإن الوقت تأخر.. لقـد أخبرتُ الجميع تقريبًا عن الحاجـة إلى إصلاح المضاد، لكني لم أجد أحدًا! عدت بخفّي حنين.

ناداني أحدهم: داريوش!

أدرتُ وجهـي لأقـول إنّي سلمـان سليمـاني، ورقـم هويتـي هـو.. مـن مواليـد فسا، لكننـي انصرفت عـن ذلك لدى رؤيتـي حجت اللّه آذربيكان. كان آذربيكان من الحرس ومسؤولًا في الهندسة (المساحة)، لكـن، ولأجل المشاركة في الهجوم فقـد وصل إلى كتيبة الفجر بالدهاء والحيلة. قلت له باحترام: في خدمتك، سيد حجت!

- داريوش، أنت تعلم أن إصلاح الكلاشنكوف يحتاج إلى تخصّص فما بالك بالدفاع الجوي!

ابتسمـت وقلـت: سيد حجت، إن مع العسر يسـرًا، كل شيء ممكن بمشيئة اللّه..

- سلام يا خال!

جاء فتى تعبوي نَضِر الوجـه متوسط الطول وألقى التحية. سألت: ما الأمر؟

أجـاب الفتى بلهجته الشيرازية: أخي يـا خال! أخوك قادر على أن يتولى من أجلك أمر المضاد وغيره، وحتى المدفعية!

نظـرت إلى ملامح وجهه الطفولية وقلـت متعجبًا: أخوك؟! أخوك أنت أم أخي أنا؟!

ضحك عاليًا وضرب على صدره النحيل.

- مقصودي، أخوك هذا نفسه!

قلت: يعني أنت تعرف كيف تصلح الدفاع الجوي!

- إي.. لربما تشغيله أيضًا!

صحت بحماسة: ولماذا لم تقل قبلًا يا خالي الشيرازي!

كبحَ حماستي.

- هاي.. مع احتمال عدم نجاحي!

عقدتُ حاجبيّ وقلت: لم أفهم، يعني يمكنك تولّي أمره أم لا!

- اللّٰه كريم!

كان توكّل الفتى كمثل توكّل الكهول. قلت: لنذهب!

- بشرط يا خال!

- شرط؟ أي شرط؟

- رفاقي أيضًا يجب أن يأتوا معي! لقد تعاهدنا أن نبقى معًا أينما كنا!

قال آذربيكان وكأنما كان على معرفة أكبر بالفتى: ولكنك مع رفاقك!

رفع الفتى النحيف الذي لم يكن شعر شاربه قد نبت بعد، رأسَه وذقنَه نافيًا وقال: كلا.. غلام حسين ونون خدا وأمين ومحسن، تفصلهم عنا خنادق عدة من هذه الناحية! أسفل التلة.. استدْعِهم ليأتوا أيضًا، نشغّل الرشاش الرباعي معًا.. قبلتَ يا خال!

مدّتني نضارة الفتى وحيويته بالروحية والنشاط بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من التعب والضغط وعدم النوم. غمزتُه وقلت: خالو! ما اسمك؟

- خادمك، غلام علي فهندج سعدي!

ذهبتُ لجلب رفاق الفتى، فعلمتُ أن نون خدا قد استشهد و«أمين» بين الجرحى. وجدتُ «محسن» و«عرب سعدي» و«غلام حسين شب

خيز» فقط وجلبتهم. انهمك الأربعة بالعمل بعد أن أزاحوا جثث طاقم الجنـود العراقيـين الذين كانوا يعملـون على المضاد الجـوي، وفككوه حتى آخر قطعة، وفي أقلّ من ساعة أعادوا جمعه وبات الرباعي (الـ23 ملم) المغتنم جاهزًا لإطلاق النار. جلس «جواد خيرات» على الكرسي الحديـدي للدفاع الجوي وكأنه يهمّ بتنـاول طعامه. أدار قبضة المدفع شمالًا ويمينًا وقال: في الدورات التخصصية في الحرس خضعنا لدورة تعليم على مدفع 23 ملم.

45

تلة أُحُد

20 تموز 1983

عنـد الواحدة بعـد الظهر، غطى الضبـاب كمثل بحـر لَبَنيّ اللون وادي الحـاج عمـران و«حديقة موتـورى». كانت أصـوات إطلاق النار التـي تتناهى إلى السمع من مرتفعـات تمرتشين هي التي تكسر جدار الصمت. نادى محمد إلهي: داريوش، تعال!

ذهبـتُ إلى غـرب تلـة بردزرد. وتمنيـتُ على محمد مـا بين الجدّ والمـزاح: ولو! لقد قلتها مـرات ومرات، لا تنادِني باسم داريوش! الأمر قبيح أمام التعبويين.. سيقولون إنّ اسمي طاغوتيّ.

أشار محمد إلى طريق الدعم التي يسلكها العدو.

– داريوش، انظر إلى الطريق..

كبـتّ ضحكتـي. كان علـى الطريق المعبّـدة الملتوية التـي تعبر من مدينـة دربنـدي خـان في العراق وتكمل عـبر التلال، رتـل ضخم من الآليـات العسكرية العراقية يزحـف نحونا. أطلّ أبـو القاسم تشوبان وآذربيكان متوجهَين نحونا. ووصل مرتضى كالصقر الباحث عن صيدٍ له، برفقة سعيد حفار وإبراهيـم كاركر وإسماعيل توكلي. مع اقتراب الرتل العسكري أكثر تبيّن في مقدمته ثلاث آليات أيفا IFA تليها دبابة ومنصـة مدفع وحفارة وجرافة. حين وصـل الرتل إلى مضيق دربندي خان قال مرتضى: إنهم ذاهبون إلى الخط الأمامي للجبهة!

سأل أبو القاسم تشوبان: ماذا نفعل!

تمتم مرتضى: إنه الوقت المناسب لإغلاق مضيق أُحُد! لا ينبغي لأي قوة أن تعبر المضيق.

سأل آذربيكان: وكيف ذلك؟

أشار العم بإصبعه إلى الدفاع الجوي 23 ملم.

- الرباعي!

استدرتُ ونظرت إلى مدفع الـ23 ملم الذي كان «جواد خيرات» يعدّل كرسيه الحديدي الأسود الصغير. وكان «محسن عرب سعدي» و«غلام حسين شب خيز» كذلك يضعان مخزن الطلقات الكبير.

قال العم: تعالوا!

تحلقنا عدة أشخاص حول الرباعي.

ربّت العمّ على كتف جواد خيرات.

- إنه موعد تسليتك يا جواد! دعهم يدخلون المضيق.

حدّقتُ في المضيق في الأسفل. كان على ناحية منا الوادي العميق وعلى الناحية الأخرى الجبل الصخري. وكانت الطريق المعبدة هي الممر الوحيد الضيق والقابل للعبور بين الجبل والوادي. تابع العمّ: جواد، ما لم أقل؛ لا تطلق النار!

استدرت ورحت أتأمل في الصف الطويل للآليات العسكرية التي كانت تقترب من المضيق مصاحبة بالضجيج.

- هل أنت جاهز؟

ضحك خيراتي.

- ها، أجل يا عم!

حرّك مقبض المدفع الدوّار ووجه السبطانة نحو الأسفل وضبط جهاز التنشين على المضيق.

- طاقم التعمير!

أحكـم شابان أو ثلاثة تثبيت مخـزن الطلقات تحت القبضة. وضع جواد خيراتي قدمه بهدوء على دواسة الإطلاق.

– ما لم أقل إياك أن ترمي!

دخلـت الأيفا الزيتونية اللون ذات الشادر الأخضر المائل إلى البنـي المضيق.

– صوّب على ناقلة الأيفا أولًا..

كنت أرى من جهة الرتـل العسكري بوضوح. وكان مرتضى يشرف على الرشاش.

– يجب أن تصل الناقلة إلى وسط المضيق.. جواد، ترمي عند قولي. ارمِ السائق أوّلًا.. ثم الآلية.. يجب أن لا تخرج الآلية من الوادي أبدًا..

باتـت الأيفا داخـل المضيق بالكامـل. وساد الصمـت التام. كانت النظرات مقسّمة وتدور بين ثـلاث جهات، مرةً على القافلة العراقية، وأخـرى على قدم جواد، ومرةً علـى شفتي مرتضى. كنا نسمع أصوات تنفّسنـا. وكنت أسمع دقّات قلبي. وكأن الهجوم كان سيبدأ من جديد، وقـد انعقـدت نتيجة حرب إيـران والعراق على عمليـة إغلاق المضيق هذه! دخلت الآلية الثانية في المضيق.

– استعد.

– أطلق..

– اللّه أكبر..

مـن دون وعي كمـا البقية هـزّ صوت تكبـيري «اللّه أكـبر» الجبل والوادي! وكأنه كان مقرّرًا بدل طلقات رباعي جواد أن تصيب تكبيراتنا الهدف. كان جواد خيراتي يضغط على أسنانه وقدمه معًا.

– ترررررر..ترررررررر..تررررررررر..

علا صوت المضاد وانطلقت سلاسل الرصاصات (الخارقة المتفجرة) صافرةً نحو الآلية. خرقت الطلقات الكبيرة مقطورة السائق كالصاعقة وشاهدنا بأعيننا كيف أخذ جسده يهتز بشكل مستمر.

- ترررررررر.. تب.. تب..

كانت الخراطيش البرونزية الكبيرة الفارغة تتطاير من أسفل المضاد وتفترش الأرض.

- ما شاء الله.. الآن دور الشاحنة ناقلة الجند..

شدّ جواد خيرات على أسنانه وحوّل رشّات الرصاص إلى مؤخرة ناقلة الجند. أزاحت الطلقات صندوق الشاحنة وغطاءه ودوّى صوت انفجار الآلية مرعبًا كالقنبلة، وعلت النيران بسرعة كالطود. وكانت أجساد الجنود ركاب الناقلة والرصاصات الثقيلة تنفجر كما الألعاب النارية وتتطاير بشعاع عدة أمتار في الهواء.

- كان في الناقلة ذخيرة!

سرت النيران بسرعة إلى ناقلة الجند التالية، وبصوتٍ يصم الآذان خرقت الرصاصات بشكل متتابع الآليات المتتالية ومزّقتها.

تحوّل المضيق إلى جهنم نيران. كان الجنود المذعورون يصابون بالنار ويرمون بأنفسهم خارج الآليات. وارتفع الضجيج والنحيب من كل الجهات. كان الجنود وكالأفلام السينمائية يحترقون بالنار ويرمون بأنفسهم في الوادي، واتجه البعض من خوفهم نحو الجبل. سرت نيران الذخيرة المنفجرة في الآليات إلى الخلف وغطّى جبل من النار والدخان المضيق بأكمله. وفي غضون دقائق تراجعت بقية الآليات العسكرية وجنودها المبهوتون إلى الخلف.

- جواد، سدّد نيرانك إلى الخلف أكثر!

بات الجنــود والآليات الخلفية تحت مرمى نيران الرباعي 23 ملم. ومــع ذلك الحجم مــن العتاد المقصوف فقــد ذاب المضيق تحت وطأة النيران واستحال أمام عينــيّ لهبًا متحرّكًا. ارتفع الدخان الأسود من المضيــق وغطى السماء الزرقــاء وجبل الحاج عمــران. قال مرتضى: وكأنهم قد جلبوا كل هذا العتاد ليغلقوا به المضيق!

أشار إلى جليل حمامي.

- اتصل بالحاج أسدي!

كان جليــل الطالــب الحــوزوي الشــاب قــد تموضــع خلــف أجمة خضراء. بصعوبة تمّ الاتصال، وأعطى جليل اللاسلكي لمرتضى.

- الحاج أسدي على السمع!

هــمّ مرتضى باستــلام السماعة من مسؤول الاشــارة لكنه أغمض عينيــه مــن الألم. استدرتُ ونظــرتُ إلى بلوزتــه الزيتونيــة اللون من الخلــف. شاهدت على كتفه الأيمن جرحًا قديمًــا ودمًا جديدًا! تنبّهت للتــو، بدل الحجر كان مرتضى قد أصيب ليلــة البارحة بشظية قنبلة! وكانــت الشظية ولباسه ودماؤه قد التصقت ببدنه. تمزّق قلبي! أعرفُ أنني يجب ألّا أتكلم عن جرحه أمام الإخوة. أخذ السماعة.

- السلام عليكم يا حاج أسدي.. ما الأخبار؟

- قوّاك الله يا أشلو، كيف هي أوضاعكم أنتم؟

- بالتوكل على الله تحوّل مضيق أُحُد بالنسبة للأعداء إلى جهنم!

- مرتضى، لم ينجح الهجوم ليلة أمس، يرى السيد محسن أن تجد طريقة لأجل التراجع، لقد بتّم محاصرين بالكامل!

- حــاج جعفر، لقد قضينا علــى رتل من إمداداتهم العسكرية! لقد أُغلق المضيق الآن ولا سبيل لديهم لتأمين خط قتالهم الأول! أي فرصة

أفضل من هذه لمواصلة الهجوم!

– المسألة ليست عندي يا مرتضى! استبعد إمكانية مواصلة الهجوم، بقية الفرق لم تتمكّن من السيطرة على موطئ قدم واحد!

– وأي مكان أفضل للسيطرة من المضيق!

– أنتم في قلب العدو، محاصرون! والآن وقد أغلقتم المضيق، سيُعبّأ كل الجيش العراقي للقضاء عليكم! الليلة جد وسيلة للتراجع ما دامت الفرصة سانحة!

– لديّ أربعون إلى خمسين جريحًا وقدّر ما تشاء من جثث الشهداء! أفضّل أن أستشهد مع شبابي هنا على أن أتراجع!

46

الهجوم المضاد الأول

20 تموز 1983

سقطت زخّات من نيران المدفعية الثقيلة على تلّة بردزرد.

– كب..كب..كب..

بدت أصوات قصف المدفعية العراقية وكأنها عدد هائل من الطبول تُقرع، وكانت التلة تهتز تحت أقدامنا. كانت قذائف المدفعية والهاون تسقط فوق التلة مترًا بمتر. بتنا عاجزين عن الحركة. ناديت مسؤول الاتصال اللاسلكي: حسين، اتصل بالسيد مرتضى!

– الأخ حفّار، القائد!

بين دويّ الانفجارات التي تصمّ الآذان ألصقتُ السماعة بأذني وفمي.

– سعيد، سعيد، مرتضى!

– مرتضى، مرتضى، سعيد، أسمعك!

خرجت مني الكلمات بسرعة بقلق واضطراب.

– مرتضى، لقد سوّى العراقيّون بالمدفعية والكاتيوشا والـ(106) والهاون التلّة أرضًا!

– سامحك الله، أيّ جلبة افتعلت؟! خائف أنت من تسوية التلة بالأرض أم من نفسك؟ التلة موجودة ها هنا بقدر ما تشاء.. خذ نفسًا عميقًا، وقل هل أصيب أحد من الإخوة بأذى؟

نزل كلام مرتضى كالماء البارد على اضطرابي وقلقي الخاطئ: ما زلتُ لا أعرفك أيها الرجل!! استعدتُ رباطة جأشي وأخذت نفسًا

عميقًا وقلتُ بهدوء أكثر:

– استشهد اثنان من الشباب جرّاء إصابتهما بشظية! وإلهي جرح أيضًا..

سكت. قلتُ في نفسي: أنا أعرف أخلاقياته.. إنه يفكر الآن بالشهداء ويذوب كالشمعة.. انتظرت حتى تكلّم من جديد:

– سعيد، العراقيون لديهم إحداثيات التلة شبرًا شبرًا، أخبر الجميع أن يحتموا. علينا أن نحفظ قواتنا. ضعوا الشهداء والمجروحين في داخل الخندق.. ما زلنا تحت وطأة الإسناد الناري فحسب. المواجهة تبدأ بعد أن ينتهي إطلاق النار. نحن أيضًا لدينا ضيوف غير مدعوين، حين أنتهي من تنظيم الأمور في الأسفل سوف أصعد إلى الأعلى عندكم.. يا علي مدد!

بعد أقل من ربع ساعة هدأت نيران المدفعية. وفورًا علا صوت «أبو القاسم تشوبان».

– استعدوا.. يا مؤمنين.. العراقيون يصعدون التلة.. استعدوا.. ما شاء الله يا جيش الإسلام.. استعدوا ..

كان أبو القاسم يدور على الشبيبة ويبثّ فيهم الروحية والعزم.

– أروني كيف ستلقّنون العدو درسًا. لا ينبغي أن تصل قدم أي واحد منهم إلى تلة أُحد.. دعوا الذخيرة خلفكم. القنابل..

سرتُ على التلّة لأبلّغ أمر مرتضى. كانت طلقات السمينوف العراقية تتساقط أمام قدميّ.

– العراقيون يستهدفون كل مكان بالرصاص والقنص.

أثناء جولتي لمحتُ تعبويًا جديدًا كان قد انضمّ إلى سريتنا، وكان يعرج ويترنح في مشيته: أيكون جُرح حتى بات يترنح في مشيته هكذا!

احـترق قلبي وأسرعـت إليه ووقعنـا كلانا خلف شجـيرة خضراء كانـت بحجم رجل إذا ما تكوّم على نفسـه. لم يكن التعبوي قد تجاوز السبع عشـرة سنة. كانت شفتاه يابستين ومسودّتين من شدة الحرارة وقـد تقشّر جلد وجهه الأبيض المشرب بالحمرة جرّاء تعرّضه لحرارة شمس الساعات الأخيرة. أشرت إلى قدمه.

- وهل جُرحت!

نظر إليّ بتعجب وأجاب بحياء وخجل:

- كلا يا أخي!

- لماذا تعرج؟

- أعرج منذ الولادة!

قبّلتُ جبهته.

- انتبه لنفسك! نحن بحاجة إليك.

- على عيني يا أخي!

فجأة علا صوت إطلاق أول دفعة من زخّات الرشاش والكلاشنكوف من الشباب.

- العراقيـون.. بأعداد غفـيرة.. يصعدون التلة.. هـا هم.. هنا.. ارمِ.. لماذا أنت واقف..

لم أفكّر بحفظ روحـي ولا بطلقات السمينوف والرشاش المتوسط، وخرجـت كالبقية الذين انطلقوا من عدّة خنـادق مكشوفة على التلّة. ووجهـت فوهة سلاحـي إلى الأسفل. أطلقتُ النار وأنـا واقف وجالس وممدد باتجاه كل ما يتحرك أمامي. كانت النيران تتساقط من حولي بغـزارة حتـى اختلطت، فلـم أكن قادرًا علـى تشخيص مـا إذا كانت رصاصات العدو أو الصديق.

انتهـزت الفرصة لأنهضـ قليلًا وأنظر إلى الأسفـل. كان سفح تلة بـردزرد صعـودًا حتى ما يقـرب منّا مملـوءًا بالمغاوير الذيـن ارتدوا اللباس العسكـري المرقّط! من دون اختيار صفرتُ: يا إلهي.. أين كان هؤلاء. كم شخصًا مقابل كل شخص منّا!؟

بدّلـت مخزن الرصاص بسرعة واستهدفتُ المغاوير والجبل ورحتُ أطلـق النـار. وبين الحـين والآخـر كان يتدحـرج بعضـ المغاوير نحو الأسفل. كانت كتيبة كاملة من المغاوير تصعد التلّة.

- ها هنا؟

كان صـوت أبـي القاسم. استـدرتُ ونظرتُ ناحيـة الشمال. كانت كتيبـة من قـوات المغاوير تتقدم كالجراد المنتشـر باتجاه مرتضى من ناحيـة نهر الماء والقرية. امتلأ السهل والجبل بالمغاوير الذين يرتدون الألبسـة المرقطة المختلفـة الألوان، مـن أخضر وأصفـر وأحمر ناري وكاكي وزيتي داكن[1] وبيج[2] وأزرق ولباس القوات الخاصة.. أدركتُ للتو أنّ النقطة الأساسية في ميدان المعركة كانت ناحية مرتضى: إلهي! هل سيتمكـن الشباب من القضاء على كل هـؤلاء المغاوير؟ إذا ما سقطت التلـة السفلـى فسيأتي العراقيون ويرموننا في الـوادي! تمنيتُ لو أنني كنـت قادرًا علـى أن أتكثّر بمقدار عـدد المغاوير الـذي لا يُحصى من العراقيين وأطلق النار عليهـم جميعًا! وبدون وعي بدأت بإطلاق النار رشقيًا ناحية المغاوير وقلت: يجب أن نساعدهم!

لكـثرة إطـلاق النـار تعطّـل الكلاشنكوف في يـدي وبـدأ الدخان يتصاعـد من سبطانته. وضعـتُ البندقية أرضًا وحملـتُ أخرى. كان

1-الزيتي الداكن: الأخضر الداكن المائل الى البني، يقال له بالعامية الأخضر العسكري.

2- البيج: من تدرجات البني الفاتح، في النص الفارسي تم التعبير عنه بلون الطحينة.

صـوت إطلاق المضـاد الجوي الرباعـي من قبل جواد خـيرات يرتفع ويرمي نيرانه على كل مكان.

وصلـتُ إلى جانب أبـي القاسم تشوبـان، كان يحـثّ الشباب على المقاومة من خلف صخرة على المرتفع. وكان محمد إلهي بجانبه أيضًا يطلق النار بيده المصابة. وصلتُ إلى جليل حمامي. كان يتنصت برفقة أبـي سجـاد على موجة قائد كتيبـة المغاوير التي تشـن الهجوم علينا. وكان أبـو سجاد يترجـم لتشوبان: قوات اللـواء الخاص 91 العراقي.. يقـول وصلنا إلى بُعد خمسين مترًا عن الهدف. العملية تتقدم بنجاح. سوف تسقط التلة الآن..

تسارعـت نبضات قلبي. لم يكن بيدي حيلـة وكنت أقول في نفسي: هـذا يعنـي أنهم يستولـون على التلـة السفلى. إلهي أنـت كن في عون أشلو.. إذا راح مرتضى لم يبق أحد.

كنت مصغيًا إلى ترجمة المجاهد العراقي أبي سجاد.

- لم يبـق شـيء.. الإيرانيـون يقاومون بشدّة.. سيـدي نحن نقدّم خسائـر كثيرة جـدًّا. إذا استمرت الأمور على هذه الحال لن يبقى منّا حيٌّ واحد..

صاح أبو سجاد: لقد أصدر قائد (اللواء 91) الأمر بالتراجع.. الله أكبر..

أدّت مقاومـة مرتضـى ومن معه علـى التلة السفلـى إلى أن تنقلب الأحوال وتتراجع قوات العدو ما قبل وصولها إلى القمة.

47

أنا عينك، أنت قدمي

20 تموز 1983

عنـد الرابعـة من بعد الظهـر، كان قد دُفِـع عنا للتوشـرّ الهجوم المضاد العراقـي حين سمعتُ صوت انفجار قذيفـة هاون ورجف قلبي لصوت أنين خفيف آتٍ من جواد خيرات.

- آخ، يا الله، عيني..

استـدرت ناحية الانفجـار. كان الدخان والـتراب تقريبًا قد أخفيا الرباعـي وجواد خيرات! ركضت ناحية المضاد. كانت الشظايا وعصف الانفجار قد أصابت الرباعي وشوّهته. خلف الكرسي كان جواد قد وضع يده على عينيـه ووجهه، وكان الدم يخرج من بين أصابعه ويسيل داخل ياقته. قال: يا إلهي.. هل أصابوا المضاد؟ أتحدث معك.. من أنت..

- هذا أنا، سعيد حفّار!

- سعيد، هل أصيب الرباعي؟

- فكّر في نفسك!

- ماذا تقول أنت! إذا تعطّل الرباعي..

- أعطانا الله رشاش الغرينيف!

وصـل أبـو القاسم ورحيـم نعيمي أيضًـا، قال نعيمي: لقـد أخذوا إحداثيات الدفاع. ابتعدوا.. سعيد، احمل جواد إلى خندق الجرحى..

سحبتُ جواد من خلف المضاد. وسار يتكئ عليّ. لم نكن قد ابتعدنا عـدّة أمتار حـين سقطت قذيفة هـاون على المضاد مباشـرة وشعرت بـألم شديد في عضلة ساقي اليسـرى. استدرتُ ونظرتُ إلى ساقي من الخلـف. كان اللحم والعضل ممزّقين والدم ينـزف بغزارة! وترك كلّ

من العطش والحرارة وضعف البدن ومشاهدة جرح قدمي المفتوح أثره عليّ فسقطت على الأرض وسقط جواد معي. كنت أفكّر فيما ينبغي فعله بشأن عضلة ساقي المسحوقة حين وصل علي سبزي النحيف إليّ وقد لفّ حزامًا من المطرات على خصره.

- خيرًا إن شاء الله!

- لا يأتي من الله إلّا الخير!

أشرت إلى المطرات حول خصره التي كانت تُصدر صوت خضخضة حين تصطدم بالصخور وكتل التراب من حوله. أشرتُ إلى حِمل مطراته.

- إلى أين بهذا الحمل كله؟!

ركع على ركبته إلى جواري في طلعة التلة. كانت شفتاه مشقّقتين بنحو فظيع جرّاء انعدام الماء!

- إذا نجوتُ من الإخوة البعثيين العملاء فأنا ذاهب إلى النهر لأجلب الماء.

- في وضح النهار؟ لقد منع الوصول إلى النهر أمثال شمر بن ذي الجوشن يا علي آغا!

من دون أن يجيب أخرج من جيب سرواله ضمّادتين أو ثلاثًا. ألقى نظرة على وجه خيرات وعينيه ثم على قدمي.

- جُرح أيٍّ منكما أكثر حرجًا!

ضمّد جراح جواد أولًا حتى أرى جودة عملك!

أزاح يد جواد. كانت كلتا عينيه مغمضتين وقد غطّى الدم وسع وجهه، ولم يكن واضحًا أي مكان من عينيه ووجهه قد أصيب. مسح بالضمادة الأولى دم وجهه وربط الضمادة الثانية حول رأسه ووجهه.

- لا بأس.. يمكنك أن تضمد جرحي الآن!

حين ضمّد جرح ساقي قال: يجب أن أذهب في أثر الماء!

مـا إن ابتعد علي سبزي، حتـى ازداد إطلاق النار شيئًا فشيئًا على التلّة، والأعراء[1] التي لم تنل نصيبها في الهجوم المضاد الأول استُهدفت بـ(مدفع 106) والهاون والدبابـة والكاتيوشا والمدفع والقناصة. كانت الحركة على التلّة في غاية الصعوبة. جاء أبو القاسم تشوبان. نظر إلى جرح ساقي نظرة وإلى وجه جواد خيرات وعينيه نظرة أخرى.

- معًـا تصبحان رجـلًا صحيحًا! سعيد ما دمتمـا على قيد الحياة فاذهبـا إلى خندق الجرحـى أسفل التلة! عديمو المـروءة يرمون على الأفراد بالـ(106).

كان البقـاء على التلّة من دون ملجأ وتحت نيران الأسلحة الخفيفة والثقيلة مستحيـلًا. فجأةً طنّت طلقة سيمينـوف قرب أذني وأحدثت ثقبًا في التراب أمامي.

- قنّاصوهم يطلقون النار.

نظـرتُ إلى قامة جواد خيرات الصغـيرة النحيفة. تجاوزتُ وجعي وجرح قدمي. وقفتُ. وضعتُ يدي على كتفه وبات هو الآن مسندي.

- لا بأس يا سعيد آغا، تريد أن تركب!

- لا يـا حبيبي جـواد آغا، صفقة، واحدةٌ بواحـدة، أنا عينك وأنت قدمي! الآن انعطف يمينًا.

سرنـا في طلعة التلّة الوعـرة. فجأة انفجرت طلقـة قنّاص عراقي على الأرض بين قدمي وقدم جواد وانبطحنا أرضًا. ثم في الوقت نفسه سقطـت قذيفة (هاون60) بقربنا وأحدثت عصفًـا انفجاريًّا وسمعت

1- أعراء: مفردها عراء؛ مكان خال مكشوف لا يستتر فيه بشيء.

صوت طيران شظاياها فوق رأسي. ضحكتُ وقلت:

- لقد أنقذنا ذلك القناص العراقي!

تابعتُ: جواد، لنذهب، فالرصاصة التي تلي سوف تصيبُ رأسينا.

وضعتُ يدي تحت كتف جواد ورفعته من الأرض.

- هيا قم!

سحبــتُ جواد في أثري خطوة خطوة. بين التلّتين شاهدتُ جثة أمير علي زاده وقد سقط على ظهره وسال منه دم كثير.

- هل حدث شيء.. لماذا وقفت يا سعيد؟

- كلا.. لقد تعبت..

تحركتُ باتجاه أسفل التلّة. داخل خندق الجرحى رأيتُ علي سبزي بين المصابـين، أطلقتُ ضحكة وقلت: حتى أنت يا علي! (وصل الموسى إلى لحيتك!)

48

أبو الفضل

20 تموز 1983

في سكون الليل، كان يُسمع صوت الأنين المتهالك للجرحى العطاشى في تلّة بردِزرد يتناهى إلى المسامع. مضافًا إليه كنت أشعر أنّني أسمع أنينًـا غامِضًا وممـدودًا آتيًا من قلب الجبل. قلـت لعليّ: هل يمكن أن يكون قد أُصيب أحدٌ ولم نره.. هناك صوت أنينٍ دائم في رأسي!

– أنت تتخيل يا حسين.. من شدّة التعب.. لم ننم منذ 48 ساعة..

– يمكن النوم الليلة!

– من الممكن أن يستأنف العراقيون الهجوم!

– لن يهاجموا ليلًا!

– لكن لا ريب أنهم يريدون أن يسترجعوا التلّة..

– حسين، يعني إلى هذا الحدّ هذه التلّة مهمة؟

انفجرت قنبلـة مضيئة فضيّة اللون فوق التلّة. شاهدت طرف وجه علـي حسينـي الأسمر الخالي مـن الشعر والذي لم يكن قـد فقد بعد طراوته ونضارته.

– كلام السيد مرتضى بشأن تلّة أُحد منقوش كلمة كلمة في رأسي.. لِقد قرأت تاريخ صدر الإسلام بشكلٍ جيّد. وكلما كنت أصل إلى حرب أُحـد، كان ترك جبل أُحـد وهزيمةً جيش الإسـلام بالنسِبة لي مكلفًا جدًا. ولطالما سألت نفسي لماذا تخلى المسلمون عن جبل أُحد؟!

وصل رحيم نعيمي وقال: ينام أحدكم ويحرس آخر!

كنت أهفو إلى ساعة من النوم العميق.

غرومب.. غرومب.. غرومـب.. سقطت ثلاث قذائف مدفعيّة غير متباعدة زمانًا على التلّة. أنهى نعيمي جولته ودخل إلى الخندق المفتوح الذي كنا نجلس فيه أنا وعدة آخرون.

- لقد بات الماء معضلة! الجرحى يلهثون لأجل جرعة واحدة!

نظر إليّ وقال: أريد من كل دشمة متطوّعين اثنين لأجل النزول إلى أسفـل التلّة وإحضار الماء والذخيرة! إن لم يأت العراقيون الليلة، فغدًا حتمًا سيأتون!

رفـع السيـد علي يـده مبتسمًا. وبالطبـع كان ينبغـي أن أرفع يدي أنـا أيضًا. ومن شـدّة التعب والعطش كانت شفـاه الباقين في الخندق وعيونهم مطبقة، فلم يتجاوبوا. ربّت رحيم نعيمي على كتفي.

- زاد عطشك كثيرًا!

أشار إلى السيد علي الذي كان يبدو فتى صغيرًا في قامته وضحك.

- ولا بدّ أنك أنت الساقي!

حين ذهب حسن هوشيار إلى الدشمة الصغيرة فوق التلّة للحراسة نام المناوبان الآخـران وغطّا مباشرة في سبات. حملنا المطرة وحقيبة الظهـر وبدأنا بنزول التلّة. أحرق النسيم الجـاف والبارد وجهنا منذ اللحظـة الأولى. قـال علـي حسيني: حسـين، لا بحرّ النهـار ذاك، ولا بصقيع الليل هذا!

لم نكـن قد وصلنا بعدُ إلى الشـقّ الأول في التلّة حين شعرتُ بطنين رصاصة أصابت ركبتي وصحتُ: سيد، انبطح!

وثبـتُ منبطحًـا على الأرض في ثـلاث ثوانٍ وارتفع صـوت ارتطام المطرة وعتادي.

- ما الذي حصل فجأة؟!

مسحتُ بيدي على ركبتي وشممتُ رائحتها. شعرتُ برائحة الاحتراق. كانت الرصاصة قد لامست ركبتي فقط وأحرقت لباسي. قلت: عديمو المروءة! يرموننا ليلاً مستعينين بالمنظار الليلي!

أثناء المسير اصطدمتُ بجثّة بدا أن صاحبها كان قد أتى لجلب الماء.

– حسين، لنحمل الجثّة إلى الأسفل.

حاولتُ أن أحمل الجثّة ولكنّها كانت أثقل مما أستطيع حمله.

– نحتاج إلى حمّالة، يجب أن ننزل إلى الأسفل لنجلب مساعدة.

استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة حتى وصلنا إلى أسفل التلّة الصغيرة. كان السكوت والظلام قد خيّما على كل المكان. أنصتُّ للبعيد وقلت: لم يعد صوت إطلاق النيران والاشتباكات الذي سمعناه في اليوم الأوّل يتناهى إلى مسامعي!

تبسّم علي.

– لعلّهم نسوا أنّنا عالقون في قلب جبهة العدو!

كانت تتعالى أصوات أنّات المجروحين. شاهدتُ غير بعيد القائد مرتضى. كان قد جلس أمام دشمة الجرحى متّكئًا على صندوق الذخيرة. وكأنّه كان قد اختلى بنفسه. قال علي: حسين، لنغتنم الفرصة ونذهب لسؤال القائد عن الأوضاع وما يتوقع أن يحصل في نهاية المطاف.

همّ بالذهاب فمنعته.

– لقد اختلى بنفسه! إن كان هناك شيء يجب أن نعرفه لكان قاله. وفي الواقع كلّما عرفنا أقل كان أفضل!

انحرفنا باتجاه النهر أسفل التلّة. سمعتُ صوت خرير الماء. كانت الغابة في الناحية الأخرى من النهر تبدو سوداء وأكثر ظلامًا.

– انتبه يا سيد علي!

كان الحصى تحت قدمي يتحرك وينزلق. مُثقلاً ونعسًا أحنيتُ رأسي وسرت حتى وصلتُ إلى ضفّة النهر. ازدادت برودة الطقس. كنت أسمعُ لهاث السيد علي. وضعتُ كفّيَّ تحت الماء وغرفتُ مقدارًا منه. تلاقت عيناي وعينا علي. توقفنا قليلاً ثم أعدنا الماء إلى النهر. ملأنا مطرات الماء بسرعة. أخذتُ نفسًا عميقًا وألقيتُ بنفسي على الصخور المجاورة للنهر. شعرتُ بطراوة غير طبيعية تحت قدميّ ويديّ وسمعتُ كذلك صوتَ تنفيس هواء. حينما نظرتُ إلى ما تحت قدمي اتّضح أنّني كنت مستلقيًا على بطن منتفخ لجثّة أحد المغاوير الضخام. وجهه الأسود وفمه المفتوح وصفًّا أسنانًه البيضاء جعلتْ شعر بدني ينتصب.

– اوووه..يا إلهي..

الخوف والاشمئزاز قلبا أحوالي. وقفتُ مبتعدًا.

– عــلـــي.. جـــثثثثـثـّة..

كان النهر ممتلئًا بجثث المغاوير الذين قاموا بالهجوم عند الظهر، وبات ماء النهر الآن يعبر من بين جثثهم المنتفخة. استعدت رباطة جأشي وقلت: «علي لنتوجّه نحو الشقّ!».

رجعنا عبر التلّة الصغيرة. كانت التلاوة الجماعية وتمتمات سورة الواقعة آتية من خندق الجرحى.

﴿إذا وقعت الواقعة..۞ فلا أقسم بمواقع النجوم ۞ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم۞..﴾

اجتزنا الشقّ بين التلّتين ووصلنا إلى التلّة العليا. سلّمنا مطرات الماء إلى أبي قاسم تشوبان الذي قسّم الماء بداية بين الجرحى. قلت:

علي، كان هوشيار ظمآن جدًّا، لنذهب ونسقيه بعض الماء!

انطلقنا نحو دشمة الحراسة الصغيرة والمفتوحة. حين دخلنا كان هوشيار جالسًا مكوّمًا على نفسه.

- لقد نام من التعب!

- أيقظه ليشرب الماء!

وضعت يدي على كتفه وناديته. سقط على جانبه.

انحنى السيّد فوق بدن هوشيار. قال بصوت يغلب عليه الحزن: هنيئًا له! لا بدّ أنّه الآن في الجنة قد سُقيَ بكأسٍ لن يظمأ بعدها.

- وما الذي حصل؟!

- لقد أصابوا قلبه بطلقة سيمينوف!

49

قصّة أُحد

21 تموز 1983

صبـاح اليوم الثاني للهجـوم، وداخل دشمة القيـادة في مقرّ خاتم الأنبيـاء ﷺ كان أحمد كاظمـي يعرض أمامي النتيجـة القطعية لليلة الأولى مـن عمليات (والفجر 2): سيـد محسن، لم يحصل أيُّ التحاق في أيٍّ من محاور العمليات الثلاث..

حين سكت كاظمي قلت: «خذ راحتك وقل؛ هل هُزمنا!».

هزّ أحمد رأسه.

- للأسف هكذا هو الوضع!

استدرت ونظرت إلى العقيد علي صيّاد الشيرازي. سألت: أخ صيّاد ما أخبار الجيش؟

تقـدّم العقيد وقـال: «سيـد محسن، ليس في الأمر مواربـة. ليلة البارحة مرتفع كينغ لم يسقط أيضًا!».

كان المسؤولون السياسيون في البلاد يتصلون بشكل مستمر ويسألون عـن أخبار العمليات. وكانت العمليات قـد أقفلت ولم يبق لي مُهجة أو حيـل على إيجاد أي حل. وقفتُ ورحـتُ أذرع الدشمة مشيًا. فكرتُ في الهزيمـة وتوقُّف الهجوم. للحظة أصغيتُ إلى مسؤول اتصالات العقيد صيّـاد الشيرازي الذي كان يناديـه: جناب العقيد، قائد (الفرقة 77 - خراسان)!

أخذ صيّاد الشيرازي السمّاعة. حدّقت في وجهه. قلت في نفسي: لا بدّ أنّ مشكلة قد حصلت!

مـع مرور الدقائـق كانت الابتسامـة الحلوة تتضح أكـثر على وجه

العقيـد. هزّ رأسـه وقال بوضوح بلحن المنتصر المسيطـر: أُقبّل يدَ كلّ جندي من الجنود. أبلغهم عنّي أنّني أَدعو لهم بالقوّة والثبات..

أعطـى سماعة اللاسلكـي إلى الملازم القصير القامـة وربّت على كتفـه بحماسة. نظر إليّ وقـال: الله أكبر.. سيد محسن، اللواء الثاني في (الفرقـة 77) وبمساعـدة لـواء المهـدي استولوا علـى مرتفع كينغ واستقروا عليه الآن!

كان خـبرُ العقيد السار بمنزلة الأوكسجين الصافي الذي جرى إلى عمـق رئتـي. انتعشتُ وغمرني السـرور! سرعان ما دخـل دشمة المقرِّ جعفر أسدي قائد لواء المهدي وأخوه صالح.

- سلام يا سيد محسن!

تقدّما وتعانقنا، قلتُ: لقد تحرّر كينغ.

- أتيت لأعلمكم النبأ ذاته!

- جعفر، ما هي أوضاع محوركم؟

حكّ جعفر رأسه ذا الشعر الخفيف. مدّ خريطة ملفوفة في يده على أرض معسكر المقرّ.

انقطـع تواصلنا مع كتيبـة مالك. لم تُوفّق كتيبـة كميل فوق مرتفع الصدر، هـم في حصار يسعون لفكّه. كتيبة الفجر استطاعت في عمق عشريـن كيلومترًا مـن الأراضي العراقية أن تسيطـر على عدّة مواقع ومرتفعات مهمة تُشرف على المضيق والطريق الرئيسي لدربندي خان! بات الآن خناق العدو في قبضة كتيبة الفجر!

- الفجر! كتيبة مرتضى؟!

- أيّ نعم!

- أشلو؟

– صحيح!

– هذا خبرٌ جيّد!

– نعم ولكن هناك مشكلة كبيرة!

– ما هي؟

– المواقع المحيطة بكتيبة الفجر كلّها بيد العراقيين! في الواقع لقد باتوا في وضع «الحصار داخل الحصار!».

سكت جعفر أسدي، قلت: ما رأيك يا جعفر؟!

هزّ رأسه وقال: سيد محسن، لقد استطاع أشلو أن يسيطر على المكان هناك بسريّتين، ولكن ليس لديه أيّ خبر عن سريّته الثانية! والعدو منذ صباح يوم أمس يسعى بجنون من خلال قواته البريّة والجويّة أن يستعيد التلّة! ما الذي يسعُني فعلهً!

رحت أفكّر. العقيد، كالسيد رحيم صفوي، كان قد سمع كلام جعفر الأسدي. قال رحيم: الأوضاع في غاية الحساسية! يجب أن نتكلم مع مرتضى فهو في قلب المعركة!

اتّصل جعفر أسدي بمرتضى جاويدي لاسلكيًّا وأعطاني السماعة.

– أشلو أشلو، أنا محسن رضائي!

– محسن محسن، أشلو على السمع!

– سلام سيد مرتضى، ما الأوضاع؟

– خالص تقديرنا للعزيز السيد محسن!

– عافاك اللّه، ما وضعكم؟

– الإخوة فردًا فردًا يرسلون تحياتهم، ولا يحزننا سوى بعدكم!

ثمّ وكأنّه حمل السماعة إلى ناحية قوّاته، سمعتُ نداءات اللّه أكبر

والموت لصدّام من شبابه من خلف اللاسلكي! قلت: أشلو، ما وضع الخسائر والتجهيزات والذخيرة في كتيبتك..

قال مسهبًا: بحول الله وقوّته، أخذنا عددًا من الأسرى، ونحن ستون سالمون مع عدد من الجرحى والشهداء. لدينا قدر ما تشاء من المؤونة التي غنمناها من الإخوة العملاء العراقيين! وقد نجحنا حتى الآن في صدّ هجومهم المضاد. نحن في الخدمة!

حيّرني صوت مرتضى المبتهج والواثق. لكن كلما استذكرتُ الخريطة والأخبار كان يرجح عندي أن أفضل عملٍ هو سحب كتيبة الفجر من عمق أراضي العدو. استشرت العقيد وقلت لمرتضى جاويدي: أشلو، هل يمكنك أن تتحمّل حتى الليل؟

قال بصوتٍ يعبق منه الحسم والتوكّل: يا خال محسن، نقاوم حتى قيام الساعة ونبقى منتظرين لكم!

– حفظك الله، استمروا على ما أنتم عليه حتى الليل ومن بعدها تنسحبون!

سأل بلحنِ المتعجب: انسحاب؟!

قال كلمة انسحاب بنحو وكأنّني قد نطقتُ بما يخالف العقل السليم. قلت بحذر: أشكر شجاعتك يا أشلو، ولكن أنتم في عُقر العدو الآن ويجب أن تسرعوا في الانسحاب!

– سيد محسن، لعلّني أسأت توضيح مقصودي؛ نحن نُحكم القبضة على خناق العدو! نبقى ونقاوم حتى تصلوا إلينا!

– بخمسين أو ستين من القوّات الأمر غير ممكنٍ!

أجاب بوضوح وصراحة: خال محسن، لقد أقسمنا أنا والشبيبة ألّا ندع أُحُدًا تتكرر! اسأل الحاج جعفر!

انقلـب حالي من مغـزى كلامـه. تلقائيًّا نظِـرتُ إلى جعفر أسدي الذي أخفى على وجهه ابتسامة، قلت: ما قصّة أُحُد؟

– سيد محسن، قبل العِمليات أكّدت عليه مرارًا، أنّ مضيق دِربندي خـان هو بمنزلـة مضيق أُحد! وهو في المقابل كان يكـرّر دومًا: أُحُد لن تتكرر!

ضغطتُ على زرّ جهاز اللاسلكي محتارًا.

– أشلـو ليسـ لديكـم تكليـفٌ بالبقـاء! سريعًا مـا ستنتهـي المؤن والذخائر. البقاء انتحارٌ!

– سيـد محسن، نحن نطيـع أوامر القيادة، لكـن اعلموا كذلك أنّ رجوعنا من دائرة حصار العدو هو انتحارٌ أيضًا!

– ولكن؟!

قطع كلامي.

– سيـد محسن، لقد تـرك لنا العدو من الذخائـر والعتاد بقدرِ ما تشاء، وسندبّر أمورنا في الماء والطعام.

بـثّ التـوكّل في كلام مرتضى البهجة والأمـل في روحي. اغرورقت عيناي بالدموع. بلعت ريقي وقلت: أشلو، قاوموا، سأتابع الأمور!

– شكرًا لك يا سيـد محسن، إذا كانت الشهادة من نصيبي أوصل سلامي إلى الإمام الخميني!

ارتجـف قلبي. قلـت: إن شـاء الله تنتصـرون، وأعـدك أن أوصل سلامك وشجاعتك إلى حضرة الإمام!

فجأة سمعتُ عبر اللاسلكي صوت طائرة مروحيّة.

– أخ محسن، لدينا ضيوف، يجب أن نستعدّ للضيافة!

50

الألمان

21/تموز/1983

– تب.. تب..

كسر صمتَ صباح المنطقة الجبليّة وهدوءَها سبعُ أو ثماني مروحيّات عراقيّة زيتيّة اللون كانت تحلّق متّجهة نحو المكان الذي أتينا منه قبل ليلتين. سألني حسن مايلر: «داريوش، إلى أين يتوجّه هؤلاء؟». تبسّمت.

– لقد أخطأوا المسير.. كان عليهم أن يشنّوا هجومًا علينا!

– لا بدّ أنّهم لا يعلمون باستقرارنا على تلّة «بردزرد!».

– لعلّهم يريدون الهجوم على «السريّة3».

– .. ها.. انظر.. إنّهم يُنزلون مظلّيين خلفنا!

– كما في الأفلام الألمانيّة!

– هذا لافت، لم يسبق لي أن رأيته!

– فلنلوّح لهم بأيدينا، لعلّهم يجيبوننا.

– تُرى ماذا يدور في رؤوسهم؟

– لقد أنزلوهم هنا خطأ!

– لا بدّ أنّ لديهم فائضًا من العناصر!

كنت غارقًا في مشاهدة فتح المظلّات البيضاء والسُكّريّة اللون التي تعود لقوّات المغاوير العراقيّة. كان المظليّون يهبطون في النطاق الأمنيّ لسريتنا.

تناهى إلى سمعي مجدّدًا أصوات، تلاها وصول مجموعة ثانية من المروحيّات لتحلّ مكان المجموعة الأولى. كانت المروحيّات تدنو من

الأرض فيقفز المغاوير منها إلى الأسفل. علا صوت «مش موسى»، مسؤول تجهيزات الكتيبة، قائلًا: «فليقل أحد لهؤلاء إنّهم يُنزلون عناصرهم خطأً. هذا حرام، إنّها أموال بيت مال المسلمين!».

ابتعدت المجموعة الأولى من المروحيّات فيما أخذت المجموعة الثانية تُنزل المظليّين. كانت السماء تعجّ بأعداد كبيرة منهم!

- يا لهم من حمقى! لماذا يُنزلون المظلّيين هنا؟

قال حسن: «ليتنا نرشدهم!».

ضرب العمّ مرتضى على ظهر حسن، وكان الأخير يضع ذقنه بين يديه وهو ينظر إلى السماء مطلقًا العنان لمزاحه، ثم قال له: «إنّهم يدركون جيّدًا أين ينزلون مظلّيّيهم!».

قال حسن: «هل تحاول إخافتنا يا عمّ؟».

أتممتُ كلام العمّ وقلت: «بهذا العمل يسدّون طريق عودتنا!».

ضمّ حسن شفتيه مُدندنًا موسيقى الأفلام الغربيّة ثم قال: «لأجل حفنة من الدولارات!».

قال العم لحمامي: «اتّصل بمحمد رضا بديهي واسأله عن الأوضاع هناك».

لم يمضِ وقت طويل على إنزال العراقيّين حتى تساقطت القذائف على التلّةَ كحبّات بَرَد كبيرة! كأنّ العراقيّين أرادوا أن يحرثوا أرض التلّة بواسطة هذا الكمّ من القذائف!

- إنّها نيران المدفعيّة!

قال مرتضى ذلك ثمّ وضع المنظار على عينيه وهو يراقب بدقّة أطراف التلّة.

قلت: «ماذا هناك؟».

رفع المنظار عن عينيه وأشار بالتوالي إلى الغابة والنهر وأطراف

التلّة.

– سلمان، انظر إلى هناك! هل هؤلاء أكراد العراق.. لا أصدّق هذا!

نظرتُ إلى الجهة اليسرى أوّلًا. كان هناك أكثر من سرية من القوّات بزيّ كرديّ أسود مخطّط بالأبيض، وبحوزتهم أسلحة من نوع كلاشنكوف وسيمينوف، يزحفون باتّجاهنا من أسفل التلّة المجاورة لـ«حديقة موتورى». قلت: «يريد صدّام القول إنّ لديه قوّات تعبئة أيضًا!».

قال مرتضى: «علينا أن نعرف إن كان تعبويّو صدّام واقعيّين أم مزوّرين!».

أخذت كتيبتان من المشاة تتقدّمان نحونا من ناحية النهر والغابة أيضًا.

– ما الأمر؟ مجموعة من الرجال مقابل رجل واحد! أمامنا حرب ضروس!

– لا قطعَ اللّه عيشَك[1]، هل تخاف من الشهادة؟

قلت: «ما دمت موجودًا فأنا حاضر!».

وصلت السرية العراقيّة بالزيّ الكرديّ إلى أسفل التلّة، وأخذ عناصرها يتسلّقون التلّة على أربعتهم كالعنز الجبليّ.

– سلمان، فليأخذ كلّ من بوسعه أن يطلق النار موضعًا مناسبًا. أسرِع..

ثمّ نادى بعجل: «حمامي».

ظهر حمامي فجأة.

– أجل يا عم!

1- أو: أدام اللّه رزقك.

- لا قطع الله عيشك، اتّصل بتشوبان!

سقطت قذيفة خلفنا فانحنيت. أمّا مرتضى فتناول السمّاعة من جليل بأعصاب باردة. ضغط على زرّ الجهاز اللاسلكي.

- مرتضى، مرتضى، أبو القاسم!

- أرسل يا مرتضى!

- «أبو القاسم».. هل ترى الضيوف.. رتِّب صفوف عناصرك.. قرارنا هو التالي: من يصدّ الهجوم أوّلًا يرسل قوّاته لمساعدة الآخر، مفهوم؟

- مفهوم يا عم!

إلتفت مرتضى نحوي وتابع قائلًا: «إنّ النيران كثيفة.. لن يستطيعوا رفع رؤوسهم.. علينا أن نساعدهم! إن سقط ذلك المحور فسينتهي أمرنا!»

مضى يجول بين العشرين أو الثلاثين عنصرًا ممّن تبقّى من السرية، فرتّب صفوفهم وعاد. جلس خلف الرشّاش الثنائيّ الثقيل وصوّب نحو العراقيّين. أمّا أنا فحملت رشاش الغرينيف الروسي الصّنع مع شريط الرصاص، وصوّبتُ نحو العدوّ عن بُعد. كانت كثافة نيران العدوّ شديدة (القصف المدفعي) بحيث غطّى الدخان والغبار أجواء المكان. صاح مرتضى: «سلمان، أطلِق النار عندما أقول لك!».

أخذ العراقيّون يضيّقون الخناق علينا أكثر فأكثر من ثلاثة محاور سوى الجهة العليا حيث استقرار قوّات تشوبان، فيما كانت كتيبة من المشاة والأكراد العراقيّين تقترب من رأس التلّة.

قرابة التاسعة صباحًا، وصل ضابط عراقيّ من المشاة عظيم الجثّة إلى التلّة بلا أيّ مانع، فرفع مسدّسه الخاص نحو السماء بطمأنينة، وأطلق قنبلة مضيئة حمراء اللون، فانقطعت على الفور نيران مدافع

العـدوّ، ما سمح لشبابنا أن يُخرجوا رؤوسهم من الدشم. أمّا مرتضى الذي بـدا أنّه يتحيّن الفرصة، فأطلق الرصاصــة الأولى وأصاب رأس الضابط مباشرة وصاح: «الله أكبر.. أطلقوا النار..!».

- يا مهدي.. أدركني..

رفعـت صرخة مرتضــى ومقتل الضابـط العراقي مـن معنويّاتي. ومــن داخل الحفرة بين التعبويّين والحرس ضغطتُ بإصبعي على زناد رشاش الغرينيف مطلقًا عنان الرصاص نحو العدو. كنت أبدّل شريط الرصاص بشكل متوالٍ مطلقًا النار بغزارة.

ذابت سبطانــة الرشّاش بسبـب كثافة النيران. وضعـتُ الرشاش جانبًـا وحملـتُ بندقيّــة كلاشنكوف. وصـل عدد من المشــاة والأكراد العراقيّــين إلى رأس التلّــة مظهرين شجاعة وجـرأة. بدأت مواجهات رَجل لرَجـل، فأصيب واحد أو أكثر من شبابنا وسقطوا من أعلى التلّة نحو الأَسفل! شعرتُ بالقلق حيال سقوط التلّة. بينما أنا كذلك وإذ بيد تضغـط على حلقي. سقطت البندقية من يدي وكدت أختنق. استدرتُ بصعوبـة ونظرتُ فـوق رأسي. تجمّدتُ في مكاني مذهـولًا! كان أمامي شاب تعبويّ في العشرينيّات، بعينين تكادان أن تخرجا من محجريهما جـرّاء الألم الشديـد، وهو يحملق فيّ ضاغطًا علـى حلقي. كان القسم الأيمـن من رأسه قد أصيـب برصاصة رشّاش ثقيـل، فلقت جمجمته فخـرج دماغـه، فيما كانت ذقنــه ترتعش وكذلك شفتــاه. تمزّق نياط قلبـي وكأنّ دماغـي هو الذي خـرج من رأسي. لقـد تشبّث بحلقي من شــدّة الألم، وكأنّــه كان يتوسّل إليّ بأن أخلّصه مــن آلامه! احترت في أمره. قلت له: «ماذا؟!».

- سا.. سا..!!!

لم تخــرج الكلمة من حلقه، وهوى في حجري كقطعة صخرة وفارق

الحيـاة. أحسسـتُ بحـرارة الدم وطـراوة الدماغ اللـزج على وجهي. أخـذتُ أرتعش من هـول الصدمة. مدّدتُ الجثّة علـى أرض الحفرة، ووضعتُ الكوفيّة على رأسه المدمى. صاح حمامي: «العراقيّون يتقدّمون من جهة النهر».

قطعت فصيلة من المغاوير النهر، واشتبكوا مع العناصر المستقرّين في الدشـم والخنادق أسفل التلّة. التفّ المغاوير على دشمتين أو ثلاث، ورأيتهـم من الأعلى وقد رموا في داخلها «قنابل يدوية». وبهذا استطاع العـدوّ السيطرة على مدخل التلّة الصغرى من تلال «بردزرد». ناداني مرتضى: «سلمان، اجمع عددًا من الشباب وهلمّ معي!».

لم ينتظـر مرتضـى مساعدَ رامـي (B7). ثبّـت القذيفة الأولى في قـاذف الـ(B7) ثمّ جعله علـى كتفه، وسحب حقيبـة القذائف خلفه. حملـتُ الرشّاش وركضـتُ خلف مرتضـى بصحبة إسماعيـل توكّلي، إبراهيـم كاركر وبضعة أشخاص آخرين. أخذ مرتضى يركض دونما حماية خلـف أحد السواتـر الترابيّة باتّجاه المغاويـر العراقيّين الذين كانـوا يصعـدون الساتـر. لم أدرِ كيـف وضـع حقيبـة القذائـف على ظهـره، ثم ركض مباشرة نحو جموع المغاوير، وأطلق أوّل قذيفة بينهم فتطايروا في الهواء. تشتّت جمع المغاوير وطار كلّ واحد منهم إلى جهة. إثـر رؤيتهم لمرتضى ولمجموعتنا التـي كانت تعدو خلفه مطلقة النار، ذُهـل المغاوير غير مصدّقـين وتبدّد جمعهم، فتقهقـر عدد منهم إلى مـا وراء النهر، فيما لجأ الآخرون إلى الدشم التي سيطروا عليها قبل لحظـات، وأخذوا يردّون على هجومنـا بالرشاشات الثقيلة والـ(B7). أيّما أحد اقترب منهم كان عرضة للإصابة. قال مرتضى: «إنّ احتلال هـذه الدشم مشكلة.. لقد سدّوا بذلك طريق النهر، وثبّتوا موطئ قدم مناسبًا للسيطرة على التلّة».

في نهاية المطاف، وعند الساعة الثانية عشرة فشلت هجمة العراقيّين، فأخذوا ينسحبون تدريجيًّا من نقاط تلّة «بردزرد»، فيما حضر عدد من الشباب لمساعدتنا. أشرت إلى دشم العراقيّين.

- ماذا سنفعل بهؤلاء؟

قال مرتضى: «لقد صار هؤلاء شوكة في حلقنا تمامًا كما صرنا شوكة في حلقهم بسيطرتنا على هذه التلّة! علينا إخراجهم سريعًا من الدشم وإلّا فسنواجه مشكلة في الهجمة المضادّة التالية».

فكّر مرتضى قليلًا ثم نادى «مش موسى»: «ائتِني بمكبّر صوت يدويّ! لا يُطلِقنّ أحد النار!».

عندما توقّف إطلاق النار كفّ المغاوير اللائذون بالدشم عن إطلاق النار أيضًا، وساد هدوء نسبي المكان. أدنى مرتضى مكبّر الصوت اليدويّ من فمه وخرج من المخبأ، ثمّ أخذ يتكلّم ببرودة أعصاب وبلغة عربيّة مكسّرة.

- أي شي لونك.. اشلونك.. يا أخي.. صباح الخير!

- سيرمون العمّ بالرصاص الآن!

- إنّ العمّ يعلم ما يقوم به!

كان مرتضى يتحدّث بطمأنينة، وهو يسير نحو العراقيّين وكأنّهم كانوا محاصرين من قِبلنا لأيّام. في اللحظة الأولى أطلقوا بضع رصاصات قرب العم مرتضى محاولة منهم لتقويم الرجل. أمّا مرتضى الذي بدا خبيرًا بزبائنه فلم يرفّ له جفن، وأكمل وعظ العدو بدم بارد. لم يطل الأمر حتى خرج أوّل مغوار بقميص أبيض من الدشمة الأولى. تقدّم مرتضى من المغوار كطبيب نفسيّ محترف، فعانقه وقبّله على مرأى من الآخرين. وفي غضون دقائق معدودة استسلم حوالي ثمانية عشر مغوارًا من دون إطلاق رصاصة واحدة!

51

الخيار

21/تموز/1983

- ..الصافـرة التـي تسمعونها الآن.. الوضع الأحمـر.. ومعناها.. حصول هجوم جويّ حتمي.. اختبئوا في الملاجئ..

قبيـل الظهر بثّ المذياع الجيبـيّ ذو الموجة الواحدة صافرة الإنذار الحمـراء. دوّى في أذني صوت مهول ناتج عـن المضادّات الجوّية. كان قلبـي يغلي مـن الاضطراب: لا بدّ أنّ أمرًا ما قـد حدث.. اللهم اجعله خـيرًا.. أين مرتضـى الآن، وماذا تراه يفعل.. هـل أصيب بمكروه.. لا قـدّر الله.. ألا بذكـر الله تطمئـنّ القلوب.. نظرتُ مـن خلال النافذة الوحيـدة للغرفة رقم مئة وعشرة لأرى مـكان مرتضى الخالي وأتذكّر آخر وداع له! حتى البلبل البنّي توقّف عن الزقزقة في قفصه.

سبـق أن قـال لي العجـوز النحيـل ذو الشّيبة، عامل فنـدق قيام: «سيّدة جاويدي، لقد قصفت الطائرات شارع نادري! هناك عدد هائل من الشهداء والجرحى!».

ارتديت عباءتي، حملتُ المذياع ودخلتُ غرفة السيّدة بروين. قفزت الصغيرة سميّة مرعوبة إلى حضني.

- إنّي خائفة يا خالة!

قبّلتها.

- لا تخافي يا عزيزتي!

بثّت إذاعة أهواز صافرة إنذار الوضع الأبيض، وعاودت بثّ برنامج «البيـت والأسرة». عندما رأت بروين؛ زوجـة السيّد ستوده طفلتها في حضنـي، تركت حديث الحرب وشرعـت بالحديث عن الحياة: «آمنة،

ألا تريدين طفلاً؟».

أطرقتُ برأسي. ولمّا طال صمتي أردفتْ قائلة: «الولد نعمة كبيرة..».

كانـت سميّة تتسلّق على ظهري وكتفي بسعـادة وبراءة. انقطع بثّ البرنامـج العادي للإذاعة ثانية، ليحـلّ مكانه موسيقى ثوريّة. ما لبث أن خفت صوت الموسيقى الثوريّة فيما صدح صوت المذيع.

- .. مستمعينا الكرام، أرجو الانتباه..

أنصتنا لخبر الإذاعة.

- مستمعينــا الكــرام.. أنتــم تستمعون إلى خبر مهــمّ أُفِدنا به من المقرّ العسكريّ..

انخلع قلبي، وقلت بحزن: «عمليّة أخرى!».

اجتاحــت أفــكار مختلفة ومضطربــة ذهني. مــلأ الذعر والخوف نفســي، وأطبقــا على حلقــي. حملقتُ في وجه بروين الــذي كان يزداد بياضًا لحظة بعد أخرى. لم أتمالك نفسي فأخذ ستار من الدمع يُسدَل على عينيّ ثمّ يتساقط ثمّ يُسدل من جديد.

- يا خالة، يا خالة..

أعادتنــي هــزّات سميّــة الصغـيرة إلى الحيــاة. كانـت الموسيقى العسكريّــة الصادرة من المذياع تنهش لحمــي وتبري عظامي. نظرت برويــن إلى سميّــة، ونطقــت بكلماتهــا مــن بــين شفتيهــا المرتعشتين بصعوبة: «هل كان لواء المهدي هناك أيضًا؟».

تمتمتُ ببرودة: «لا أعلم، عسى أن يكون خيرًا!».

- لهذا السبب ما برحت الطائرات تقصف الأهواز منذ الصباح!

- هل تعرّضت خوزستان لهجوم؟

– أين زوجانا الآن يا ترى؟!

– الناس فرحون لهذا الهجوم!

جثمنا في زاوية الغرفة حائرتين، لا ندري أيّنا تواسي الأخرى!

– مستمعينا الكرام.. بدأ مجاهدو الإسلام ومقارعو الكفر ليلة أمس عمليّة «والفجر 2» المهمّة والاستراتيجيّة في منطقة حاج عمران..

بدأت النساء القاطنات في فندق قيام الطواف والسعي وطرح الأسئلة المكرّرة التي كانت تشغل أذهانهنّ بعد كل معركة.

– دور من.. هل زوجي شهيد، جريح، أسير أو مفقود..

وبانتظار الإجابة كان علينا أن نصبر ونتحمّل أيامًا حتى تنتهي العمليّة، وينجلي الدخان والغبار، فتعرف كلّ منّا خبرًا عن مصير زوجها. لم يكن بوسعنا سوى أن ندعو ونصلّي لسلامة المجاهدين!

عند الظهر عُدت مغمومة إلى غرفتي. أطفأت المذياع، ووضعته على الرفّ. وضعتُ بارتباك إبريق الشاي على المدفأة النفطيّة. لعلّي أردت أن أعيش ذكرى مرتضى فأعددتُ الشاي، إذ كان يحبّه حبًّا جمًّا. كلّما كنت أتأخر في إحضاره كان يقول لي ممازحًا: «أنا لا أدخّن السجائر، لكنّي أدخّن الشاي عوضًا عنها، لا تنسي ذلك يا بنت خالتي!».

ارتديتُ ثوب الصلاة الأبيض. حملتُ سُبحة «شاه مقصود» الخضراء. صلّيت وقرأت الأذكار، وفي الختام شرعت أتلو سورة الواقعة:

﴿**إذا وقعت الواقعة** ۞ .. **إنّه لقرآن كريم** ۞ **في كتاب مكنون**﴾..

بعد الظهر بثّت الإذاعة أخبارًا عن استكمال عمليّة «والفجر 2»، فيما شغلت نفسي في رتق وخياطة ملابس مرتضى. نهضتُ وطحنتُ قليلًا من الخبز وأطعمت البلبل البنّي. علا صوت طرق الباب. فتحتُ

الباب فرأيتُ ليلى، زوجة علي أكبر بهمنزادكان، بوجه شاحب وعينين متورّمتين. بعد ذلك ارتمـت كالخشبة اليابسة في حضني، كأنّ روحها خرجت من جسدها دفعة واحدة، وأخذت بالبكاء والنحيب.

حضنتُهـا، فوضعتْ رأسها على كتفي وواصلت بكاءها حتى هدأت. أمسكـتُ بكتفيها وأجلستها بقربي. كانـت عيناها قد تجمّرتا. وضعتُ يدي على وجهها ومسحتُ ما بقي من دموعها وسألتها: «عزيزتي ليلى، ما الخطب؟».

- زوجي علي أكبر..

ثمّ خنقتها الغصّة.

- ماذا حدث لعلي أكبر؟!

- لقد اس..س..تشهد!

52

نذر الأمّ

21/ تموز/ 1983

عندما خفّت حدّة النيران على التلّة خرجتُ من الدشمة ذات الواجهة المفتوحة. على مسافة قصيرة من الدشمة جثا «غلام فرمانيها» على ركبتيه قرب جثّة أخيه حسن. في حرّ ما بعد الظهر عاونته على وضع وجه أخيه الشهيد تحت ظل شجيرة لئلّا تصيبه أشعّة الشمس. على مقربة منّا أخذ علي ينزع قشر بشرته التي أحرقتها أشعّة الشمس.

- حسين، إن جلدي ينفصل قشرة قشرة!

أشار عليّ إلى المرتفع العالي خلف رأسي.

- يا لقدرة الله، هناك ثلج وبرد، وهنا شمس محرقة!

- سيّد، هلمّ معي لنعطي الجرحى بعض الحليب.

أخذ علي -الذي كان يُضحكه حتى الشقّ في الجدار- يقهقه مُطْلِقًا ضحكته الخاصّة من شدقيه المفتوحين وقال: «وهل لديكِ حليب يا أمّي؟».

نظرتُ نظرة تهديد، فتوقّف عن الضحك وسار خلفي. حملتُ علبة الحليب ومطرة الماء، وقصدتُ سيارة الـ «جيب» التي كنّا قد وضعنا في ظلّها وفي الحفرة التي تحتها عددًا من الجرحى. سحبتُ نفسي بصعوبة إلى أسفل المركبة. كان الجرحى جائعين خائري القوى. بحثتُ كثيرًا عن وعاء لحلّ الحليب لكن من دون جدوى. قلت لهم: «ليس لدينا وعاء!».

لكنّ الجرحى كانوا يتضوّرون جوعًا، فألصق الجريح الأول كفّي يديه.

- هذا وعاء!

- لكنّ يديك ملوّثتان بالدم!

- لا يهمّ!

أشرتُ إلى عليّ.

- أنا أسكب الحليب، وأنت تصبّ الماء!

سكبتُ الحليب المجفّف على كفّي الجريح، ثمّ أضاف السيّد علي ماء المطرة شيئًا فشيئًا، فيما أحنى الجريح إبهامَي يديه إلى باطن كفّيه وجعل يحرّك الماء والحليب.

- انظروا النتيجة! حليب، دماء جافّة وماء!

شرب الجريح الحليب، ثمّ كوّر جمال وصابر؛ الجريحان الشابّان الآخران، يديهما كالوعاء بانتظار الحليب.

أخرجني دويّ انفجار مروّع من تحت المركبة. قرب الدشمة ذات الواجهة المفتوحة سقطت قذيفة (مدفع106)، فارتفع صوت يقطّع القلوب لأحد الشباب من داخل الدشمة.

- يا إلهي احترقت.. يا مهدي!

وصلتُ إلى الجريح الذي كانت الدماء الصافية تشخب من رقبته كالخروف المذبوح. أحسستُ بحرارة دمه على وجهي. لقد أصابت الشظيّة وريده. تحيّرتُ ماذا أصنع! لم أدرِ كيف وصلتْ إلى يدي بضع ضمادات. حاولتُ جاهدًا أن أسكّر جرح وريده وعبثًا حاولت. أخذتُ يده ووضعتها على رقبته، فلففتُ الضماد حول يده ورقبته والشظيّة معًا حتى انقطع نزف جرحه. كان ذلك الحلّ الوحيد! حملته أنا وعلي على تلك الحال، قد خيطت يده برقبته، ووضعناه تحت ظلّ مركبة الجيب. لم يعد المكان يتّسع لأحد. خرجت وعلي من الحفرة المظلّلة

بالمركبة، ودخلنا الدشمة المفتوحة والكبيرة نسبيًّا حيث جلس عدد من شباب إحدى المجموعات. قال عليّ ضاحكًا كعادته: «لقد ابتكرت شيئًا جديدًا!».

أمّا سعيد حفّار، الذي لم يقرّ له قرار، فقد صعد إلى الأعلى برجله المجروحة، وبرفقته كـريم الأبرص وإبراهيم كاركر لتقديم المساعدة. كانـت حدّة نيران العـدوّ قد خفّت فوجدناها فرصـة ليبثّ بعضنا إلى بعض الشجون ونتعرّف إلى العناصر الجدد وحياتهم. أشار سعيد إلى «حبيب زيبايي عالم»، التعبوي الساكت والنحيل الذي جلس بجانبه.

- ماذا حدث لرِجلك يا سيّد حبيب؟

تبسّم حبيب ذو الخمسة عشر أو ستة عشر ربيعًا.

- أنا نفسي لا أعرف بالدّقة.

سأل سعيد حفاري: «لا تعرف؟ وهل يُعقَل هذا..؟».

- كلّ مـا أتذكّره من الصغر أنّها كانت هكذا! في البداية لم أستطع السّير ولو خطوة واحدة.

قـال كـريم الأبرص: «كيـف استطعـت أن تأتي إلى هنـا مع كتيبة الفجر؟».

خلع حبيب الجزمة من رجله النحيفة، وكان على طرفيها حزامان حديديّان متّصلان بالركبة، وأشار إليها.

- بالجزمة الطبّية! لقد أعانني الله حتى الآن ولم أواجه أي مشكلة!

وضـع كريم الأبرص يده على رأسه وشعـره الأبيض، مضيّقًا عينيه من قوّة الضوء وسأل: «وهل يعلم العمّ مرتضى بذلك؟».

- لا أظنّ ذلك.. لقد انضممتُ إلى الكتيبة للمشاركة بالمعركة!

ثمّ أشار حبيب إلى قعر جزمته الخاصّة.

- لقد أزلتُ عرجة رجلي بوضع كعب إضافيّ.

سألتـه مستغربًا: «سيّد حبيب، سبق أن قلت إنّك لم تكن تقدر على المشي على رجلك؟ كيف تمكّنت من ذلك؟».

- بالنـذر! ما برحت أمّـي تقدّم النذور لمولانا أبـي الفضل العباس عليه السلام، إلى أن استطعت المشي منذ العام الماضي.

ثـمّ أخـذ نفسًا عميقًا وتابع: «حينها نذرتُ أنـا أيضًا أنّي إن شفيتُ فسأقدّم رجلي في سبيل الله!».

أخـذ سعيد حفّار رأس حبيب، فأدناه منه وقبّـل جبهته. أمّا كريم الأبرص فقال: «تعال لكي أسحب لك ورقة من فأل حافظ!».

53

القنبلة العنقوديّة

21/تموز/1983

- طائرة.. إيرانيّة؟ عراقيّة! احتموا..

عند الثالثة من بعد الظهر ظهرت الطائرات العراقيّة كالأجل المعلّق، وألقت قنابل عنقوديّة فوق المنطقة! كانت معظم القنابل تسقط بمظلّات صغيرة فوق الوادي والغابة.

من داخل الدشمة المطّاطيّة غير المحكمة كنت غارقًا في مشاهدة هبوط القنابل العنقوديّة، وإذا بعليّ ينبّهني لهجمة مضادّة من قبل العراقيّين.

- حسين.. هناك.. من جهة النهر والقرية.. العراقيّون يقتربون من القائد.. علينا إخباره.

وقفتُ داخل الدشمة المستقرّة على أعالي التلّة الكبيرة ونظرتُ إلى حيث أشار عليّ. أكثر من كتيبة من الجنود العراقيّين الذين يرتدون زيًّا أخضر داكنًا يلمع تحت أشعّة الشمس، أخذوا يقتربون من التلّة الصغيرة من جهات عدّة. تواصل سقوط نيران المدفعيّة الشديدة فوق رؤوس مرتضى وبقيّة الشباب. ضغطتُ على رشاش الغرينيف الذي كان بيدي قائلًا: «ليتنا نستطيع مساعدتهم!».

قال نعيمي: «انتبهوا، من الممكن أن يهجموا علينا أيضًا!».

- أخبروا الشباب! كونوا على حذر.

قال علي: «إنّ السيّد مرتضى يستطيع التغلّب عليهم!».

- يتركّز الهجوم العراقيّ في القسم السفليّ!

استُهدِفت التلّة بقذائف الـ (106) وقذائف الدبابات العراقيّة

المستقـرّة في الوادي. أشار رحيم نعيمـي إلى القطع البلاستيكيّة حول دشمة الاتّصالات.

- إنّ دشمـة الاتّصـالات غير آمنـة! علينا إيجاد مـكان أفضل.. لا ينبغي أن نجتمع في مكان واحد.

نظـرًا لأنّ تلّة «بردزرد» لم تكن علـى الخطوط الأماميّة للجبهة فإنّ الدشـم قد صُنعت للوقاية من الحرّ والقـرّ فحسب. التفتّ ونظرتُ إلى «ناصـر» أحـد شبّان السريـة، وكان نائمًا قبالتي هـادئ البال رغم كلّ ذلك الضجيج والصخب والحرّ. ليتني أستطيع أن أنام بضع ساعات أنا أيضًا! أفسد تفكيري صوت جلجلـة مهولة لرصاص المضاد للطائرات. بينمـا أنا كذلك وإذ برصاصة مرّت قرب أذني، ودخلت مباشرة في فم ناصـر لتخرج من خلف رأسه على مرأى من عينيّ المذهولتين! فما كان من ناصر إلّا أن اهتزّ وأسلم روحه. كنت لم أزل تحت وقع صدمة شهادة ناصـر حين سقط الرصاص الخطّاط علـى الدشمة المطّاطيّة وجدران دشمة الاتّصالات النصفية، فاشتعلت الدشمة. خرجنا جميعًا، سالمين وجرحى، من الدشمة حبوًا علـى الأربع. كأنّ العدوّ كان يترصّد كلّ من يخرج ذعرًا من الدشمة فيطلق عليه النار من أسلحة الـ«سيمينوف».

- توخّوا الحيطة.. القنّاصة.. إنّها خطّة.. اخرجوا زحفًا.

خرجـتُ من الدشمـة فصاح علـي: إنّ «مهسيمـا» في الدشمة وقد أصيب برجله.. هو حيّ..

كانـت الدشمة المطّاطيّة تشتعل باللهب، فألقى نعيمي نفسه داخلها وأخـرج مهسيمـا الجريح مـن قلب اللهب. مـا إن ابتعدنـا قليلا حتى شـرع العدوّ يستهدف الأفراد بقذائف الـ(106)! علت من أسفل التلّة أصوات الاشتباكات وإطلاق النار. عندما رأيت أنّ العراقيّين لم يشنّوا هجومهم علـى تلّتنا، ثبّتُّ رشاش الغرينيـف داخل دشمة غير مكتملة

واقعـة على مقربة من سيارة الجيب. لحـق «عليّ» بي فتمدّد بحذائي. كان عدد من العراقيّين في السهل ينوون الالتفاف على القائد مرتضى وشبابـه مـن داخل حقـل القمح الذهبـي. نبّهني صوت نعيمـي: «أيّها المؤمن، تستطيع أن ترمي.. ليست المسافة بعيدة.. ارم..».

لم أكـن على يقـين بأنّ رصاصـ رشّاش الغرينيـفَ الثقيل سيصل إليهم. حشوتُ كبد الرشاش بشريط من الرصاص.

– علي، أرسل الشريط إلى الأمام!

رفـع السيّد علي طـرفي شريط الرشاشـ الطويـل. عضضتُ على ناجـذيّ ورحتُ أحصـد العراقيّين وحقل السنابـل في آن واحد. كانت الرصاصـات الفارغة الحاميـة تنهمر على أرضـ الدشمة بينما كنت أُشعـل القمـح والعراقيّين معًـا. أطلقتُ النـار إلى حدٍّ رأيـت احمرار سبطانة الرشّاش بـأمّ عيني، فخفت أن يذوب. بينما انشغلت بإطلاق النــار وإذ بانفجار مروّع يرميني علـى بطني بضعة أمتار. انقلبتُ على ظهـري وحدّقتُ حيث وقع الانفجار. كانت سيــارة الجيب التي وضعنا تحتها الجرحى الأربعة تشتعل بالنيران.

– يا إلهي، الجرحى!

هممتُ بالنهوض وإذ بغالـوني العشرين ليترًا تنفجران كالبراميل المتفجّرة، فسال البنزين الذي في جوفهما على الجرحى أسفل المركبة. كأنّنـي أنا الذي كنت أشتعل وأحترق. نهضتُ ووقفت على بعد خطوات من المركبة. كانت صراخات الجرحى في الحفرة تتعالى بشكل مؤلم في الهواء. اقتربـتُ أكثر لأرى التعبويّ الجريح الذي كنت قد ضمدتُ يده ونحره معًا يُشوى بلهب النيران. صحتُ: إلهي..

مضيتُ مذهولًا متكولًا غيرَ آبه بنيران مدفعيّة العدوّ، فجلستُ قرب إحدى الدشم. ضممتُ ركبتيّ بيديّ وأخذتُ أحدّق بعيدًا.

54

عنبر الجرحى

21/تموز/1983

في عتمة الليل كانت الفرصة مؤاتية لكي يفكّر أفراد الكتيبة، فرادى أو مجموعات، بأحداث اليومين الماضيين والمستقبل الغامض. كان الصمت والتفكير يزيداني اضطرابًا وقلقًا. لم يكن ثمّة أفضل من غفوة هادئة بعد يومين من المعارك الطاحنة! خرجت من دشمة الرشّاش الثقيل، وانحدرتُ برفقة علي خليلي ونعيمي من الحافّة (عنف) الغربيّة للتلّة نحو مرتضى.

دخلتُ حجرة (عنبر) الجرحى. كانت رائحة التعفّن قد ملأت أجواء الحجرة. تحت نور المصابيح قبع الجرحى المحمومون بأجسادهم المتورّمة جرّاء سوء التغذية وهم يشتكون من كلّ شيء.

- أعاني من نزيف.

- الألم يقتلني!

- متى سيأخذوننا من هنا؟

- لماذا لم يحضر أحد للمساعدة؟

- الماء.. الماء.. أسألك بالله يا عم..

- ليتني استشهدت!

- يا عم.. يا عم.. يا عم..

كان الجرحى ممدّدين على أرض الحجرة صفّين، بحيث لم يبقَ سوى معبر ضيّق في الوسط. تساءلتُ في نفسي: أين مرتضى؟!

وجدته بين الجرحى. اقتربت منه وقد وضع على ركبتيه شابًّا

جريحًـا من الحرس لم يكْسُ عظمـه سوى الجلد، ولم يُرَ من عينيه إلّا بياضهما! حدّقتُ في عينَي مرتضى. كأنّ بحرًا من الدموع كان مستترًا خلفهما إلّا أنّه لم يستطع أن يُخرج قطرة منها. أخذتُ أفكّر في مرتضى وشخصيّته: أيّ ضغط يتحمّله الآن! إنّه قائد كفوء وشفيق. ففي الوقت الـذي يتمتّع بكفاءة عالية في قيادة الكتيبـة فهو يعمل كالخادم؛ يجمع بطّانيّات الشباب بدعابة ومزاح، يضع غطاء السفرة، يغسل الصحون ويكنس الأرض.. فليحفظه الله. أشعر أنّنا جميعًا بحاجة إلى ابن القرية المحبّ والشجاع هذا. لقد أظهرت الحرب الاستعدادات الكامنة في مرتضى. لا أعلم ماذا سيكون مصيرنا إن حصل له مكروه! همستُ في أذنه: «هل أستطيع المساعدة؟».

وضـع رأس الجريـح الشاحب الوجـه -والذي لم يُعلـم إن كان قد استشهـد أو مـا زال على قيـد الحياة- على الأرض برويّة. عضّ على شفتـه ألمًا. نظـرتُ إلى ظهره، فإذ بمكان إصابتـه بشظيّة قنبلة يدويّة وقد التهب وانبجست منه دماء غضّة.

- يا عم.. جرحك.. سيقضي عليك! دعني أرى..

للمـرّة الأولى استسلـم لألم الجـرح الملتهـب. تقدّم رحيـم نعيمي وساعدنـاه علـى خلع كنزتـه الصوفيّة. انفصل الجلـد والدم والثياب الملتصقة بالجرح عن لحم جسده، وانبعث القيْح والدم الطريّ.

- آخ..

كانت المرّة الأولى والأخيرة التي سمعت فيها مرتضى يتأوّه! غسلت جرحه بالمطهّر والضماد. غطّينا جرحه وبدّلنا ثيابه. علا صوت جهاز (PRC) اللاسلكيّ الذي كان بإزائه: مرتضى مرتضى، علي..

تنـاول السمّاعـة وأجاب على علي نجفي بشفتيـه اليابستين: «علي

علي، مرتضى أرسل!».

– ما الأخبار يا مرتضى؟

تبسّم مرتضى وقال: «عزيزي علي، الوضع لمصلحتهم حاليًّا! ماذا عنكم..؟».

– على العكس منكم، الوضع لمصلحتنا!

– الشكر لله!

وضع جهاز اللاسلكيّ أرضًا. وفي ظلّ تلك الأجواء المريرة والكئيبة فاجأني صوته الهادئ والباعث للسكينة وهو يتلو القرآن.

﴿**إذا وقعت الواقعة** ۞ .. **إنّه لقرآن كريم** ۞ **في كتاب مكنون** ۞.﴾.

تمتمتُ لا إراديًّا: «حقًّا إنّ القرآن كتاب كريم ومسطور..». قلت في نفسي: لقد سهوتُ عن تلاوة سورة الواقعة لعدّة ليال! في نفس ذلك الوقت من الليل كنّا نتلو سورة الواقعة. يا لقلبي الغافل! سرتُ في حجرة الجرحى الكبيرة. في وسطها كان شاب نحيف وقصير قد بُترت إحدى يديه، يرتدي زيّ الحرس الأخضر، على صدره الشعار المخملي الأزرق، وهو يتلو سورة الواقعة بصوت جميل خافت. أمّا مرتضى الذي لم يعرف معنى التعب فنهض وأعدّ بعض الحليب، وجعل يصبّه في علبة فارغة ثمّ يدنيه من شفاه الجرحى فيسقيهم ويقبّل جباههم مواسيًا. لم يكن هناك أيّ دواء ولا ضماد لتضميد الجروح. عمد بعض المسعفين إلى تبديل ضماد الجروح بكوفيّات الجرحى والأصحّاء. تلازمت رائحة الدماء والتعفّن والعرق مع أصوات هذيان بعض الجرحى المحمومين جرّاء بتر أيديهم أو أرجلهم. في غضون الساعات القليلة الماضية استشهد اثنان متأثّرَين بجراحهما، وتمّ نقلهما إلى دشمة الشهداء.

55

مخيّم الأسرى

22 / تموز / 1983

– أهـذه صورة زوجتك.. أنا أيضًـا تزوّجت قبل شهر! بيد مخضّبة بالحنّاء..

أصابـت وجهـي رصاصة مباشرة. تلاشى قسـم من وجهي، كوجه جريحِ هجومٍ يوم أمس، لكنّي بقيت قائمًا أطلق النار!

– يداك مَخضَّبتان بالحنّاء أيضًـا.. هل يتخضّب العرب بالحنّاء؟ طفلك لطيف جـدًّا.. من أيّ مدينة أنت.. الموصـل.. ياه.. هل تتحدّث الفارسيّة؟

غطّت الدماء جميع أنحاء جسدي.

– إنّهـم ينقلـون الأسرى إلى مخيّمـات أصفهان وطهـران وشمال إيران، أسمعت؟

توقّف رشّاش الغرينيف الذي كان في يدي، فيما صعد عراقيّ ضخم الجثّة إلى أعلى التلّة، فوضع كلتا يديه حول رقبتي وجعل يخنقني.

– مخيّـم الأسرى.. طهران.. جرجان.. ادعوا لكي يصل الشباب.. لننجو وإيّاكم..

انقطعت أنفاسي، واسودّ كلّ شيء في عينيّ اسودادًا شديدًا! تقلّبتُ يمينًا وشمالًا أتخبّط بيديّ ورجليّ.

– داريوش!

فتحتُ عينيّ مرعوبًا لأجد «جمالي» عند رأسي.

– ماذا حصل يا داريوش.. هل كنت تحلم؟

أخذتُ بضـع أنفاس عميقة إلى أن أدركـتُ أنّي على تلّة «بردزرد». قلت: «لقد غفوتُ دون أن أشعر! منذ متى وأنا نائم؟».

أشار جمالي إلى رشاش الغرينيف الروسيّ في يدي.

– قبيل الفجر. لقد أطبقتَ جفنيك كالأموات وبيدك هذا الرشاش! لم يطاوعني قلبي أن أوقظك.

– لم أنم منذ يومين بليلتيهما!

عندمـا تذكّرتُ أنّ جميع أفراد الكتيبة لم تـرَ عيونهم النوم لثلاثة أيّام أطلقتُ ضحكة ساخرة ثمّ غيّرت مجرى الحديث.

– هل طلبني مرتضى.. ألم يصل أيّ خبر عن القوّات المساندة..

– لا يا داريوش!

– فليهلك داريوش! ماذا عليّ أن أفعل لكي تناديني بسلمان!

ضحـك جمالي. مجدّدًا سمعتُ الكلام الذي تناهى إلى سمعي بين النوم واليقظـة. أنزلتُ نظري بسرعة إلى أسفـل يدي، عندها عرفتُ أنّي كنـت أسمع حديـث علي خليلـي والأسرى العراقيّـين! كان خليلي قد أخرجهـم من الدشمة لكي يدخّنوا، وأخذ يتحـدّث معهم بالعربيّة المختلطة بالفارسيّة، ويتبادلون الصور. أطلق جمالي ضحكة.

– أترى كيف بات رفيقًا لهم!

– كيف يفهم لغتهم؟

– كان عليّ يخالط عرب «فسا»، ويتحدّث معهم بلغة مكسّرة!

ضحكتُ مطوّلًا وحرّكت رأسي.

– كنت أسمع حديثهم ودردشتهم أثناء نومي!

مع طلـوع الصباح البارد لليـوم الثالث وصل «مشـ موسى» برفقة

علـي حسيني وهما يحملان بسكويتًا وعلبة من الحليب المجفّف لفطور الأسـرى. قال جمالي: «لدينا نقص في المـاء! ماذا سيحصل برأيك يا داريو.. أقصد يا سلمان؟».

- اللّه كريم.. هلمّ نذهب إلى مرتضى.

انطلقـتُ وجمالي باتّجـاه أسفل التلّـة. خلال المسـير كانت الريح تعبث يمينًا وشمالًا بأغلفة قذائف الـ(B7) الخضراء، وأوراق الطلقات البنّية اليابسة.

وصلـتُ إلى حجـرة الجرحـى. وجدتُ علـي سبـزي و«ظريفكار»، وكان الأخـير رجلًا متوسّط السنّ من «كازرون»، ذا شعر أبيض وثياب ممزّقـة، وكانا ينـاولان الجرحى الحليـب والماء بجرعـة محددة. ما إن أنهيـا عملهما حتـى عمدا إلى جثّة، فأخرجاهـا من الحجرة وهما يترنّحان، ووضعاها تحت شجرة كبيرة، وغطّياها ببطّانية: أمِنَ الممكن أن تكون الجثة لذاك الجريح الذي كان رأسه في حجر مرتضى؟

سـار علي سبزي برجـل عرجاء مبتعدًا عن الجثّـة. أمّا ظريفكار، الكهل الكازروني، فجثا على ركبتيه بجانب الجثّة وتلا سورة الرحمن.

حين ابتعد ظريفـكار مضيتُ نحو أسفل الشجرة يدفعني الفضول. رفعـتُ البطّانيّـة العسكريّـة الرماديّـة عـن الجثّة، فوقـع نظري على العريـف عبد الكريم ستايشـ! كان رأسه متدلّيًـا إلى الأسفل من دون حـراك. وكان شاحب الوجه ينظـر إلى السماء. عندما تذكّرت حديث العريف مع بقيّة الضبّاط اشتعلت غضبًا!

مـع مـرور الوقت انبعثـت الروائـح الكريهـة من جـراح الجرحى والجثـث. عدتُ أدراجي برفقة جمالي بحثًـا عن مرتضى في كلّ مكان حتـى وجدته. كان جالسًا قرب شجـيرة خضراء يحدّق بنظرة جانبيّة

إلى أعمـاق مرتفع «قمطـرة» وكأنّه أراد أن يأتـي بالجبل بما عليه من عديد وعتاد إلى تلّة «بردزرد».

- السلام عليك يا عمّ!

التفـت إلينـا. كانت الشمس قـد أحرقت بشرة وجهـه فتقشّر، أمّا شفتاه فقـد يبستا. ما إن رآنا حتى تغيّرت ملامح وجهه القلِق والغارق بالفكـر إلى ابتسامـة مترافقة مع الهدوء. هممـتُ أن أسألَه عن جرح كتفه لكنّي لم أجرؤ على ذلك. قال: «عليك السلام يا سيّد سلمان».

ثـمّ تابع قائـلاً: «ليس لدينا أخبـار عن بديهي وسريتـه. حاول أن تتّصل به عبر اللاسلكيّ واستفسر عن أوضاعهم!

- أنا على اتّصال مع فضل الله نوذري!

56

محور المعركة

22/تموز/1983

ليس ثمّة ما أكره أكثر من قذيفة (هاون60). فهي تسقط قرب المرء بلا صافرة، ولا ينتبه إليها إلّا بعد أن يناله نصيب من شظاياها وعصف انفجارهـا. ما إن ملتُ بوجهي حتى حطّت قذيفة (هاون60) بيني وبين ميثـم، الفتى عامل إشارة السرية، في الطين مـا أدّى إلى شهادته! كما أصابت شظيّة عين «يدي» اليمنى وأخرى أصابت كتفي فجرحته!

لـفّ محمد رضا بديهـي كوفيّته حول عين «يـدي» التي خرجت من محجرها، وقال لي: «لقد حالفك الحظّ يا فضل الله نوذري!».

وضعتُ كوفيّتي على كتفي وعقدتها تحت إبطي. وضع بديهي جبهته على جبهتي.

- الأوضـاع وخيمة يـا نوذري، لم يبـقَ منّا سوى ثلاثـين أو أربعين شخصًا!

لقـد نطق بما يدور في خلـدي. لقد أدركتُ منذ صبـاح اليوم الأوّل للمعركـة بأنّنا وعلى الرغم من تمكننا مـن السيطرة على تلة «الفولي بول» بسهولة، إلّا أننا وقعنا في محاصرة العراقيّين. لقد سقط أكثر من نصـف سريتنـا، البالغ عدد عناصرها المئة، بـين شهيد وجريح جرّاء نيران مدفعيّة العدو الثقيلة وهجمات مغاويره المضادّة. لقد كان الحظّ حليفنـا حين قصف العراقيّون صباحًا مروحيّة لهم عن طريق الخطأ، فسقطت على الأرض وانفجرت أمام عيوننا. وهذا ما رفع من معنويّات أفـراد السرية. همس محمـد رضا بديهي في أذني قائـلًا: «إن سارت الأمـور على هذا المنـوال فسنفقد بقيّـة الشباب أيضًـا. اتّصل بالعمّ مرتضى!».

نزعتُ سمّاعة الجهاز اللاسلكي من يد ميثم المطبقة وناديتُ العمّ مرتضى عبر الجهاز. ناولتُ محمد رضا بديهي السمّاعة.

تناهى صوتُ مرتضى إلى سمعنا بوضوح وحرارة: «عافاكم اللّه أيّها المؤمنون.. هل تستطيعون الاحتفاظ بالتلّة؟».

- كلّا يا عمّ! سيأخذون التلّة عند الهجوم التالي!
- إذًا أخلوا التلّة والتحقوا بنا.. يا بديهي؟
- أسمعك يا عم مرتضى.
- لقد أرسل المقرّ مروحيّة لنا لتستطلع مكاننا، هل لديك أخبار عنها؟

سقطت سمّاعة اللاسلكي من يد محمد رضا بديهي، وظهرت قطرات من العرق البارد على وجهه، ثمّ جعل يحدّق بي. اعترانا الذهول. رفع بديهي السمّاعة وقال بصوت خافت: «لقد سقطت المروحيّة أمام أعيننا، لقد ظننّا أنّها عراقيّة!».

انقطع الاتّصال اللاسلكي ودوّى صوت الرصاص! كان إطلاق النار متقطّعًا في البداية، ما لبث أن صار بفواصل زمنيّة غير منتظمة، ترات..تا.. تات.. إلى أن غدا منظّمًا وسريعًا بشكل تدريجيّ. ألقيت نظرة على قمّة تلّة «بردزرد» حيث كانت طبقات رقيقة من الدخان الناتج عن نيران الأسلحة تزداد وتتكاثر.

سمعتُ صوت خفق طيران مروحيّ. بعدها عبرتْ ظلال واسعة متحرّكة تعود للمروحيّات تلّتنا مقتربة من تلّة «بردزرد». انقسمت المروحيّات إلى مجموعتين. أطلقت المجموعة الأولى صواريخ مستهدفة دُشم تلّة «بردزرد» وخنادقها، فيما أنزلت المجموعة الثانية المغاوير في منحدر التلّة بهدف تسلّقها. أخذ جنود العدوّ يتقدّمون صعودًا بمسافات قريبة وبكيفيّة مبهمة. اشتدّت وطأة المعركة أرضًا وجوًّا. في تلك اللحظة باتت تلّة «بردزرد» نقطة المحور في المعركة.

57

جيش الخميني

22/تموز/1983

صباح اليوم الثالث، كنت جالسًا القرفصاء على تلّة «بردزرد»، وقد أعياني التعب والجوع، برفقة علي حسيني. وإذ بصوت خفق المروحيّات يعلو!

- علي، هل تسمع؟
- أجل!
- لعلّها مروحيّات قوّاتنا؟
- ليسمع الله منك!

وفي لمح البصر اسودّت التلّة من ظلال المروحيّات العراقيّة!

- يا إمام الزمان!

وقبل أن ألملم نفسي تساقطت شتّى أنواع الرصاص والقنابل الخفيفة والثقيلة على التلّة. قصفوا كل شبر من أرض التلّة. وضع عليّ يديه حول رأسه حذرًا من الشظايا وعصف الانفجارات وقال: «يا لهم من أنذال! يريدون أن يُسَوّوا أرض التلّة!».

- استعدّوا لمواجهة الهجوم..

أخذ نعيمي وتشوبان يجولان بين العشرة أو العشرين شخصًا ممّن بقي، ويشجّعان العناصر المتعبين المنهكين على المقاومة. أخذت المروحيّات؛ الخضراء الداكنة اللون والمرقّطة كجلد الفهد؛ تتناوب على الدنوّ من التلّة وإطلاق الرصاص والصواريخ على رؤوسنا فردًا فردًا. قُصف كلّ شبر من تلّة «بردزرد» وأطرافها دفعة واحدة بشتّى أنواع الأسلحة. تناهت إلى سمعي أصواتٌ ضعيفة لعدد من الأشخاص

وهم يقرأون دعاء التوسّل.

– إن سارت الأمور على هذا المنوال فلن يبقى أحد منّا على قيد الحياة، ولن يكون ثمّة داعٍ لأن يشنّوا أيّ هجوم.

رسم علي حسيني بسمته المعهودة على وجهه الحنطيّ.

– هوِّن عليك يا سيّد حسين، اللّه كريم!

دوّى صوت «أبو القاسم تشوبان» في أذني.

– لقد توقّفت نيران المدفعيّة العراقيّة، اخرجوا من دشمكم وأطلقوا النّار من قمّة التلّة.

أمّا نعيمي فجعل يرتجز محاولاً رفع المعنويّات.

– يا جيش الخميني! عليكم أن تُحيّوا كربلاء وعاشوراء!

فنادى أحدهم: «لبيك يا خميني!».

قلت لعليّ: «أرأيت أنّي محقّ. يبدو أنّ عملنا، نحن الاثنين، قد شارف على الانتهاء على هذه الأرض! أسأل اللّه أن نكون في ذلك العالم معًا أيضًا!».

عندما هدأت نيران المدفعيّة العراقيّة إلى حدٍّ ما أخذ نعيمي يجول على الشباب فردًا فردًا.

– اخرجوا.. اخرجوا.. علينا أن نقف على قمّة التلّة وندافع عنها بشهامة ورجولة.

حملتُ رشّاش «الغرينيف»، وقفزت خارج الدشمة المفتوحة الواجهة برفقة عليّ، ووصلتُ إلى قمّة التلّة تحت نيران القذائف والقنابل من دون ستر واقٍ. كانت التلّة مملوءة بشجيرات خضراء تحجب عنا أعين القنّاصة العراقيّين. استرقتُ النظر من أعلى التلّة نحو الأسفل فرأيت

مشهد المعركة. لقد احتشدت جميع قوّات العدوّ! مدافع العراقيّين ودبّاباتهم في الوادي. القنّاصة ومدافع الهاون والجيبات مزوّدة بمدافع (106) على المرتفعات المحيطة، ومروحيّاتهم في السماء. ورأيت زيادة على كلّ ذلك القوّات العراقيّة المدجّجة بالسلاح، التي قد يفوق عددها الألف، وقد أخذت تتقدّم من طرق المضيق، حقل القمح، النهر و«حديقة موتورى» ، مضيّقة الخناق أكثر فأكثر حول تلة «بردزرد». عندئذ طار عقلي.

– فليرحمنا الله! قم وانظر من حولك!

– رجلٌ مقابل عدد من الرجال!

– إنني أفقد الأمل للمرّة الأولى!

– لقد انتهى أمرنا يا سيّد!

– يبدو أنّهم يريدون أن يحسموا الأمر!

– لا يطلقنّ أحد النار!

التفتُّ فرأيت سعيد حفّار، إسماعيل توكّلي، محمد إلهي، جليل حمامي وإبراهيم كاركر حضروا من قِبل القائد مرتضى لمساعدتنا. لقد أرسل مرتضى حتّى عامل الإشارة لديه. كان لرؤية هؤلاء الخمسة أثر في رفع معنويّاتي من جهة، لكنّه كان مدعاة للقلق من جهة أخرى، إذ كان نذيرًا صريحًا أنّ سهم هجوم العدوّ هذه المرّة قد سُدّد نحونا.

– انظر هناك يا حسين!

من جهة القرية كان عدد من المغاوير العراقيّين يتقدّمون تحت غطاء عدد كبير من الأبقار! جلس فتى تعبويّ خلف شجيرة وقد فتح مصحفًا صغيرًا وأخذ يتلو القرآن. أمّا كريم الأبرص فقد نوى على أخذ قراءة طالع للفتى.

صعد العراقيّون بسرعة حتى باتوا في مرمى نيراننا.

- أطلِقوا النار..

إلى الأسفل كان العراقيّون لا يزالون على مسافة منّا. صوّبتُ سبطانة الرشّاش الثقيل نحو البقرات البيضاء والسوداء وأطلقتُ النار. سقط عدد من الجنود والبقرات معًا على وجه الأرض. بينما أنا مشغول بحصد أرواحهم وإذ بعليّ يصيح:

- دع عنك أولئك، لقد وصل العراقيّون..

استجمعت قواي وصوّبتُ رشّاش الغرينيف نحو التلّة التي أُشرِف عليها، فيما انهالت نحوي قذائف الـ(B7)، قذائف الـ (106)، وقذائف رشّاش ثقيل في آن واحد. كلّما أصبتُ مغوارًا نبت مكانه ثلاثة! كنت ظمآن ومتعبًا. حلّقت المروحيّات مجدّدًا فوق التلّة وأطلقت النيران. التفتّ لأرى «حمامي» على يميني وقد وضع السمّاعة أمام فمه، ولاذ بحمى شجيرة خضراء وكأنّه لجأ إلى حصن منيع غير مكترث بالرصاص والشظايا! استطاع حمامي أن يتّصل بعاملي مدفعيّة قوّاتنا، ويعطيهم إحداثيّات عن مواقع العراقيّين تمامًا كمراقب خبير.

- مئتان إلى اليمين.. خمسون إلى الأمام..

كان يعطي الإحداثيّة بحماسة. فجأة مرّت رصاصة من جهتي ودخلت خدّ حمامي الأيمن لتخرج من الأيسر!

- آه.. يا مهدي..

كنت أنتظر أن يقع كقطعة حجر ويسلم روحه. غير أنّه وضع السمّاعة أرضًا بتؤدة، قام وألصق يديه على خدّيه، ثمّ دخل إحدى الدشم.

سألت عليًّا: «ماذا حدث؟ هل تراه شعر بالخوف..؟».

لم أزل مشغـول الذهن بحمامــي؛ طالب العلـوم الحوزويّة، وإذ به يظهر وقد لـفّ طرية وجهه برباط، ضاغطًا علـى جرحه بغية إيقاف النزيف. جلس خلف الشجيرة، رفع السمّاعة وواصل إعطاء الإحداثيّات ثانية! تعبّأتُ روحيًّا وأخذت أطلق النار بالرشّاش الثقيل. كان العدوّ قد اشتبك مع الشباب على التلّة الصغيرة، ودارت المواجهات رجلًا لرجل.

نظـرتُ إلى الأسفل حيث الجنود العراقيّون الذين باتوا على مقربة منّـا. توقّف الرشّاش الثقيل عن العمـل جرّاء شدّة الحـرارة وكثافة إطلاق النار. قلت: «سيّد، هذه المرّة لن تَسلم الجرّة!».

ألقيتُ نظرة على ساعة اليـد العراقيّة حول معصمي، والتي ملأت صفحتهـا صورة ملوّنة لصـدّام وعليه الزيّ العسكـريّ، وهو يرفع يده اليمنى إلى الأعلى ضاحكًا.

- لعنك اللّه! ما الذي فعلته؟

خلعـتُ الساعة من معصمي وطفقت أدوس عليها بقدمي بقوّة. كما خلعتُ المعطف الذي كنت قد غنمته ورميتهما إلى أسفل التلّة.

- ماذا تفعل يا حسين؟

أخرجتُ المسدّس الذي غنمته من حزام الرصاص خاصّتي، ورميته إلى أقصى ما أمكنني.

- هل جُننت يا حسين؟

- كلا يـا علي، ولكن إن وقعنا في الأسر ورأوا هذه الأشياء بحوزتنا فسيقولـون إننا قتلنـا صاحبها، حينهـا سيعدموننا رميًـا بالرصاص مباشرة!

- لست ظريفًا! هل استسلمت بهذه السهولة؟

تبسّمتُ بمرارة.

– لم أستسلم! وهل هذا وقت استسلام يا رجل! أنت تعرفني جيّدًا. لو تطلّب الأمر أن أبذل مئة روح في سبيل الإسلام فلن أتوانى عن ذلك!

– حسين، العراقيّون يكادون يصلون إلينا كالجراد!

– سبق أن قلتُ لك. الأمر مختلف هذه المرّة!

أيقظني من ذهولي صوت محسن بيرامون.

– تعالوا إلى هنا. يكاد العراقيّون يصلون إلى التلّة.

نهضت من مكاني كالبرق ومضيتُ إلى حيث نعيمي، إلهي، محسن بيرامون وسعيد حفار. لم يبقَ على التلّة أحد سالمًا سوانا وشخصين أو أكثر. سألت: «إلى أين؟».

كان كريم الأبرص قد رشّ الأرض والهواء برصاص رشاش كلاشنكوف، ولم أعلم ماذا فعل بالبلبل البنّي؟ أشار حسن إلى الأسفل؛ جنود المغاوير اقوياء البنية يصعدون التلّة كالدرّاجات النّاريّة. صاح محمد إلهي: «علينا أن نفعل شيئًا!».

فقال محسن: «ماذا لديك؟». أجاب محمد إلهي هاتفًا: «رمّانات!».

– أعطِنيها!

نزع محمد إلهي الرمّانات المعلّقة بحزام الرصاص خاصّته وناولها لمحسن بيرامون. أمّا نحن فوقفنا حائرين ماذا نفعل مع هذا العدد الهائل من المغاوير الذين باتوا قاب قوسين أو أدنى من السيطرة على التلّة! رمى محسن بضع رمّانات، لكنّها لم تكن ذات تأثير كبير، فاستعددنا للاستسلام، وإذ بمحسن ورحيم يقولان: «لا ينبغي أن تصل أيديهم إلينا!».

صعد الجنود من نقاط عدّة من التلّة، وسرعان ما سيطروا على أوّل نقطة فيها، ولو لم ننسحب لقُتلنا. قال نعيمي: «نحو التلّة الصغيرة..».

أمّـا حمامي فكان مـا يزال خلف الشجيرة يعطـي الإحداثيّات إلى المدفعيّة غير مكترث. سحبتُ يد علي حسيني قائلًا: «من هذه الناحية يا علي!».

ثمّ انحدرنا برفقة عدّة أشخاص من التلّة المرتفعة نحو الأسفل. لم نكد نبتعد كثيرًا حتى ظهر مرتضى أمامنا.

- إلى أين؟! ماذا حدث؟

أجاب نعيمي: «يا عم، لقد سقطت التلّة!».

علـى الفـور نادى مرتضـى بضعة أشخاصـ من أسفـل التلّة فبِتنا عشرة، ثـم صاح: «إن لم نستعد القمّة فسيكـون مصيرنا إمّا القتل أو الأسر. هلمّوا خلفي.. يا حسين..!».

لا أعلـم سرّ إيمان مرتضى وتوكّله اللذين ضخّهما فينا حتّى أخذنا نعـدو خلفه من دون اختيار منا نحو قمّـة التلّة. اعترتني الدهشة لأوّل شـيء واجهته! كان أبو القاسم تشوبـان يتعارك مع جنديّ عراقيّ وقد أخـذا يتبادلان اللكمات. كبّر العمّ فكبّرنا بعده. ثمّ حملنا على الجنود بقـوّة وصلابـة بحيث ظنّوا أنّ كتيبة جديدة قـد هجمت عليهم، فأخذ المغاوير يصيحون بهلع: «جيش الخميني.. جيش الخميني..!».

نشبت معركة فرد لفرد، وحيـث لم يمكن استخدام الأسلحة أخذنا نتبـادل الضرب بأعقاب البنادق واللكمـات والرّفس. كنّا ندفع الجنود فنسقطهم إلى الأسفل. في غضون بضع دقائق دحرنا الجنود من أعلى التلّة، واستعدنا السيطرة على القمّة مجددًا. وبينما أنا أتنفّس الصعداء وإذ بي أسمع صوت رصاص رشّاش ثقيل تلاه صوت محمد إلهي.

- آخ يا إلهي، لقد فقدت بصري!

58

زيبايي عالم

22/تموز/1983

عند الحادية عشرة قبيل الظهر تمّ صدّ أصعب هجمة عراقيّة مضادّة خلال الأيام الماضيّة، واستعادت التلّة هدوءها ثانية. وضع جليل حمامي جهاز «PRC» اللاسلكيّ أرضًا، وقال لي بصوت غير طبيعي وفم مطبق: «داريوش، ألديك شيء آكله؟».

أدركتُ من طريقة كلامه واضطراب عضلات وجهه بأنّ الرصاصة قد أضرّت بفمه وأسنانه وأنّ فكّيه قد أُقفلا. قلت له: «إن صنعت لك الحليب فهل تستطيع أن تشربه؟».

– لا أظنّ ذلك. لقد أُقفل فكّاي منذ مدّة.

قال سعيد حفار: «اسمحوا لي!».

وضع يده في جيب سرواله الملطّخ بالدم وجعل يبحث حتى وجد قلم حبر من نوع «بيك». تبسّم وقال: «الحمد للّه!».

قال حمامي بفمه المقفل: «لقد كتبتُ وصيّتي!».

أمّا سعيد حفّار فأخرج لبّ القلم من أنبوبه ونزع سدّادته السفلى، ثم أشار إلى أنبوب القلم الفارغ.

– من يصنع الحليب؟

بادرتُ إلى العمل فورًا، فصببتُ بعض الماء في صفيحة رصاصة خالية ومزجتُه بالحليب.

– هو ذا الحليب!

نادى سعيد: «اقترب يا جليل! ساعِدنا أنت أيضًا يا داريوش!».

وضع سعيد رأس حمامي في حجره مداعبًا وممازحًا، فأدخل أنبوب القلم الفارغ إلى حلقه من بين أسنانه المطبقة، ثمّ جعل يصبّ الحليب بدقّة في فم حمامي بواسطة الأنبوب.

- يا لها من فكرة!!

نهضتُ وانحدرتُ نحو التلّة الصغرى لأرى مرتضى. خلال الطريق جذب انتباهي صوت رقيق.

- لن أدخل حجرة الجرحى يا أخي!

- هذا غير ممكن يا صبيّ! إنّها أوامر العمّ مرتضى!

- وهل المسألة بالقوّة! لا أريد أن أدخل..

- يا صبيّ، قال العمّ: على كلّ من أصيب بجروح أن يجلس مع الجرحى!

- أنتَ هو الصبيّ!

كان ذلك جدالًا دائرًا بين مسعفٍ لجوج و«حبيب زيبايي عالم»، فتى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرةً من العمر كان قد أصيب بجروح.

- أسألك بالله أن تدخل إلى حجرة الجرحى.. ألقِ نظرة على رجلك..

- لن أدخل، إن كنت محقًّا فلمَ لا تدخل أنت، وقد جُرحت رجلك أيضًا..

- إنّ جرحي مختلف يا صبي!

- ها قد أعادها ثانية.

أراد المسعف العنيد أن يأخذ الفتى سحبًا، غير أنّ حبيب وضع يده

على سلاحه.

- إن وضعت يدك عليّ فسيصبح دمك في رقبتك!

- عجبًا! هل أثّر عليك عصف الانفجار..

تقدّمت منهما متدخّلًا: «ما الأمر؟!».

- اسأل هذا الصبيّ الأرعن!

اقتربت من الفتى الذي لم ينبت شاربه بعد. كان جالسًا على الأرض وقد علت وجهه قطرات صغيرة من العرق. قلت له: «يا سيّد حبيب، لمَ لا تجلس مع الجرحى؟».

فأطبق الفتى جفنيه بلا اختيار.

- انظر.

وأشار إلى رجله اليسرى النحيفة. كان عظم ساقه مهشّمًا، وقد ربط ما تحت ركبته بعصبة حمراء. بدت ساقه كشجرة لم تُروَ بالماء لسنوات، إذ لم يصلها الدم فباتت جاهزة للبتر. أشار إلى رجله النحيفة.

- يا أخ داريوش، إنّ هذه الرجل منذورة لمولانا أبي الفضل عليه السلام. إن لم أكن لائقًا بالشهادة وكُتب لي البقاء على قيد الحياة فينبغي قطعها. كما إنّ نزيف الجرح قد انقطع.

ثمّ رفع يديه وهزّهما بقوّة.

- لكنّ يديّ سالمتان وأستطيع القتال بهما! أستطيع أن أجلس في مكان ثابت وأحارب ببندقيّة كلاشنكوف وبالرشاش الثقيل! إنّ السيّد مرتضى بحاجة إلى العناصر الآن! لا أريد أن أذهب في ظلّ هذا الوضع إلى دشمة الجرحى وأنتظر الموت! لكنّ هذا لا يكفّ عن لجاجه ويجبرني على دخول الدشمة ..

علّقت نظري ثانية علــى رجله اليابسة المهشّمة. كانت عظمة ساقه قد طحنت وبدا كاحله وقدمه معلّقين بالجلد! قلت له: «أيّها المؤمن، إنّ قدمك معلّقة بقطعة من الجلد!».

فتبسّــم وغمــزني قائــلاً: «والله إنّني علــى ما يــرام! كان عليّ نذر فأدّيته!».

بعــد ذلــك فتح الكوفيّــة الملفوفة حــول عنقه، ووضعهــا على ساقه محاولاً محو موضوع رجله من أذهاننا.

- تفضّل، هل هذا جيّد يا أخي؟

خنقتنــي الغصّة. حين رأى تردّدي عطّــر كلامه بقليل من التوسّل: «انظر يا أخي.. قتالي يعني بقائي على قيد الحياة!».

غمزني ثانية مشيرًا إلى يديه.

- سبق أن قلت لك، كلتا يديّ سالمتان ومستعدّتان للقتال!

التفــتّ محدّقًا بالمسعــف اللجوج فإذ به وقد غطّــت الدموع وجهه، وبــدا أنّــه استسلم قبلي. أشــرتُ إليــه أن: اذهب، سأعالــج الأمر مع حبيب.

فتقدّم المسعف من حبيب وقبّل وجهه.

- هل نفّذتَ ما في رأسك؟ حسنًا، انتبه لنفسك على الأقلّ!

انفرجــت أسارير حبيب كالزّهرة المتفتّحــة! أمّا أنا فرددتُ الغصّة في حلقي وتبسّمتُ.

- ماذا أفعل بك الآن؟

ظلّلــتُ وجهي بيدي وجعلتُ أجيل طرْفي باحثًا في أعلى تلّة «بردزرد» وأسفلهــا. بين الجهــة الشماليّة والغربيّة للتلّة وقــع نظري على سقيفة

خضـراء وُضع في داخلها أكياسـ من الرمل. كانـت السقيفة الخالية ممتـازة للحراسة ولمراقبة تلـك النقطة من التلّـة، والتي تعتبر نقطة ضعف فيها. أشرت إلى السقيفة.

- هـل تستطيع أن تستقرّ في تلك الدشمـة الخضراء، فتطلق النار على رؤوس جنود العدو لدى رؤيتهم؟

- في خدمتك يا أخي!

كان ضعيفًـا وخفيفًا. حملته على ظهـري، ثمّ وضعته بحيطة داخل الدشمة المظلّلة. بدا ذلك المـكان كأنّه مقرّ استراحة العراقيّين! كانت السقيفـة مطلّـة علـى العراقيّين. قلت لـه: «كن على حـذر، فإن صعد العراقيّون فأطلِق النار عليهم وأطلِعنا على الأمر!».

- على عينـي يا أخ داريوش!

- اسمع يا أخ حبيب، نادني بسلمان!

- على عينـي يا سيّد داريـ ..

فسكت وتبسّم.

- سيّد سلمان.

ثـمّ أحضـرت رشاشـ الغرينيـف مـع الكثير مـن الذخـيرة التي غنمناها، ووضعتها بقربه قائلًا: «سأطلب من أحدهم أن يأتي ويضمّد جرح رِجلك!».

انطلقتُ نحو مرتضى، فيما هبّت ريح بعثت النقاء في أجواء التلّة.

59

طلوع القمر

22/تموز/1983

تررررق..ترترترق..ترق..

كانـت أصوات إطلاق النار تخـفّ تارة وتشتدّ أخـرى، ما تلبث أن تضعف كصوت تنفّس الإنسان!

عنـد الظهـر حملت علبة الحليـب المجفّف وقصـدتُ حبيبًا. كانت القذائـف والقنابل تتساقـط على التلّة. وصلتُ بحيطـة إلى السقيفة. كان رأس حبيـب قد ظهر من بين أكياس الرمـل، فيما أخذ ينظر إلى المضيـق أسفل منه. بين الفينة والأخـرى كان يأخذ قلمًا وورقة ويكتب شيئًـا! وضع الورقة أرضًا وأخذ يهمس: «انهضوا أيّها المحظوظون، إنّه وقت طلوع القمر!».

- لقد أصبحتَ شاعرًا أيضًا أيّها المؤمن!

غدا لون وجهه أكثر بياضًا جرّاء الضعف والنزيف، لكنّه كان باسم الثغر. جلست بقربه. كانت أطراف الدشمة مليئة بالأعشاب الخضراء التي يصل طولها حتى الصدر.

- إنّه مكان جميل، أليس كذلك؟ من المؤسف أنّي محاصر!

سكبت الحليب المجفّف في مطرة الماء، مزجت الخليط ثمّ قدّمته له مع البسكويت: «تفضّل!».

أخذها وانشغل بالأكل. استرقتُ النظر إلى رجله المهشّمة، وكان قد نزع الكوفيّة عنهـا. كان العظم قد التهب فتجمّع الذباب عليه. سألته: «ماذا كنت تكتب؟».

- وصيّتي.. ليست وصيّـة، بل طلب المسامحة من أمّي وأبي! لم أكن

ولـدًا صالحًـا. لقد آذيتهمـا. في آخـر مأموريّة توسّلت أمّـي إليّ أن: لا تذهـب! لقد سقط الجهاد عنك برجلك هـذه. وعندما أصررتُ قالت: «ابـقَ معنا بضعة أيّـام أخريات على الأقلّ ثمّ اذهـب!». لكنّ غيرتي لم تسمح فذهبت. في هذه الأيّام سنحت لي الفرصة بأن أفكّر بأمّي كثيرًا..

ثمّ أشار إلى رجله.

– إنّ رجلي هذه لن تعود كما كانت أبدًا! إن كتب لي النجاة فسأعانق أبويّ وأقبّلهما.. وإن أصابني مكروه فأوصِل هذه إليهما!

أدنا الوصيّة منّي. قلت: «احتفظ بها، ستعود إن شاء الله ولن يكون ثمّة حاجة للوصيّة».

ثمّ أشرت إلى الأعشاب الخضراء الطويلة من حولنا.

– هل تستمتع بوقتك؟ أعشاب خضراء، جبل ووادٍ، عين ماء ورشاش ثقيل بين يديك للاصطياد!

أخذتُ أستفزّه برهة، وتبادلنا المزاح والضحك.

– عليّ أن أذهب إلى أعلى التلّة وأتفقّد الشباب، هل يلزمك شيء؟

– لا!

فضحـك. أمّـا أنـا فانطلقتُ نحـو قمّة تلّـة «بردزرد» حيـث أطبق الشبـاب بنيران الرشّاش الثقيل على المضيق والـوادي. لم أكد أبتعد أكثر من مئـة خطوة حتى دوّى صوت انفجار مروّع لمدفعيّة دبّابة زلزل الأرض تحـت قدمَـيّ. التفـت كاللولب ونظـرتُ إلى الخلـف. كانت السقيفة تحترق بلهيب النّار فيما بقي بعض أجزائها معلّقًا في الهواء!

– حبيب..

ركضـت نحو السقيفـة. كانت ألسنـة اللهب وانفجـارات الذخيرة المغنومـة داخـل الدّشمة تفـور إلى الخـارج، ما حـال دون تمكّني من

الاقتراب. تمدّدت أنتظر ريثما تخفّ الانفجارات والنيران. حين هدأ الانفجار قصدتُ السقيفة التي لم يبقَ منها شيء. جلت بنظري في ألسنة اللهب التي أخذت تخبو فلم أجد أثرًا للفتى حبيب، وكأنّه ذاب بين النار وانفجار الذخيرة! أخذتني الحيرة والارتباك: لم يُصَب بمكروه.. لقد خرج من الدشمة في هذه الدقائق.. من المفترض أن يبقى له أثر على الأقل.. إنّه بخير.. سيظهر في الحال..

حاولت أن أواسي نفسي بأنّ حبيبًا خرج من الدشمة قبل وقوع الانفجار. مرّت حادثة شجاره مع المسعف أمام عينيّ. كأنّي كنت على معرفة به بل وبوالديه لسنوات! عبثًا حاولت أن أجد أثرًا له بين ألسنة النار بعد أن هدأت. صعدت التلّة مهمومًا كئيبًا، وبعد أن تفقّدت العناصر المستقرّين في الأعلى عدتُ إلى مرتضى.

60

الحافّة الغربيّة

22/تموز/1983

عنـد السـاعـة الثانية بعـد الظّهر أخـذت المروحيّـات العراقيّة في منطقة «حاج عمـران» تحلّق ناقلة العتاد العسكريّ إلى الخطّ الأماميّ للعراقيّين بشكل متواصل. حدّقتُ في وجه مرتضى الأغبر وقلت: «إنّهم يرسلون الدعم إلى قوّاتهم!».

- سلمان، لقد بِتنا شوكة في حلقهم!

- أصبح الوضع حصارًا داخل حصار!

تواصل سقوط شتّى أنواع القذائف على التلّة، حيث أخذت الدبابات والمدفعيّات من عيـار (106) وأخرى بعيدة المدى تقصفنا، فضلًا عن القصف المروحيّ من الجوّ، حتى بِتنا منهكين خائري القوى.

تسلّـق أفـراد المغاويـر العراقيّون بجـرأة التلّةَ الأخفـض من تلال «بـردزرد» سعيًا منهـم لاحتلالها. فاستطاعوا التقـدّم من جهة النهر بلا خوف حتى أصبحـوا على مقربة من التلّة الصغيرة، حيث اندلعت اشتباكات فردًا لفرد.

- النّجدة!!

تناهـى إلى سمعي صـوت «جمالي». كان جنـديّ عراقيّ جسيم قد أمسـك سبطانة بندقّيّتـه محاولًا رميـه إلى الأسفل. لم يُجـدِ إطلاقُ «جمالي» النارَ نفعًا، ولم تخـترق رصاصاته سوى عنان السماء. تسلّق الجنديّ العراقيّ المرتفَع مستعينًـا ببندقيّة جمالي. صحتُ به: «اترك البندقيّة!».

كنت على مسافة بعيدة منـه. استجمع الجنديّ العراقيّ قواه وقفز

نحو «جمــالي» وأصبح فوقــه، فأمسك بإحدى يديــه سبطانة بندقيّته وأخــرج بالأخــرى خنجرًا مــن حزامه. كــدت أقرأ الفاتحــة على روح «جمــالي» النحيف الجســم، وإذ بإسماعيل كاركر يخــرج كالرّعد من دشمة جمالي، فضرب بكلتا يديه على بطن المغوار العراقيّ الذي اختلّ توازنه، فسقط من أعلى المرتفع إلى الأسفل!

حملــتُ الرشّاش الثقيــل، وكان من نوع «غرينيــف»، وطفقت أطلق النــار على القــوّات العراقيّــة. ما إن رفعــت إصبعي عــن الزناد حتى سمعتُ صوت مرتضى يناديني: «سلمان!».

التفتُّ نحوه.

- لقد سقطت الحافّة الغربيّة للتلّة!

سألت: « حيث منصّة المضاد الرباعي (23 ملم) ؟».

فهزّ رأسه.

- أجل!

دبّ الاضطــراب والحيرة في نفسي. لم يكد يتــمّ كلامه حتى وصل «حجة الله آذربيكان» وهو يتوكّأ على بندقيّته برفقة عدد من التعبويّين، وقال: «أنا خجل منك يا عمّ، كانت المقاومة غير ممكنة!».

قال مرتضى: «علينا استعادة التلّة!».

فقال آذربيكان: «كيف ذلك؟».

لم يكن مرتضى ليتعب. ربّتَ على كتفي.

- اجمع كلّ ما لدينا من قوّات والتحقوا بي!

ثمّ نادى أحد التعبويّين: «يا هذا.. إن كنت لا تهاب شيئًا فهلمّ معي!».

- كلّا يا عمّ مرتضى.. قل لي ماذا أفعل فحسب؟!

- ليس عليك سوى أن تحضر قذائف الـ (B7) وتبقى بقربي!

خلـع مرتضى نعليه بلمح البصر. حمـل قاذف (B7) ومضى قُدمًا. جمعتُ العناصـر، وكانوا خمسـة أشخاص، فيما بقي عـدد ممّن لزم بقاؤهـم، ومضينا خلف مرتضـى. انضمّ إلينا أثنـاء الطريق سبعة أو ثمانية أشخاص من أبناء «شيراز». كان مرتضى يسير وعلى كتفه قاذف الـ(B7) وقد بدا كأنّه يريد استعادة الحافّة الغربيّة من التلّة بمفرده.

استغـرق الأمر عشر دقائق حتى وصلنا إلى الجهة الغربية، وهناك اشتبكنـا مع العراقيّين. أخذ مرتضى يتقـدّم ببسالة، فيأخذ القذائف مـن مساعـده ويضعها داخـل القاذف ثـمّ يطلقها باتّجاه العـدو. أمّا المساعد فقد كان يسير قربه حذو النّعل بالنّعل لكي لا يتأخّر عنه. هذا ولم يقـف الآخرون مكتوفي الأيـدي بل شرعوا يتقدّمـون وهم يطلقون النار بكل ما لديهم من أسلحة وعتاد. أمّا العراقيّون المأخوذون بنشوة احتـلال السّفح، فقد بُغتـوا ولاذوا بالفرار بعد أن قُتل عدد منهم. وفي غضون نصف ساعة تمّ تحرير الحافّة الغربيّة حيث سقط لنا شهيدان. وباستعادتنـا السفـح الغربيّ خسر العدوّ آخر هجماتـه المضادّة، فيما بقيـتُ وخمسـة وعشـرون عنصـرًا سالمـين، بالإضافـة إلى عدد من الجرحى الذين كان عددهم يزداد مع كلّ هجمة.

حملنا الجرحـى، بمساعدة مرتضى، إلى داخـل الدشمة الخاصّة بهم. وهناك ارتفع صوت أحد الجرحى وكان متوسّط السنّ.

- أنجدوني أيّها المسلمون.. إنّي أشتعل، يا إلهي!

أراد مرتضى أن يذهب نحوه فمنعتُه.

- يا عمّ، اسمح لي أن أذهب إليه بنفسي؛ لأرى ماذا يريد!

اقتربتُ منه. كانت كلتا يديه قد بُترتا من المرفق، كما التهب جرحه

بشدّة! جلستُ بقربه. حاولتُ أن أبتلع ريقي لكنني لم أستطع!

- هل يلزمك شيء يا أخي؟

كانت أسنانه تصطكّ بعضها ببعض من شدّة الألم. كان مضطربًا ومشوّش الذهن من أثر الحمّى. أخذ يرتجف ثمّ خرّ بوجهه إلى الأرض وهو يقول بنحو متقطّع وصوت غير واضح: «أنقق..ذذ..وني!».

- إن شاء الله ستصل قوّاتنا وينقذوننا جميعًا.

- لا، والله لا أستت..تطيع! أنجدوني!

- كيف؟

- بالمررر وحييّة، بالططائرة، لا أعلم بأيّ شيء.

- إنّنا محاصَرون، لا يمكن حتى لطائر أن يحطّ هنا!

أخذ يتلوّى من شدّة الألم ثم صاح صيحة تفطّر القلوب: «خلّصوني، لا أستطيع أن أتحمّل! يداي! هل من حقنة أو مسكّن.. اقتلللوني!».

تركَت الجلبةُ التي أحدثها أثرًا سيّئًا على الآخرين. فقال جريح آخر: «أخرِجوا هذا من هنا، نكاد نُجنّ منه!».

أشرتُ إلى «علي سبزي» الذي كان وجهه قد انتفخ واصفرّ.

- خذوه إلى الخارج!

وضع عليٌّ الجريحَ ذا الوضع الحرج على نقّالة بمساعدة مسعف ممزّق الثياب، وأخرجاه من الدّشمة. خرجتُ وجلستُ بقربه ثانية وأخذتُ أحدّق في وجهه. كان بعمر والدي. علت جبهته قطرات صغيرة من العرق، وابيضّ وجهه جرّاء نزف الدّم. قال لي: «إنني سس.. سأموت.. وددتُ لو أرى زوجتي وأولادي مرّة أخرى.. ولو بدون يدين ورجلين! سس.. ساعدني».

اشتعـل داخلي وصرتُ أتصبّب عرقًا. أدركتُ ما يشعر به مرتضى. لم يبقَ حتى قطعة ثياب بالية أو كوفيّة لأغيّر ضماد جرحه. حاولتُ أن أسكّن آلامه بكلامـي. نظرتُ إلى شفتيه المطبقتين والمتشقّقتين وقلت: «أنا خجل منك.. آجرك الله! أعلمُ بما تعانيه من آلام!».

– لل ..لا، إنّك لا تعلم كك..كَم أعاني.

ثـمّ حدّق في يديه المبتورتـين كأنّه لا يصدّق ما حـلّ بهما. قلت له: «الحقّ معك!».

أضنـاه الألم والأنين شيئًا فشيئًا، وخفتَ صوته. جلستُ عند رجليه أقـرأ الدعـاء له. لم أجرؤ علـى النظر في وجهه. أحسسـتُ أنّ كلامي قـد هدّأ مـن روعه. فجـأة ضـرب بقدمه علـى ظهري! التفـتُّ نحوه ونظرت إليه. كان لون وجهه قد دكن وراح يتنفّس بصعوبة. كان يشعر بالاختنـاق. بدا كأنّه يريد شيئًا لكنّـه لم يستطع أن ينطق به. أسرعتُ إليه واضعًا يدي تحت رأسه.

– هل تريد شيئًا؟

جعـل يحـرّك يديـه ورجليـه كالطـير المذبـوح، ونطـق بصعوبة: «ماااء..».

كنت أعلم أنّ الماء مضرّ لجروحه كما السمّ، لكنني أردت أن أخفّف من عذابـه وآلامه. وضعته علـى الأرض برويّة، والتفـتُّ نحو مرتضى الـذي كان ينظـر إلينا ساكتًـا طوال الوقت. قلت له: «يـا عمّ، إنّ ذاك الجريح يريد الماء!».

فقال، وقد خنقته الغصّة: «اسقِه، إنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة!».

حملـتُ مطـرة المـاء، وأسرعت إليـه كالبرق. وضعـت المطرة على شفتيه، فشرب جرعة فيما بقي نظره معلّقًا بالسماء!

61

المحظوظون

22/تموز/1983

انهضوا أيّها المحظوظون..

عنـد الرابعة عصرًا كنتُ أنظر إلى «خليلي» وأنا أردّد أبيات الشعر التـي كتبها حبيـب في وصيّته: «إنّه وقت طلوع القمـر..». ليتني أخذتُ وصيّتـه.. لعلّه ما يزال حيًّا. فلأذهـب إلى دشمته وأبحث عنه بدقّة.. هممـتُ بالنهوض والذهـاب إلى الدّشمة المظلّلـة وإذ بـ«سالار» حضر وقال: «هل لديك قطعة من القماش الأبيض؟».

حدّقتُ في وجهه الذي علاه الدّخان والتراب، وفي عينيه الحمراوين المتورّمتين. ظننتُ أنّه قد أصيب بعصف انفجار.

- قطعة قماش بيضاء.. لماذا؟!

- ألديك أم لا؟

أشـرتُ إلى صدري قائلًا: «قميصي الداخليّ أبيض..ماذا تريد أن تصنع به؟».

- أسلّم نفسي!

- تسلّم نفسك.. هل جُننت؟!

- سيّد داريوش.. أريد أن أذهب وألقي نفسي في التهلكة!

كان وضعه الجسديّ والروحيّ أسوأ حالًا منّي. بدا منهكًا وعطشان وكاد جفناه أن يطبقا. قلت له: «إلى أين تنوي الذهاب؟!».

- إلى أيّ مكان ممكن.. سأكتشف طريقًا ما.

- إن علِمَ العمّ فسيحرقك!

– من الواضح أنّك لا تعرف العمّ يا سيّد داريوش! إنّه لا يستاء بتاتًا ولو تركه جميعنا. إنّ روحه كالبحر..

– ستصل المساعدة..

– في ظلّ هذه الأوضاع، هل تصدّق هذا؟ لا أريد أن أجلس بانتظار الموت!

– ليس ثمّة سبيل للهرب!

– سأذهب عبر الجبل، وسأجد طريقًا ما!

أريتـه كفّي قائلًا: «إنّني أعرف المنطقة كراحة يدي. إنّك ستقتل أو ستقع في الأسر!».

– أفضل من البقاء والمعاناة!

– في هذه الحال سنستشهد معًا!

اغرورقت عيناه بالدموع.

– معـذرة.. أشعـر بالاضطـراب. لا تظـنّ أنّي خائـف .. إننـي مضطرب..

قبّلت جبينه قائلًا: «لو شككتُ بشجاعتي فإنّي لن أشكّ بشجاعتك!».

– داريوش، أيّ الطرق هي الأوفر حظًّا بالنّسبة لي؟ لا تدري، لعلّي أوفّق للوصول إلى إيران!

أشرت بإصبعي إلى حديقة «موتوري» العراقيّة.

– فرصتك الوحيدة هي حديقة «موتوري»، إن عبرت بجانب «حديقة موتورى» فإنّك ربما ستصل إلى محور «تمرتشين!». لكنّ نسبة نجاحك لا تساوي حتى الواحد بالألف! عليك أوّلًا أن تعبر من جهة النّهر.

تقـدّم منّي. حـدّق بعينيه المرتجفتـين في عينيّ، ثـمّ ألصق جسمه

المنهك والخائر القوى بجسمي.

– قل للعمّ بأن يسامحني. لم أكن جنديًّا صالحًا.

أحسستُ بارتعاش كتفيه. كرّرت له مقولته: «إنّك محقّ، لو ترك جميعنا مرتضى وحده، فإنّه سيرى نفسه مذنبًا ومقصّرًا.. إنّه يعلم أنّ أوضاع الجميع شديدة الحرج!».

اشتدّت رعشات كتفيه. مضى نحو علي خليلي فعانقه. قال علي: «انتبه لنفسك!».

وضع بندقيّته على كتفه بإحكام ونزل منحدَر التلّة بلا خوف. هتفت: «بالتّوفيق!».

فاستدار بصعوبة، ونظر إلى الخلف. قلت: «لن أذكر شيئًا عن ذهابك للعمّ مرتضى!».

فهزّ رأسه ثمّ انحدر متعثّرًا نحو الغابة، بل إلى وادٍ سحيق مليءٍ بالأخطار! صحتُ ممازحًا، ولعلّي كنت أواسي نفسي: «إن حالفك التوفيق، أطلِق رصاص الخطّاط بفواصل متعدّدة لكيّ نطمئنّ إليك!».

وقف متردّدًا، وبدون أن يلتفت إلى الخلف حرّك يده وواصل سيره.

وصل إلى النهر داخل الغابة. قال علي: «سيطلق العراقيّون عليه النار!».

قلت: «إنّهم يعلمون، مع ما عليه من حال، أن لا قدرة له على طرد ذبابة عن وجهه!».

جلس عند النهر، وشرب حتى ارتوى ثمّ نهض. التفت إلينا، ولعلّه تبسّم. نهض ثمّ عبر النهر مترنّحًا! سار بضعة أمتار وإذ بالعراقيّين يخرجون من بين الشجر ويطوّقونه. أخذوا بندقيّته، وضربوه بأعقاب أسلحتهم ثمّ رموه أرضًا. ما لبثوا أن رفعوه وأجبروه على خلع قميصه

وربطـوا يديه من الخلف برباـط جزمته. قال خليلـي: «سوف يرمونه بالرصاص!».

- لا أظنّ ذلك!

- لن يفعلوا ذلك!؟

- لا، إنّهم بحاجة إلى معلوماته!

رفعه العراقيّون وأخذوه معهم حتى اختفى من أمام نواظرنا. قلت: «لا تخبر أحدًا أنّه وقع في الأسر!».

- إن كان الأسر بهذه البساطة فليتنا نقع جميعنا في الأسر.

فقلت: «إن كان مصيرنـا الأسر فسنحارب حتى نؤسر، لا أن نسلّم أنفسنا!».

- إذا كانت المقاومة غير مجدية فالله لا يرضى أن نُقتَل!

- رجاءً، لا تقرّر عوضًا عن الله!

أخـذ عليّ يفكّر، ثم قال: «ليتنا نقترح هـذا الأمر على العمّ بالحدّ الأدنى!».

62

داريوسلمان

22/تموز/1983

عصـرًا، قلت لرحيـم نعيمي: «هلـمّ، نبحث عـن ذاك التعبويّ في الدشمة المظلّلة! لعلّ عصف الانفجار قد رماه».

– كما تريد يا داريوش!

– سلمان.. سلمان.. سلمان..

فتبسّم وقال: «حسنًا، داريوسلمان، هل هذا جيّد؟».

انطلقنـا نحـو الدشمـة المدمّرة. حينمـا اقتربت منهـا لم أرَ سوى السواد الذي خلّفه الانفجار. كان كلّ شيء قد دُمّر. حدّقتُ في النقطة حيـثُ كنتُ وحبيـب جالسَين ظهـرًا وهو يكتـب وصيّته: انهضـوا أيّها المحظوظون.. إنّه وقت طلوع القمر.

دخلـتُ الدشمـة المظلّلة. كانـت الحشائش الخضـراء قد احترقت بالكامـل. حرّكتُ البقايا المحترقة وأخذت أبحث فيها. وقع نظري على شيء محـترق متفحّـم كأنّه نصف جسـد لإنسان. ارتجفـتُ وانحنت ركبتاي. لم يبقَ من جثّة الفتى «حبيب» سوى كيلوين أو ثلاثة من الفحم! سالت الدموع من عينيّ. صحت عاليًا: «أيّها الأحمق الجاهل!».

– هل تتكلّم معي يا داريوش؟

– بل مع نفسي!

قلـت لرحيـم نعيمي بغصّـة: «كان يكتب وصيّته صباحًـا، وأراد أن يسلّمها لي، لكنّي لم آخذها. ها قد احترقت الوصيّة!».

صككـتُ جبهتـي. عندما حملتُ جثّـة حبيب المحترقـة لأنقلها إلى دشمة الشهداء ناداني نعيمي: «داريوش، انظر هنا!».

التفتُّ إلى الخلـف لأرى «نعيمي» وقد عثر على ورقة بين الحشائش على بُعد بضعة أمتار.

- أليست هذه وصيّته!

- وصيّة.. دعني أرى..

وضعتُ الجثّة المحترقة أرضًا وخطفتُ الورقة من «رحيم». تمتمتُ: «إنّها الوصيّة، لماذا لم تحترق في الانفجار؟».

.. إلهــي، اشهــدْ أنّ «حبيب» قد انقطع عــن كلّ مظاهر الدنيا لكي يدنو منك. لقد طوى الطريق إليك عاشقًا، وها هو الآن ينتظر الوصل بك. أريد أن أنال الشهادة لعلّ دمائي تروي غرسة الثورة الإسلاميّة..

استيقظوا! استيقظوا!

أشرقوا كالشمس داخل البئر!

انهضوا أيّها المحظوظون!

إنّه وقت طلوع القمر!

وضعتُ الوصيّة في جيبي لكي أضع جثّة حبيب المتفحّمة داخل دشمة الشهداء. وصل «جمالي» وهو يأخذ أنفاسًا متلاحقة ثم قال: «سلمان، علينا أن نجد حلًّا للأسرى!».

حدّقتُ في وجه «رحيم» المنهك.

- ماذا تقصد؟!

- إنّ عددهم أضحى يفوق عددنا. وهم جميعًا أقوياء ونشيطون! إن سارت الأمور على هذا المنوال فسيحملون علينا ويقتلوننا!

- هل «خليلي» معك؟

- لقــد أصابتــه شظيّة هــو الآخر، وليســ لديه حيل ولا قــوّة جرّاء

العطش!

جلستُ على المقعد الصخريّ تحت الشجرة الكبيرة.

- هل لديك اقتراح؟

- بلا مجاملات، علينا أن نتخلّص منهم!

- وهل هذا ممكن، إنّهم.. ما رأي «خليلي؟».

- غير موافق.. لقد تصاحب معهم، إنّ حياته في خطر أيضًا!

- لا أستطيع أن أتّخذ القرار! ارجع وساعد «خليلي»، سأخبر مرتضى بالأمر!

وصلتُ إلى مرتضى وقلت: «إنّ عدد الأسرى بات يفوق عددنا، لم يعد هناك عناصر لمراقبتهم.. ثمّ ليس لدينا ماء لكي نسقيهم.. يقول خليلي إنّهم في الهجمة المضادّة التالية سيحملون علينا من الخلف.. لقد استشعروا شيئًا ما!

- إنّهم أسرى عندنا.. القرار صعب!

أشار إلى جليل حمامي الذي كان يعاني من الحمّى إثر نزيف الجرح في فمه، وقال له: «اتّصل بالمقرّ!».

اتّصل «حمامي» بالمقرّ وناول مرتضى السمّاعة.

- جعفر جعفر، مرتضى!

- أرسِل يا مرتضى!

- جعفر، متى ستصلون إلينا!

- ربما الليلة!

- منذ ثلاث ليال وأنتم تقولون: الليلة! الليلة..

- اشلو، لقد تعقّدت الأمور، إن لم تطرأ مشكلة فسنصل إليكم!

– وماذا لو طرأت مشكلة؟

– حينئذ، الأمر إلى اللّه!

– إنّ مشكلة الأسرى هنا باتت عويصة! لقد أضحى عددهم ضعف عددنا وهم أكثر حيويّةً منّا. من الممكن أن يثوروا ويهجموا علينا. ماذا ينبغي أن نفعل؟

– اشلو، القرار بيدك!

– جعفر، إن تمكّنتم من الوصول حتى المساء فلا مشكلة، وإلّا فينبغي أن نجد حلًّا ما لهم!

– إنّ نسبة وصول الشباب إليكم هي خمسون في المئة، لا أستطيع أن أجزم بذلك! ليس لدينا اطّلاع كافٍ عن المنطقة، ونحتاج إلى مزيد من المعلومات.

– إن كان كذلك فسنضطرّ إمّا إلى قتلهم أو إخلاء سبيلهم. إبقاؤهم هنا يعني مذبحة بحقّ الشباب، وبالتالي سقوط التلّة! ولكن إن قطعتُ بوصولكم فقد أستطيع الاحتفاظ بهم!

– إنّ وصول قوّاتنا إليكم هو بيد اللّه! مشكلتنا تكمن في عدم امتلاكنا المعلومات. كما إنّ مروحيّتين توجّهتا إليكم لكنّهما أُسقِطتا.

– إذًا، ماذا نفعل بالأسرى؟

– اشلو، القرار بيدك!

حين لم يصل مرتضى إلى نتيجة وضع السمّاعة أرضًا. أخذ نفسًا عميقًا. كانت المرّة الأولى التي رأيتُ فيها ملامح الشكّ والتردّد في وجه مرتضى! فقد سبَق له أن أمر بمعاملة الأسرى كأفراد الكتيبة. أمّا الآن فقد أمسى حائرًا في اتّخاذ قرار صعب كهذا.

– سلمان!

- أجل يا عم!

- هل ثمّة سبيل للاحتفاظ بالأسرى؟!

حدّقتُ في شفتيه المطبقتين، ووجهه النحيف، وعينيه المنهكتين الحمراوين المتورّمتين، واللتين علاهما التراب. حاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه كعادته، إلّا أنّه، هذه المرّة، لم يُفلح. ابتلع ريقه بصعوبة. قلت: «ماذا عساي أقول يا عم، إن بقيت الأمور على هذه الحال فعلينا إمّا أن نطلق سراحهم أو نقتلهم!».

- أنقتلُهم أو نطلق سراحهم؟!

قلت: «إن أطلقنا سراحهم فسيُطلعون العدوّ على مواقعنا وعددنا، وهذا يعني موتنا وسقوط التلّة!».

أطرق برأسه إلى الأرض، وجعل يذرع التلّة بطولها ذهابًا وإيابًا، ثمّ قال: «اتّصِل عبر الجهاز اللاسلكي بالأعلى وقل لخليلي أن يحضر!».

بعد ذلك فكّر مليًّا ثمّ قال: «أعتقد أنّه من الجيّد لو يستطيع أحد كسر حلقة الحصار والوصول إلى الحاج أسدي لتزويده بالمعلومات!».

- أنا حاضر يا عم!

- إنّ ذلك غير ممكن من الطريق التي أتينا عبرها، وبالمناسبة، فالعدوّ قد سدّ تلك الطريق!

- هذا صحيح، يجب أن نجد شخصًا خبِر طريق «حاج عمران» المباشرة. شباب الاستطلاع!

- أكثرهم قد سقطوا شهداء، ولم يبقَ منهم سوى إسماعيل كاركر وإبراهيم توكلي.

- لقد أصيب إسماعيل بجروح ولن يتمكّن من ذلك!

- بقي إبراهيم!

- لكنّ إبراهيم صغير ونحيف! أتظنّ أنّه يستطيع كسر حلقة الحصار، وطيّ مسافة عشرين كيلومترًا عبر الجبال للوصول إلى «قمطره؟».

- علينا أن نعرض الأمر عليه.

- السلام عليك يا سيّد مرتضى!

وصل علي خليلي كالصّقر وقد اعتراه الذهول، كأنّه استشعر بالأمر. قال مرتضى: «أيّها السجّان، لم نعد نستطيع الإبقاء على الأسرى!».

- أتقصد أن نقتلهم؟!

- هذا أحد الحلول!

فقال بعصبيّة: «كلّا.. لا تطلب منّي هذا يا عمّ! لقد وعدتهم أن أوصلهم إلى معسكر إيران!».

تبسّمتُ وقلت لمرتضى: «لقد عيّن السيّد علي معسكرهم ومحلّ إقامتهم أيضًا».

قال العم مرتضى: «عند الهجمة التالية للعدوّ قد ينقضّون علينا، وستكون أنت أوّل ضحاياهم!».

- أعلمُ يا عم، أنا مستعدّ لأن أُقتَل، ولكن فلنُبقِ عليهم.

قلت له: «علي، أنت تعلم أنّ هذا مستحيل!».

- ولكن، ألن يصل الشباب لنجدتنا؟

- هذا غير مؤكّد!

- إذًا فلنخلِ سبيلهم وندعهم يذهبون، لديهم نساء وأطفال!

كان «خليلـي» المحبَـط نفسُه مـتردّدًا! لقد كان يعلـم أنّ طلبه غير منطقـيّ. وضـع يده على شعـره الأشعـث وردّه إلى الأعلـى. كأنّه كان يصارع نفسه.

ثمّ تقدّم وقد تجمّعت الدموع في عينيه، وقال: «مع ذلك كلّه، سأنفّذ أيّ أمر تصدره!».

قال مرتضى: «حتى قتلهم!».

هزّ عليّ رأسه فيمـا انهمرت الدموع من عينيه. حدّق في كفّي يديه المخضّبتين بالحنّاء.

- لقد وقّعتُ معك عهد الدم؛ لألفِ سبب!

63

جناح الملائكة

22/تموز/1983

لم تعد أذناي تسمعان صفير الانفجار لكثرة ما أطلقتُ النار بالرشّاش الثقيل. ولم أكن أعرف بسقوط القذيفة إلّا عقِب سقوطها وارتفاع ما تُخلّفه من الدخان والغبار. إثر إخفاقهم في الهجَمات المرتدّة أخذ العراقيّون يطلقون النار مِن التلال المجاورة. كانت قوى العناصر تضعف لحظة بعد أخرى. وإذا أُصيب أحد لم يكن هناك مِن مسعف لينقله. كان الجرحى يفارقون الحياة على مرأى بعضهم البعض.

قبيل الغروب، قلت للسجّان، علي خليلي، وقد تملّكني اليأس: «سأذهب لأرى ماذا قرّر العم، على هذه الحال لن يبقى أحد منّا حيًّا!».

- سآتي معك!

انحدرنا معًا نحو الحافّة الشماليّة للتلّة. خلال المسير رأينا جثثًا لعناصرنا ولعناصر العدوّ. بعد مرور أيام اسودّ بعض الجثث وتغيّرت معالمها جرّاء حرّ النهار، ما أدّى إلى تفشّي الروائح النتنة في أرجاء التلّة.

كان مرتضى واقفًا خارج دشمة الجرحى، فيما كانت أنّاتهم الضعيفة تتناهى إلى الأسماع. اقتربتُ منه بهدوء لكي لا أعكّر صفو خلوته. كأنّه كان يردّد ذكرًا. ما إن سمع صوت وطء قدميّ حتى التفت إلى الوراء. كانت رموش عينيه قد ابيضّت من التراب، وعلا الدخان والبارود وجهه. نظرتُ إلى عينيه الحمراوين الغائرتين وقلت: «يا عم، ما العمل..؟».

أخذ نفسًا عميقًا.

- لا أعلـم.. منـذ أيّام وهم يقولـون إنّهم سيصلـون، ولكن ما من خبر..

علت شفتيه ابتسامة مريرة.

- قلـت للمقـرّ إنّهـم إن لم يخرجونـا مـن الحصار فسـوف ينهي العراقيّون أمرنا!

ثـم سكت. لأوّل مـرّة رأيته قلقًا. لم يبقَ أثر لذلـك الوجه البشوش والمفعم بالأمل. فجرح كتفه، والجوع والعطش، وتواصل المعارك لأربعة أيّـام بلياليهـا، ومسؤوليّـة العناصر وأنّات الجرحـى و.. كلّ ذلك كان يعذّب جسمه وروحه. للمرّة الأولى ألقى عبء المسؤوليّة على عواتقنا.

- سلمان.. افعلوا ما ترونه مناسبًا..

وضع يده على وجهه وعينيه.

- ربما هذا هو المقسوم.. الشهادة.. على هذه التلّة..

وجد خليلي الجرأة.

- لنسلّـم أنفسنا! هكذا سينجو الجرحـى، وأمّا الأسرى فلن يبقى هناك داعٍ..

ابتلع خليلي كلامه. أمّا مرتضى فتبسّم بضعف، ثمّ عمل على تغيير المعنويّات بشكل مفاجئ، فشرع بتلاوة سورة العصر:

﴿والعصر ۝ إنّ الإنسـان لفي خسـر ۝ إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر ۝﴾

أخذ يكرّر: «الصبر.. الصبر.. الصبر..»

كأنّ هـذه السورة المباركة قد أوجـدت فيه هو الآخر تحوّلًا، فأردف قائلًا: «لا قطعَ اللّه عيشكم، أخبِروني، ألا يمكن لأحد أن يمازحكم؟».

ثمّ أعادنا إلى العمل بالضحك والمزاح.

عدنا أدراجنا إلى دشمة الأسرى. كان خليلي يصارع نفسه. لم أره على هذه الحال قبل الآن. قلت: «علي، أتشعر بالإحباط؟».

– لم يسبق لي أن شعرتُ بمثل هذه الحيرة حتى الآن. هل لديك سيجارة؟

– أنت لست مدخّنًا، أليس كذلك؟

– أريد أن أدخّن!

أشرت إلى دشمة الأسرى.

– إن كان لديك مشكلة.. سأنهي الأمر بنفسي!

التفت محدّقًا بي، وقال معاتبًا: «سلمت يداك! أتظنّ أنّي أنانيّ! إن كان الأمر غير صائب فلا فرق بين أن أقتلهم أنا أو أنت؟!».

– هل تشكّ في قرارك؟!

– لا، أنا مؤمن بمرتضى، وبالحرب وبالدفاع عن الإسلام والثورة، ولكن..

– ولكن ماذا؟!

– لعن الله أولئك الذين دفعوا «صدام» لأن يغزو إيران! لماذا يجب أن تقع حرب أساسًا؟! داريوش!

– نعم؟

– لقد أعطيتُ، خلال هذه الأيام، هؤلاء الخبز والماء والسجائر، لقد تبادلنا بثّ الأشجان، لدى أكثرهم نسوة وأطفال!

أشار علي خليلي إلى جثث شبابنا الممزّقة الموزّعة هنا وهناك ثمّ إلى دشمة الجرحى.

– وهؤلاء الذين سقطوا هنا دفاعًا عن وطنهم ودينهم.. سلمان!

– أسمعُك.. جيّد أنّك ناديتني بسلمان لمرّة!

– كلّما فكّرتُ أكثر وجدتُ أنّي لا أجرؤ على قتلهم!

– لم تُحسم الأمور بعد، لا تعذّب نفسك، لا بدّ أن تتبدّل الأحوال في النهاية..

64

معاملة

22/تموز/1983

عند المســاء، جلستُ في زاوية من زوايا الدشمة كالعصفور النائم، واضعًا رأسي تحت كتفي، فيما حلّق ذهني نحو مدينتي وبيتي وزوجتي. حرّك سعالي دخانُ سيجــارة تعبويّ متوسّط السنّ كان يدخّن سجائر من غنائم بغداد بشكل متواصل!

– كيف تدخّن وأنت عطشان؟ لم يسبق لي أن رأيتك تدخّن!

– أخي داريوش، العمّ نفسه لا يعلم أنّي مدخّن!

– وهل من المعيب أن يعرف؟

– أجــل! في الماضــي كنت أدخّن علبة سجائــر يوميًّا! لكن، ولعشقي لكتيبــة الفجــر، توقّفت عــن التدخين. لكــن هنا، وفي هــذه الظروف، اختلــف الأمــر. أرجو أن يسامحنــي العمّ! إن نجوت مــن هذه المعركة سأطلب السماح منه!

قلت ضاحكًا: «إذًا حصلت على سجائر بالمجّان!».

غيّر «رحيم» سياق الحديث.

– ما رأيكم أن نجري معاملة مع العراقيّين!

سألته مستغربًا: «معاملة! ماذا تقصد؟».

– نسلّمهم الأسرى مقابل عشرين غالون (مطرة) من الماء!

فقلت: «فكرة لا بأس بها، هكذا تُحلّ معضلة قتل الأسرى أو الإبقاء عليهم!».

– لقد بنى علي خليلي صحبة وطيدة معهم!

– رحيم، ماذا ستكون عاقبتنا؟

– لا أدري، ليس هناك خبر عن قوّاتنا.. ألا يمكننا أن ننسحب إلى الوراء!؟

– ماذا دهاك يا رجل؟ لقد أنزلوا خلفنا لواءً كاملًا من المظلّيّين!

– لكنّ أكثرهم كان دمى متفجّرة! وجدت حلًّا!!

– ماذا؟

– نسلّم أنفسنا!

– يجب أن أذهب بك إلى العمّ مرتضى.

– انتظر.. ألستَ عنصر الاستطلاع في العمليّات؟

– بلى!

– بعد ذلك سنرسم خطّة الفرار في المعسكر!

رمى التعبويّ الكهل عقب سيجارته بإصبعه خارج الدشمة. قلت له: «سيفجّر المرتزقة العراقيّون رأسك يومًا بسبب نار سيجارتك!».

دخل «جمالي» الدشمة لاهثًا وبيده الجهاز اللاسلكيّ.

– داريوش، يريد العمّ أن يتحدّث إليك!

تناولتُ سمّاعة الجهاز وضغطتُ على الزّر.

– مرتضى مرتضى، سلمان أسمعك!

– سلمان، خذ معك شخصين واجلب الماء.. هل لديك أيّ مانع؟

– على عيني!

أواخر الليل اخترتُ «عرب سعدي» و«رحيم»، فحملنا مطرتين خضراوين معدنيّتين خاليتين من البنزين، بِسعة عشرين ليترًا، وتوجّهنا نحو النهر أسفل التلّة.

دخلنـــا الغابــة بصمــت وسرنا حتى بتنــا على مسافــة مئة متر من العراقيّــين. ساهمت العتمة وصوت المـــاء في تسهيل تحرّكنا. قرب الماء قلت: «العراقيّون مستقرّون فوق رؤوسنا.. لا تُحدِثوا أيّ صوت!».

انحنيــتُ فوق النهــر، فيما وقــف «رحيم» يراقب علــى مقربة منّا. مــلأ «عرب سعدي» المطرة الأولى مطمئنّ البال وناولني إيّاها. ولمّا همّ بإدخــال المطــرة الأخرى في الماء اصطدم بصخرة قــرب النّهر. وعلى الفور انهمر علينا الرصاص من الأعلى.

– آخ!

أصابــت رصاصــة يدَ «عرب سعــدي» من الخلف فعــلا أنينه! رمى المطرة ودنا منّي. أراد «رحيم» أن يطلق الرصاص، غير أنّي منعته.

– لا تطلق النار فيُكشف موضعنا!

حملنــا مطرة (غالون) الماء الممتلئــة وتراجعنا إلى الخلف بحيطة، ثــم صعدنا تلّــة «بردزرد». قسّمنــا الماء بين العناصــر والأسرى! وكان نصيب كلّ شخص نصف مطرة.

65

المصباح البحري

22/تموز/1983

آخـر الليـل، كان «حبيب» وجسـده الطاهر مدار حديـث إسماعيل توكّلي وسعيد حفّار.

- إبراهيم.. أسأل الله أن تنال الشهادة مثله!

- ساعد الله قلب أمّه المفجوع.

- أنت اكتب وصيتك أيضًا يا إبراهيم..

مـا برحـا يتحدّثان عن «حبيـب زيبائي عالم» حتـى ضاق صدري، فخرجتُ من الدشمة المكشوفة متوجّهًا نحو دشمة الشهداء.

- إلى أين يا صغير..

داخـل دشمة الشهداء، وتحت نور المصباح البحري تسمّرت عيناي على جثّة حبيب التي احتوتها قطعة قماش كالقماط. كأنّي كنت أبحث عـن رجله اليسـرى النحيفة التـي نذرها لأبي الفضـل العبّاس عليه السلام، ولَنِعـم مـا وفّى نـذره! مـرّت في مخيّلتي صـور لوجهه، ونـذره، وأمّه، وحديثه في الدشمة المستقرّة أعلى التلّة.

خرجـتُ من الدشمة وسرت يلفحني هواء الليل البارد حتى جلستُ علـى صنـدوق ذخيرة فـارغ أمـام كهف العتـاد الحربي. كنـت أشعر بالوهـن في جسدي جـرّاء نقص الماء وسوء التغذيـة. بدت لي السماء مكتظّة بالنجوم.

- إبراهيم! أنت جالس هنا؟

جاء «إسماعيل توكّلي» ورائي.

- هل أنت مستاء؟

نظـرت إلى وجهه النحيـف المغطّى بالدخان. كنـت أحبّه أكثر من أخـي. لقد شغل خلال هذه الأشهر الستّة لوجودي في قسم الاستطلاع والمعلومـات في لـواء المهـدي منصـبَ الأخ الأكـبر لي. كان كلانـا من «جهـرم». قلت لـه وقد جفّ حلقـي: «أتعلم يا إسماعيـل، أودّ كثيرًا لو أستشهد!».

جلسـ بقربـي. مسح بيده على رأسـي وقال: «إبراهيـم، إنّ الناس يكبرون في المصاعب! هل تعلم بما كنت أفكّر وأنا أنظر إليك؟».

- لا!

- كنـت أفكّـر كيف أنّ صبيًّـا ذا خمسة عشر ربيعًـا يغدو رجُلًا في غضـون أشهر قليلة، ويقوم بمهمّات ينوء بحملهـا الكثير من الرجال، الرجولة تعني هذا.

أشـرت بإصبعـي إلى دشمـة الشهداء حيث سُجّيـتْ جثث الشباب والفتيان صفًّا صفًّا.

- لكنّ هؤلاء أكثر رجولة منّي! خصوصًا حبيب!

- حبيب! هل كنت تعرفه من قبل؟

- إنّه صديق يومين، ولكن، كان كأنّه صديق العمر!

- لم يكن ابن «جهرم»، صحيح؟

- كان ابن الإسلام!

- إبراهيم، أصبحت تتكلّم كلامًا عالميًا!

- هل أخبرك بشيء على أن لا تستاء؟

- هذا مرتبط بما ستقول!

- نذرتُ أنّي إن نجوتُ من هذه المعركة فسأدخل في كتيبة الفجر!
فشدَّ أُذني، وضغط.

- أتظنّ بأنني لا أرغب بذلك أيضًا! في بعض الأحيان هناك أعمال لا تقلّ أهمّية عن الخدمة في كتيبة الفجر! كعملك في الاستطلاع، الذي ليس بمقدور أي إنسان القيام به.

- هل أنت متأكّد يا إسماعيل؟

- هـذا ظاهر ظهور الشمس. انهض، وهلمّ لأثبتَ لك بالدليل مدى قيمة عملك.

- إلى أين يا إسماعيل؟

- إلى العمّ مرتضى!

دخلنا دشمة مرتضى. كان القائد بمفرده.

- السلام عليك يا عمّ مرتضى!

تقـدّم القائد وطبـع قُبلة على جبهتي. جلسنا علـى أرض الدشمة. فقال بلا مقدّمات: «عندي لك مأموريّة! هل أنت لها يا بن جهرم؟».

- أيّ شيء.. حُبًّا وكرامة!

- سمعتُ أنّك تعرف منطقة «حاج عمران» كراحة يدك؟

- هذا صحيح يا عمّ! لقد عشت فيها ليالي وأيامًا لشهور عدّة.

- هل تستطيع أن تذهب إلى مرتفع قمطرة؟.

- بعينين مُغمضتين!

- حتى ليلًا!

تبسّمتُ وقلت: «حتى ليلًا!».

انفرجت أسارير العمّ مرتضى. أخذ بيدي وأجلسني بجنبه.

- تعال لكي أطلعك على فحوى المأموريّة.

جلستُ قربه بسرعة وحماسة.

- سيّد إبراهيم، عليك أن تعبر وسط العراقيّين وتصل إلى ارتفاع «قمطرة» بأيّ طريقة. فإن وصلت إلى هناك تشرح موقعيّتنا وموقعيّة العراقيّين للحاج «أسدي» بالدقّة والتفصيل المُملَّين!

بعد ذلك، ثنى ورقة عاديّة وأعطاني إيّاها.

- وهذه خريطة مواقعنا ومواقع العدوّ. حاولتُ قدر الإمكان أن أتحرّى الدقّة في رسمها!

أخذتُ الورقة ووضعتها في جيب قميصي الكاكيّ ثمّ أقفلت زرّه.

- سيّد إبراهيم!

- أجل يا عمّ!

- كلاهما مهمّ! المعلومات التي في ذهنك وهذه الورقة! سيبيّن إسماعيل لك موقعيّة التلّة والعدوّ بالكامل، أَرِني ماذا ستفعل!

سرح فكري وأخذتُ أتأمّل: ليس من المروءة أن أترك الشباب وأذهب. وإسماعيل، ينبغي أن ينجو بنفسه هو الآخر! فالإسلام يحتاج إليه أكثر من أمثالي..

- ما الخطب يا إبراهيم؟

قرأ العمّ أفكاري. نظرتُ إلى إسماعيل ثمّ التفتُّ إلى العمّ قائلًا: «إن إسماعيل أكثر خبرة وجدارة منّي. فليذهب، وسأبقى أنا معك! ليس من المُرو..»».

تقدّم إسماعيل منّي فحضنني وقال: «فديتُك مِن عاقِل، لطالما كنتُ عونًا لك. صحيح أنّك خلال الاستطلاع عَييتَ جرّاء التعب مرات عدّة،

فاضطررتُ إلى حملك على ظهري. لكنّك الآن ترى بعينك».

وأشار إلى جسده المضنى من رأسه إلى أسفل قدميه:

– لقد خارت قواي ولم يبقَ لديّ حول ولا قوّة! باختصار، أنت الوحيد الذي تستطيع أن تعبر من خلال هذه الحفر والثقوب! هيّا كفاك دلالاً!

وفي النهاية حسم القائد الأمر.

– تحتاج إلى الظلام لأجل الفرار من دائرة الحصار حول «بردزرد»، وإلى ضوء النهار لأجل مواصلة السير حتى الحدود. ينبغي أن تنطلق عند الساعة الرابعة أو الخامسة فجرًا. لديك بضع ساعات لتغفو وتجدّد طاقتك.. في حفظ الله يا إبراهيم!

66

الحلقة الأولى

23/تموز/1983

أيقَظني إسماعيل:

– هل نمتَ جيّدًا يا إبراهيم؟

– لم أغفُ إلّا منذ وقت قليل!

– أنت تمزح! ماذا كنت تفعل خلال هذه الساعات إذًا؟

– أفكّر بذهابي وبالشباب.

– أرجو أن لا تكون متعبًا. أمامك مسير طويل.

– هل حان وقت الذهاب؟

– أجل!

– كم الساعة؟

– الرابعة صباحًا!

– ألم يكن من الأفضل أن أسير ليلة أمس؟

– لقد أخبرك العمّ أنّك تحتاج إلى العتمة للعبور من بين جنود العدوّ. لكن عليك بعد ذلك أن تجد طريقك أثناء النهار. من الممكن أن تضِلّ الطريق ليلًا. لنذهب إلى العم!

خلال الطريق تحلّق حولي من سَلِمَ من الشباب. كأنّهم قد علّقوا آمالهم عليّ. كذلك الجرحى! فقد كانوا مسرورين لمجرّد أنّي سأخترق دائرة الحصار حول التلّة وأمضي.

– أَرِنا ماذا ستفعل، ها!

– إبراهيم، لا تنسَ آية الكرسي.

– ما شاء الله..

كان ثمّة من بقي له جَلَد على المزاح.

– إن وقعتَ في الأسر فادعُ لنا!

– إن ألقوا القبض عليك فقل لهم: إنّي كنت أضايق أمّي كثيرًا فأرسلني أبي إلى الجبهة رغمًا عنّي!

– قل لهم إنّ قسم التعبئة الاقتصادية أرسلني إلى الجبهة لاستلام الثلاجة والسجّادة.

أقفلتُ جعبة الظهر وحملت بندقيّتي ومشطًا إضافيًّا. ربطتُ الكوفيّة حول خاصرتي ووضعت في طيّاتها عددًا من الرمّانات اليدويّة. وصل العمّ مرتضى برفقة إسماعيل وزوّداني بالتوصيات الأخيرة. عانقاني وقبّلاني. تجمّعت الدموع في عيني: إلهي، هل سأراهم ثانيةً.. عليّ أن أبذل قصارى جهدي. لا يبعد أن أتمكّن من القيام بشيء.. سوف أعود.. عمّ مرتضى، إسماعيل.. أعدُكما بذلك..

كان عناقي لإسماعيل شديدًا بحيث أخذ ينهرني.

– لا بدّ أنّك تظنّ أنك لن تراني مجدّدًا! أنت مخطئ جدًّا يا إبراهيم الصغير! أنا أكفّن مئة شخص مثلك .. لا قدّر الله..

ثمّ ضحك. رأيت دموعه لأوّل مرّة.

– ليتني أموت ولا أرى شوكة في يدك!

بعد ذلك دفعني إلى الأمام.

– هيّا اذهب! الطريق الأفضل «حديقة موتورى» .. النهر أوّلًا.. لا تنسَ!

أحكمتُ إقفال الساعة الليليّة على معصمي، وشددتُ رباط حذائي الرياضيّ. حملت البندقيّة القابلة للطيّ وهممتُ بالسير، فأوقفني

مرتضى.

- إبراهيم الكبير!

دنا منّي ثمّ لفّ الكوفيّة التي في يده حول عنقي وعقدها بإحكام.

- قد تنفعُك. انتبه لنفسك!

قبّل جبهتي وقال: «إن بقي لي عمر فأودّ أن نكون في خدمتك في كتيبة الفجر».

- أسأل اللّه ذلك يا عمّ مرتضى!

التفت العمّ وهو ينظر إلى إسماعيل الذي ما زالت عيناه غارقتين في الدموع، وقال: «طبعًا، بعد إذن الأخ إسماعيل».

انحدرتُ من التلّة نزولاً فيما لفح وجهي هواء الجبل البارد. والقمر يبثُّ نوره في كبد السماء. وصلتُ إلى النقطة التي كان من الممكن أن أرى فيها، فانحنيتُ وسِرت إلى النهر محنيّ الظهر. وصلتُ إلى حافّة النهر بسلام: سأشرب.. لكنّ التأخير قد يسبب لي المتاعب.. إن شاء اللّه سأشرب من عين الماء في الطريق..

هممتُ بأن أعبر النهر. غاصت قدمي في لحم طريّ فيما علا صوت صفير هواء: «فيس فيس!». شعرت بالخوف. نظرتُ إلى النهر لأرى عددًا من الجثث المنتفخة والمتعفّنة. دبّ الذّعر في نفسي. تراجعتُ إلى الوراء فوقعتُ على ظهري داخل الماء البارد الجاري. حاولتُ أن أَلمِلم نفسي وإذ بي أدوس على حجارة ملساء، فأحسستُ وكأنّ شخصًا يرفعني من الماء البارد ثم يدفعني إليه. سكنتُ وتوقّفتُ عن الحركة خوفًا من أن أرى ثم أخذت نفَسًا عميقًا. كان قلبي يضرب جدران صدري، وأحسستُ بحدّة الماء البارد في ظهري كالشفرة. أينما وقع نظري رأيت جثثًا منتفخة ووجوهًا بنفسجيّة وسوداء وقد

بـدت بأسنانها البيضاء اللماعة كأنّها تضحك لي! حتى إنّي بتُّ أسمع قهقهة الأجساد. ماذا دهاك يا إبراهيم؟ لا بدّ أنّ إسماعيل ينظر إليّ الآن مـن الأعلـى ويهزأ بي. فجأة تخيّلـتُ أنّ جميع الجثث نهضت من الماء منتصبة وأخذت تقترب منّي. لملمتُ نفسي ومررتُ بجانب الجثث السوداء سريعًا وبلا التفات حتى عبرتُ إلى الجهة الأخرى من النهر.

أحسستُ بـأني ثقيـل كجثث الموتـى، كمـا زاد الشعـور بالبرد في جسـدي. دخل المـاء في حذائي الكتاني ما أثّر سلبًـا على مشيي، حتى إنّي تزحلقتُ مرارًا.

وصلـتُ إلى دشمـة كمين الرشّاش الثقيل أسفل التلّـة، حيث بدأت المعركـة في اليـوم الأوّل. كان هناك عدد من جثـث العراقيّين وبقربهم جثّتان لعنصرين من شباب الكتيبة. حفظتُ صورة مكانيهما في ذهني بالدّقة. اخترق الهواء صوتُ طلقة مدفع. تمدّدتُ على الأرض. انفجرت قنبلـة ضوئيّـة في السمـاء وتهـادت بالمظلّة نحـو الغابة. رأيـتُ ارتفاع الأشجار وظلالها، وكانت فرصة سانحة لكي أستطلع ما حولي بدقّة.

انطفـأت القنبلـة الضوئيّـة. نهضتُ وعـبرتُ أطـراف الغابة حتى وصلـتُ إلى مـكان تكهّنـتُ أنّـه مقـرّ للعراقيّـين. وقفـتُ وحملقتُ في الأطـراف ودقّقـتُّ سمعـي. سمعـتُ في ذلـك الصمت المطبـق صوت همسات بالعربيّة. اختبأتُ خلف شُجيرة. انتظرتُ حتى اخترقتْ عنانَ السمـاء قنبلـةٌ ضوئيّة أخرى وهبطـتْ. من خلال نـور القنبلة وجدتُ موقع العراقيّين. ما إن اختنقت القنبلة الضوئيّة في الأرض حتى نهضتُ وتسلّقت إلى داخل شقّ قليل العمق يوصل إلى «حديقة موتورى». اجتزتُ ثلاثة مقرّات للعراقيّين ووصلتُ إلى محاذاة «حديقة موتورى». خرجت من الحلقة الأولى لحصار تلة «بردزرد» تقريبًا. توضّأتُ من مياه العين الموجودة في الطريق، ووقفتُ لأداء صلاة الصبح تحت شجرة بلوط.

67

الآليّة الحربيّة العجيبة

23/تموز/1983

في اليوم الرابع للمعركة، اختفى الضباب الليلي مُخلّفًا قطرات النّدى على الدشم وصناديق العتاد الحربيّ! ناداني أبو القاسم تشوبان: «سعيد حفّار!».

وضعتُ الجهاز اللاسلكيّ أرضًا ومضيتُ نحوه برجل عرجاء.

- هل حدث شيء؟

أشار «تشوبان» إلى الجادّة المعبّدة المعدّة لنقل الدّعم العراقيّ.

- ما هذا؟

حملقتُ في جادّة «دربندي خان» لأرى آليّة حربيّة عجيبة! كان هيكلها يشبه الدبّابة، لكنّهم نصبوا مكان المدفع كلّاب جرّافة قويًّا. ضحكتُ.

- تزوّجت الدبابة من الجرّافة فولدتا هذه الآليّة الحربيّة.

- يعني لأيّ أمر يخطّطون؟

- يريدون أن يفتحوا مضيق «أُحُد».

- أخبِر العمّ!

- خَسِئوا! جهّز الرشّاش الثقيل.

توجّهنا نحو آخر رشّاش مضادٍّ ثُنائيّ بقي على التلّة. جلس أبو القاسم خلف الرشاش، ثم صاح: «قم بتذخيره!».

ساعدته وملأت شريط الرشاش.

- بارك الله بالذخيرة التي غنمناها!

انضـمّ إلى الآليّة الحربيّة العجيبة الغريبـة ناقلتا جند مصفّحتان من نوع «PMP» ومرقّطتان كجلد النّمر. قلت: «لمَ جاؤوا بهاتين؟».

– لحماية الآليّة الحربيّة.

أخذت ناقلتا الجند المُعدّتان للحماية تتقدّمان على الجادّة المعبّدة، فيمـا سارت الآليّة الحربيّة خلفهما باتّجاه مضيق «دربندي خان». قال أبو القاسم: «علينا أن ندمّر الآليّة الحربيّة!».

– يبدو أنّها مضادّة للدروع.. هل سيقدر عليها الرشّاش الثقيل؟

– لا أدري يا سعيد.. عليك بالدّعاء!

أدار أبـو القاسم تشوبان قبضـة تنظيم المضادّ الثنائيّ. صوّب نحو الجـادّة واستعـدّ لإطـلاق النار. مـا إن تقدّمت المدرّعتـان حتى نفثتا دخانًا أبيض ساترًا، فأخْفتا الآليّة الحربيّة.

– عديمو الشرف..! لم أحسب لهذا حسابًا!

– لقد تعقّد الأمر يا تشوبان!

وصلت ناقلتا الجند إلى التلّة وتموضعتا قُبالتها. أمّا الآليّة الحربيّة فدخلت المضيـق، فيما علا صوت رشق مدفـع «تشوبان» الرشاش ذي السبطانتـين في الهـواء. ارتعـدت فرائصي كمـن أصابـه الرصاص! انطلقت الرصاصات نحو الآليّة العجيبة فأصابتها ثمّ ارتدّت. زمجرت الآليّة الحربيّة كوحش حديـديّ فضربت بكلّابها على شاحنة الـ«إيفا» المحترقة ورمتها في الوادي المجاور.

– «أبو القاسم»، لو فُتح المضيق فاقرأ الفاتحة على العمليّات!

لا أدري كيف وصل «حمامي» بجرح فمه العجيب. جلس خلف شجرة خضـراء أعلى التلّة مـن دون أيّ حماية، وأخذ يُخرج صوته من أعماق حنجرتـه، وهو مطبق الفكّـين، ليتحدّث بأعصاب بـاردة عبر الجهاز

اللاسلكي.

– جيان، جيان، جالِه أسمعك..

علت خشخشة اللاسلكيّ في الهواء وتمّ الاتّصال بالإسناد.

– جاله جاله، جيان أسمعك.. موقعيّتكم؟..

– موقعيّة أُحُد.. مسافة ثلاث حبّات «حمّص»..

– جيان، ابقَ على السمع..

رأيت بأمّ عيني التفافَ الرشاشات الثقيلة لناقلتَي الجند «PMP» المرقّطتين.

– تشوبان، انتبه لناقلَتي الجند!

ساعدت الريح بسحب دخان المدرّعتين الساتر باتّجاه الموقع الخلفيّ للعدوّ، فبدَت الآليّة الحربيّة للعيان بوضوح. عندما انهمر وابل من رصاص رشاشات المدرّعتين باتّجاهنا انبطحتُ أرضًا. أمّا أبو القاسم فلم يتحرّك من خلف الرشاش الثقيل الثنائيّ وردّ عليهم بالمثل.

سمعتُ صفير القذائف، وبعد برهة سقط عدد من قذائف مدفعيّات شبابنا في الوادي على بعد خمسين مترًا من الهدف. صحت قائلًا: «سلمت يداك يا سيّد جليل!».

وعلى الفور صحّح جليل حمامي الخطأ.

– جاله.. موقعيّة «أُحُد»، قلِّل عشرين، إلى جهة اليسار.. حبّة حمّص واحدة.

– مفهوم..

سقطت القذيفة التالية في مكان أقرب على مسافة عشرة أمتار، لكن أمام الهدف.

لم يستسلم حمامي وما برح يعطي الإحداثيّات. وعبثًا أطلق أبو القاسم الرصاص، حيث واصلت الآليّة الحربيّة عملها، فرمت شاحنة الـ«إيفا» الثانية في الوادي.

- إنّهم يفتحون المضيق، يا إلهي..

التفتُّ لأنظر إلى «أبو القاسم»، وإذ بوابل من الرصاص يخيطُ الأرض بالسماء فسقطتُ أرضًا. عندما خَفَتَ الصخب والضجيج مزّق نياط قلبي أنين «أبو القاسم». انتصبتُ من مكاني وبحثت عنه. كان قد وقع على بعد أمتار إلى الوراء سابحًا في دمائه. دنوتُ منه فإذا جسده قد تخرّم من رأسه حتى قدميه كالمصفاة. لم أرَ حتى الآن أحدًا أصيب بالرصاص إلى هذا الحدّ! ركضتُ وعُدتُ إليه بمطرة ماء. كان قد سحبَ نَفْسَهُ مبتعداً عن المكان واتّكأ على صندوق الذخيرة. هممتُ بالاقتراب منه فرفع يده بصعوبة بالغة وقال بصوت متقطّع: «لل.. لا تت..تأتِ!».

وقفت. كان تمام جسده قد تلوّن بالأحمر القاني. لقد نال منه الرصاص بحيث مزّق سرواله وقميصه العسكريّين! علمتُ أنّه يشعر بالخجل والحياء ولا يحبّ أن أدنو منه. وقفتُ في حيرة من أمري! كنت أعلم أنّه مع هذا الكمّ من الرصاص ونزف الدم إنّما يطوي آخر لحظات عمره.

سمعت أصوات عدّة انفجارات متتابعة، حيث سقطت القذائف وقنابل المدفعيّة على المضيق. تناهى إلى سمعي صرخة فرَحٍ من «حمامي».

- جالهِ.. عافاك الله! تمّ العمل.. دُمّر السرطان عديم المروءة..

فجأة طرق سمعي صوت تأوّه «حمامي». أحسستُ حينها أنّ الدنيا تدور حول رأسي. مضيت نحوه. كان مرميًّا على الأرض كقطعة حجر

جامـدة والـدم ينبعث من جبهتـه، فيما علا صـوت خشخشة الجهاز اللاسلكي في الهواء.

- جاله جاله، جيان.. مفهوم..

أغمضتُ عينيه وسوّيت يديـه ورجليه. نهضتُ وحدّقتُ في المضيق، وإذ بالآليّة الحربيّة تشتعل وتحترق. «تشوبان».. لعلّه ما زال حيًّا..

ركضتُ نحو «تشوبـان» وأنا أتصبّب عرقًا. دُستُ بقدمي على شيء فانكسـر. كان نظارتـي «أبو القاسـم». حملتهما ومضيـتُ نحوه. كان مرتضى جالسًا عنده، واضعًا رأسه على ساعده وقد غطّى بكوفيّة بطنَ «أبـو القاسم» ورجليه. لمحتُ ابتسامة عَلت وجـه «أبو القاسم» الأحمر والأبيض. وقع نظري علـى عظام صدره. كان الـدم الأحمر الشفاف ينبعث بهـدوء منه. وضع مرتضى يده على جرح صـدر «أبو القاسم»، فانبجسـت الدماء مـن بين أصابعه. قـال «تشوبـان» لمرتضى بصوت متقطّع: «يا عم، سامحنـي!».

- لا قطع اللّه عيشك، ما هذا الكلام!

- عم مرتضى!

- يا روح العمّ!

- كنـت أودّ لو نذهب معًـا للقاء الإمام. لكن، يبدو أنّ هذا ليس من نصيبي!

انقطعـت أنفاسه. أظـنّ أنّ الرصاصـة ثقبت رئتـه. رفع مرتضى رأسه. قال تشوبان: «أبلِغ سلامي للإمام!».

قال مرتضى بحرقة: «ستتحسّن حالك ونذهب معًا لخدمة الإمام!».

- يا عمّ!

- يا روح العمّ!

– حــين عدتُ هذه المرّة من المأذونيّة، جلبتُ لشباب السريّة عصير الليمــون وجوارب وبعض الحاجيات، وأعطيتها لـ«مش موسى»، قسِّمها بين الشباب!

ارتسمــتْ على شفتي مرتضى ابتسامة خذلتها عيناه، ثمّ قال: «هل صرفــتَ راتبك على هذه الأمور مجــدّدًا. عندما أذهب في المرّة المقبلة إلى «استهبان» سأقول لأمّك بأن تزوّجك لكي لا يفيض عليك المال!».

أغمضَ مرتضى عينَي قائد سريّته الشــابّ، وأخذ نفسًا عميقًا ثمّ زَفَرَهُ من صدره.

– في العــام الماضــي قلــت لــه: «لمَ لا تصبــح جنــديّ وظيفــة لدى الحرســ؟». فضحــك وأراني إصبعه المعيوب وقال: «لقــد أخذتُ إعفاء سنة من الجيش!».

68

تلّة العقاب

23/تموز/1983

مع بزوغ نـور الصباح، وبعد أن اجتزتُ حديقة «موتوري» العراقيّة، وصلتُ إلى جُرف هوّة (شيّار) كان من الصعب عبوره. اجتزتُ الجرف بمشقّـة حتى وصلتُ إلى مرتفَع عالٍ كانت مياه الثلج الذائب تهوي منه علـى جسمي فتقطعه كالسّيـفً. سًقطتُ عدّة مرّات من شيّارات قليلة الارتفـاع نحو قعـر الساقية الذي كانت أشبه بعـين الماء. تشبّع حذائي وجوربي بالماء ما أعاق حركتي. فقد كنت أتزحلق على الصخور الرطبة باستمـرار، واضطررتُ إلى خلع حذائي وجوربـي ورميهما بعيدًا. بات سيري بقدمين حافيتين أسهل، ولم أعانِ سوى من ألم جروح في قدميّ.

بينمـا أنا أسير وإذ بقواي تخـور من فرط التّعب والجوع، فسقطت على وجهي. لم يكـن لي حول ولا قوّة على القيام. نهضتُ بشقّ الأنفس مستعينًا بيديّ ورجليّ، فاجتزت الشيّار التالي حتى وصلتُ إلى أطراف وادٍ كبير.

سطعت الشمس فأمدّتني ببعض القوّة. جلستُ مستندًا إلى صخرة واستطلعـتُ المـكان من حـولي. بنظـري، كان كلّ شيء مجهـولًا: أمِنَ الممكـن أن أكون قد ضِعت.. هل ضللـتُ الطريق؟ لعلّي توغّلت في عمق الأراضـي العراقيّة! يـا صاحب الزمـان ساعدني، سيّـدي.. الشباب ينتظـرون النجدة بفارغ الصـبر.. لأصعد المرتفـع. الشمس تطلع من جهة إيران.

نهضـتُ وسـرتُ باتّجاه طلـوع الشمس فتجـاوزتُ التلّـة الخضراء المجـاورة حتـى دخلـتُ غابة البلّوط. لاحـت لي من بعيـد قرية «زينو»

العراقيّـة المستريحـة علـى سفـح المرتفع. مِن هـذا المكان فمـا بعده كنت أعـرف الأراضـي والمواقع العراقيّـة جيِّدًا. تذكّـرت المؤونة التي كنّـا نخبِّئها ليومنا الأسـود أيّام عمليّات الاستطـلاع في منطقة «حاج عمـران»: أسأل اللّه أن أجـد شيئًا! ساهم شعـاع الشمس في تخفيض بـرودة جسمـي. أثنـاء السير كانت قدمـاي الحافيتـان والمجروحتان تدوسـان على الحجارة الحـادّة والأشواك والأقذاء مـا أعاق تحرّكي: مـا كان علـيّ أن أتخلّص من الحذاء.. كوفيّة العـمّ! توقّفتُ قرب عين ماء فـوّارة. كانت المياه تنحدر كالسيل من قمّة الجبل لتنساب من بين جـذور الشجر الغليظة المنحنية متّجهـة نحو قرية «زينو». حللتُ كوفيّة العمّ مرتضى من حول عنقي. كانت مبلّلة فمسحتُ بِنَداها العرَق الذي عـلا وجهي المُنهك. غسلتها في مياه العين. رفعتُ قدميّ لأجد باطنهما يعـجّ بأشيـاء كحقـل ألغـام العراقيّـين. مسحـتُ برويّة أسفـل قدميّ ونظّفتهمـا مـن الدماء والأشـواك والطين. ثـمّ غسلـتُ الكوفيّة ثانية وعصرتها. شطرتها بأسناني إلى قسمين ثم لففتهما بدقّة حول قدميّ وعقدتهما. عليّ الذهاب إلى «قهوة العُقاب».. ضحكتُ بلا اختيار: كثّر اللّه خـيرك يـا إسماعيل.. يا له مـن اسم عجيب وضعتَـه على حفرة المؤونة الاضطراريّة.. «قهوة العقاب»..

قرابة التاسعة صباحًا وصلتُ إلى تلّة العقاب. لقد سمّاها إسماعيل بهـذا الاسـم. عندما كنّا ندقّق النظر كانت التلّـة تتراءى لنا من بعيد كأنّهـا عُقاب يحـدّق صوب الحدود. تسلّقتُ منحـدر التلّة حتى وصلتُ إلى شـقّ صغير أسفل صخرة تتوسّط التلّة. أزحتُ الشجيرات اليابسة من أمام الشـقّ. انحنيتُ وأدخلتُ يدي في حفرة كبيرة وأخذتُ أُجيلها فيها. أحسسـتُ بخشونة كيس خَيش فسحبته خارجًا مفرغًا محتوياته التـي كانت عبارة عـن: بضع رمّانـات يدويّة، بوصلـة، منظار معطّل،

ومعلّبـات سمـك وباذنجان. تبسّمـتُ: كيف أفتحها! نقّبـتُ المكان من حـولي فوجدتُ حجـرًا حادًّا، فطفقـتُ أضرب به على علبـة السمك. ضربـتُ وضربتُ حتـى أحدثتُ فتحـة في الغطاء الصفيحـيّ. أدخلتُ إصبعـي وأخذتُ أُخـرِج فتات سمـك التونة وأضعهـا في فمي. عندما التفـتّ إلى نفسي وجدتُني قد ابتلعتُ سمـك التونة مع بعض المقبّلات مـن تراب وحصى ودماء خرجت من يـدي المشقوقة! لم أتذوّق طعامًا ألذّ من هذا في حياتي! زيادة على حريق جروح قدمي أضيف ألم جرح أصابعـي. وضعـتُ جميـع أغراض «قهـوة العقاب» في مكانهـا ما عدا البوصلة، وحملتُ بندقيّتي وتحرّكت باتّجاه الحدود.

عند العاشرة صباحًا، لاح لي من بين سفوح الجبال والوديان الكرديّة في العـراق مرتفـع «قمطـرة» الذي يعانـق السماء. لقد قطعـتُ عشرة كيلومـترات في غضون الساعات الماضية. كنت أحفظ طريق العودة من هنا فما بعده عن ظَهر قلب. لم يكن عليّ سوى أن أتوخّى الحيطة والحذر لئلّا أصادف مواقع ودوريّات العراقيّين والأكراد المحلّيين. فتنقّلُ الجنود العراقيّين، وأصوات قصف المدفعيّـات ورصاص الرشاشات، والدخان والغبار، فضلًا عن تطواف المروحيّات، أمور غيّرت تمامًا ملامح منطقة تعوّدنا على هدوئها أيّام عمليّات الاستطلاع.

69

اشــلونك

23/تمـوز/1983

عنـد الساعـة الحاديـة عشـرة قبل ظهـر اليـوم الرابع مـن أيّام العمليّـات، خرجـتُ من الهـواء المحبوس في الدشمة شبـه المظلمة في مرتفـع «قمطرة»، لأواصل العمل في الجـوّ الطلق والمضيء. كان صوت إطـلاق النار ما يزال يصـل من عمق الأراضـي العراقيّة، وهذا يعني بقـاء الأمل. خرج بعدي من دشمة قيادة مقـرِّ «مالك الأشتر» محسن رضائي؛ قائد قوّات الحرس الثـوري، وسألني: «أيّها العقيد صيّاد، ما هي المعلومات التي خلصتَ إليها حتى اليوم؟».

غـرزت أصابعي خلال شعري القصير وقلـت: «سيّد محسن، يبدو أن الأمـور برمّتها قد تعقّدت.. لا أعرف ما الحكمة في ذلك. ما أعرفه هو أنّه إن سقطت تلّة «بردزرد»، فاقرأ الفاتحة على العمليّات».

– أملُنا في كتيبة الفجر وإحكام السيطرة على التلّة!

– المشكلـة تكمن في أننا لا نملك معلومـات صحيحة ومستجدّة عن موقعيّة التلّة ولا عن كتيبة الفجر أو مرتفعات «حاج عمران».

مـن مرتفع قمطرة الشّاهق أخـذتُ أحدّق في وادي «حاج عمران»: كتتييبـة.. الفججرر.. في هذه الأيّام الثلاثـة، أينما حللتُ كانت كتيبة الفجر، «مرتضى جاويدي»، وتلّـة «بردزرد» محور حديث الجميع! من هو هذا الإنسان؟ أسأل الله أن ينجو بحياته لكي يتسنّى لي رؤيته!».

– أخ صيّاد، ما هو تحليلك؟

رفعتُ نظري من المرتفعات الرماديّة أمامنا.

– سيّـد محســن، إن لم يتمّ وصل محور اليمين بمحـور اليسار فلن

نتمكّـن من الوصول إلى كتيبة الفجر. كما ينبغي تحرير محور الوسط في الجبهـة، أعني جـادّة «تمرجين» حتى أسفل تلّـة «بردزرد».. فضلًا عن حاجتنا لمعرفة موقعيّة كتيبة الفجر للقيام بعمليّات جديدة.

– ماذا عن مروحيّات المجوقل والاستطلاع «هوانيروز»، هل يمكنها الحصول على المعلومات والتقاط الصّور من الجوّ؟

– حتـى اليـوم لم يُجـدِ الأمر نفعًـا، خسِرنـا حتـى الآن مروحيتَي استطلاع!

دلفنا إلى الدّشمة، فنادى محسن رضائي عامل الإشارة في الحرس الثوري: «انظر هل يمكنك الاتّصال بمرتضى!».

اتّصل عامـل اللاسلكي على موجة مرتضى وقـال: «سيّد محسن، هذا مرتضى.. الصوت ضعيف!».

تناول السيد محسن سمّاعة الجهاز. دنوتُ منه. ضغط على الزرّ.

– مرتضى مرتضى، محسن!

كان لكلمة «اشلونك» الواضحة المفعمة بالأمل، والصادرة من قائد كتيبـة الفجر وقعُهـا على قوّة الشحنات الكهربائيّـة للجهاز اللاسلكي أيضًا!

حدّقـتُ في جعفر أسدي قائد مرتضى. فتبسّم وفسّر قائلًا: «يعني: كيف حالك! هو مصطلح خاصّ بمرتضى، اشلو.. اشلونك..».

تذكّرت أنّي سمعتُ كلمة «اشلو» في مكان آخر: إنّ هذه الكلمة مألوفة لي جدًّا.. ترى أين سمعتها.. لا أدري كيف أخذتُ السمّاعة من محسن رضائـي وشرعتُ أتحـدّث إلى مرتضـى: «اشلونك.. يـا أخ مرتضى، العقيـد صيّاد شيرازي، قائد القـوّات البرّية في الجيش يتحدّث إليك، حدّد موقعيتك؟».

فقال بنبرة واضحة موزونــة: «السلام على جندي الإمام وصاحبه المخلصــ، عزيــزي «صيّــاد شــيرازي»، ليس ثمّــة ما يقلــق بحول اللّه وقوّته!».

كانــت كلماتــه خالية مــن التكلّــف كأنّــه كان على معرفــة بي منذ سنــوات. أحسســتُ أنّ كلّ كلمــة يتواصــل معي من خلالهــا تُخضِعني لتأثير شخصيّته أكــثر فأكثر. مع ذلك فقد حملتُ كلامه عن المقاومة والصمــود فيمــا يتعلّق بأوضــاع التلّة على محمل المجامــلات، فسألته مؤكّدًا: «بدون مجاملة يا أخ مرتضى، ما هي أوضاع الذخائر والمؤونة؟».

– لا أجامل أحدًا، فبحمد اللّه، لقد ترك الإخوة المرتزقة العراقيّون لنــا جميع أنــواع الذخيرة، ولا نحتــاج شيئًا! كما إنّ حلْــق العراقيّين لا يــزال في قبضتنا! ما عليكــم إلّا أن تقوموا بعملكــم وتواصلوا التقدّم. والتّوكّل على اللّه!

ذكــر التّــوكّل على اللّه بقوّة واطمئنانِ قلــب عجيبَين. قلت: «ما هي أوضاع القوّات.. كيف هي حال المدافعين؟».

– إننــا نقــف بقوّة وثبــات على التلّــة. لقد أخلــى الشبــاب التلّتين المجاورتين! ولو لم يبقَ منّا إلّا اثنان فسنحفظ التلّة حتى وصولكم. أبلغ سلام عناصر كتيبة الفجر إلى الإمام!

تبسّمت.

– علــى عيني يا اشلو! أخ مرتضى، إننا نبذل ما بوسعنا لكي نتمكّن من الوصول إليكم! مشكلتنا الوحيدة هي عدم اطّلاعنا على منطقتكم وعلى مواقع استقرار قوّات العدوّ.

علت خشخشــة اللاسلكي ووصل صوت مرتضــى جاويدي مجدّدًا: «أخ صيّــاد، لقــد أرسلتُ الليلــة الماضية أحد عناصــر الاستطلاع لكي

يكسر الحصار ويصل إليكم. لا أدري إذا نجح في ذلك أم لا».

– لم يصل أحد حتى الآن، لكنّ مجيئه سيخدمنا كثيرًا. على أيّ حال سنبذل قصارى جهدنا.

– يا علي! أخ صيّاد، قل للسيّد محسن إنّ عدد الأسرى يفوق عددنا بأضعاف، وإن علموا بأننا محاصرون فمن الممكن أن يسبّبوا لنا المتاعب، كما إنّ وضع الماء يسوء! همّنا هو مشكلة الأسرى، ولا ندري ماذا نصنع بهم!

– ابقَ على السمع!

التفتُّ نحو محسن رضائي. أمسك محسن بسمّاعة الجهاز وقال: «اشلو، القرار بيدك، خذ القرار الذي تراه مناسبًا!».

– متى تصل القوّات إلينا يا سيّد محسن؟

– سنحاول أن يكون ذلك في أقرب فرصة!

قال مرتضى جاويدي آخر ما عنده: «سنحارب حتى آخر قطرة دم، وسنحفظ تلّة «بردزرد» حتى وصولكم!».

رسمتُ في مخيّلتي بلا اختيار صورة لوجه مرتضى وقامته. وقعت محبّته في قلبي قبل أن أراه! جلتُ في ذاكرتي فتذكّرتُ الجلسة التي سبقت عمليّات «والفجر2». في ذلك اليوم طال البحث حول المأموريّة الخاصّة التي كانت تُعتبر قلب عمليّات «والفجر 2». حينها قال السيد محسن: «نريد كتيبة شجاعة ومدرّبة تستطيع الالتفاف على العدوّ في عقر داره، والسيطرة على تلّة «بردزرد» ومضيق «دربندي خان» العراقيِّين!».

ساد الصمت الأجواء لدقائق، بعدها كسر جعفر أسدي، قائد لواء المهدي التابع لمحافظة «فارس»، الصمت. هزّ رأسه وقال: «أعلم لمن هذا الطعام؟».

فقال محسن رضائي: «طعام!».؟

فأجـاب جعفر أسدي مؤكّـدًا من خلال عينيـه الصغيرتين: «هذه مأموريّة كتيبة الفجر و«اشلو!». فقلنا جميعًا: «اشلو؟ ماذا تعني..؟!».

بـدا لي قائد كتيبة الفجر، من خلال هذا الأخذ والردّ عبر الجهاز اللاسلكـي، إنسانًا فريدًا! لقد كان لمعنوياته وصلابته بالغ الأثر بحيث بـدّد كلّ شـكّ وتردد سـاورا القـادة الأول في مقرّ القيـادة فيما يتعلّق بمواصلـة عمليّات «والفجر2». علـى الفور عكفنا علـى دراسة أسباب عدم تقدّم الوحدات.

– كانت المعلومات الأوّلية عن التوغّل تفتقر إلى الدّقّة.. لقد واجهَنا مانعـان: الأرض الجبليّة الوعرة، والعدوّ المستعدّ والمتمترس في الدشم المستحكمـة. وأهـمّ من ذلك كلّه افتقارنـا إلى المعلومات الجديدة عن العـدوّ. قـال رحيم صفـوي؛ مستشار محسـن في العمليّـات: «إنّ هذه المعركة كانـت تجربتنا الأولى في المعارك الجبليّـة، طبعًا إذا استثنينا عمليتـي «مطلـع الفجر» و«محمد رسـول الله» ﷺ المحدودتين، لذا فإنّ عبور الجبال حال دون استكمال العمليّات».

أكمـل محسن رضائي موضحًا على الخارطة: «لقد بات لنا مواطئ قدم عدّة على تراب العدوّ، خصوصًا في هذه الأمكنة!».

وأشار محسن بالقضيب الفضّي في يده إلى مضيق «دربندي خان»، ومرتفـع «كينغ»، وعدد من المواقع المتفرّقة الأخرى في المحورين الأيسر والأيمن لـ«لحاج عمران».

70

قِفْ!

23/تموز/1983

عند الثانية عشرة ظهرًا لم يفصلني عن مقصدي سوى بضع تلال صغـيرة، بَيد أنّ شيئًا لم يسرّني ويبعث ﭬ الأمل بقدر رؤية قمّة مرتفع «قمطـرة». لم أعد أحسّ بباطن قدميّ المتورّمتين حتى كأنّهما لم تعودا لي. سقطـتُ علـى وجهي مـرّات عدّة ثـمّ نهضت. وسط التلّـة التالية فاجأني صوت شخص عربيّ.

- قِف!

وقفـتُ. على بُعد عشرة أقدام منّي وقف ضابط عراقيّ سمين بيده إبريق ماء وهو ينظر إليّ.

- الجيش الشعبي؟

اعـترِاني الذهـول، إذ لم يسبـق لي أن واجهتُ جنديًّا مـن العدوّ. حـين لم أُجب جعل ينقّبنـي بعينيه من رأسـي إلى أخمص قدميّ وقد مـلأه الشكّ، ثمّ ثبّت نظره علـى قدميّ وتكلّم بضع كلمـات بالعربيّة. قلت ﭬ نفسـي: ماذا عساه يقول.. إنّه غير مسلّح. سأرميه بالرصاص وأولّي هاربًـا.. قـد يكتشف رفاقه الأمر فيلاحقـوني.. . دنا منّي بضع خطـوات متردّدًا. عندمـا دقّق النظر بـي جيّـدًا، ورأى هيئتي وحالي أدرك أنّي إيـرانيّ. بدا لي مـن قَسَمات وجهـه ونظراته إلى ملامحي الفتيّـة وجسمي النحيـف أنّه ظنّ أنّي سأكون لقمـة سائغة يبتلعها بلا مضـغ! أخذ يخطو وكأنّه يريد أن يبطحنـي أرضًا ثمّ ينزع سلاحي ﭬ أسرع فرصة. رسـم على وجهه ابتسامة مصطنعة وأخذ يقترب أكثر. رفعتُ بندقيّة كلاشنكوف وأخذتُ الأقسام.

– لا تتحرّك!

فجلس رافعًا يديه إلى الأعلى بعد أن سقط الإبريق من يده. في هذه المرّة فهمت معاني كلماته التي أخذ يطلقها كرشق الرصاص.

– دخيل.. الخميني.. الموت لصدّام.. يا علي..

لم يطاوعني قلبي أن أضغط على الزناد من جهة، كما إنّ صوت إطلاق النار قد يسترعي انتباه العدوّ من جهة أخرى. أثبتَت التجربة أنّ المواقع العراقيّة موجودة في أعالي المرتفعات. نظرتُ بطرف عيني إلى أجمة خضراء مليئة بالأشجار أسفل التلّ، وأشرتُ ببندقيّتي نحوها.

– تعال.. اذهب.. اذهب.. إلى الأسفل..

فهّمته بلغة العيون والإشارة بأن يتّجه نحو الأشجار. اعتراه الشكّ ظنًّا منه أنّي سأطلق عليه الرصاص من الخلف.

– اللّه.. دخيل.. اللّه..

قلت: لا.. لا..

وأشرتُ بسبطانة البندقيّة إلى أسفل التلّ مجدّدًا.

– الأسفل.. اذهب..

شرع ينزل مائل الجسم وقد ملأه الارتباك والهلع. كان يرفع قدمًا ويلقي عليّ نظرة. هيكله السمين والخوف والحصى الصغيرة تحت قدميه أمور عاقت سيره. كان ينحدر مفرشِخًا كطفل لبس حفاضًا بزِنة خمسة كيلوات. وأخيرًا انتثرت الحصى من تحت قدميه ففقد توازنه وتدحرج كالأنبوب إلى الأسفل. تناهى إلى سمعي صوت سبّه وشتمه. اغتنمتُ الفرصة وطفقتُ أركض بقدميّ الجريحتين باتّجاه «قمطرة». أثناء سيري كلّما ارتسمت في رأسي صورة ذاك العراقيّ

الجسيم وتدحرجه كنت أضحك بلا اختيار.

عند الساعة الواحدة بعد الظهر وصلتُ إلى سفح مرتفع «قمطرة». جلستُ وقبّلتُ الجبل على مرأى من شباب تعبويّين «صفر كيلومتر»، كانوا قد وصلوا حديثًا إلى المنطقة. كانت نظراتهم مليئة بالاستغراب! التفتّ إليهم قائلًا: «لو كنتم في مكاني لأكلتم الجبل!».

لدى رؤيتهم ما بدر منّي أيقن التعبويّون حديثو الوصول بأنّي أصبتُ بعصف انفجار قذيفة حتمًا. قلبوا شفاههم ومضوا في حال سبيلهم. وأوّل من واجهته كان صالح أسدي، أخا جعفر أسدي؛ قائد لواء المهدي.

- أين الحاج؟

جعل صالح يحملق بقامتي وهيئتي الشعثاء الغبراء. فرك عينيه وقال وقد اعتراه الذهول: «إبراهيم؟! ما الذي جاء بك إلى هنا؟!».

- وهل ظننتني شخصًا آخر؟

- ألم تكن برفقة مرتضى؟

- لقد جئت من عنده . ألا ترى؟ أين الحاج أسدي؟

عندئذ انفرجت أساريره من الغبطة كمن اكتشف البارود فقال ضاحكًا: «يعني أفلتَّ من الحصار؟».

- أجل سبَق أن ذكرت لك ذلك!

بعد ذلك أمسك بمعصمي بشدّة كمن عثر على صيد ثمين.

- هل أمسكت بلصّ يا صالح؟

- لا، بل أمسكت بالذهَب.. تعال!

أمسك بيدي وسحبني. فعلت أنّاتي من فرط التعب وآلام قدميّ.

عندمـا عـرف صالح ذلـك حملني على ظهـره وقـال: «كان إسماعيل محقًّا حين سمّاك إبراهيم الصغير!».

عند منتصف المرتفع ضربت على كتف صالح!

– توقّف يا سيّد صالح!

– لم نصل بعد إلى دشمة القادة. لقد أخذت مركبًا خاصًّا!

– بحياتي توقّف. عيب! أستطيع أن أسير بنفسي!

توقّف فنزلت عن ظهره.

– أشكرك يا سيّد صالح!

أمسك بيدي وكأنّه خاف أن أختفي أو أن تنشقّ الأرض فتبتلعني. ثمّ جـرّني معه حتى قمّة تلّ «قمطره» دفعة واحدة. أمام دشمة مقرّ قيادة «مالـك الأشتر» رأيتُ صفًّـا طويلًا من الجزم الجديـدة والمصبوغة. أخذ قلبي ينبض بسرعة.

– لماذا توقّفت يا إبراهيم الصغير؟

– أشعر بالخوف!

– لا تخف، لن يأكلوك.. لندخل، وسأكون إلى جانبك.

71

مرق اللحم والخبز المغمّس 23/تموز/1983

- السلام عليكم!

أعلـن صالح أسدي عن كشفه مسلّمًا علـى جميع قادة مقرّ «مالك الأشـتر». كانت المـرّة الأولى التي تتوجّـه إليّ فيها وجـوه وأنظار هذا العـدد من قادة الجيش والحرس الثوري. أخذ الجميـع يحدّق بعيون متعجّبـة إلى جسدي النحيف والهزيـل، وإلى وجهي المحروق المتشقّق، وإلى ثيابي البالية الرثّة، وإلى قدميّ الحافيتين المجروحتين! على أرض الدّشمـة وُضِعت مائدة فاحت منها رائحة مـرقِ لحم ممتاز من صُنع الحرس، وعبقت في فضـاء الدّشمة الصغيرة بحيـث حرّكت أمعائي المتضـوّرة جوعًـا. علا صوت قرقرة معدتي الخاويـة بحيث خشيت أن يسمعه الآخرون! لم أشتهِ في حياتي تناول مرق اللحم كما في تلك المرّة!

- أُعَرّفكم إلى المدعوّ «إبراهيم الصغير!».

تسمّرت عيناي على مرق اللحم وأوعية اللبن وعلب المشروب الغازي «كوثـر»، وكان مـن صنع الحرس. أمّا صالح فأسـرّ شيئًا في أذن أخيه جعفر أسدي ولا بدّ أنّه عرّفه عليّ. عرفت من بين الحضور «علي أكبر رحمانيـان» و«خليـل مطهرنيا» جيّدًا. كنت بانتظـار أن يتحلّق الجميع حولي ويبدأوا باستجوابي.

- صلّوا على محمد وآل محمد!

- اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد.

كان «أسـدي»؛ قائـد اللواء هو مَـن أَمر بالصلوات، ثـمّ نقل كلام صالح إلى الآخرين.

- السيّد إبراهيم.. عنصر من فريق استطلاع اللواء.. حوصِر في الأيام القليلة الماضية مع كتيبة الفجر.. تمكّن الليلة الماضية من اختراق الحصار والوصول إلى هنا..

تغيّرت نظراتهم كمن رأى جنًّا. تقدّم محسن رضائي ورحيم صفوي نحوي ضاحكَين. سألني رحيم: «كيف خرجت من ذلك الحصار؟».

بصرف النظر عن الجروح والتعب المفرط، إلّا أنّ غرور المراهقة أخذ يتسلّل إلى نفسي: مَن مثلك يا إبراهيم! لا بدّ أنّ جميع هؤلاء القادة في الجيش والحرس يُكْبِرون عملك في أنفسهم.. لديّ الكثير لأقوله لهم. لم ينتظر السيد محسن رضائي جوابي، فحملني ووضعني في وسط الدّشمة.

- من المؤكّد أنّه يحمل أخبارًا مهمّة عن تلك المنطقة.

- أجل، لا تنظروا إلى صغر عمره وقصر قامته، يقول صالح: إنّه يحفظ كردستان العراق مثل راحة كفّه.

- انظروا إلى وجهه.. قدميه الداميتين.

- كيف تمكّن من الوصول إلى هنا!

- فليحفظه اللّه!

اقترب علي شمخاني والعقيد صيّاد شيرازي منّي. كانت وجوه الجميع ملأى بالتساؤلات. لكنّ نظرة العقيد صياد شيرازي المختلفة شدّت انتباهي. قلت بضعف: «هل أتحدّث يا سيّد صيّاد؟».

- لا.. ليس قبل أن تأكل وتتقوّى!

قرأ ما يدور في خلدي من خلال عينيّ كأنّه أب شفيق، ثمّ قبّل وجهي من دون أن يتكلّم. أمسك بيدي وأخذني وأجلسني إلى مائدة مرق اللحم. وضع أمامي كاسة ستيل صُبّ فيه مرق اللحم، بصلة

بيضـاء، قنينـة المشـروب الغازي «كوثـر» وبعض الخبز. ثـمّ قدّم إليّ عسكريًّا متوسّـط السنّ طَلق المُحيّا: «العقيـد «ناصري»، قائد «لواء 2 قوتشان»، في فرقة 77 خراسان».

مـدّ العقيد ناصري يده بجدّية وشدّ على يدي وقال برصانة وحزم: «إنّني لأفتخر بجنديّ مقدام مثلك يا ولدي!».

بعد ذلك تبسّم العقيد صياد شيرازي وقال جملة واحدة: «تفضّل يا جندي مولانا صاحب الزمان!».

ثـمّ قطّع العقيد بنفسه رغيف الخبز، ووضعه في وعاء مرق اللحم، وصنـع خبـزًا مغمّسًا بالمـرق. لم أضيّع وقتًـا. أحنيـت رأسي وحملت الملعقة وشرعت ألتهم مرق اللحم الدهنيّ والدسم بنَهَم كمن ضربتهم المجاعـة في بعض البلاد الأفريقيّة. كنـت أقضم البصَلة البيضاء بين الفينة والأخرى.

كرعتُ المشروب الغازيّ، ثمّ رفعتُ رأسي لآخذ نفسًا وإذ بالعسكريّين وعناصـر الحرس يحملقـون فيّ. وكان الجالس بجانبـي؛ قائد «لواء 2 قوتشان»، العقيد ناصري أكثرهم سرورًا بأكلي!

– عافاك الله! ما الأخبار؟

– سلامتكم..

جُمعت المائدة بلمح البصر، وتحلّق العسكريّون والحرس من حولي ومـدّوا خارطـة منطقة «حـاج عمران» أمامـي. تذكّـرت خارطة العمّ مرتضـى. أدخلت يـدي إلى جيب قميصـي الكاكيّ وأخرجـت الورقة المثنيّة. كانت الورقة مبلّلة، لكن أمكن ملاحظة الرسم والكتابة عليها. ناولتها للسيّد أسدي؛ قائد اللواء. سألني العقيد: «هل يمكنك التوضيح على الخارطة؟».

ألقيت نظرة على الخارطة. كانت كبيرة وجيّدة لكنّها لم تكن مألوفة لي. أدرك علي شمخاني الأمر فشرع يوضّح لي عليها أسماء المرتفعات، بالإضافـة إلى مواقعنا ومواقع العدوّ، بدءًا من حدود «تمرجين» وصولًا إلى معسكـر «حاج عمران» الواحد تلو الآخـر. ما إن أنهى حديثه حتى طفقت أصدح كالبلبل موضّحًا على الخارطة بالتفصيل موقعيّة قواعد العـدوّ، تلّة «بردزرد»، والتلال الأخرى التـي كانت تحت سيطرة كتيبة «كميـل» وسرية محمد رضا بديهي. قبّـل محسن رضائي وجهي وقال: «أشكرك. لم يبقَ سوى إرسال القوّات!».

72

السلّم الحدودي

23/تموز/1983

ربّتَ محسن رضائي على كتفي داخل دشمة قيادة «مالك الأشتر».

– سيّد إبراهيم، لنصعد إلى القمّة!

– القمّة؟

فضحك.

– أريدك أن توضح لي المنطقة بالتفصيل من مرصد «قمطرة!».

عند الثالثة عصرًا دخلتُ المرصد مع محسن رضائي، كاظم حقيقت، وعدد من القادة. من الأعلى بدت جميع التلال والهضاب السُّفلى حتى عمق العراق واضحة للعيان. أحسستُ مجدّدًا أنّي محور اهتمام جميع مَن حولي! مسح كاظم حقيقت؛ قائد الاستطلاع، بيده على رأسي.

– إبراهيم الصغير، سمعتُ أنّك «أَثَرتَ نقْعَها!».[1]

ضحكتُ وقلت: «من أكون أنا يا سيّد كاظم!».

نظر السيّد محسن نظرة خاصّة إلى كاظم حقيقت وإليّ. قرأتُ ما يدور في خلده؛ لا بدّ أنّه كان يفكّر في كلمة «إبراهيم الصغير». أردف كاظم قائلًا: «حسنًا يا سيّد إبراهيم، تفضّل!».

من على قمّة سلّم (برج) «قمطرة» الحدودي، وتحت سقف السّماء الصافية، أخذتُ أشير بإصبعي إلى التلال والمواقع بالدّقة.

– كتيبة الفجر مستقرّة هنا.. على تلك التلّة القصيرة، هاتان

1- مصطلح مستوفى من آية «فأثرن به نقعا»؛ إشارةً إلى الإقدام.

الواقعتان على يمـين تلّة «بردزرد» ويسارهـا.. يتعرّض الشباب فيهما للقصـف.. «بديهي» يتموضع على تلك.. السيّد نجفي هناك.. المضيق يقع في هذه الجهة.. تلّة العقاب.. طريق العبور..

شرعتُ أقصّ بشغـف وشوق، كالحكواتيّ في القهوة، الأحداثَ التي حصلت لشباب كتيبـة الفجر طوال هذه المدّة. سأل كاظم: «كيف كان المسير الذي طويته الليلة الماضية؟».

- لم يكن فيه مشكلة، في النهار أيضًا استطعتُ السير بسهولة..

مكثـتُ هنيهة ثمّ بادرتُ بالقول كمن اكتشـف شيئًا للتوّ: «إن أردتم فأنا أستطيع العودة من الطريق نفسه!».

رمق محسن رضائي كاظمًا بنظرة ثاقبة.

- هذا الولـد قد جُرح، وهو يعاني من سوء تغذية. ينبغي أن يذهب إلى المستشفى!

- سيّـد محسـن، إنّ العمّ مرتضـى والشباب بانتظـاري، بينما أنا أذهـب للاستجمـام! باستطاعتـي أن آخـذ فرقة من القـوّات إلى تلّة «بردزرد!».

- لقد قمتَ بجُهد جبّار حتى الآن، أوكِل الأعمال الأخرى لنا!

شحذَت ابتسامة كاظم، ذاتُ المغزى، همَّتي.

- سيّـد محسن، لـو كان لي ألف روح فإنّني أبذلهـا فداءً للإسلام وللإمام! لقد وعدتُ العمّ بأن أعود!

- استرح الآن، سنحتاج إليك فيما بعد كثيرًا.

- حسنًـا يـا سيّد محسـن، لكن اعلـم أنّي إن نزلت مـن «قمطرة» فإنّـك وقبل أن يرتـدّ إليك طرْفُك ستراني على تلّـة «بردزرد!». اللهم إنّي بلّغت.

نظـر محسن إلى «أسدي» وقد أخذه العجب من جوابي. قال أسدي ضاحكًا: «السيّد إبراهيم «صكّ مرتَجَع» في هذه العمليّات!».

في نهايـة المطـاف تركوني وشـأني وأخذوا يتحدّثون حـول المعركة الجديدة.

- المهمّ هو أن نصل إلى كتيبة الفجر حتى يوم غد!

- نريد على الأقلّ أربع أو خمس كتائب مشحونة القوى!

- لقد استنفدنا قوى جميع الكتائب في الأيّام القليلة الماضية!

قال العقيد صيّاد: «علينا أوّلًا أن نُنزل قوّات الدّعم على تلّة «بردزرد» بواسطة المروحيّة! يجب توسعة موطئ قدمنا ثمّ زيادة المروحيّات.. لم تصِب سهامنا الهـدف عن طريق البرّ حتى الآن. لقد أرسلتُ مروحيّة لاستطـلاع المنطقـة. إن تمّـت مهمّة استطـلاع المروحيّـة بنجاح فمن الممكن أن نأمل خيرًا في نقل القوّات عبر المروحيّات. عليكم بالدّعاء!

قال محسن رضائي: «علينا أن نفكّر في حلّ عبر البرّ أيضًا».

- الآن، وبعـد تحرير هضبـة «كينغ»، فإنّ محورنـا الأصليّ بات في تلك النقطة.

- يجـب أن نأخـذ بعين الاعتبار محورين للعمليّـات؛ قوّة على يمين الجبهة وأخرى على شمالها.

التفـت أسدي نحو محسن رضائي وقال: «على يمين الجبهة يمضي علـي أكبر رحمانيـان برفقة عدد مـن القوّات نحو علـي نجفي، ومن هناك يذهبون معًا إلى مرتضى وتلّة «بردزرد». أمّا محور اليسار..

التفت مشيرًا إلى أخيه صالح.

- يأخـذ صالح الحاج «محمـود ستوده» نحو هضبـة «كينغ». لدينا هناك سريّة من قوّات الإسناد الناري، فيأخذون عددًا منهم ويتّجهون

نحو مرتضى. إن سارت الأمور على خير فسيتمكّن مرتضى من الخروج من دائرة الحصار.

كان البحث حول الحلّ الأوّل حين حضر عامل الإشارة لدى العقيد صيّاد شيرازي وقال: «سيّدي، وصلَنا خبر من مقرّ المظليين والمجوقل «هوانيروز»، لقد انقطع ارتباط مروحيّة الاستطلاع مع الخطوط الخلفيّة».

- يعني ماذا حصل؟
- إمّا أنّها اصطدمت بالجبل، أو أنّه تمّ استهدافها!

73

المنسـيّون

23/تموز/1983

عنـد الغروب الكئيب جلستُ مُحتميًا بصخـرة بينما شرع «خليلي» يبثّي أشجانه: «داريوش، ألم ينسونا برأيك؟».

التفتّ ونظرتُ إلى وجهه المحترق المتشقّق.

– لا تدعِ الشرّ يجد إلى قلبك منفذًا. أنا متفائل.

– غدًا إمّا أن نؤسَر أو نُقتَل.

– ما دام لدينا مرتضى فليس ثمّة ما يُحزن!

أنا نفسي كنت شبه آيس، بل موقنٌ بأنّه وعند أوّل هجمة للعراقيّين فلـن يكـون هناك مـن يدافع عـن التلّة ما خـلا العشـرة أو العشرين شخصًـا المنهكي القوى. أخذ «خليلي» يحملق بصمت وذهول في الغابة الكثيفـة الأشجار، والمستلقية على كتفِ النّهر أسفل التلّة. تمتم قائلًا: «لقـد أُوصِدت جميـع السبل أمامنـا! أُقفِل كلّ شـيء.. يقولون: اليوم سيصلون.. غدًا سيصلون، الليلة القادمة.. لقد بتنا منسيّين!».

قلقـتُ على حاله وضعف معنويّاته، فقلت له: «علي، أنت حارس من حرّاس الثورة، ينبغي أن تكون أطول صبرًا وأربط جأشًا!».

– أتظنّ أنّي قلق على نفسي؟

– في النهايـة، لكلّ شخص ظرفيّة وقدرة محـدودة! أنا أيضًا قلق، لكن علينا أن نكون عونًا لمرتضى.

فتبسّم وقال: «لا تخطئ يا داريوش».

– أخطئ؟

– لست قلقًا على نفسي!

فسألته متعجّبًا: «إذًا ما الذي يقلقك؟».

– مرتضى!

– مرتضى؟

– أجل يا داريوش، من الممكن أن نقع أنا وأنت في الأسر، أمّا العمّ فإنّه لو قتل ألف مرّة فلن يسمح بأن يقع أسيرًا، هذا ما يعذّبني!

حدّقتُ في وجهه.

– سامحني يا «خليلي!».

قبّلتُ جبهته شبه المحترقة فيما سالت الدموع من مقلتيّ.

– الظاهر أنّي لم أعرف مرتضى ولا أفراد كتيبته.

جلب انتباهي صفقات مروحيّة عراقيّة كانت تحلّق عند الغروب غير آبهة ناقلةً ذخائر ومعدّات نحو الحدود. تبسّمتُ وقلت: «إنّ تردّد المروحيّةً يدلّ على أنّ الشباب يحاربون لكي يصلوا إلينا! أتسمع أصوات الاشتباكات..».

قال: «أسأل الله ذلك، لكنّ العمّ نفسه قد يئس من وصول الدّعم! لقد رأيت ذلك في عينيه للمرّة الأولى بعد ظهر اليوم!».

– لقد بذل مرتضى جُهدًا أضعاف ما بذلتُ أنا وأنت! إنّ جميع أعباء العمل والمسؤوليّات ملقاة على عاتقه! إنّه متعب ليس إلّا!

وصل «عباس»، تعبويّ الكتيبة، بجرح خاصرته.

– العمّ مرتضى يطلبكما!

ألقيتُ نظرة على جسد عباس المضمّخ بالدماء. لقد غطّت الدماء الجافّة كامل خاصرته حتى صدره. قلت له: «لماذا خرجت من دشمة

الجرحى؟».

– وهل هذا وقت الاستراحة. العمّ يريد عامل الإشارة (الاتصالات)!

وقــع نظري على جهاز «جليل حمامي» اللاسلكيّ الذي حمله عباس على ظهره.

التفتُّ إلى علي خليلي قائلًا: «لا بدّ أنّ أمرًا ما قد حدث!».

ابتلع عليٌّ ريقه. ارتجف وقال: «الأسرى...».

كان كمــن يُساق إلى القتل. جعلت ركبتــاه ترتعشان. قلت: «لنذهب معًا ونرَ ما الأمر!».

انحدرنا نحو الأسفل. كانت التلّة لا تزال ترزح تحت نيران العراقيّين المتفرّقــة. عند إطلاق الرصاص الثقيل علينا كنت أنحني، ما ألبث أن أنهضـ وأواصل سيري. فجأة ظهر أمامي «كريم الأبرص» وعلى ظهره حقيبة ظهر مليئة بقذائف الـ(B7). أومأ بيده وهمّ بمواصلة سيره وإذ برصاصــة بندقيّة قناصة «سيمنــوف» تصفر لتستقرّ في ظهره وترميه أرضًــا، وفي لمح البصر اشتعلت فتائل قذائــف الـ(B7)، وتوقّدت النار فيهــا قبــل أن نستفيق من ذهولنــا. كانت صيحة «كــريم» المؤلمة كفيلة لإيصــال الألم إلى أعماق كياني! نهض وســار بضعة أمتار ثمّ خرّ على الأرضــ بــلا حــراك. وصلتُ إليــه بسرعة وأطفــأتُ النــار على ظهره مستعينًا بيــديّ، وبالتراب، وبالبطانيّة التــي أحضرها عليّ. لكنّه كان قد استشهد. قلت في نفسي: كيف سأخبر العمّ.. يجب أن لا أخبره..

دخلــتُ دشمة مرتضى برفقة عليّ. ما إن رآنا حتّى رفع سبّابته إلى الأعلى وقال بحــزم وجزم: «أمامكما طريقان، إمّا الذي أقوله لكما أو الذي تختارانه بنفسيكما!».

كان قد تغيّر! نظــرتُ إلى وجهه المحروق. لقد كان لمعنويّاته العالية

وهمّته المشحوذة وقع مباشر عليّ، بحيث فرّ الضيق والعطش من روحي وجسمي دفعة واحدة.

- كُلّي آذان صاغية يا عمّ!

- لقد تحدّثتُ عبر الجهاز اللاسلكي مع السيّد محسن، وقال: مرتضى، الإمام الخميني مطّلع على مشكلة حصاركم، وهو يعلم ماذا يمرّ على كتيبة الفجر.. لقد قال الإمام شخصيًّا للسيّد محسن: لن أنام الليلة بل سأدعو لكم، اثبتوا..

لمحتُ دموع مرتضى تحت ضوء المصباح. ذرفتُ و«خليلي» دموع الشوق. مسح مرتضى دمع عينيه.

- قلتُ للسيّد محسن نيابة عنّي وعنكم: أوصل سلامنا إلى الإمام الخميني وقل له إنّ كتيبة الفجر لن تسمح بأن تتكرّر وقعة أُحُد ثانيةً!

أنزل سبّابته.

- هذا قرار بين كتيبة الفجر والإمام الخميني! إمّا أن تقفوا وتحاربوا حتّى آخر قطرة دم، أو أن تفعلوا ما يحلو لكم. بلّغوا هذه الرسالة لكلّ من بقي حيًّا!

كانت معنويّات مرتضى وما نقله عن الإمام الخميني بمنزلة دم غضٍّ جرى في شرياني. وغدوت نشيطًا وحيويًّا تمامًا كما في ليالي العمليّات.

قفزتُ أنا وعلي إلى خارج الدّشمة بخفّة ورشاقة. تعثّرت أثناء المسير، لكنّي وعند سقوط القذائف لم أكن أتمدّد على الأرض، وبدا أنّي أصبحتُ كالسّكارى.

74

جيش العشرين مليونًا

23/تموز/1983

– هل تقدر أن تعبر بسريّة من قوّاتنا وسط العراقيّين، وتصل إلى مرتضى؟

حدّقتُ بعينين متّسعتين في وجه «جعفر أسدي» المستدير النحيل، وقلتُ وقد غمرني السرور والغبطة: «أعبر بسريّة، هذا مضمون، بل أستطيع أن أعبر بجيش من عشرين مليون تعبويّ!».

كدت أطير فرحًا وكأنّ اسمي فاز بقرعة جائزة الدخول إلى الجنّة.

– لستَ متعبًا يا سيّد إبراهيم، أليس كذلك!

– لا يا حاج أسدي!

رأيت الإكبار في عيني قائد اللواء، ما رفع من أمواج زهوي وأنفتي. أدركتُ من كلام القائد ومَن حولَه أنّ المشكلة الأصليّة تكمن في أنّ القوّات الجديدة ليس لها وجود واقعيّ.

– إننا مضطرّون إلى الاستفادة مِمَّن بقي من قوّات الكتائب الموجودة على الجبهة!

– معظم عناصرنا سقطوا بين شهيد وجريح، أمّا البقيّة فهم متعبون. لقد شنّوا في الأيّام القليلة الماضية هجمات عدة على خطوط العدوّ.

– لا حيلة لنا. خليل مطهرنيا، رتّبْ أوضاع من بقي من كتيبة «أبي ذر»، وتقدّم بهم من الجهة اليسرى للجبهة!

التفت القائد «أسدي» قائلًا لمحمود ستوده: «أمّا أنت، فاذهب برفقة صالح والسيّد إبراهيم باتّجاه تلّة «كينغ»، وهناك تحدّث إلى قوّات

كتيبة «أمير المؤمنين» عَلَيْهِ السَّلَامُ. واصطحب المتطوّعين منهم وتتحرّكوا من الجهة اليمنى باتّجاه مرتضى! كونوا على تلّة «كينغ» عند الغروب.

قال صالح: «الآن عرفتُ لماذا يسمّون هذه التلّة بالملكة».

قلت: «الملكة!».

– «كينغ» تعني بالكرديّة: الملكة! وهذه التلّة تعتبر «الملكة» بالنسبة إلى بقيّة التلال!

سرتُ خلف صالح نحو محمود ستوده. كان «رضا»؛ القائد المؤقّت للكتيبة قد أخرج جميع العناصر، أصحّاءَ وجرحى، من دشمة الاستراحة. كان عددهم لا يزيد عن خمسين شخصًا. حين نظرتُ إلى ظاهرهم الذي يُرثى له أدركتُ على الفور أنّ أوضاعهم لا تقلّ سوءًا عن أوضاع شباب كتيبة الفجر! همستُ في أذن صالح قائلًا: «إنّ هؤلاء الذين أراهم يجب أن يُستَبدلوا بقوّات جديدة ويذهبوا للاستراحة!».

ضحك صالح بمرارة وقال: «يا ذكيّ، لو كان هناك قوّة جديدة في اللواء لتوجّهنا بها إلى مرتضى!».

– يعني أننا لن نحصل على أي مساعدة أو أي قوات دعم!

– بالضبط! هؤلاء يعتقدون أنّنا سنرسلهم إلى الخطوط الخلفيّة للاستراحة.

شمختُ في أنفي أكثر، وأثنيتُ على نفسي قائلًا: إبراهيم، سَلِمَتْ يداك، فأنت لا تعرف التّعب.. لقد فقتَ كثيرًا من هؤلاء الذين يكبرونك سنًّا.. أستطيع أن أصبح غدًا قائدًا كالعمّ مرتضى!

سار محمود ستوده بهيئته الغبراء نحو صندوق الذخيرة، ووقف بحيث يراه العناصر المستقرّون داخل الدّشم أيضًا.

– عافاكم الله.. ما برحتم تصدّون هجمات العدوّ المضادّة لأيّام

عدّة.. ولقد بذلتم أكثر ممّا بوسعكم حتّى الآن.. لا بدّ أنّكم تعلمون أنّ العمّ مرتضى وشباب كتيبة الفجر محاصرون من قِبل العدوّ منذ أربعة أو خمسة أيّام بلا ماء ولا طعام، وقد قضى معظمهم شهداء مظلومين. لكنّهم يقاومون بكلّ صلابة وعزيمة متأسّين بالإمام الحسين عليه السلام.. إنّ المسافة الفاصلة بين تلّة «كينغ» وموقع مرتضى، وبالتالي فكّ الحصار عنه، هي نداء «يا حسين» مرّة أخرى.. كلّ من لديه القدرة على المجيء لفكّ الحصار عنهم، فلينادِ: يا حسين..

ما إن أنهى محمود ستوده كلامه حتى ساد سكوت ثقيل أجواء التلّة. وقبل أن أبادر بعرض عضلاتي علا أوّل نداء «يا حسين» من فتى يصغرني سنًّا، وفي غضون ثوانٍ معدودة دوّت في سماء التلّة صرخات «يا حسين» من جميع عناصر الحرس والتعبئة الخمسين!

- حاضرون لبذل المُهَج لأجل العمّ مرتضى.

هبطت تردّدات أمواج زهوي وخيلائي دفعة واحدة وخرجتْ أوّلًا من جسمي، ما لبثتْ أن طفرتْ بضع كلمات من فمي بلا اختيار: «خسِئتَ يا إبراهيم!».

قال صالح متعجّبًا: «هل كنت تكلّمني يا إبراهيم؟».

قلت بحدّة: «كلّا كنت أتكلّم مع إبراهيم!».

- مع إبراهيم؟!

- أجل، مع إبراهيم!

نظر إليّ صالح محملقًا، وقلب شفته ظنًّا منه، على ما يبدو، أنّي تحت تأثير عصف انفجار. في المقلب الآخر كأنّ القيامة قد قامت، إذ أخذ الصحيح منهم والجريح يعدّ العدّة لمرافقتنا. علا صوت القائد «رضا»: «إلى أين؟ ما الخطب.. ارجع إلى مكانك..».

خرج عناصر قوّات الإسناد أيضًا من الدّشم. صاح رضا قائلًا: «يا أخي، لماذا تركتَ دشمتك؟».

- أنت إلى أين.. لم يبقَ دم في جسدك.. هاي، يا هذا.. لقد التهب جرحـك.. لا إلـه إلّا اللّه.. ما هذا البلاء الذي حلّ بنا! حاج «ستوده!». لقد أفسدتَ الأمر، تفضّل وأصلحه بنفسك!

في النهاية تدخّل «ستوده».

- أحتاج إلى ثلاثين شخصًا بالحدّ الأقصى.

- لا يا حاج، جميعنا يريد أن يذهب!

- انظروا يا إخوان، هكذا سنخسر «كينغ» أيضًا ونقع في الحصار.. أريد ثلاثين شخصًا بالحدّ الأقصى.. أمامنا مسير طويل وخطير ليلًا.. بناءً عليه، فليبقَ الجرحى على التلّة، وليرافقنا المتطوّعون الأصحّاء..

75

المجزرة

23/تموز/1983

مساءً انحدرنا من تلّة «كينغ» نحو الأراضي العراقيّة يرافقنا خمسة بغال تحمل الذخائر والطّعام. كنتُ مع صالح في مقدّمة الرّتل، فيما جعل محمود ستوده يتنقّل بين العناصر البالغ عددهم ثلاثين ونيّفًا، حاملًا بندقيّة كلاشنكوف قابلة للطيّ.

– إبراهيم، كم كيلومترًا يفصلنا عن قرية «زيلو»؟

– سبعة أو ثمانية كيلومترات!

– إنّ نقطة التحاقنا بكتيبة «أبو ذر» هي قرية «زيلو».

– يا حاج، إن لم تواجهنا مشكلة فسأوصلكم، إن شاء الله، خلال ساعتين أو ثلاث.

كنت أنتعل حذاءً كتانيًّا صينيّ الصنع، ولا أزال منزعجًا من جروح قدميّ. أخذتُ أمضي قُدمًا يدفعني شوق الوصول إلى كتيبة الفجر. اجتزنا مرتفعين صغيرين ثم أطراف غابة الصنوبر، حتى وصلتُ بالكتيبة إلى قاعدتين صغيرتين للعدوّ، لا تبعُدان كثيرًا عن مرتفع «كينغ». أعطى محمود ستوده أمرًا بالتوقّف.

– يا شباب، علينا أن نسيطر على هاتين القاعدتين.. استعدّوا..

انقسمنا إلى مجموعتين؛ صعدتُ بالمجموعة الأولى، فيما قاد صالح المجموعة الأخرى بالاتّجاه المعاكس. كان من المقرّر أن نشتبك مع العدوّ على المرتفع ثمّ ننضمّ ثانية. غير أنّنا حين دخلنا القاعدتين وجدنا أنّ العراقيّين قد أخلوهما ولاذوا بالفرار. قال صالح: «إن سارت الأمور على هذا المنوال فهو أمر جيّد!».

قال محمود: «لقد رأونا وظنّوا أنّه الهجوم الأخير.. فخافوا وأخلوا

القاعدة».

أبلغنا الخطوط الخلفيّة، عبر جهاز اللاسلكي، خبرَ تحرير القاعدتين بغية إرسال قوّات تستقرّ فيهما.

وصلنا إلى جُرف عَصيّ على العبور. ما إن همّ الحمار الأوّل بالعبور حتى سقط في الوادي. فما كان منّا إلّا أن أخلينا سبيل الحمير الأربعة المسكينة، واضطررنا إلى تقسيم الذخيرة والمؤونة بين الشباب بُغية حملها.. اشتدّت كثافة إطلاق النّار من جهة كتيبة «أبو ذر»، وفي غضون وقت قصير اجتاحت المروحيّات العراقيّة سماء المنطقة، وأخذت تطلق قنابل مضيئة عنقوديّة. بات شغلنا الشاغل، أثناء المسير، النّظر إلى القنابل المضيئة والرصاص الخفيف والثقيل المتطاير من كلّ حدب وصوب. كان أزيز الرصاص وأصوات قذائف المدفعيّة يتناهى إلى أسماعنا من كلّ أطراف المنطقة الجبليّة.

أبلغنا عاملُ إشارة السريّة بخبر مفاده أنّ كتيبة «أبو ذر» تسير بموازاتنا من الجهة الأخرى من الجبهة، وهي تتقدّم نحو قرية «زيلو» بعد أن تمكّنت من إفشال عدّة كمائن للعدوّ.

في نهاية المطاف، وبالرّغم من مقاومة بسيطة أبداها العراقيّون، وصلنا إلى قرية «زيلو» عند الساعة العاشرة ليلًا، والتحقنا بكتيبة «أبو ذر». تمّ الإعلان عبر جهاز اللاسلكي، عن انتهاء المرحلة الأولى من التوغّل، وقد بات الطريق مفتوحًا من أجل نقل قوّات الدّعم عبر المروحيّات، وبالتالي توسعة وجهة العمليّات. لم يكن سير المرحلة الثانية بسهولة المرحلة الأولى، حيث أخذ العراقيّون المستقرّون في الوادي المقابل و«حديقة موتورى» يظهرون مقاومة شرسة.

أطلّت أوّل مروحيّة «شنوك»، تابعة للقوّات المجوقلة الإيرانيّة «هوانيروز». صاح صالح قائلًا: «ستُرتَكَب مجزرة بحقّهم جميعًا!».

قلت: «ولكن ماذا حدث يا صالح؟».

فصفّى صوته ثم صاح ثانية: «إنّ القبطان قليل الخبرة ينزل القوّات داخل الوادي!».

ضرب محمود ستوده على كتف صالح: لعلّه قبطان شجاع!

أخذ رصاص الخطّاط الأحمر والبرتقالي، المتقطّع والمتواصل، يتساقط على محيط وأطراف المروحيّة ويصدر صوتًا!

تحت نور قنابل العدوّ المضيئة أنزلت المروحية قوّات التعبئة والحرس سريعًا، ثمّ طارت بعيدًا! ضرب محمود على كتفي وأشار إلى القوّات المنزَلة من المروحيّة.

– إبراهيم الصغير، هل تعرف الوادي؟

– مثل باحة منزلنا!

– علينا إنقاذهم، وإلّا فسيحصد الرشّاش العراقيّ الثقيل أرواحهم جميعًا!

وقبل أن ينهي محمود كلامه بدأ الرشّاش العراقيّ المستقرّ على مرتفعات «حديقة موتورى» بإطلاق النار.

– صالح، ساعده أنت أيضًا!

وصلنا أنا وصالح بسرعة إلى العناصر المنزَلة من المروحيّة. صاح صالح بعنصر من الحرس طويل القامة وكان قائدهم: «قوّات أيّ منطقة أنتم؟».

– فرقة «8النجف» – أصفهان.

– لماذا ترجّلتم هنا؟!

كان الليل قد انتصف، وكانت عيناي تراقبان بخار أنفاس هذين الاثنين. أخذ الشابّ الأصفهاني ينظر إلى صالح وقد اعترته الدهشة، ولعلّه كان يفكّر في نفسه: من هو هذا الرجل الذي يصيح بنا في خضمّ المعركة؟! وبعد برهة ضمّ أصابعه الأربعة إلى باطن كفّه وأخذ يشير مرارًا بإبهامه إلى السماء المليئة بالقنابل المضيئة.

– يا أخي، لقد قال القبطان إنّه لا يستطيع أن يحطّ في مكان آخر!
التفت صالح نحوي.
– علينــا أن نقسّمهم إلى فـرَق ونعبر بهم الوادي على دفعات.. وإلّا فلن يبقى أحد منهم سالمًا!
كان الـوادي محورًا قـد تردّدتُ فيه مـرّات عدّة خـلال مأموريّات الاستطلاع! قال محمود لعنصر الحرس الأصفهانيّ المتحمّس، والذي كان الشكّ بنا لا يزال يساوره: «التزموا بالدّقة أوامر..».
أشار صالح أسدي إليّ وتابع كلام محمود.
– هذا الأخ، وإلّا لن ينجو أحد منكم بنفسه!
تحت وطـأة نيران الرشّاش العراقيّ الثقيـل تبدّلت شكوك عنصر الحرس الأصفهاني إلى يقين.
حين عـبرتُ بالدفعة الأولى مـن المحور المحاذي للـوادي اكتشفني الرشّاش الثقيـل وشرع بإطـلاق النيران. استغرق الأمـر ساعة حتى تمكّنت، بعد جُهد جهيد، من إيصال السريّة إلى جادّة «دربندي خان» المعبّـدة. تقدّم قائـد السرية الشابُّ وقال لمحمود ستـوده: «أشكرك يا أخي، علينا أن نتموضع فوق الجادّة!».
تغيّرت ملامح وجه محمود من الدّهشة.
– تذهبون؟! إلى أين؟! عليكم أن تساعدونا!
– بماذا نساعد يا أخي؟
أشار محمـود إلى الغابة الخضراء والوِهـاد الرماديّة المواجهة لنا والتي يلفّها الغموض.
– يجـب أن نسيطـر على تلك التـلال بغية فكّ الحصـار عن التلّة الأصليّة التي تستقرّ عليها قوّاتنا!
– يا أخي، لم أتلقَّ مثل هذا الأمر!

- ماذا تعني؟

- اسمع يا أخي، أشكرك على أنّك أنقذت حياتنا، لكننا جئنا لتأمين الجادّة!

ضرب «ستوده» رجله بالأرض بعصبيّة.

- ولكنّ هذه الجادة لا تحتاج إلى تأمين!! وبالمناسبة لقد كنّا نقف عليها قبل مجيئكم!

- اسمع يا أخا شيراز، أنا لا أتلقّى الأوامر منك، كما إنّني على علم بوظيفتي جيّدًا!

ساند صالح محمودًا وصاح بالشابّ: «نقول لك: إنّه «تَيس»، وتقول لنا: احلبه! أيّها الأخ الأصفهاني، إنْ أسفر الصّبح ولم نحرّر تلك التلّة والقواعد المجاورة، فغدًا سيكون مصيرنا جميعًا القتل ولن يعود هناك حاجة لتأمين الجادّة!».

- أنا أعرف وظيفتي جيّدًا يا أخي!

لم يُجْدِ الجدال مع القائد الأصفهاني الشابّ نفعًا، ولو دام حتى الصباح. صاح محمود معنّفًا: «ابقَ هنا حتّى الصبح!».

ثمّ التفت محمود إلى صالح وقال: «يا أخي، إنّ الاشتباك مع هذا الأصفهانيّ أصعب من الاشتباك مع العراقيّين! دعه يفعل ما يحلو له! هيّا بنا لنذهب!».

وصل خليل مطهّرنيا على رأس ثلاث فصائل من القوّات. تقرّر أن نتحرّك مع العناصر الثلاثين من كتيبة «أمير المؤمنين» عليه السلام ومجموعات قوّات كتيبة «أبو ذر» نحو تلّة «بردزرد». كنتُ أنا الدليل مجدّدًا فقلت: «علينا أوّلًا إخراج سرية محمد رضا بديهي من الحصار!».

76

فسبّح باسم ربك العظيم

23/تموز/1983

ليـلاً وضعنا أجساد الشهـداء في دشمة كبيرة قرب ملعب الـ(فولي بـول) التابـع للجيشـ العراقي. بعـد ذلك أخلينـا التلّة المجـاورة لتلة «بردزرد» مع مجموعة من الجرحى ثم انحدرنا باتجاه تلّة «بردزرد» .

وصلنـا بهدوء وطمأنينة إلى أطـراف الطريق المعبّدة بعد أن عبرنا المنخفضـ الجميل الواقع بين التلّتين الصغيرتين، ما لبثنا أن انقسمنا إلى رتلين. سار محمد رضا بديهي خلف أحدهما وسرتُ أنا في الأمام.

بينمـا كنـت مشغول الذهن أنظـر إلى المضيق المقابـل وإذ بقذيفة دبّابـة تسقط وسـط الرتل، فضربنـي عصفُ انفجارهـا كالصاعقة ليرفعني ويرميني بضعة أمتار بعيدًا!

عَلَت الأنّات والصيحات! هاج جمعنا ودبّ فينا القلق والاضطراب. أخذت أدير رأسي بارتباك يمنة ويسرة فيما تناهى إلى سمعي أصواتٌ مرعبة تُقَشّعِر الأبدان!

- آه .. إنني أحترق!

- آه.. لم أعد أرى شيئًا!

بعد ذلك سمعـت أزيز زخّات الرصاص المنهمر فـوق رأسي وأنّات عـدد من الأفراد مـا لبثوا أن سقطوا على الأرضـ. عندما خفّت حدّة النـيران تفحّصت جسمي فوجدتُ أنّ كتفي قـد أصيب بجرح سرعان مـا أحسستُ بألمه. وبعدما انجلى الدخان والغبار سمعت صوت محمد رضا: «يا نوذري إنّها دبابة! هناك دبابة مستقرة في ذلك المضيق!».

نظـرت إلى المضيق المقابـل فإذا بها دبابة عراقيـة من نوع «ت72»

أخذت ترمينا بقذائفها بفواصل زمنيّة غير منتظمة.

بدَت ملامـح القلق والحيرة جليّة على الوجـوه. نهضت من مكاني ولم يمنعنـي ذلك الألمُ الشديد الذي كنت أشعر به في مرفقي. عاينت الأوضـاع عـن كثب لأجـد أنّ أربعة شهـداء لنا قد سقطـوا بالإضافة إلى ستـة جرحى. أما الرتل المنتظـم والمرصوص فبات أشتاتًا! شعرت بالحـزن والغـم يطبقان على صـدري وبالغصّة في حلقـي. لجأت إلى حفرة واختبأت فيها فوجدت محمد رضا بديهي وقد أصيب بشظيّة في ساقـه فكُسِرت. شددت جرحه وقبّلت وجهه قائـلًا: «سيكون كل شيء على ما يرام».

كان العـرق يتمـاوج على وجهـه المجلّل بالتراب! ابتلـع محمد رضا ريقـه متألّمًا ثمّ أشـار بإصبعه إلى منخفض (أخـدود) في الأرض وهو يقول: «يا نوذري، علينا أن ندخل جميعًا في ذلك الأخدود».

صرخـت قائـلًا: «الجميـع إلى الأخـدود. احملوا معكـم الجرحى والشهداء!».

تحـت نيران قذائف تلـك الدبابة قُدتُ أفـراد المجموعة إلى داخل المنخفـض. وفي غضـون وقـت قصـير استشهـد ثلاثة مـن عناصرنا متأثريـن بجراحهـم! كان التعب والجوع قد أخذا مـن الجميع مأخذًا عظيمًا. ناهيك عن أنّات ضعيفة كانت تصدر من الجرحى لتزيد تلك الليلة الباردة والمظلمة غربةً ووحشة!

- تُرى أنرى العمّ مرتضى ثانية؟

- تحلّوا بالأمل.. ألا تسمعون أصوات المواجهات!

- لا بدّ أنّ شبابنا قد شنّوا هجومًا آخر واستطاعوا أن يتقدّموا.

سيطـرت سحابة مـن اليأس والاضطراب على الأجـواء. وما بين

الحلم واليقظة أذهلني صوت آيات من القرآن الكريم:

﴿إذا وقعت الواقعة ۞ ليس لوقعتها كاذبة ۞.. أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ۞ وتجعلون رزقكم أنّكم تكذبون﴾.

شرع أحدهم يرتّل آيات سورة الواقعة بحرقة ولوعة!

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم ۞ وأنتم حينئذ تنظرون﴾.

وتمتم محمد رضا بديهي قائلًا: **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ۞ فلولا إن كنتم غير مدينين ۞ ترجعونها إن كنتم صادقين﴾**.

تذكّرت أننا لم نتمكّن من قراءة سورة الواقعة في هذه الليالي الأخيرة بسبب انشغالنا بالمواجهات.

﴿فأما إن كان من المقرّبين ۞ فروح وريحان وجنّة نعيم﴾.

التصقتُ بمحمد رضا الذي أغمض جفونه فيما أخذ يرتّل آيات القرآن تحت الضوء الخافت للقنابل المضيئة: **﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾**.

تبدّد الخوف والاضطراب وأخذت أصوات تلاوة القرآن تعلو شيئًا فشيئًا كترانيم فرقة الإنشاد.

فسلام لك من أصحاب اليمين۞

كأنّ واقعة من نوع آخر قد وقعت! سرعان ما انقشعت سحابة اليأس والظلمة ليحلّ محلّها النشاط والأمل!

﴿وأما إن كان من المكذّبين الضالّين﴾

فجأة سمعت صوتٍ إطلاق رصاص ثم انهمر رصاص رشاشات مصدره تلة «بردزرد» أُطلِق باتجاه المضيق والطريق المعبّدة.

﴿**فنُزُلٌ من حميم**﴾.

تلاها انفجار أضاء نوره عتمة ذلك الليل.

﴿**وتصلية جحيم**﴾.

وإذا بها سيارة للعدو تشتعل بالنيران على الطريق!

﴿**إنّ هذا لهو حق اليقين**﴾.

أخذت الذخائر الموجودة داخل السيارة تنفجر وتتطاير منها شعلات النار في كل اتجاه وكأنها ألعاب نارية أضاءت ليلة العيد!

﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾.

قرابة منتصف الليل صحوت من غفوتي القصيرة على صوت ما. نظرت إلى من كان حولي وكانوا لا يزالون يتحدّثون عن سيارة العدوّ المحترقة، فقلت لهم محذّرًا: « هس!».

زحفت داخل الأخدود نحو الأمام. نظرت إلى الطريق المعبّدة التي كانت تبعد عنّا حوالي أربعمئة متر ودقّقت سمعي فرأيت من خلال وميض النار المشتعلة في سيارة العدو مجموعة كبيرة من الجنود تتقدّم من أطراف الطريق باتّجاهنا.

قلت في نفسي: «ليرحمنا الله، لقد انتهى أمرنا!».

ناديت بصوت خافت «عبد الصاحب إمامي» ابن بلدة «داراب» فحضر عندي بلمح البصر فقلت له: «تقدّم واستطلع الأمر».

وسرعان ما عاد عبد الصاحب فرحًا.

- إنّهم أفراد فرقة «8النجف»!

تنفّست الصعداء. ناداني محمد رضا فذهبت إليه.

- تحت أمرك.

أشار محمد رضا إلى عنق(حرف) التلّة المجاورة.

- لقد سمعتُ صوت الحاج محمود ينبعث من هناك.

- أتقصد الحاج محمود ستوده؟!

- أجل، أظنّ أن ثمّة أمرًا غريبًا يحدث. كن حذرًا!

سرتُ و«عبد الصاحب إمامي» نحو عنق التلة واختبأنا. تناهى إلى سمعي صوت جهاز لاسلكي. تقدّمت باتجاه الصوت. لقد كان محمود ستوده يتحدّث عبر جهاز اللاسلكي قائلًا: «يا حاج أسدي، إننا موجودون في القاعدة، لكن ليس لدينا خبر عن أفراد مجموعة كتيبة الفجر. لم نجد سوى جثث بعض الشهداء! هل هذا مفهوم؟».

ناديت بفرح شديد: «يا حاج ستوده، أنا فضل الله نوذري».

وصل إليّ محمود وقال متعجّبًا: «عافاكم الله! أين الآخرون؟».

- لم يبقَ من كتيبتنا سوى ثلاثين عنصرًا.

ثم أشرت بيدي إلى تلّة بردزرد قائلًا: «إنّ العم مرتضى محاصر بشدّة، علينا أن نذهب لمساعدته».

فقال: «أرسل الشهداء والجرحى نحو الخلف وليأتِ الآخرون معي!».

77

ثمانية عشر جسدًا

24/تموز/1983

كان الليل قد انتصف عندما هزّ رحيم نعيمي كتفيّ فالتفتُّ نحوه لأراه يحرّك يديه وشفتيه كالصمّ البكم من دون أن يصدر منه صوت. تبسّمت وقلت له: «هل أصابك عصف انفجار ما؟! دعك من هذا المزاح!».

لكنّه كرّر حركاته وأشار إلى أذني، فعرفت أنّ المشكلة من قِبلي. أدخلت إصبعيّ في أذنيّ وحرّكتهما ثم شهقت شهقات قصيرة متكرّرة. أخيرًا تمكّنت من سماع صوت رحيم بصعوبة يقول: «انهض يا داريوش! إنّ مرتضى وأفراد مجموعة الاستطلاع يطلبونك في أمر».

كنت قد أدركت من طبيعة المواجهات التي دارت في الساعات الأخيرة أنّ الأمور قد تغيّرت وأنّ خطّ الدفاع في «تمرتشين» قد انكسر. بالإضافة إلى أنّ مدفعيّة لواء «المهدي» ونيران رشّاشاته تركّزت على «حديقة موتورى» التابعة للعدو والتلال المحيطة بها.

انطلقت برفقة رحيم نعيمي وعلي خليلي -الذي لم يعد يشغل باله أمر الأسرى- نحو دشمة العمّ مرتضى. وعندما اقتربنا من تلك الدشمة تراءى لي من خلال الضوء الخافت عددٌ من الأشخاص وقد أحاطوا بالعم مرتضى. أعطيت إشارة لرحيم وعلي وقلت لهما فزعًا: «إنّهم جنود عراقيّون.. انبطحا أرضًا!».

ثمّ انبطحت على الأرض وقلت: «لقد أمسكوا بمرتضى وأجبروه أن ينادينا حتى يتمكنوا من الإمساك بنا الواحد تلو الآخر!».

قال رحيم بصوت خافت: «سيد داريوش، يبدو أنّك لم تعرف

مرتضى جيّدًا!».

– إذًا من هؤلاء الذين أحاطوا به؟!

– ولنفرض أنّه وقع أسيرًا، ليس بإمكاننا فعل شيء الآن. هيا بنا نقترب منهم.

– لا..

لم أكد أكمل كلامي حتى علا صوت رحيم يقول فرحًا: «يا إلهي، إنّهم شبابنا! وهذا إبراهيم الزمكّ!».

نهضتُ وقفزت باتّجاه حلقتهم. عرفت منهم «فرامرز كهر» و«محمود ستوده» الذي لم يكن يفارق العم مرتضى. كما رأيت سرية جديدة بالإضافة إلى سرية محمد رضا بديهي. كدت أطير فرحًا! ألقيت السلام على الجميع كرارًا وحضنتهم فردًا فردًا، سواء أكنت على معرفة شخصية بهم أم لم أكن. انهالت قبلاتي على «إبراهيم كاركر» ذلك الفتى اليافع من قرية «جهرم». تهيّأ لي لبرهة أنّ عملنا قد انتهى وأنّهم سيحضرون منصّة لنجلس عليها، ثم يأتي الخدم والحشم بما لذّ وطاب. بعد ذلك تُعلَّق على صدورنا أوسمة الفخر!

– يا سلمان، هلمّ إليّ!

صحوت من تلك التهيّؤات مذهولًا على صوت العم مرتضى.

– سلمان، ذاك هو طريق العبور إلى تلك التلة.

قالها مشيرًا إلى القمّة الشرقيّة لتلّة «بردزرد».

– أرشِد صالحًا إلى نقطة العبور حتى يتمكّن من السيطرة على التلّة.

لم يكن مرتضى يعرف للتعب معنى، وهذا يعني أنّ الخدم والحشم وما لذّ وطاب وأوسمة الافتخار و.. كلها كانت سرابًا محضًا!

أجبـت مرتضى: «على عيني». وعلى الفور توجّهـتُ وأفراد السريّة الجديـدة مـن النقطة التـي أعرفها نحو قمّـة التلة التـي كانت خارج سيطرتنـا منـذ بداية المعـارك. مع التكبـير بدأنا الهجـوم واستطعنا السيطـرة على القمة خلال خمس عشرة دقيقـة. اضطر معظم قوّات العدو إلى الهروب والتراجع نحو «حديقة موتوري». وسرعان ما تحرّرت تلّة «بردزرد» بالكامل.

تذكّـرت «سالار» فخنقتني الغصّة. ليتني استطعت أن أمنعه.. ترى ماذا يجري عليه في الأسر؟!

أمضينـا ليلتنـا أيقاظًا بانتظـار توقّف رشقات الدوشـكا المتقطّعة للعـدو العراقي. ومع وصول مجموعات أخـرى من قوّاتنا لتساندنا من الجهات الأخرى توقّفت الدوشكا عن الرمي.

عنـد بزوغ ضـوء الصباح أشـار رحيم نعيمـي إلى الطريق المعبّدة قائلًا: «انظر هناك يا داريوش. سيارة «تويوتا» تابعة لنا تتّجه مباشرة نحو العراقيّين!»..!

أخذت السيارة المزوّدة بالعلم الإيراني وبمكبّر صوت يبثّ الموسيقى العسكريـة الثوريّـة تشقّ طريقها بسرعة فائقة نحـو «حديقة موتورى» التابعة للعدو. صرخت قائلًا: «علينا أن نوقفهم!».

– كيف؟؟

– نطلق النار.

حملت رشاش غرينيف؛ جلست ثم أطلقت من أعلى التلّة رصاصات تحذيريـة أمـام السيارة لعلّهـا تتوقف. لكنّ طاقمها مضـوا قُدُمًا وقد أخذتهم نشوة النصر الذي حقّقناه.

– لا فائدة يا داريوش!

- أستحلفك بأبيك أن لا تنادني بداريوش!!

لم يكن بيدي حيلة. رميتُ الرشاش أرضًا من شدّة غضبي وانتظرتُ حـدوث معجزة ما. أكملت السيارة سيرهـا نحو الحديقة التي لم تكن تحت سيطرتنا بشكل كامل. في الأثناء ظهر عدد من الجنود العراقيين مـن خلف الحديقة وسـدّوا الطريق، فتوقّفت السيـارة بشكل مفاجئ. قال نعيمي: «هل سيقتلونهم؟!».

- الأمر بيد الله.

شرعـت أقرأ كل ما حفظت مـن الأدعية، فيما تقدّم العراقيّون من السيـارة وأنزلـوا أفرادهـا الثلاثة الذيـن كانوا يرتدون بـزّات كاكيّة اللون، وجعلوا يضربونهم بأسفل بنادقهم وأجبروهم على الانبطاح.

- سوف يقتلونهم! أطلق النار على العراقيين يا داريوش.

- ولكـن من الممكن أن يصيب الرصاص عناصرنا، وإن لم أتمكّن من إصابة العراقيين فمن المسلّم أنّهم سوف يعدمونهم جميعًا!

- إنّهم يقيّدون أيديهم!

ثـمّ عصّـب العراقيون عيـون الرجـال الثلاثة وأركبوهـم السيارة نفسها وأخذوهم.

ما هـي إلّا دقائق حتى حضر عناصر التعبئة والحرس من الكتائب الأخـرى في مدرّعـات حربيـة واشتبكـوا مع القـوات العراقيـة. وبعد عشرين دقيقة من مقاومة العدو الضعيفة تمّت السيطرة على «حديقة موتوري» بالكامل فيما لاذ الجنود العراقيون بالفرار.

- إنّها دبابات تابعة لنا.

كانـت قواي قد خارت، لكنني مع ذلك شعرت بالفرح والسرور لدى رؤيتي الدبابات وناقلات الجند التي أمدّتني بقوة القلب.

فيمـا بعد حضـرتْ بضع جرّافـات ودخلَتْ مضيـق «دربندي خان» وقامـت بجمع كافة السيارات المحترقة ورمتها في الوادي المجاور ففتح المضيق. في ذلك الحين حضرتني أبيات من شعر الفتى اليافع حبيب:

استيقظوا، استيقظوا

أشرقوا كالشمس داخل البئر

انهضوا أيها المحظوظون

إنه وقت طلوع القمر..

عنـد السـاعة الحاديـة عشرة صباحًا وصلت ناقـلات جند من نوع (PMP) لتقـلّ الجرحـى ومـن بقي من كتيبـة الفجـر -وعددهم 15 شخصًا- نحو الخطوط الخلفية. كان العراقيون يقصفون تلة «بردزرد» و«حديقة موتورى» بقذائف (هاون60ملم) محاولين منعنا من التقدّم. لم يبـقَ على التلة سواي ورحيم نعيمي ومرتضى. قلت لرحيم: «عندما أحصـل على إجازة سأخلد خلالها إلى النوم.. النوم! هيا فلنرجع إلى الخلف الآن».

أشـار رحيم نعيمـي إلى تلة «بردزرد» وأطرافها ثم قـال: «أريد أن أتنفس الصعداء».

نظرت إلى عينيه الحمراوين والمتورّمتين من شدّة النعاس والتعب، فيما أخذ رحيم نفسًا عميقًا ثم أخرج من جيبه سيجارة كان قد غنمها مـن أحد الجنود العراقيين ووضعها بين إصبعيـه قائلًا: «دعني أشعل هذه السيجارة!».

- ألم تكن قد أقلعت عن التدخين؟!

قـرّب السيجارة من أنفه وشمّ تبغهـا ثم قال: «دعني أُشعلها للمرة الأخيرة. ألن تأتي معي يا داريوش؟».

- أشعر بنعاس شديد. أريد أن أجد مكانًا مناسبًا لكي أنام قليلًا.

جـرّ رحيم نفسه منهكًا نحـو سيارة من نوع «جيـب» عراقية كانت عجلاتهـا الأربع قد ثقبت فانغرزت في تـراب التلّة. وصل إلى السيارة الخضراء فجلس متّكئًا على عجلتها الخلفية ثم رفع يده اليمنى نحوي كما يفعـل الأطفال بأيديهم عندمـا يلعبون لعبة المسدّسـات وابتسم. لوّحـت له بيدي وانطلقت باتّجاه «حديقة موتورى». لم أكد أمشي بضع خطـوات حتـى دوّى صوت انفجـار قذيفة (هاون60). عـدتُ أدراجي قلقًا ونظرت فلم أجد أثرًا لرحيم جرّاء ارتفاع الغبار والدخان! وقفت مذهـولًا ما لبثت أن رأيت رِجلَيْن ترتجفان. ولما انجلى الدخان والغبار ركضـت نحو رحيم رغم الوهـن الشديد في ركبتـيّ لأرى أمامه حفرة سوداء خلّفها انفجار القذيفة التي مزّقت شظاياها صدره وقلبه!

رفع رحيم السيجارة المطفأة للحظة محاولًا إفهامي أنّه لم يشعلها، ثـم تبسّم ابتسامـة ضعيفة متمتمًـا بالشهادتين. وقبـل أن يتمكّن من إتمام كلماته وقع على جنبه الأيمن مضرّجًا بدمائه!

78

المفتاح

25/تموز/1983

قبيـل الظهر، تسمّـرت عيناي على وجه مرتضـى النحيف المصفرّ وحاجبيـه المغبرّيـن. بدا لي أنّـه كان في مواجهات مع العـدو لأربعة أو خمسـة أيام مـن دون نوم أو طعـام! أسند مرتضى ظهـره إلى حائط الدشمـة الكبـيرة المستقـرّة على تلة «بـردزرد» مصغيًـا لحديث أخي جعفر أسدي.

– لا يـزال العراقيـين يسيطرون علـى مرتفعي «كـرده مند» و(19 25).. صاالح، يا صالح. ألا تسمعني؟!

أشحـتُ بنظري عن شفتي مرتضى الذابلتين، ثم نظرت إلى كاظم حقيقـت وعلي أكـبر رحمانيان ومحمـود ستوده الذيـن ارتسمت على وجوههم ابتسامات ذات معنى، فتفاجأت قليلًا.

قال لي أخي: «أين سرح خيالك يا صالح؟ أحضر الخارطة!».

على الفور أحضـرت خارطة منطقة العمليّـات العسكرية ومددتها بارتباك أمام أخي لكي يطلع الحاضرون على آخر مستجدّات المعارك.

رفع أخي رأسه وأشار إلى مسؤول التجهيزات والدعم في اللواء.

– لديكم مهلة أقصاها العصر لكي تنقلوا مقرّكم من تلّة «قمطرة» إلى هنا. هل هذا واضح؟

وضـع المسؤول يده علـى لحيته الطويلة التي غزاهـا الشيب قائلًا: «على عيني يا حاج».

في الأثنـاء سمعنـا جلبـة خـارج الدشمة. فجـأة رُفعـت البطّانية العسكريّـة المعلّقة على بابها ليدخل منه محسن رضائي يرافقه العقيد

صياد شيرازي، أحمد كاظمي قائد فرقة «8النجف»، وقاسم سليماني قائد فرقة «41 ثار اللّه» التابعة للحرس في محافظة كرمان.

نهضنـا جميعًا. أمّـا الحاج «صلواتـي»، ذلك العجـوز النحيف ذو الروح المرحة الذي كان يعمل في قسم الإعلام الحربي، فرتّب قلنسوته البيضـاء على رأسه وتقدّم من الضيوف ونـادى بصوته الحادّ الرفيع وبلهجته الشيرازية: «عاشق أنا عاشق لوجه محمد، أفدي روحي ليحيا دين محمد. ارفعوا أصواتكم بالصلوات..!».

- اللهم صلّ على محمد وآل محمد..

بعد الصلـوات تبادلنا التحيـات والقبلات ثم جلسنـا. قال السيد محسن: «عافاك اللّه يا سيد أسدي. كيف هي الأوضاع؟».

فأشـار جعفـر إلى مرتضـى جاويـدي قائـلًا: «سيد محسـن، إنّه مرتضى جاويدي، المعروف باشلو».

توجّهـت نظـرات فاحصة ممزوجـة بالتقدير مـن كلّ من محسن رضائـي والعقيـد صيـاد شـيرازي وبقية القـادة نحو عينـي مرتضى الحمراويـن الغائرتـين. ثـم قام الجميـع احترامًـا له ثانيـة وأخذوه بالأحضان وقبلوا وجهه الذي علته آثار الغبار والدخان.

- عافاك اللّه أيها الرجل المخلص.. سلمت يداك!

دققت النظر في وجه محسـن رضائي تارة، وأخرى في وجه العقيد صيـاد شـيرازي ببشرتـه البيضاء المشرّبـة بالحمرة. كانـت نظرات قائدي الحرس والجيش وابتساماتهما الصادقة تضجّ بالمحبة والعشق لمرتضى، وبدا الرجلان لي منبهرَين أشدّ الانبهار بقدرة اشلو!

في تلـك اللحظـة غمرتني فرحة كبيرة بدلًا مـن مرتضى، وشعرت بالاعتـزاز والفخـر بجميـع أفراد لواء «المهـدي». أدركـت أكثر فأكثر

جوهر شخصية مرتضى. فخلف هذا الوجه النحيف الأصفر والعينين النافذتين اللتين لم تغمضا لليالٍ متتالية بحرٌ ذاخر بالذكاء والفطنة والوقار والسكينة!

سأل محسن رضائي: «ما هي آخر الأخبار يا اشلو؟».

فأجاب أشلو بصوت هادئ ونظرة من عينين ناعمتين يملأهما النشاط: «لقد شنّ العراقيون ثلاث هجمات مضادة محاولين استعادة تلة «بردزرد»، لكنّهم حتى عصر الأمس لم يتمكّنوا من ذلك بحول اللّه وقوته. بعدها أرادوا الالتفاف من خلف التلّة للعبور من المضيق، لكننا أفشلنا سعيهم بواسطة رشاشاتهم الثقيلة التي غنمناها منهم».

قال العقيد صياد شيرازي مبتهجًا: «سلمت يداك! هل تعلم أنّ هؤلاء كانوا بقايا قوات الكوموندس التابع لـ (اللّواء66) من قوات النخبة في جيشهم؟ لقد علمنا أن صدام وصل إلى مدينة «ديالا» وقاد الهجمات المضادّة بنفسه.. كما إنّه أعدم قائد (اللواء91)!».

أطبق مرتضى جفنيه لحظةً ما لبث أن وضع قبضته على جبهته وتابع بصلابته المعهودة قائلًا: بالطبع لم يكن الأمر بتلك السهولة. فبعد أن دمّرنا آلياتهم وعتادهم في المضيق وأرغمناهم إلى التراجع تقدّمت كتيبة من مشاتهم محاولين الالتفاف من خلف التلة من ناحية النهر متستّرين بالشجيرات المجاورة. لكن وبتسديد من مولانا صاحب العصر والزمان عليه السلام تمكّن أفراد كتيبة كميل من صدّهم من تلك الناحية وإفشال محاولاتهم.

قال محسن رضائي: «ألا يلزمك شيء؟».

- بلى.

حدّقت بشفتَي مرتضى وأصغيت بدقّة إلى كل كلمة يقولها.

- إنّ بقية الشباب الأحياء يتحرّقون شوقًا لرؤية سماحة الإمام!

قال محسن رضائي: «سأبذل ما بوسعي».

استلم صياد شيرازي دفّة الكلام قائلًا: «إن بقيت تلّتا (19 25) و«كرده مند» تحت سيطرة العراقيين فقد يتمكّنون من إجبارنا على التراجع!».

سأل أخي جعفر: «وما الحل؟».

- علينا أن نسيطر على تلة (19 25).

فقال جعفر: «من المستحيل أن نتمكّن من ذلك من جهة الأمام!».

- الحلّ الوحيد هو المروحية. سننقل قواتنا بالمروحية وننزلهم خلف العراقيين. هكذا نتمكّن من السيطرة عليها. هل لدى أحد اطّلاع على تلك التلة؟

التفت جعفر إليّ وقال للعقيد: «أخي!».

التفت كلّ من العقيد صياد شيرازي ومحسن رضائي ونظرا إليّ. لم أستطع أن أحافظ على برودة أعصابي كمرتضى وشعرت بالارتباك. هزّا برأسيهما وضحكا ثم خاطبا أخي قائلَين: «هل أحضرت جميع أفراد عائلتك إلى الحرب!».

أشار جعفر بيده إليّ ثانية ثم قال: «لقد تولّى صالح استطلاع هذه المنطقة لأشهر عدّة، وهو على معرفة كافية بها».

عقّب محسن رضائي قائلًا: «هذا جيّد، ولهذا جئنا على عجلة من أمرنا. يجب أن يذهب صالح إلى بيرانشهر ليركب المروحية برفقة أفراد فرقة «10سيد الشهداء» إلى مرتفعَي (19 25) و«كرده مند»!».

قال جعفر: «ولكن يا سيد محسن، إنّ عددهم قليل!».

– هـذا صحيـح يا حاج أسـدي، لذا عليك أن ترسـل المصابين من أفراد الكتائب الأخرى إلى الخلف ليتلقّوا العلاج ثم يعودوا!

قال العقيد صياد شيرازي: « طبعًا سنرسل كتيبة من قوات المغاوير التابعة للجيش لمؤازرتكم».

أمـا أحمد كاظمي، القائد الشاب لفرقة «8النجف»، وضع يده على لحيته السوداء قائلًا: «لدينا سريّة خضعت مؤخّرًا للتدريبات اللازمة ..».

ثم أشار إلى مرتضى وقال واثقًا كما لو كانا يعرفان بعضهما بعضًا لسنوات: « وسريّتي مستعدّة تمامًا كما كتيبة الفجر».

نفض أخـي جعفـر سرواله الكُـرديّ البسيـط. وعقّـب محسـن رضائـي قائلًا: «لقد استنفدنا طـوال هذه المدّة كلّ ما لدينا من القوى والطاقات، ولم يبقَ سوى هذا العدد القليل من السرايا، وإن لم نتمكّن من الاستيلاء على تلة (19 25) والمرتفعات المحيطة بها بالإضافة إلى مدينة تشومان مصطفى..».

وسكت هنيهة ثم أشـار إلى الخريطة قائلًا: « فعلينا أن نرجع إلى المربّع الأول!».

ثم التفت إلى جمع القادة فردًا فردًا وقال: «إنّ مفتاح تثبيت مواقعنا في منطقـة العمليّات هو السيطرة على مرتفع (19 25) . لذا عليكم أن تبذلوا قصارى جهدكم!».

79

تشومان

26/تموز/1983

– هيّا، بسرعة.. ترجّلوا بسرعة!

في تلك المنطقة الجبلية وبين ضبابها الخفيف كان ملازم من القوات المجوقلة «هوانيروز» يتكلّم بسرعة وهو يدفع مجاهدي فرقة «10سيد الشهداء» التابعة للحرس الثوري من المروحية إلى عرف(عنق) التلّة ضاربًا بكفّه على ظهورهم.

– هيا اذهب، ما شاء الله، هيا بسرعة!

كان آخرهم العقيد صياد شيرازي الذي قفز على عرف التلّة حاملًا بيده بندقية (G3) ذات الكعب القابل للطي!

نظرت إلى ذاك الملازم النحيف الجسم وقد ضرب للعقيد التحية العسكرية، ولعلّه كان يفكّر في سبب وجود قائد القوّات البريّة في الجيش بين عدد من أفراد التعبئة والحرس الثوري خلف العدوّ!

دوّت رصاصة فأخرجتني ممّا أنا فيه. نادى العقيد صياد شيرازي: «أيها الملازم، أبعد المروحية سريعًا!».

تزامن صوت العقيد مع دويّ عدد من الرصاصات اصطدمت بالزلّاجة المعدنيّة للمروحيّة . ارتفعت المروحية سريعًا واختفت في عتمة الغروب الخفيفة. ناداني العقيد صياد: «يا أخ صالح، أحضر بقية القوّات إلى هنا».

ثم وضع بندقيته على ظهره وأخذ جهاز اللاسلكي الخاص بالسريّة من الشاب التعبويّ، وأجرى اتصالًا بقائد فرقة «8النجف»، «أحمد كاظمي» ثمّ بقائد السرية التابعة للجيش.

ما إن اختفى الضباب في تلك المنطقة الجبليّة حتى زاد العدو من إطلاق القنابل المضيئة. أمعنت النظر في العقيد صياد شيرازي للحظات وأنا أفكر في شدّة مشابهته للشهيد مصطفى شمران. لقد شاهدتُ شجاعة المهندس «شمران» وإقدامه ويقينه بأمّ عيني في منطقة «كردستان» وجبهة الجنوب. وها أنا ذا أرى الخصال نفسها في شخص العقيد!

كان الطقس باردًا. بعد برهة قصيرة حضرت بقيّة المروحيات التابعة لـ«هوانيروز» ليترجّل منها بقية العناصر في الأخاديد الموجودة أطراف الوادي. وقع نظري على مرتضى يقف بين القوات فأصابني الذهول! تقدّم منّي بيده الملفوفة بالضماد تملأه السعادة والحيوية!

– سيد مرتضى، ألم تذهب إلى المستشفى؟

– بلى، لقد ضمّدت جرحي ورجعت!

– أليس هؤلاء عناصر كتيبة الفجر؟!

– بلى، هم بعينهم يا أخا شيراز!

وصل بعد ذلك «جمال قمّي»، قائد قوّات الحرس في طهران. سرنا نحو العقيد صيّاد الذي عانق مرتضى قائلًا: «اشلونك!».

جثونا على رُكبنا، فسألني العقيد: « أين هي موقعيّتنا بالتحديد؟».

أخرجت من جيبي خارطة صغيرة للمنطقة، وأخذت أفصّل عليها للعقيد أوضاع المرتفع والتلال المحيطة.

– هذا هو مرتفع (19 25) على يمين «حديقة موتورى» ، وهذه تلة «كوران». في الخلف مرتفع «كرده مند». علينا أن نعبر من هذا الخندق نحو(19 25) وهذه هي قاعدة العدو!

نظر العقيد إلى ساعته الليلية وقال: «لدينا بضع ساعات حتى

موعد الهجوم، ينبغي أن نجد مكانًا لنستريح فيه».

- يا أخ صيّاد، هناك مسير ساعتين أو ثلاث حتى نصل إلى العدو. أقترح أن نستريح هناك.

- كلّا!

- لماذا؟

- أخ صالح، كم يلزمنا من الوقت بالدقة حتى نصل إلى أسفل المرتفع؟

- ساعتان على أكثر تقدير، لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار صعوبات الطريق وأمورًا أخرى قد تطرأ!

نظر إلى ساعة يده وأخذ يحكّ أسفل لحيته السوداء التي زادت من جاذبية وجهه ثم تابع قائلًا: «إن تحرّكنا الآن وانتظرنا أسفل المرتفع فمن المحتمل أن يُحدث عناصرنا جلبة فتثير انتباه العدو! من الأفضل أن تبقى قواتنا في هذا المنخفض وتستريح داخل أكياس النوم. سوف ننطلق قبل موعد الهجوم بثلاث ساعات!».

قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأ القصف على مرتفع (19 25) . كأنّ ستارًا من الدخان والبارود قد أُسدل على تلك المنطقة الجبلية. شنّت القوّات المتشكّلة من كتيبة الحرس وسريّة الجيش هجومها على القوّات العراقيّة من الأمام، فيما تولّت العناصر التي برفقتنا بقيادة العقيد صياد شيرازي الهجوم من الخلف. وقبل طلوع ضوء اليوم الثامن من عمليات «والفجر2» أصبح مرتفع (19 25) في قبضتنا، وتمكنّا من تثبيت مواقعنا في المحورين الجنوبي والشمالي لجبهة «الحاج عمران». وبالتالي فقد صارت قواتنا وللمرّة الأولى مهيمنة على مدينة «تشومان مصطفى» العراقية!

80

الانسحاب

29/تموز/1983

– اثنــا عشــر ألــف بندقيــة جديدة من نــوع كلاشنكــوف، مخزن كامل من المسدسات.. ليتني أستطيــع أن آخذ مسدّسًا جيّدًا للذكرى. يــااااه.. بنادق ذات كعاب بلون الحنّاء مزوّدة بمنظار.. هذه هي نفسها الأسلحة والمعدّات التي يزوّدون بها الخونة وبائعي الوطن ممّن يسمّون بالديمقراطيّين بحزب «الكوملة» و«الديمقراطيين الكرد»، لكي يغتالوا بها عناصر التعبئة والحرس الثوري في كردستان!

في صبــاح اليــوم التاسع من العمليات وخلافًــا لحركة سير الصفّ الطويل من العربات التي تجرّها بغال تحمل الغنائم الحربية، توجّهتُ نحــو مرتفــع (19 25). أخذت أحسب عــددًا لا يُحصى ولا يوصف من الغنائــم التي تركها العراقيون؛ فتلــك المخازن الممتلئة بالذخائر كانت تكفي لتسليح اللواء لسنوات عدّة.. بالإضافة إلى وسائل اتّصال وآلات الكترونيــة عصرية. هنيئًا لقسم الإعلام في اللــواء بكلّ هذه الوسائل السمعية والتصويرية والمكبّرات الصوتية و..

في الأثناء طــرق سمعي صوت الحاج «صلواتي»، ذلك العجوز المرح الذي يعمل في قسم الإعلام، من بين صفّ الغنائم:

أصابت التعبوي شظية — شظية حزّت رأسه

مات من دون أن يتزوّج — شظيّة أصابت رأسه

أصيب بقذيفة لكن — لدينا الكثير من شباب التعبئة!

فرفع بعض التعبويّين بنادقهم التي غنموها وضحكوا قائلين له:

ما أجمل هذه البندقية — كعبها بلون الحنّاء

كان التعبوي يغنم البندقية فاخترقت شظية قلبه
لكنه لم يمُت بل استشهد

ضحكتُ وقلت في نفسي: «غدًا سيستلم الحاج «صلواتي» مكبّرات الصوت الحديثة من الغنائم العراقية وسيشنّف أسماعنا بصوته البديع».

ثم شرعت بحساب الغنائم مجدّدًا؛ أكثر من مئة مدفع أوتوماتيكيّ.. ترى هل من الممكن أن يسلّموها جميعًا إلى لواء «المهدي؟».! حين صرت بإزاء البغال رأيت العرق يتصبّب من تلك الحيوانات المسكينة وسمعت أصواتها وهي تنوء بثقل الغنائم. في تلك الأثناء علا صوت أجنحة مروحية بحيث غلب على الجلبة التي أحدثتها الحيوانات، استأتُ وغضبت. ابتعدتُ عن العربات وركضت نحو تلة «كوران» لأرى أربع أو خمس مروحيات وهي تحلق وتتقدم نحو مرتفع «19 25». تضرّعت إلى الله قائلًا: « فليرحمنا الله.. ما الذي يخطّطون له؟ يا إلهي!».

أصابني الفزع لرؤية تلك المروحيات الحربية، إذ إنّه لم يسبق لي أن رأيت هذا العدد يحلّق في الوقت نفسه! أخذت أعدّها: واحدة، اثنتان، ثلاث.. ستّ وعشرون مروحية! يا قمر بني هاشم!!

لم أدرِ كيف تسلّقت التلّة بكلّ ما أوتيت من قوة محاولًا الوصول إلى عناصرنا قبل المروحيّات وإخبارهم بأمرها قبل فوات الأوان، وعبثًا حاولت. فجأة هزّت انفجارات متتالية الأجواء بشدّة. التفتُّ إلى الخلف محدّقًا في تلال خط الرأس، (19 25) ، «كرده مند» و«كوران». كانت جميعها في مرمى نيران المروحيات! ناهيك عن مدفعية العدو التي أخذت تقصف تلك المرتفعات بالتزامن مع القصف المروحي.

لا أدري كيف وصلتُ بسرعة إلى تلة (19 25) وشرعت أُطلق النار

على المروحيات التي ركّزت نيرانها على تلك التلّة. فيما انقسمت المروحيات إلى قسمين: قسم منها تموضع فوق مواقعنا الدفاعية وصار يستهدف عناصرنا بالـ(B7) والرشاشات الثقيلة، والقسم الآخر أخذ يُنزل أفراد قوات المغاوير بزيّ الفهود على سفح التلة. لم تكد أقدام قوّات المغاوير تطأ الأرض حتى شرعوا بإطلاق النار بشتى أنواع الأسلحة وهم يتقدّمون نحونا. في الواقع، لقد فوجئنا بحضور تلك المروحيات والأعداد الكبيرة من قوات المغاوير. علّقتُ أملي على رشاش من العيار الثقيل تابع للجيش كانوا قد نقلوه بشقّ الأنفس في مروحية قوات المجوقل «هوانيروز» ووضعوه على التلة لكنهم لم يقوموا بتشغيله بعد!

طوال سنوات الحرب التي شهدتُها لم أواجه هجومًا مضادًّا بهذا الحجم. كان الجنود العراقيّون يتقدّمون نحونا بكل شجاعة وجرأة تساندهم المروحيات والمدفعية البعيدة المدى. وما أثار عجبي بل وأقلقني تحليق تلك المروحيات مقابلنا حيث كانت تطلق النيران نحونا من دون أي خوف!

وقع نظري على خليل مطهرنيا، هاشم اعتمادي ومرتضى الذين أخذوا يوجّهون أفراد الكتيبة المندمجة* لصدّ الهجوم. كانت يد مرتضى المصابة لا تزال ملفوفة بالضماد! على مقربة منهم وقف رائد في الجيش وجعل يوجّه العسكريين وذوي الرتب. قلت لهاشم اعتمادي: «ليت العقيد صياد شيرازي كان هنا!».

- لماذا، هل حصل شيء؟

- لم أشاهد من قبل مثل هذا الهجوم المضاد! برأيي لو كان العقيد هنا لأمكن الاستفادة من خبراته.

* من الحرس الثوري، والمندمجة مع الجيش في تشكيل قتالي.

علـى بعد مسافة قصيرة وضـع مرتضى بندقيّـة كلاشنكوف على الأرضـ وأمسك بالـ(B7) . لكنّ محاولاتنا لصدّ العدوّ من التقدّم عبر إطلاق النار عليه باءت بالفشل! أخذ الشباب يتهامسون فيما بينهم.

– إنّهم يشبهون أفراد التعبئة عندنا في بأسهم وشجاعتهم!

– لا أظـنّ ذلـك، أعتقد أنّ الجنـود والطيّارين سـكارى ولهذا هم يتقدّمون بهذه الطريقة!

– مـاذا تقول؟! إنّ السكـران لا يستطيع أن يقـف ثابتًا على قدميه كما إنّ ذهنه يكون معطّلًا. أعتقد أنّهم أحضروا أفراد التعبئة لديهم!

– من المؤكّد أنّهم مهدّدون بالإعدام لو لم يحقّقوا إنجازًا ما!

– أو لعلّهم تلقّوا دروسًا في أهمية الدفاع عن الوطن!

– لكنّهم كانوا أكثر جُبنًا حين كانوا يحاربون على أرضنا!

نزل نصف قوّات المغاوير وأخـذوا يتّجهون صعودًا محرزين تقدّمًا ومقاومـة غـير مسبوقَين! كان الخنـاق يضيق شيئًا فشيئًـا. أبدى كلا الطرفـين مقاومـة شرسـة مـن دون التفكـير بالخسـارة. قاتل جنود جيشنـا جنبًا إلى جنب مع قوات التعبئة والحرسـ الثوري. كانت كفّتا المعركة متكافئتين وكل طرف ينتظر هفوة من الطرف المقابل. لقد كان ظرفـًا حساسًا للغاية بحيث لـو أظهر أحد الطرفين ضعفًا في نقطة ما لرجحت كفّة المعركة لمصلحة الطرف الآخر!

بينما نحن كذلك وإذا بالرائد الذي كان يتولّى قيادة سرية الجيش، والتـي مـا برحـت تقاتل جنبًـا إلى جنب سائـر قواتنا، يصيـح قائلًا: «انسحاااب..».

حـاول خليل رحمانيان جاهدًا أن يقنع الرائد ولكنّه لم يقبل واحتجّ قائـلًا: «أنا مسؤول عن قوّاتي، ولا أريـد أن يقعوا ضحايا مجزرة ما..

فضــلًا عن أننا لسنا متكافئي القــوى مع مثل هذه الهجمة.. هل فقدنا عقولنا؟».!

أجــاب خليــل رحمانيان: « لا شيء مما لدينــا متكافئ مع العدو في هذه الحرب!».

لكنّ الرائد اللجوج ظلّ متشبّثًا برأيه!

- لا علاقة لي بهذا..

- ممّن تتلقىّ أوامرك؟؟ ألا تخشى أن تُحاكَم؟؟

- أنا أتلقّى أوامري من قيادة الجيش لا من الحرس!

تذكّــرت العقيد صياد شيرازي الذي لــو كان حاضرًا لأذاق الرائد العذاب بسبب أمره بالانسحاب في الوقت غير المناسب! في ذلك الموقف الحساس خطر في بالي قصّة الغراب وقطعة الجبن التي قرأناها أيام الصفــوف الابتدائيّــة، وتلك الجملة التي قالها الغــراب بعد أن خدعه الثعلب فوقعت الجبنة من فمه: «ملعون ذلك الفم الذي يُفتح في الوقت غير المناسب!».

تذكّرت ذلك وضحكت. أخذ جنود الجيش بالانسحاب فيما ضعفت عزيمــة عناصر التعبئة وأخــذوا يتهيّأون للانســحــاب أيضًا. وقفتُ في حــيرة من أمــري، فجــأة دوّت قذيفة مضــادة للطائــرات. التفتّ إلى الخلــف فرأيت «خليــل مطهرنيا» وراء رشاش مضــاد ثنائي وهو يطلق القذائــف المتتابعــة علــى مروحيــات العدو وعناصــر المغاويــر. بدأت الأوضــاع بالتبــدّل فيما وقف الجنود والتعبويّــون متردّدين بانتظار ما سيحصل. صاح هاشم: «أشلو!».

التفتنــا إلى مرتضــى لــنراه قــد وقــف على المرتفــع وصــار يأخذ القذائف من يد فتى يافع من التعبئة ويضعها في قاذف سلاح الـ(B7)

ثم يطلقها نحو المروحيات التي ما برحت تنزل قوّاتها من دون هوادة. وبينما اقتربت إحدى المروحيات من الأرض لتنزل قوّات جديدة صوّب مرتضى قبضة سلاحه نحـو زلّاجتها ثم أطلق القذيفة. مرّت القذيفة أمام عيـون الجميع وأصابت المروحية والجنـود العراقيين، فانفجرت المروحيـة واشتعلت كجبل من النار أمام مـرأى الجميع! هزّت أصوات الشباب الأرجاء: «الله أكبر.. ما شاء الله.. أحسنت يا أشلو..!».

أنزل مرتضى الضربة القاصمة الثانية بعد ضربة خليل، وفي غضون دقائـق تغيّرت الموازين بالكامل وعاد جنـود الجيش والتعبويّون وأخذوا جميعًا ومعهم عناصر الحرس يطلقون نيران أسلحتهم باتجاه العدو!

لدى رؤيتها انفجار المروحية وركّابها لاذت بقية المروحيات بالفرار، مـا أدّى إلى انهيار عزيمة قوات المغاوير فأخـذوا ينحدرون إلى أسفل التلـة هربًا نحو الغابة. توجّهتُ والآخرين إلى الأسفل محاولين اللحاق بالمغاويـر وأسرهـم. أدّى صـدّ الهجمـة المضادّة وفرار فلـول عناصر المغاويـر في لواء (النخبـة 66) في الجيش العراقـي إلى تثبيت موقعنا على تلة (19 25).

جلسـتُ أسفل التلـة على صخـرة مسطّحة لأستعيد قـواي المنهكة وحدّقت في الغابـة المقابلة. كانت الجهة اليسرى من الغابة، حيث لجأ عناصـر المغاوير هاربين، سوداء مظلمـة. أما الجهة اليمنى منها فقد غطاها الندى بقطراته فأخذت تلمع تحت نور الشمس!

81

الميثميّان

31/تموز/1983

قرابة الظهر، وعلى تلّة (19 25) ناداني مرتضى: «يا شيخ بنائي!». وضعتُ عمامتي على رأسي لكي أتّجه نحوه، لكنّه وصل إليّ وأشار إلى بزّتي العسكريّة الكاكيّة اللون.

– يا شيخ، إنّ من يلبس هذه الثياب عليه أن يضع خوذة حديدية على رأسه وليس عمامة!

فأشرت إلى عمامتي قائلًا: «إنّها تعمل عمل الخوذة الحديدية بطريقة أو بأخرى، فقوّة الشظيّة سوف تضمحل قبل أن تخترق كل هذه الطبقات من القماش!».

ضحك مرتضى ثم قال: «لا أحد يستطيع أن يغلب المعمّم في النقاش..! يا شيخ!».

– يا عزيز الشيخ!

– من المقرّر أن يحضر الشيخ «ميثمي»، ممثل الإمام في مركز «نوح»، لزيارة الجبهة بعد الظهر.

– هذا جيد جدًا. ماذا تأمرني؟

– يا شيخ، إنّ أخا الشيخ «ميثمي» الأصغر هو عنصر في كتيبة الفجر، ولم يأخذ إجازته منذ مدّة. برأيي علينا التنسيق لكي يتمكّنا من اللقاء هنا في الجبهة على الأقل!

فضحكتُ وقلت: «على عيني».

– من المقرّر أن يصل سماحته عند الساعة الثالثة.

بعـد ظهر ذلك اليوم سـرتُ وأخو حجة الإسـلام والمسلمين الشيخ «عبد اللّه ميثمي» على أرض تلة (19 25) المغطّاة ببساط من الأعشاب والأزهـار متّجهَين نحو دشمة قيادة الكتيبة. ما إن وصلت إلى الدشمة حتـى سقطـت قذيفتان أو ثلاث قذائـف فألقيت نفسـي على الأرض. كانت تلك التلة مطلّة على كلٍّ من المضيق ومدينة «دربندي خان»، ولذا فقد كان العراقيّون يستهدفونها بنيرانهم بشكل دائم.

دخلـتُ الدشمة وسلّمت على مرتضى وسألته عن أحواله. بعد ذلك غمـزني «اشلو» فشرعت بوعظ «ميثمـي» الشاب قائلًا: «أنت أعلم بأن صلة الرحم وزيارة الأهل من أوجب واجبات الدين الإسلامي و...».

وواصلت الكلام إلى أن أقنعتُ «ميثمي» أن يأخذ إجازة لبضعة أيام بعد أن يلتقي أخاه الشيخ.

حلّت الساعة الثالثـة ولمّا يصل الشيخ عبد اللّه ميثمي. خرجنا من الدشمـة لتنشّق الهواء النظيـف وإذ بقذيفة تسقـط قربنا فانبطحنا نحـن الثلاثة أرضًا. بعـد اختفاء الدخان والبـارود التفتّ إلى الخلف فرأيـت مرتضى واضعًا يـده على جرح في بطنه وقـد جلس عند رأس «ميثمـي» الشاب الذي نبت شارباه حديثًا. دوّى صوته كالرعد في أذني وهو يقول: «يا شيخ بنائي هل أصابتك شظية؟».

- أنا بخير يا سيد مرتضى!

كانت شظية صغيرة أصابت كتفي وقذفني عصف الانفجار. نظرت إلى عمامتي البيضاء التي تدحرجتْ وعلقت ما بين الشجيرات والأعشاب. مشيت نحو الشابّين وأنا أتعثّر من أثر الدوار. كان لون وجه «ميثمي» قد ابيضّ وشفتاه ترتعشان. فتح «اشلو» كوفيته التي لفّ بها عنقه ووضعها على جرح صدر «ميثمي» الشاب. سألته مرتبكًا:

«كيف حاله؟».

سكت مرتضى فشعرت باليأس. في الأثناء وصل كلّ من حسن مايلر، صادق خوشقدم وجليل إسلامي ووضعوا «ميثمي» على النقالة وحملوه إلى أسفل التلة ثم وضعوه داخل سيارة الإسعاف.

ترجّل مرتضى من سيارة الإسعاف وخاطب جليل إسلامي قائلًا: «رافقهم إلى المستشفى. سنلحق بكم أنا والشيخ ميثمي».

- هل جُرحتَ يا عمّ؟

- لا شيء مهمًّا. سأضمد الجرح في المستوصف ثم ألحق بكم.

في سيارة الإسعاف نظرت إلى «ميثمي»، ذلك الشاب النحيف، وكان قد نزف طويلًا. تساءلت في نفسي: ترى هل سيرى هذان الأخوان أحدهما الآخر؟

في مستشفى «سردشت» أُدخل «ميثمي» غرفة العمليات مباشرة فيما تلقّيتُ العلاج على أحد الأَسرّة. ولم تمضِ ساعة واحدة حتى أخرجوه من غرفة العمليات. طلبتُ من «إسلامي» أن يأخذني إلى سرير «ميثمي» النقّال فأجابني: «سيأتون به».

أحضروا «ميثمي» إلى ردهة المستشفى فيما وصل مرتضى والشيخ عبد الله ميثمي، ودخلوا الردهة، واتّجهوا نحو السرير النقّال.

- الحمد لله أنّه أتى.

اقتربنا منهم حيث وقف الطبيب الجرّاح والممرّضة، فقال الشيخ ميثمي: «ما الخبر؟».

ما إن رأى الشيخ عبد الله نظرات الطبيب المليئة بالأسف حتى انحنى على جثّة أخيه وقبّل وجهه ثم قال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون!».!

82

لقاء في الرّدهة

6/آب*/1983

نظـرتُ مجـدّدًا إلى جسـم مرتضى النحيـف والهزيـل. لقد كان مضطربًا ومتلهّفًا للقاء الإمام الخميني. كنت أقرأ أفكاره من بعيد.

- أخ صياد، لا تنس وعدك.. إنّ وعد الحرّ دين..

لا أدري لماذا اختارني أنا من بين جميع القادة. عندما وقعت عيناه علـيّ ثانية هززت رأسي: ما هذه اللهفة والشـوق فيك.. فلتطمئنّ أننا نفكّر في الموضوع.. سيكون لك ما تريد.

كنت أجلس في صفّ قادة الجيش والحرس تحت الشرفة الصغيرة نستمـع إلى خطاب الإمام الخميني. كانـت حسينية «جماران» مكتظّة بمـن بقي من مجاهدي كتيبة الفجر وغيرها من الكتائب التي شاركت في عمليات «والفجر2». ابتعدت عن الجمع وذهبت إلى محسن رضائي ورحيم صفـوي. همست في أذن السيد محسن قائـلًا: «لقد تمّ تنسيق اللقاء. إنّ مرتضى يتحرّق شوقًا لهذا اللقاء.. ماذا لو لم يتم الأمر؟»..

برقت عينا السيد محسن ثم تبسّم قائلًا: «وأنا أيضًا كنت أراقبه.. لـديّ المخاوف نفسهـا يا سيّد علـي.. نسأل الله أن تسـير الأمور على أحسن وجه».

بدوره أفصح رحيم صفوي عن قلقه ممازحًا وقال: «إنّ هذا الأشلو الذي أراه سيقلب الدنيا فوق رؤوسنا إن لم نفِ بوعدنا له!».

قال السيـد محسن: «لقد قمت بالتنسيق مـع سماحة السيد أحمد الخميني، لكنني ما زلت قلقًا!».

فقلت: «ممّ أنت قلق؟!».

* ورد في الكتاب الاصل 6/تموز/83 لكن برجح أنه 6/آب/83.

- أن لا يتمّ اللقاء في هذا الزحام، أو أن تطرأ مشكلة ما..

فقلت: «وهذا ما أخشاه أنا أيضًا، لذا أقترح أن ننسّق مع الحرّاس الشخصيّين للإمام، ونطلب منهم إجراء اللقاء في الردهة الخارجية، أعني تلك التي تصل حجرة الإمام بالحسينية».

عرفت من بريق عيون محسن ورحيم أنّهما أُعجبا بفكرتي. قبيل انتهاء خطاب الإمام الخميني، كَلَّفْنا أحدَ عناصر الحرس بأن يأتي بمرتضى. وعندما حضر خرجنا نحن الأربعة بعد التنسيق إلى الردهة الفاصلة بين الحسينية وحجرة الإمام، ووقفنا في الطريق الذي يسلكه عند خروجه. وكانت فرصة سانحة لكي ألقي نظرة أخرى على وجه «مرتضى جاويدي» البريء الذي لمّا يزل يعلوه التراب والغبار أثر المعارك. وقع نظري على يده الملفوفة بجبيرة الجصّ.

- ماذا حدث ليدك يا سيد مرتضى؟

تبسّم قائلًا: «جرح بسيط! لا قطع الله عيشهم! ما إن استعدت وعيي حتى وجدت الجبيرة عليها!».

ختم الإمام خطابه ثمّ توجّه نحو الردهة يرافقه ابنه السيد أحمد وسماحة الشيخ أنصاري، فيما سددنا نحن الأربعة طريق الممرّ الضيق، فما كان من السيد محسن إلّا أن بادر بتقديم مرتضى إلى الإمام قائلًا: «سيدنا، أقدّم لكم مرتضى جاويدي؛ قائد كتيبة الفجر. ذاك الذي أخبرتك عنه. لقد حارب مع كتيبته العدوّ في عقر داره لمدّة أسبوع كامل، وصمدوا حتى النصر. في الواقع إنّ مفتاح نجاح العملية كان السيد مرتضى!».

كنت أرتقب ردّ فعل قائد الثورة على كلام محسن مع ما بسماحته من تعب جراء الخطاب الذي ألقاه وتعب الشيخوخة، حيث ناهز الثمانين من العمر. حدّقت في وجهه الشفيق ولحيته الطويلة ويده البيضاء. كان

وجهــه يتلألأ! تبسّم ثمّ نظر نظرة نافـذة من عينيه الناعمتين محدّقًا بوجه مرتضى الـذي أحرقته الشمس وبعينيــه الملتهبتين كمن أصابته الحمى.

- أسأل الله أن يحفظكم لدينه أيّها المجاهدون!

دمعـت عينــا مرتضى. ثـم نظر الإمــام الخميني إلى يـد مرتضى الملفوفة بالجبيرة وأشار إليها.

- ماذا حدث ليدك؟

- إنّه جرح صغير يا سيدي!

تقدّم الإمام من مرتضى ومسح بيده على يد مرتضى.

- سيتحسّن حالها إن شاء الله.

أعطــى تواضع الإمام ولطفه وحيويّته الضوء الأخضر لمرتضى لكي ينســى نفسه ويتصرّف على رسله. لقد كان جمر الشوق والمحبة يلتهب في قلــب مرتضــى بحيــث أراد أن يعبّر عمّــا فيه بــأيّ طريقة ممكنة. أطلق «اشلــو» العنان لنفسه وتخطّى الجميع مقتربًــا بقامته المتوسّطة مــن الإمام، فوضع يده السليمة خلف رقبة الإمام وأدنى رأس سماحته من وجهه، وجعل يقبّــل ويشمّ عمامته وجبهته وعينيه ووجنتيه ولحيته وعباءته ويديه ورجليه كما الظمآن في الصحراء أو كالعاشق الولهان!

لقــد رأيت وجهًا آخر لشهامة مرتضــى وجرأته في تصرّفه هذا مع الإمــام. لم يكــن لدى أيٍّ منّا الجرأة على القيــام بمثل هذا العمل لكي نــبرز محبّتنا للإمام! لكننا في الوقت عينــه قلقنا على حال الإمام إثر هــذا الحبّ الذي لا يخلــو من ضغط والــذي أظهره مرتضــى الشائق الولــه. غير أنّ الإمام لم يبدِ أيّ ردّ فعــل سلبيّ، بل كنت على يقين بأنّ سماحتــه كان يــرى مرتضى نموذجًا من المجاهديــن الذين قال فيهم مرارًا: إنني أقبّل أيدي هؤلاء المجاهدين!

وقف الإمــام الخميني بكلّ هــدوء ورباطة جأش بانتظــار أن ينهي مرتضــى جاويــدي قبلاتــه. أردنا أن نــدني مرتضى منــا وإذ بنا نرى الإمــام ينحني ويقبّل مرتضى قبلة لم أرَ مثلهــا في حياتي! كانت تشبه تمامًــا قبلات مرتضى للإمام! لقد شعــرت أنّ الإمام أحبّ ضيفه من صميــم قلبه! التفتّ لأرى السيــد أحمد ابن الإمــام، والشيخ أنصاري مديــر مكتــب الإمام، ومحسن ورحيــم وقفوا مذهولين مــن تصرّفات مرتضــى مع الإمام وتعامل سماحته اللطيف معه. سمعت السيد أحمد يقول: «لم أرَ الإمام يقبّل جبهة أحد قط!».

خرجت من حسينيّة «جماران» وفكري وذهني غارق باللقاء الخاص الــذي جمــع الإمام ومرتضــى. بينما أنــا كذلــك وإذا بالسيد محسن يضرب بهدوء على جنبي.

- سيد علي، انظر هناك..

نظــرت إلى حيث أشار السيد محســن فرأيت مرتضى يقف وحيدًا تحــت شجــرة بالقرب مــن أحد الجدران وقــد بدا مــتردّدًا في القيام بعمل ما. أردت أن أسأله عمّا يختلج في نفسه إثر ذلك اللقاء. وقبل أن أقترب منه أخذ يضرب جبيرة الجصّ التي تلفّ يده بجذع الشجرة!

- ما الذي يفعله؟!

لم أكد أقترب منه لأمنعه من عمله حتى انكسرت الجبيرة وسقطت.

- ماذا فعلت يا أشلو؟

رفع رأسه وتبسّم.

- «اشلونك» أيها العقيد؟

ثــم حــرّك معصمــه وأصابع يده عــدّة مــرّات وقال: «أجــل.. لقد شفيت.. وهل يمكن أن لا تشفى يدٌ مسح عليها الإمام بيده؟».

تبسّمت في وجهه وقلت: «اشلونك!».!

83

بهشت آباد

8/ آب/ 1983

في الصباح وبينما أنا جالسة في الغرفة رقم 101 من الفندق أفكّر في مرتضى وإذا بأحدهم يطرق الباب بقوة! خفق قلبي سريعًا من الخوف واستفاقت الأوهام والشكوك المرعبة في نفسي مجدّدًا: هل جاؤوا بخبر شهادة مرتضى؟ لا قدّر اللّه..

نهضت والقلق يلهبني. مشيت نحو الباب بتثاقل. سألت بصوتي المرتعش: «م..م.. من هناك؟».

- صديق!

ففتحت الباب بسرعة وارتباك.

- م..م.. مرتضى!

نظر إليّ بعينيه المنهكتين. وبدوري حدّقت في وجهه طويلاً.

- ماذا بك يا بنت خالتي؟! ألا تطلبين منّي أن أدخل؟

بالنسبة إليّ كان كأنّه قد وُلد ثانية. لم أستطع أن أتمالك نفسي وانهمرت الدموع من عينيّ. كانت عيناه غائرتين وقد بدا هزيل الجسم أكثر من ذي قبل. لكنّ وجهه كان أكثر جاذبية في قلبي ممّا مضى. شيئًا فشيئًا انحلّت عقدة لساني وشرعت بالكلام قائلة: «هل عانيت الجوع والعطش فصرت نحيف الجسم هكذا يا بن خالتي؟».!

- كلا يا بنت خالتي، كنت في الكويت!

- ادخل!

فتبسّم ضاحكًا ثم دخل. أخذتُ أدور حول نفسي لشدّة فرحي به فيما جلس واضعًا إحدى رجليه على الأخرى.

- لماذا تدورين هكذا؟ اجلسي!

جلست قبالته وغرقت في قسَمات وجهه أتأمّلها بدقّة بحيث صرتُ أسمع صوت أنفاسه وأشمّ رائحته. حرّك يده أمام عينيّ.

– أين أنتِ يا بنت خالتي؟ ألم يسبق لكِ أن رأيتِ إنسانًا؟!

فتبسّمتُ ثم قلت: «ما هي أخبار الحربَ؟».

– لقدّ لقّن مجاهدونا عملاء البعثيين درسًا لن ينسوه!

لم أتمالك نفسي وشرعت بالبكاء.

– هل استشهد «بهمنزادكان» أيضًا؟

هاج به الحزن.

– لقد سبقني إلى الشهادة!

فقلت بغصّة: لقد عادت زوجته إلى «جهرم».

– أنتِ فقدتِ صديقتك أيضًا؟ اجمعي حاجياتك. علينا أن نرجع إلى «فسا».

– إلى «فسا؟!». متى؟

– هذا اليوم!

بعد ظهر ذلك اليوم، وبكل بساطة، وضّبت حقيبتي وركبت السيارة برفقة «بروين» وتركنا الفندق. جلس مرتضى خلف مقود سيارة «تويوتا لاندكروز» الخاصّة بالحرس وإلى جانبه الحاج محمود ستوده، فيما جلستُ وزوجته «بروين» وابنتهما في الخلف. ربّت محمود على كتف مرتضى.

– إن لم يكن لدى السيّدتين مانع فسنذهب أولًا إلى مقبرة «بهشت آباد!».

التفت مرتضى إلى الخلف ونظر إليّ قائلًا: «لا أدري إن كان محمود يريد الذهاب إلى «بهشت آباد» بغية زيارة قبور الشهداء أم لتناول المثلّجات!».

– نـزور الشهـداء أولًا ثم نتنـاول المثّلجات. ثمّ عليـك أن تعلمي أنّ كليهما ينتسبان إلى عائلة واحدة.

– وما علاقة الشهادة بالمثّلجات؟!

– كلاهما طعمه حلو!

نظرتُ أنا و«بروين» إلى بعضنا البعض.

دخلـت السيارة مقـبرة «بهشت آبـاد». وبعد زيارة قبـور الشهداء أوقف مرتضى السيارة قرب دكّان المثّلجات خلف المقبرة.

– أخبِرني الحقيقة يا حاج محمود، كيف عثرت على دكّان المثلجات هذا؟!

أجاب محمود الذي كان هو المضيف كما في كلّ مرّة: «تناولْها واهدِ لي مقابلها ثواب الفاتحة!».

وقبـل أن تنطق بروين ببنت شفة، ترجّل من السيارة ثمّ ما لبث أن عاد وبيده المثلجات.

– تفضّلـوا بتناول المثّلجات! إنّ صاحـب الدكان أبٌ لشهيدين، وهو يقـدّم مثّلجاتـه للمجاهدين مقابل الصلوات علـى محمد وآل محمد. اهدوا ثواب الفاتحة إلى روحَي ولديه الشهيدين!

ظُهـر اليوم التالي عبرنا جـادّة «شيراز – فسا». وقبل أن نصل إلى «جليـان» وقعـت عيناي علـى قبّة ضريح سليـل الأئمة السيـد «شمس الدين»، فقلت للسيد محمود: « توقّف قرب المقام».

أوقف السيارة.

– تفضّلي يا حاجّة.

فتحتُ الباب الخلفيّ فنظر محمود إلى مرتضى.

– أشارطـك أنّ الحاجّـة تريد أن تضع النقود مجـددا في صندوق الضريح!

فتبسّمـتُ ثم ذهبت نحو الصندوق وأدخلـت فيه ورقة مئتي تومان حمـراء اللون. بعد ذلـك زرت صاحب المقام زيارة سريعة ورجعت إلى السيارة. قال محمود لزوجته: «إنّ قلبي يحترق على مرتضى!».

مسح مرتضى على لحية محمود ضاحكًا.

– وما الذي يحرق قلبك؟

– إنّ مرتّبـك الشهـري لا يتجاوز الألفين وثمانمئـة تومان، وفي كل مرة نمرّ من هنا تضع زوجتك مالًا قد نذرته للسيّد ابن الإمام! لا أعلم هـل يبقى لديكما مـال لتصرفانه أم لا؟ أعتقـد أني عرفت سرّ نحول جسمك يا مرتضى؟!

التفت مرتضى إلى الخلف وقال لي: «الآن عرفت لماذا أصاب دائمًا بالجراح ولا أوفّق للشهادة».

فسأل محمود: «وما علاقة هذا الأمر بالشهادة؟».

– العلاقـة واضحـة. فمن جهة أنا أدعـو الله أن أرزق الشهادة وفي المقابـل تتضرع ابنة خالتي بالدعاء والنـذر لكي لا أستشهد. ولا بدّ أنّ الملائكة وقفوا حيارى أيستجيبون دعائي أم دعاءها!

أخذت أفكّر في ما قاله مرتضى مازحًا حتى وصلنا إلى البيت.

بعد تناول طعام الغداء وبينما أنا أفرغ حقيبتي وإذا بنداء «يا الله، يا الله» يعلو في باحة البيت المملوءة بالغبار والتراب!

– تفضلوا بالدخول، أهلًا وسهلًا.. شرّفتمونا.

نهضـت بسرعة ووقفت خلف نافـذة الغرفة الخشبيّـة ونظرت إلى الباحة لأرى جمعًا من الناس وفيهم الغريب والصديق والكبير والصغير والقروي والمدني قد دخلوا البيت، وأخذوا يعانقون مرتضى ويقبّلونه، ثمّ وضعـوا حول عنقه إكليلًا من الـورد، كما ذبحوا أضحية من أجله. كأنّ مرتضى قد عاد لتوّه من حجّ بيت الله. انتابني الذهول والحيرة!

ما برحتُ غرفة مرتضى تغصّ ثم تخلو من الوافدين فيما انشغلتُ طوال الوقت بتهيئة الضيافة.

في اليـوم التالي حضرتْ مجموعة مـن قبل الحرس الثوري وأخذوا مرتضـى إلى «فسـا»، وسمعت فيمـا بعد أنّه خطـب في مراسم صلاة الجمعة. في المسـاء، وحين عاد وبيده كتاب وصـورة للإمام الخميني، نظرت إليه بعينين ملؤهما الشكوك والاستغراب ثم قلت: «ما سبب كل هذا الذهاب والإياب والزيارات والاستقبال.. أخبرني بالحقيقة؟!».

حاول أن يتجاهل الأمر.

- أي حقيقة؟

- مـا سـرّ هذه الحفـاوة؟ لماذا يـزور بيتنا الجميع؟ لـماذا يقومون بتكريمك ويأخذونك إلى «فسا؟».

فضحك متظاهرًا أنّه لم يدرك قصدي.

- آه..نعم.. الآن فهمت ماذا تقولين..

- أجل، لا تدّعِ أنّك لم تفهم ما قصدت.

- إنّ الناس يسألون عن أخبار الحرب وأنا أقوم بدور الحكواتي في القهوة وأسرد لهم ما رأيت!

- هل تريدني أن أصدّق ما تقول؟

لكنّـي لـمّـا شعرت أنّه يخفي علـيّ أمرًا ما كففتُ عـن مضايقته. في ذلـك الوقت كنت أعيش لحظات سعيدة لرؤيتي أفراد عائلتي وأقاربي ولو لأيام قليلة.

84

قصف مرعب

23/أيلول/1983

صبـاح أول يوم من أيام فصل الخريف كنـت أحيك لمرتضى كنزة مـن الصوف كُحلية اللون. فجأة قُرع باب غرفة فندق «قيام»، فشعرت بالاضطراب وقلت في نفسي: عسى أن يكون خيرًا..

وضعت العباءة على رأسي وفتحـت الباب بحذر فإذا بها «حليمة»، المرأة ذات القامة الطويلة من مدينة «خرّمشهر».

– السلام عليكِ يا سيدة «جاويدي».

حدّقـتُ في وجههـا الفتـيّ الأسمر المليـح، فرأيت عينيهـا تضجّان بالنشاط والحيويّة، عندها تنفّست الصعداء! كانت حليمة قد خرجت وزوجهـا من وطأة حصـار «خرمشهر» الذي دام ثلاثـة وثلاثين يومًا. التحق زوجها بجبهـة القتال مع مرتضى فيما بقيت هي معنا في فندق «قيام». قلت لها: «تفضلي بالدخول، هل حدث شيء؟».

نظرت إلى الصنارة وخيط الصوف اللذين كانا في يدي ثم وضعت يدها على فمها وضحكت قائلة: « هل تحيكين كنزة للسيد مرتضى؟».

– ادخلي الآن!

– شكرًا، أردت أن أسألك؛ هل رأيتِ صورة زوجك في الصحيفة؟

– صورة مرتضى؟

– أجل، لقد حضر زوجي. سوف آتي لكِ بالصحيفة!

ما إن ذهبت حليمة حتى رنّ جرس هاتف الغرفة.

– نعم.. م..م.. مرتضى؟ هل هذا أنت؟ أين أنت؟

- ألا تسلّمين عليّ يا سيّدة!

- السلام عليك، ولكن، أين أنت الآن؟

- إنني في غرب البلاد، آخذ قسطًا من الراحة.

- راحة! أين؟

- في «تبريز».

- لماذا في «تبريز؟».

- أُصبتُ بجرحٍ طفيفٍ..

لم أعد أسمع صوته. مرّت في مخيّلتي سحُبٌ من الأفكار العجيبة المؤلمة فأرعبتني، وأجهشتُ بالبكاء.

- يا بنت خالتي.. إنني أكلّمكِ.. إن بكيتِ فسأقطع المكالمة!

- حسنًا.. ولكن أين جُرحت؟ باللّه عليك أخبرني..

- ليس هناك ما يقلق. إنّه مجرّد جرح سطحيّ!

- أين أنت الآن؟!

- سبق أن قلت لكِ في مستشفى «تبريز!».

- إن كان جرحك طفيفًا لمَ أنت في المستشفى إذًا؟

- تعرفين ما يقوله الأطبّاء: من أجل الاطمئنان!

- أعطني عنوان المستشفى، أريد أن أذهب إلى هناك.

- هل أنتِ تمزحين يا بنت خالتي، إنّ تبريز بعيدة! لقد أقنعت طبيبي أن يرسلني إلى شيراز، حينها يمكنك البقاء بقربي قدر ما تشائين، هل هذا جيّد؟ لكن لديّ رجاء منك!

- أي رجاء؟

- لا تخبري أحدًا بالأمر، خصوصًا أبي وأمي. هل تعدينني بذلك؟

- أين أُصبت؟

- لقد أصبت ببعض الخدوش في يدي ورجلي. حسنًا، هل تعدينني؟؟

- حسنًا يا مرتضى!

وضعتُ سمّاعة الهاتف وغرقت في أعماق نفسي.

عند الظهر أتت كل من «بروين» و«حليمة» والأخريات وحاولن إخراجي ممّا أنا فيه. قالت بروين: «قرروا أن يأخذوا العائلات إلى «خرمشهر» لإحياء العاشر من محرم، تعالي برفقتنا أنتِ أيضًا».

وضعتُ يدي سريعًا على الهاتف.

- لن آتي. إنني أنتظر مكالمة من مرتضى. لن أذهب إلى أيّ مكان بدون إذن مرتضى!

قلت ذلك جازمةً بحيث أصيبت بروين بالدهشة.

لم تمرّ ساعة على ذهاب بروين حتى اتّصل مرتضى.

- يا بنت خالتي، اتصلت بك لأوقّع على ورقة مأذونيّتك للذهاب إلى خرّمشهر!

- سوف أبقى هنا. إنّك تدخل السرور على قلبي بمكالماتك!

- اسمعي، سوف تشعرين بالوحدة وستتأذّين. اطمئنّي لن أتّصل هذه الفترة. اذهبي إلى خرّمشهر يوم العاشر من محرم عسى أن تُوفَّقي لإحياء العزاء. أو لعلّك تخافين من الذهاب؟! ها؟

- لن أذهب!

- أدام اللّه رزقك! قولي إنّك تخافين!

- كلا، هل نسيت أنني بنت الجبل!

- إذًا أقسم عليكِ بحياة الإمام الخميني أن تذهبي ولكِ عليّ أن لا

أتصل هذه المدّة.

فلم يكن لي حيلة إلّا الاستسلام.

- حسنًا، سأذهب!

في اليوم التالي كنت أقف على سطح المسجد الجامع في خرمشهر أنظر إلى المدينة المحرّرة، فيما أخذت مواكب صغيرة وكبيرة من المجاهدين الذين يلطمون صدورهم تتّجه من الشوارع المحيطة نحو المسجد. وقف بينهم «كويتي بور» وهو يقول ناعيًا:

يا ليتني أموتُ حزنًا لفاجعة عاشوراء

لم يرجع حامي خيام آل الرسول.

كلّما وقع نظري على شابّ من المجاهدين تراءى لي مرتضى. ليته كان بينهم اليوم. تقدّمتْ منّي بروين وابنتها الصغيرة سمية ثم قالت: «كأنّهم ألقوا قنبلة ذَريَّة على خرمشهر. لم يبقَ فيها بيت سالم!».

نظرتُ إليها، وكنت أحبّها أكثر من أختي، ثم قلت: «سامحيني يا أختاه، كنت أودّ أن أرى خرّمشهر بعد تحريرها!».

- حين يفقد الإنسان شيئًا ثمينًا ثم يجده فإنّه سيعرف قدره أكثر.

بينما أنا أراقب مواكب اللطم وإذ بالسكوت يخيّم على المدينة المدمّرة.

- إنّها طائرات عراقيّة! اختبئوا.

علت الأصوات. خافت سمية وأخذت بالبكاء. نظرت إلى السماء فرأيت سواد طائرتين حربيّتين عراقيّتين أخذتا تغيران على المدينة. تفرّقت مواكب اللطم ولاذ كلّ واحد إلى ملجأ. ملأ الأجواء صوت المضادات المنطلقة من أطراف المدينة. ما لبثتْ صفحة السماء الزرقاء أن انتقشت بالكثير من الدوائر البيضاء الصغيرة التي أحاطت

طائرتَي العدو محاولة نسفهما. ما إن هممتُ بالنزول من السطح حتى سمعت دويّ عدّة انفجارات عمّ بعدها الصمت والسكون، ولم يطل الأمر حتى ارتفع الدخان والغبار من مناطق متفرّقة من المدينة.

- أين قصفوا؟ لعنة الله عليهم!

كانت المرة الأولى التي شاهدتُ فيها الحرب بهذا القرب. وخلافًا لما هو متوقّع، فإنني لم أشعر بالخوف والفزع من خطر الحرب، ليس هذا فحسب، بل تملّكني حينها شعور جيّد؛ ولعلّه كان بقدر ذرّة من تلك المشاعر المعنوية العجيبة التي تعمر قلوب المجاهدين ليلة العمليات العسكرية، والتي لطالما أخبرني عنها مرتضى! في تلك اللحظة أدركت كيف كان مرتضى يثبت كالجبل الراسخ رغم ضراوة الحرب. كأنّ طائرتي «ميغ» السوداوين العدوّتين دمّرتا كل أنواع الشكّ والضعف والحقارة في نفسي ثم غادرتا.

- علينا الذهاب إلى «عبادان!».

أمسكت بروين بيدي محدّقةً بي باستغراب، ثم تبسّمت وتابعت كلامها قائلة: « ماذا حدث، لقد انقلبتِ بشكل مفاجئ».

ألقيت نظرة أخيرة على التقاطع والشارع اللذين مرّ فيهما مواكب اللاطمين، وتناهى إلى سمعي دوي الانفجارات وأزيز الرصاص.

عند خروجنا من خرّمشهر وقع نظري من خلال نافذة الحافلة على عدد كبير من السيّارات الخاصّة والأعمدة الحديديّة المغروزة في الأرض بشكل عموديّ. قلت: «ما هذه؟».

فأجابني علي أكبر رحمانيان وكان يجلس قرب زوجته: «سيّدة جاويدي، لقد غرسها العراقيّون لكي تنبت منها أسلاك حديديّة!».

فضحكتُ وشعرت بتحسّن. تركنا خرّمشهر متّجهين نحو عبادان

التـي كانـت مدّمرة بشـكل جزئيّ بحيـث لم يخلُ مكان فيهـا من آثار القنابل والقذائف.

عنـد الظهـيرة تناولنا الغـداء؛ معلّبات السمك مـع الخبز، وبقينا نـرزح تحت وطأة نيران مدفعيّة العدو حتى العصر. مررنا على مقبرة شهـداء الحـرب كما قرأنا الفاتحـة لأرواح ضحايـا سينما «ركس» في عبـادان، ثم توجّهنا نحو الأهواز. أمّا أنا فكلّما كنت أبتعد عن خطوط المواجهات سيطر الاضطراب والقلق عليّ أكثر فأكثر!

85

الوليّ الصالح إسماعيل

24/أيلول/1983

مساءً رنّ جرس الهاتف، رفعت السمّاعة، وبادرت بقولي: «نعم».

– السلام عليكِ يا بنت خالتي!

– عليك ال..س..س..لام، مر..ر..تضى! كيف حالك؟

– ما بكِ؟ أراكِ مرتبكة؟

تنفّست الصعداء.

– ومن ذا الذي يسمع صوت مرتضى فلا يرتبك؟!

– يـا لكِ من محتالة!! لقد أقنعتُ طبيبـي بأن يرسلني إلى شيراز، وتواصلتُ مع الحاج محمود وعلي لكي يأتيا بكِ إلى هناك.

مـا إن وضعـتُ السماعـة حتى شرعـت بالبكاء. بعـد ذلك نهضت وفتحـت باب الغرفة ثم نظـرت إلى ممرّ الفندق، ما لبثـتُ أن أغلقت البـاب ودخلت. سرت قليلًا ثم وقفـت أمام النافذة وألقيت نظرة على شجـر النخيل ونهـر «كارون». نظرت إلى الساعة التـي كانت عقاربها تشـير إلى العاشرة مسـاءً. فجأة طُرق البـاب فأسرعت وفتحته لأرى بروين وهي تقول لي: «محمود حاضر للذهاب، هل أنتِ مستعدّة؟».

فأشرت برأسي وعينيّ بأنني مستعدّة.

– إننا ننتظرك أمام الفندق.

لم أدرِ كيـف وضّبـت حقيبتي ثم أغلقت بـاب الغرفة ونزلت الدرج سريعًا. خرجت من الفندق فرأيت سماحة الشيخ بنائي والسيد ألواني وعائلتيهما ينتظرون قرب السيارة. ركبتُ السيارة الكاكية اللون، حيث

جلسنا نحن النساء في الخلف فيما جلس الرجال في المقاعد الأمامية.

في تلك الليلة، وعلى ذلك الطريق المظلم ما خلا انعكاس أضواء السيّارات المقابلة، كانت الفرصة مؤاتية لأن يسبح خيالي في بحر من الأفكار المتلاطمة: من الممكن أن تكون رجله أو يده قد قطعت.. أو عينه قد انطفأت.. جريح! لعلّه هكذا يبقى بقربي.. لكن لا، ذاك الذي أعرفه لن يترك الحرب ولو قُطعت يده ورجله! أنانيةٌ أنا لأنني أريده لنفسي فقط؟ ليت النساء يستطعن القتال في الخطوط الأماميّة، حينها سنبقى معًا، مهما حلّ بنا من مصائب.. الوحدة والانتظار يقتلان الإنسان.. للّه صبرك يا مولاتي يا فاطمة.. يا زينب الكبرى.. كلّما اقتربتُ من شيراز كان الهدوء والسكينة ينسلّان من داخلي أكثر فأكثر.

في صباح اليوم التالي وصلنا إلى مستشفى «نمازي» في شيراز.

- أيتها الممرّضة.. مرتضى جاويدي، جريح نُقل من مستشفى تبريز.. لواء المهدي.. كتيبة الفجر..

أخذتُ أركض داخل ممرّ المستشفى مسرعة. فجأة رأيت رجلًا نحيفًا هزيل الجسم عليه زيّ أزرق مخطّط، يمشي بالاتجاه المعاكس لي. صرخت قائلة: «مرتضى!».

ما إن أدار الرجل وجهه حتى شعرت بعينيّ تلتهبان. كانت يده اليمنى ملفوفة بجبيرة الجصّ وقد عُلّقت برقبته. لقد كنت أعشق مرتضى إلى حدّ التقديس. يا إلهي، لولا وجود الآخرين حولنا لعانقته وانهلت عليه تقبيلًا، ولكحّلت عينيّ بتراب قدميه، وربّما لسجدت أمامه والعياذ بالله! في كلّ مرّة أراه كنت أشعر بأنّه أغلى وأثمن من ذي قبل، وهذا ما كان يقلقني! اقتربت منه فالتفتَ إليّ تعلو وجهه النحيف ابتسامة، أمّا جسده فكان مملوءًا بجراحات مضمّدة وأخرى مكشوفة. وحين رفع

قدمــه أحسستُ وكأنّ الشظايا الصغيرة والكبيرة التي اخترقت جسده تضغـط على أعصابه فبان أثر الألم واضحًا على قسمات وجهه. وقفتُ أمامه فيما اغرورقتْ عيناي بالدموع. قلت في نفسي: ليتني أستطيع أن آخذه إلى مكان لا تصل إليه يد أحد، يا ليت، يا ليت!!

لكنني ما لبثت أن عنّفت نفسي: أنانيّة.. أنانيّة!

صحــت في وجهه معاتبــة: «مرتضى.. ألم تقل لي إنه جرح بسيط.. هل هذا من المروءة؟!».

فوضع يده على كتفي.

- يا بنت خالتي، اجمعي أغراضي ولننطلق إلى «فسا».

دخلنا غرفة فيها سريران استلقى على أحدهما فتى تعبويّ جريح. أمــا سريــر مرتضى والطاولــة المجاورة لــه فقد امتلآ بالــورود وعلب الحلوى ومعلبات الفاكهة والعصير.. ضحك محمود ستوده:

- هل هذا مستشفى أم دشمة الدعم والتموين!

قال ألواني: « يمكننا بوجود كلّ هذه الأزهار والحلوى والعصائر أن نفتح دكانًا لبيع الخضار أو الحلوى أو الزهور!».

قال محمود ستوده: «من الأفضل أن ننطلق بعد الظهر».

فأشار «ألواني» إلى الأطعمة.

- سينالنا شيء من هذا على الأقلّ.

ضحــك مرتضى قائلًا: «إن حلّت الساعــة الثانية فسيحضر جميع أهالي شيراز إلى المستشفى لزيــارة الجرحى، حينها سنضطر للبقاء حتى الليل!».

رافقَنا مرتضى من دون أن يبدّل زيّ المستشفى.

مررنا ببحيرة الملح ثم بقرية «مهارلو». قال مرتضى لمحمود ستوده: «توقّف عند مقام الولي الصالح إسماعيل حتى نصلّي».

فقال ألواني: «ها هو ذا مقام الولي الصالح إسماعيل».

كان مرتضى يجلس بقربي ويده معلّقة بعنقه فتبّسم لي.

- هل تُضحككِ ثيابي يا بنت خالتي؟

أدّينا الصلاة في مقام سليل الأئمة إسماعيل ثم انطلقنا.

مررنا بـ«فسا» وحين اقتربنا من قرية «خيرآباد» رَكن محمود السيارة إلى جانب الطريق وقال: وهذه هي قريتنا!

قال مرتضى: «هل تريد أن تقول لنا إنّ قريتكم أكبر من قريتنا!».

- لا يا بن العم، أريد أن أقول إنّك إن دخلت «جليان» بهذه الهيئة فسوف تصاب أمّك المسكينة بسكتة قلبية!».

ثم التفت إليّ قائلًا: «هل لديكِ ثياب له يا حاجّة؟».

- ها.. أجل!

أدخلتُ يدي في الحقيبة بسرعة وأخرجتُ ثياب عرسه الكحليّة. وعلى الفور علت أصوات «ستوده» والسيّدات بالضحك. أمّا السيد ألواني فأخذ يضرب على باب السيّارة وهو ينشد: «عريس الزين يتهنّى..!». ضحك مرتضى وقال: لقد أرقتِ ماء وجهي يا بنت خالتي!

أطرقتُ برأسي أرضًا فيما مرّت في ذهني أحداث يوم الخطبة. قال محمود ستوده: «إنّه جيد، إلبسه يا سيد مرتضى!».

- ليس المكان مناسبًا، على حافة الطريق و..

- اسمح لي، سوف أرتّب الأمر. أرجو المعذرة، فليترجّل الجميع من السيارة ما عدا العريس.

ترجّلنا جميعًا فيما لم يكفّ «ستوده» عن المزاح.

- فلينظر الجميع ناحية القبلة!

ضحكنا ونظرنا إلى الجبل، لمحتُ في سفحه قطيعًا من الأغنام يتحرّك نحو الأسفل، وتناهى إلى أسماعنا رنين الأجراس المعلّقة في رقابها. أخذت أفكّر في الحياة: إلهي اجعل حياة الجميع عامرة بمثل هذه اللحظات الحلوة.. ولا تجعلها تمرّ سريعًا! إلهي اجعل هذه الدنيا خالية من الغصص والآلام .. واختم هذه الحرب بنصر المجاهدين..

- يمكنكم أن تنظروا الآن!

التفتنا إلى الخلف لنرى جسد مرتضى النحيف والهزيل قد غرق في تلك البدلة، وكأن ألم الجروح والشظايا قد نُفِضَتْ جسمه!

- تفضّلوا بالركوب.

عندما اقتربنا من قرية «جليان»، فتح مرتضى الرباط الذي عُلّقت يده به. قلت له: «ماذا تفعل؟».

- هكذا أفضل.

دخلت سيارة التويوتا أزقّة القرية الترابيّة. أصابتني الدهشة حين رأيت الكبار والصغار يخرجون من بيوتهم ويمشون خلفنا. توقّفت السيارة أمام بيت الحاج رضا. ما لبث أن خرج الوالد من البيت وكأنّه شمّ رائحة ولده. ترجّل مرتضى. نظر «مش رضا» إلى وجه ولده مرتضى وقال بلحن خاص: «هل جُرحتَ ثانية؟».

قال ستوده: «من أين علمت يا حاج؟».

- لقد رأيت حلمًا.

- يا حاج رضا، إنّ مرتضى لم يصب بجروح. كلّ ما في الأمر أنّه كان يقشّر برتقالة فجرح يده!

أسرعت خالتي «شهربانو» نحو مرتضى وقبّلت رأسه ووجهه!

– فديتك بروحي يا عزيز أمّك!

ثمّ جاء الأقارب والمعارف وأهالي القرية وقبّلوا مرتضى. كانت القرية تضجّ بأهلها والجميع يتكلّم عن «اشلو»، أمّا أنا فازددت قلقًا. تضايق مرتضى من محمود ظنًّا منه أنّه أخبر الناس من قبل بمجيئه. لكنّ محمودًا نفى ذلك بشدّة فهدأ باله.

دخلنا المنزل، فما لبث أن كسر «ستوده» جدار الصمت مشيرًا إلى جدار الغرفة.

– يا أمّ مرتضى، لماذا علّقتم صورة «قدمعلي» ولم تعلّقوا صورة مرتضى؟

فقالت الخالة شهربانو: «ماذا أقول لك يا ولدي؟! لطالما طلبت منه أن يأخذ صورة له ولكنّه لم يقتنع!».

فالتفت ستوده إلى مرتضى قائلًا: «سوف نضع صورة للسيد مرتضى على الحائط إن شاء الله!».

تملّكني والخالة شهربانو القلق. حاول ستوده أن يصلح ما قاله، ولكنّه زاد الطين بلة فقال: «نسأل الله أن يختم حياتنا جميعًا بالشهادة!».

86

الخطّ الأمامي

25/أيلول/1983

بعـد الظهر عـاد مرتضى من شـيراز بعد إجـراء معاينة لجروحه وفكّ الجبيرة عن يده. دخل باحة المنزل ثم جلس وناداني: «آمنة، هلّا أحضرت لي إبرة؟».

عندما أحضرت له الإبرة وجدته قد أشعل المدفأة الزيتية. قلت له: «أتريد أن تخيط ثوبًا؟».

فضحك. قلت: «أشعلتَ المدفأة في هذا الحرّ؟!».

دخلـتُ الحظيرة وحلبتُ الشاة. وحين عدت وجدته منهمكًا في عمل ما وقد أحنى رأسـه. اقتربت منه لأرى بجانبه قطعة من ورق الكرتون وعليها عدد من قطـع الشظايا الملوّثة بالدم فاقشعرّ بدني! كان يُخرج الشظايـا الصغيرة من تحت جلده بالإبرة. عندما وضع الإبرة المغطاة بالدخـان الأسود على النـار ثانية قلت له: «ماذا تفعـل يا مرتضى؟». تفاجـأ ورتّـب جلسته سريعًا ثـم ضحك وقال: «لقد كنـت أقوم بعمليّة جراحيّة مستعجلة!».

- ولكن يا رجل، سوف تلتهب!
- لقد اخترقت الشظايا الجلد فقط.
- قل لي الحقيقة يا مرتضى ماذا حلّ بك؟
- لا شيء يُذكر يا بنت خالتي.

تذكّـرت كلام «علي ألـواني» حين قال لي: «اهتمّـي بمرتضى، لقد شعر بالغثيان عدّة مرّات خلال الطريق».

قلت لمرتضى: «ماذا تريد أن تفعل؟ لماذا تخفي عنّي؟».

حـين رأى دموعـي قـال: «حسنًا اذهبـي وأحضري قليـلًا من الماء الساخن حتى أغسل هذه الجروح!».

ذهبت وسخّنت قليلًا من الماء، ثم عدتُ فوجدته جالسًا قرب الحوض الإسمنتي. ما إن خلع قميصه حتى سألته بصوت مرتعش: «ما هذا يا مرتضى؟».

– فديتكِ بنفسي، إنّها شظايا!

أصابني الذهول من كثرة الجروح في ظهره. ولا أبالغ إن قلت إنّ ليس ثمّة مكانٌ سالم في جسده! بعض تلك الجروح كانت قد خيطت وبعضها بقي على ما هو عليه. شعرت وكأنّ الدنيا تدور من حولي! قلت له: «عليك أن تذهب إلى المستشفى».

– أرأيتِ أنّك لا تقدرين على أن تصبحي ممرّضة! من الواضح أنّك لم ترَي جرحًا قبل الآن!

بعد أيّام ناداني مرتضى عند الصباح وكانت جراحاته لم تلتئم بعد: «وضّبي حقيبتك، علينا العودة إلى الأهواز عصرًا».

تبسّمتُ، فتابع قائلًا: «حين نصل إلى شيراز سأذهب أنا إلى «زرقان» وتذهبين برفقة عائلتَي السيدين ستوده وألواني إلى الأهواز، وسألحق بكم فيما بعد».

– لماذا إلى «زرقان»؟، ألِأجل زيارة عوائل أفراد كتيبتك؟

– أصبحتِ كأحد أعضاء هيئة كتيبة الفجر يا آمنة! لقد أصرّ أحد شبّان الكتيبة عليَّ فوعدته أن أزوره برفقة «بديهي» ليوم أو يومين.

– ألا يضرّ هذا بجروحك؟

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

– إنني أعشق هذه الجروح! اذهبي الآن واجمعي أغراضك.

عندما ودّعت والديّ نصحاني قائلَين: «إنّ الأهواز تتعرّض للقصف يوميًّا، الأوضاع خطرة هناك!».

– «لو كان باستطاعتي مرافقة مرتضى إلى الخطّ الأمامي لفعلت!».

عصـر ذلـك اليـوم ركبـتُ وعائـلات كلٍّ مـن «ألـواني» و«ستوده» و«نورأفشـان» السيـارة وانطلقنا باتّجـاه شـيراز. في الطريق اشترى مرتضى والآخرون تينًا وشمامًا (خربُزه) وأخذوا يأكلون ويمزحون.

أثناء سيرنا شعر ألواني بالغثيان، كأنّ التين لم يناسبه. أمّا مرتضى وستـوده فشقّا الـ(خربزه) وقدّما منها للآخرين. لم يستطع ألواني أن يأكل وانـزوى ساكتًا. فيما أخذ الاثنان يـأكلان منها ويرميان القشور على علي ألواني قائلَين: «هنيئًا لنا أنّنا سالمان!».

قطـع ألـواني صمته وقـال لمرتضى بصوت عـال: «إليك عنّـي أيّها القروي. سأخبر الجميع كيف أرقت ماء وجوهنا أمامَ الإمام الخميني!».

نظر مرتضى إليّ ثم إلى ألواني نظرة ملؤها التوسّل.

أمّـا ألواني الذي عرف نقطة ضعف مرتضى فتابع قائلًا: «أريد أن أعلـم أيّ علاقة تربطك بمحسـن رضائي، القائد العام للحرس، حتى تناديه بلا تكلّف: محسن!».

ضحـك الجميع. فرمـى مرتضى قشرة الشمام نحـو ألواني. وبعد وقـف التراشـق مـرّ في ذهنـي كلام الناس عـن مرتضـى والجريدة واللقاءات والاستقبالات. قلت له: «عمَّ يتحدّث السيد ألواني؟!».

فحاول أن يماطل مجدّدًا.

– إنّه يمزح.

– هل تقصد أنّ اللقاء الخاص بالإمام وقائد الحرس كان مزحة؟

فاضطرّ إلى أن يخبرني باختصار أنّه وبسبب الانتصار الذي حققه شباب الكتيبـة في عمليات «والفجر2» أخذوهم للقـاء الإمام. قاطعته قائلة: «هذا فقط!».

– فقط.

حين وصلنا إلى شيراز ترجّل مرتضى ثم توجّه نحو مدينة «زرقان».

87

بيت الأحزان

3/ ت[1]/1983

قبيل الظهيرة كنت في غاية السرور. لقد أحضر معه هذه المرة معاونه محمد رضا بديهي إلى مدينة «زرقان». سألته: «هل ستزور مكانًا آخر غير زرقان يا عمّ مرتضى؟».

فتبسّم وقال: «سيد همّتي، إنني أعتبر جميع المدن التي لديها عناصر في كتيبة الفجر كمدينتي!». ثمّ ربّت على كتفي وتابع: «سيّد مسعود، فلنذهب إلى روضة الشهداء عصرًا».

– طلباتُ «اشلو» أوامر!

بكلّ فخر واعتزاز أخذتُ الرجُلَين بدايةً لزيارة قبور شهداء زرقان. وبعد أن قرأنا الفاتحة ذهبنا إلى المسجد الجامع في زرقان لأداء صلاتي المغرب والعشاء. وكان من عظيم دهشتي ما رأيته من استقبال أهل زرقان وشبابها وحفاوتهم بالعم مرتضى قبل الصلاة وبعدها بل وقبل ذلك في روضة الشهداء! لقد كان جميع أهل مدينة زرقان يعرفونه. فملحمة «والفجر 2» وشجاعة شباب زرقان في تلك المعركة، فضلًا عن قيادة مرتضى الرشيدة لكتيبة الفجر ولقائه بالإمام الخميني، وخطبة الجمعة التي ألقاها الشيخ رفسنجاني، كلّ ذلك جعل مرتضى محور أحاديث الناس وكلامهم. كان الجميع، كبارًا وصغارًا، يتحلّقون حوله ويقبّلونه ويتحدّثون معه:

– هل تستقبل كتيبة الفجر المزيد من العناصر؟

– نريد أن ننضمّ إلى الكتيبة، ماذا علينا أن نفعل؟

– ائذن لنا أن نقبّل الجبهة التي قبّلها الإمام!

– هل علــيّ أن أطلب الانضمام إلى الكتيبــة مباشرة أم إلى فرقة[1] المهدي؟

– أنــا معلّــم، ولا تسمــح لي وزارة التربيــة والتعليــم بالذهاب إلى الجبهة لأكثر من 54 يومًا، هل يمكنني أن آتي إلى كتيبة الفجر؟

لم يترك الشباب مرتضى لحظة، بل صاروا يلحقون به في الشوارع والأحياء. قلت له: «لقد تأخّر الوقت، هل نذهب إلى البيت؟».

– ثمّة مكان آخر علينا الذهاب إليه.

– إلى أين؟!

– إلى نادي الرياضة التقليديّة» «الزورخانة»[2].

لم تكــن الطريــق إلى النــادي بعيــدة. أفلتنــا من النــاس بصعوبة وتوجّهنا إلى النادي برفقة محمد رضا بديهي.

دخلنــا النادي إلّا أننــي لم أدرِ كيف عرف الناس بحضور مرتضى، فمــا كان منهــم إلّا أن قامــوا ورفعــوا أصواتهــم بالصلــوات احترامًا لدخوله. همس مرتضى في أذني: «مسعود فلنجلس في المكان المعتاد!».

ذهبنــا وجلسنــا في مكاننا المعتــاد قبالة المنشــد –وكان من مدينة «نهاونــد»– وأخذنا نستمع إلى صوته المؤنــس. فهمَ المنشد أنّ رجلًا ذا أهمية قد دخل النادي فتوقّف عن الإنشاد بانتظار أن يأذن له مرتضى بمواصلــة إنشاده والضرب على الطبــل. حدّق مرتضى في نقطة بعيدة ثــمّ تأوّه مــن أعماق قلبه آهــة قلبت كيانــه، كمن ذكر عزيــزًا له وهو حديث العهد بفقده. بلّلــت قطرات من الدمع عينيه وخاطبني بصوت

1- لشكــر المهدى؛ يبدو أن لواء المهدي تحول لاحقًا الى فرقة؛ ولذلك نرى في النصوص اختلافا؛ فأحيانًا ورد بعنوان (لواء المهدي) واحيانًا (فرقة المهدي).

2- يراجع الملحق: زورخانة.

تشوبــه الرعشة قائلًا: «مسعود، قل للمنشد أن يقرأ أبيات رثاء لمولاتنا الزهراء عليها السلام!».

- على عيني يا عم مرتضى!

ذهبت إلى المنشد الــذي لم يكن يفصله عنّا سوى مسافة قصيرة، فسلّمــت عليه وشرعــت أحدّثه باختصار عن شخصيــة مرتضى فيما أصغــى المنشد بدقّــة وتمعّن شديدين إلى كلامي وهــو يحملق في وجه مرتضــى. في ختام كلامي قلت للمنشد: «إنّ قائدنا يريدك أن تقرأ له مصيبة السيّدة الزهراء عليها السلام!».

مــا إن سمع المنشــد اسم جدّة السادة حتى تغــيّر حاله، فوضع يده على عينيه قائلًا: «بالتأكيد!».

رجعــت إلى حيــث مرتضــى ومحمد رضــا. همس «اشلــو» في أذني مشــدّدًا على اسمي وشهرتي: «لا قطــع الله عيشك يا «مسعود همّتي»، ماذا كنت تقول للمنشد طوال هذا الوقت؟!».

- نقلتُ له رسالتك.

فنظر إليّ نظرة ملؤها الكثير من الكلام ولم يقل شيئًا.

لقــد تكهّن ما قلــت للمنشد فشعر بالاستياء.ومــا إن ضرب المنشد علــى طبله وشرع بقراءة أبيات الرثاء الحزينة، حتى نسي مرتضى كلّ شيء واغرورقت عيناه بالدموع وملأ كيانه الحزن والأسى!

كلّما أفاض المنشد بذكر مصائب السيدة فاطمة عليها السلام تغيّر حال كلٍّ مــن مرتضى ومحمــد رضا أكثر فأكثر. سرعان مــا تبدّلت أنّاتهما إلى عويل. ولم يطل الأمر حتى أمسى نادي الرياضة التقليديّة بيت أحزان! عندمــا انتهــى مجلس العــزاء لم يكن لأحــد همّة ولا جلَد علــى القيام بالحركات الرياضية!

88

داخل البئر

28/ت[1]/1983

في الصباح كنت جالسًا في السيّارة الخاصّة بالقيادة أفكّر في أوامر العقيد «جواديان» قائد «اللواء 55» في القوّات الجويّة لمنطقة شيراز: الرائد «كريم عبادت»، تقرّر في العمليّات المقبلة أن تُدمج كتيبتك مع كتيبة الفجر التابعة للواء المهدي في الحرس، وستنقلون بالطوّافات إلى خلف مواقع العدو.. اعقد جلسة مع قائد كتيبة الفجر..

حين وصلت السيارة إلى قاعدة «أميدية5» زادت حماستي لرؤية مرتضى جاويدي المعروف بـ«اشلو». فأنا من شيراز وقد سمعت بشجاعة قائد كتيبة الفجر من هذا وذاك. سأل الجنديُ السائقُ الحارسَ: « يا سيد، أين هو مقرّ قيادة كتيبة الفجر؟».

وبدلًا من أن يجيب السائقَ، حملق حارسُ مدخل قاعدة «أميدية5» الجويّة - وكان يرتدي بدلة كحليّة - في بندقيتَي مرافقَيّ ثم نظر إليّ. نزعت النظارات الشمسيّة عن عينيّ وعقدت حاجبيّ وحدّقت بعينيه. فرتّب وقفته وضرب التحيّة العسكريّة ثم قال: «عذرًا سيّدي، اتّجه إلى الأمام مباشرة ثم انعطف إلى الشمال بعد محطّة الوقود، تصل إلى فندق H!».

قلت: «فندق H؟!».

- أجل حضرة الرائد. معذرة يا سيدي، ولكن عليكم أن تسلّموا أسلحتكم أيضًا!

سلّمنا المسدّس وبندقيتَي (G3) الخاصّتين بالمرافقَين، ثمّ دخلت سيارة «لاند كروز» القاعدة الجويّة. تمتمتُ بحيث لم يُعلم إن كنت

أكلّم نفسي أم المرافق الذي بجانبي قائلًا: «أمر مثير.. كتيبة من التعبئة والحرس تستقرّ في فندق H التابع للقوات الجويّة!».

وصلنا إلى الساحة الكبيرة المحيطة بمبنى H. ترجّلتُ وسرتُ نحو مقرّ قيادة كتيبة الفجر يرافقني سائقي والمرافقان ذوَا القامة الطويلة والزيّ المرقّط. كان عدد من شباب التعبئة بزيّهم الكاكيّ وآخرون من الحرس بزيّهم الأخضر موجودين في الساحة هنا وهناك. تعجّبوا لدى رؤيتهم لي وللجنود المرافقين. لم يكن ظاهر المبنى يشبه الفندق مطلقًا. لقد كان مبنى عاديًا بواجهة اسمنتيّة توحي بحاجتها القديمة إلى الترميم! أمّا ممرّ المبنى فلم يكن أفضل حالًا من الخارج، فبالإضافة إلى وضعه السيّئ فإنّ التعبويّين من كلّ أصقاع إيران كتبوا بأقلام الحبر والرصاص وغيرها على جدرانه جملًا كثيرة للذكرى. دخلتُ غرف المبنى الواحدة تلو الأخرى وسألت عن القائد مرتضى جاويدي، فقيل لي إنّه في الساحة!

كانت الغرف مرتّبة ومنظّمة لكنّ أبوابها وجدرانها مملوءة بمذكّرات المتطوّعين من عناصر التعبئة على امتداد سنوات الحرب: .. موفدٌ من «لار»، «شيراز»، «جهرم»، «كازرون».. بتاريخ كذا ..«زرقان».. «داراب»..

في نهاية المطاف دلّنا أحدهم على بئر ماء ذات دولاب!

خرجنا من الفندق. في إحدى زوايا ساحة الفندق وقع نظري على دولاب بئر خشبيٍّ قديم وقد وقف شابّ عنده. اقتربت منه لأسأله عن قائد الكتيبة.

- السلام عليك أيّها الشاب!

حملق باستغراب في ثيابي المرتّبة والأنيقة وأكمام مرافقيَّ المطويّة.

- سـ..سـ..لام يا حضرة النقيب..

فتبسّمت. أمّا مرافقي الذي ثارت حفيظته لسماعه كلمة «نقيب» فقال: إنّه حضرة الرائد «كريم عبادت»، قائد الكتيبة الأولى في (اللواء 55) في القوات الجوّية!.

علا صوت من قعر البئر يقول: «كريم، ارفع الدلو إلى الأعلى!».

فأدار الشابّ، الذي غطّى الوحل رأسه ووجهه، الدولابَ بكلّ ما أوتي من قوة مستعينًا بيديه ورجليه، وحاول جاهدًا جمع الحبل ليُخرج من البئر دلوًا بلاستيكيًّا أسود مليئًا بالطين. بعد ذلك نزع الدلو من الصنّارة الحديدية المعلّقة بأعلى الحبل وأفرغ ما فيه على كومة من الطين والوحول قرب رجله. ابتعدتُ عنه قليلًا ثم سألته: «المعذرة يا سيّد، هل تعلم أين يمكنني أن أجد قائد كتيبة الفجر، السيد مرتضى جاويدي؟». تبسّم الشابّ كريم، وحكّ رأسه بإصبعه الملوّث بالطين ثم أشار إلى داخل البئر!

– يا حضرة النقيب، إن كنت تريد العمّ مرتضى فجنابه موجود داخل هذه البئر حاليًا!

89

المراحل السبع

12/ ت^{2}/ 1983

كانت أصداء عمليات «والفجر 2» وملحمة تلّة «بردزرد» وبطولات كتيبة الفجر تتردّد في كلّ مكان وزمان. التحاليل السياسية والأخبار في الإذاعة والتلفزيون، الصحف، منبر الجمعة وخطبة الشيخ رفسنجاني، الجميع كان يمجّد كتيبة الفجر. وهذا ما أشعل روح الثورة في الكبار والصغار ولا سيّما في مدينة «فسا» ولواء المهدي!

بعد رجوعنا من معركة «والفجر2» واستقرارنا في الفندق الواقع في قاعدة «أميدية 5» التابعة للقوات الجوية للجيش، انهال علينا سيل المتطوّعين من التعبئة والحرس والمجنّدين الذين قدِموا بتوصية وبدونها من مدن محافظة «فارس»، وجميعهم أراد الانخراط في صفوف كتيبة الفجر. وبصفتي عالم الدين في الكتيبة (شيخ الكتيبة) كنت أحدّد الشروط و«مراحل رستم السبع»[1] عسى بذلك أن تضيق دائرة الانتساب إلى الكتيبة.

- يا شيخ بنايي، نريد أن ننتسب إلى الكتيبة!
- ثمّة شروط.. عهد الدم!
- لا يهمّ يا شيخ!
- ينبغي عليكم الصمود إلى آخر الحرب!
- سوف نصمد يا سماحة الشيخ!

1- إحدى القصص الموجودة في الشاهنامة وهي عبارة عن المراحل السبع التي اجتازها «رستم» أثناء سفره إلى «مازندران» لإنقاذ «كيكاوس» الذي اعتقل هناك. وفي الطريق صادفته أهوال سبعة، وتذكر القصة من أجل التعبير عن تخطّي الصعوبات.

- إنّ أفراد الكتيبة يقاتلون في المعارك حتى الرمق الأخير!
- لا يهمّ يا شيخ!
- المأذونيّة محدودة!
- هل سبق أن أخذ أحدهم مأذونيّة من الجنّة؟!
- صلاة الليل!
- تلك هي أمنيتنا يا شيخ!
- قراءة سورة الواقعة كلّ ليلة.
- وهل ثمّة توفيق أكبر من هذا!

لقد آلت الأمور إلى أن نرضخ للأمر الواقع، وذلك أنّ عدد قوّات الكتيبة وصل إلى سبعمئة عنصر! ورفضنا مئات الأشخاص بحجّة «مراحل رستم السبع» وغيرها من أعذار مختلقة. رغم ذلك فقد كانوا يبكون ويتوسّلون إلى هذا وذاك. كنت أضع نفسي مكان أولئك المجاهدين فأجدهم محقّين. حينها أدركتُ أكثر أنني أخذت الخيار الصائب بين التحصيل والتدريس في حوزة «فسا» العلمية ووجودي مع هؤلاء الأشخاص.

حين طرحت موضوع استقبال المجاهدين مع جعفر أسدي قائد اللواء قال: «أعرف هذا يا شيخ بنائي، ولذا طلبت من مرتضى أن يقبل تحويل كتيبة الفجر إلى لواء مستقلّ تحت إمرته فيمكن بذلك انضمام جميع هؤلاء الفدائيّين، إلّا أنّه رفض وقال إنّه يحبّ أن يبقى قائد كتيبة إلى آخر عمره، إن استطعت أن تقنعه بذلك فتوكّل على الله!».

فتأمّلت قليلًا ثم قلت: «سأحاول».

لكنني حين ذهبت إلى مرتضى واقترحت عليه مسألة قيادة اللواء ضحك وقال: «يا شيخ، لا تتدخّل في أمورنا!».

90

المشارطة

22/ ت[2]/ 1983

– يــا أخ أميري، إذا كنت تصرّ على إجراء المقابلة فلماذا لا تذهب إلى «اشلو!». إنّه في قلب أحداث الحرب ومجرياتها!

– «اشلو؟».!

– أعني مرتضى جاويدي، قائد كتيبة الفجر!

في الثكنة، أجريتُ مقابلات حواريّة مع عدد من المجاهدين العاديين وقادة فرقة المهدي لكي أسجّــل ذكرياتهم لقسم «إعلام المركز» فكان الجميع يتحدّث عن مرتضى جاويدي وملحمة تلّة «بردزرد». قلت لهم: «سأتولّى أمر إقناعه بإجراء المقابلة!».

– لن تستطيع!

– أشارطكم أنني سأوفّق!

وبالفعــل، فقد اضطــررت أن أشــارط عدة أشخاص على (كباب مشــوي) لذيذ من محلّ يقع على تقاطــع خرّمشهر. وكانت قيمة وجبة الكباب مع اللبن وقنينة مرطّبات تساوي عشرين تومانًا هناك، في حين كانت الوجبة ذاتها تباع في محلّات أخرى بعشرة أو اثني عشر تومانًا!

في صبــاح أحد أيّام الخريف ذهبت إلى قاعدة «أميدية 5» فوجدت مرتضــى في المصلّــى. في البداية ظننــتُ أنني أخطــأت الرجل. رأيت شابًّــا قرويًّا بسيطًا يلبس بدلة الحرس الكاكيّة وقد بدا لي أنّه خجول. ساورتنــي بعض الشكــوك والتساؤلات. قلــت في نفسي: هــل هذا هو القائــد؟! إنّ هــذا لا يقدر على تحمّل مسؤوليّــة عنصرين.. يبدو أنني أخطــأت. وبالرغم مــن الشكّ الذي لم يفارق ذهنــي بادرته بالسؤال:

«أرجو المعذرة، هل أنت مرتضى جاويدي؟».

التفت ونظر إلى وجهي، ثم قال بصوته الهادئ الذي لا يختلف عن محيّاه: «أنا في خدمتك».

فأريته ورقة حكم مأموريّتي المختوم بختم المركز.

- إنني مبعوث من قِبل المركز لجمع مذكّرات القادة!

رفع نظره عن حكم المأموريّة، ثمّ تبسّم وقال: «يا أخ ناصر أميري، بالرغم من انتهاء صلاحية الحكم منذ يوم واحد إلّا أنني في الخدمة!».

أعجبني ذكاؤه الحادّ حيث قرأ اسمي وتاريخ الحكم بدقّة خلافًا لمن سبقه. قلت له: «سمعت أنّ لديك ذكريات جيّدة وأردتُ أن نحدّد موعدًا لإجراء مقابلة!».

أدار السبحة التي كانت في يده.

- يمكنك أن تسأل معاون الكتيبة الأخ «إسلامي» أو الأخ «بديهي!».

- أريد أن أجري حوارًا معك أنت بالذات!

- ليس لديّ الكثير لكي أقوله لك!

قلت في نفسي: يجب التحدّث مع مثل هؤلاء الأشخاص بفوقيّة.. فقلت بإصرار: «لقد جئت من قِبَل المركز، وعملي هذا في غاية الأهمّية!».

- فديتُ قامتك والمركز، إنّ شباب الكتيبة يستطيعون مساعدتك! عن إذنك!

ثم ذهب! أمّا أنا فقد ساءتني فكرة سخرية الرفاق وخسارة وجبات الكباب المشوي. لكنني لم أستسلم وبقيت ألاحقه وأطلب منه إجراء المقابلة متذرّعًا بضرورة هذا الأمر بالنسبة إلى المركز والإسلام

والمسلمين حتى رضخ لي.

- سأكون في انتظارك غدًا بعد الظهر.

استغللت تلك الفرصة وقمت بتحقيق واسع حوله. في اليوم التالي دخلت غرفة قيادة كتيبة الفجر لأجد مرتضى يرتدي سروالا داخليا! قام لاستقبالي وسلم عليّ وقبّلني ثمّ أجلسني بقربه. وضعت المسجّل وعدّة العمل أمام مرتضى وشرعت بالحديث حول كل شيء.

- يقال إنّك أمرت بوضع نظام خاص في الكتيبة..

فقال مستغربًا: «أي نظام؟!».

فقلت بصوت جليّ: «أقصد ما يفعله عناصر الكتيبة من ترتيب البطّانيّات وتوضيبها بحيث لا يراها أحد، النظام الصباحي، الدعاء عند الطعام، قراءة سورة الواقعة ليليًّا، دعاء كميل والتوسل، والرياضة وكرة القدم.. حتى ما تقوم به أنت في فترة المأذونيّة من زيارات لمنازل عناصرك في مدنهم.. وباختصار إنّك لا تأوي إلى فراشك أبدًا!

فقاطعني قائلًا: «ماذا تريد منّي الآن يا بن الخالة؟!».

فأخذت أتحدّث بجدّية وتكلّف: «اسمع يا أخ جاويدي، إنّ هذا التاريخ يجب أن يحفظ للمستقبل وللأجيال القادمة. يجب أن يعلم أولئك ماذا قدّم مرتضى جاويدي من تضحيات و..».

فقطع كلامي قائلًا: «اسمع يا سيد أميري، إنّ تجربتي محدودة، وحضوري في ساحات الحرب كان من الألطاف الإلهية! لا أنا ولا أمثالي هو من يقوم بقيادة القوّات وتوجيهها، إنّ الله هو من يأخذ بيد الجميع في الكتيبة نحو العدوّ. أمّا الباقي فهو مبتنٍ على العقيدة الراسخة والإيمان القويّ لشباب وطننا الإسلاميّ!».

ثم سكت.

فقلت: «أهذا كلّ ما لديك؟».!

– هذا كلّ ما لديّ يا أخي مبعوث المركز العزيز!

– تقصد ليس لديك أيّ خاطرة أو شيء عن حياتك أو..!

– لا ليس لديّ، أدام اللّه رزقك! وما دَعوتُكَ إلّا لإصرارك الشديد. والآن إن لم يكن لديك مانع فابقَ معنا هذه الليلة!

شعـرت باستياء كبير. أوقفـتُ المسجّل بسرعة ونهضت قائلًا: «هل هذه باكورة الفاكهة[1]!».

أردت أن أخاصمه لكنّه تقدّم نحوي وقبّل جبهتي ثم قال: «لا تبتئس يا أخـي، أنا لا باع لديّ بالمقابلات ولا أستطيـع الحديث جيّدًا. اذهب وأجرِ مقابلة مع إسلامي وبقية الرفاق .. أنا خادمك!».

1- هـذا المصطلح يُستعمل فيمـا لو أنّ شخصاً يملك شيئاً يعتبـره ثمينًا ولذلك لا يبذله لأحد ويمنع الآخرين من الوصول إليه كباكورة ثمار الفاكهة (مثل: ديفورالتين بالعامية).

91

عراك صادق

28/ ت2/ 1983

عنـد العصـر، وفي باحة ثكنة «أميدية» رفعـتُ بعض الماء من البئر التي كان «كريم آزاديان» قد ابتكر لها دولابًا لرفع الماء وغسلت ثيابي، ونشرتُهـا على الحائـط الإسمنتي في أطراف مـكان استراحة الكتيبة وإذا بصوت يطرق سمعي.

– يا عديمي المروءة، مجموعة مقابل واحد، سوف أثكل بكم أمّهاتكم!

التفـتّ إلى مصدر الصـوت فإذا بي أرى «صـادق صائب»، قنّاص الكتيبـة ببدلتـه الكاكيّة، يمشي متعـثّرًا ورجلاه تُسحبـان إلى الخلف كالقطّـة المكسـورة الظهر! ركضت نحـوه وأسندتـه إليّ. كان ما تحت عينيـه مسودًّا وفمـه الأحمر اللطيف متورّمًا، ناهيـك عن أنفه المتورّم الذي غدا مسطّحًا وكأنّه قد تلقّى ضربة بالمطرقة! كانت الدماء تسيل مـن أنفه وفمه، وقد تـدلّى الدم المختلط بلعابه مـن شفتيه! بدت آثار الألم واضحـة على وجهـه المتّسخ. سألته متعجّبًـا: «ماذا حصل لك يا صادق؟ هل تعرّضت لحادث سير؟!».

لم أتمالـك نفسي فانفجرت ضاحكًا بلا توقّف. فما كان منه إلّا أن نهرني قائلًا: «اضحك يا عديم الوجدان «خوشقدم»!».

توقّفتُ عـن الضحك بصعوبة وقلت: «أخـبرني الآن من الذي فعل بك هكذا؟!».

فتح عينيه بصعوبة وأشار بإصبعه إلى مكان استراحة كتيبة «كميل».

– عديمو المروءة تجمّعوا حولي وأوسعوني ضربًا مبرّحًا!

– من هم؟!

– شباب كتيبة «كميل!».

فأخذتني عصبيّة وحدة الكتيبة والمدينة، وفار الدم في وجهي وصرخت قائلًا: «لأيّ سبب؟!».

– ليس هناك من سبب!

أسندته إليّ لكي لا يقع ثمّ أخذته إلى ممرّ مبنى الفندق H، وهناك رفعت صوتي وناديت مكرّرًا: « يا أيها الناس»..

فخرج شباب كتيبة الفجر سريعًا من غرفهم، ورأونا على تلك الحال.

– ماذا حدث؟

– لماذا أنت مدمى هكذا؟

تركت صادقًا مغضبًا وفاضت قريحتي الشعريّة. ضربت بقبضتي على صدري ثمّ أنشأت أقول:

قد ضُرب صادق صائب وكتيبة كميل هي الضارب
لن نقف ساكتين لن نقف ساكتين
نريد الانتقام نريد الانتقام

كان لشعري الركيك وقعه في نفوس الجميع الذين ثارت حفيظتهم، فأخذوا يردّدون الأبيات قاصدين مقرّ كتيبة «كميل» للانتقام!

قد ضُرب صادق صائب وكتيبة كميل هي االضارب
لن نقف ساكتين لن نقف ساكتين
نريد الانتقام نريد الانتقام

وفي منتصف الطريق كان قرابة الأربعين نفرًا يسيرون خلفنا أنا وصادق. عند ملعب نادي الزورخانة المجاور لمبنى الفندق كان منشد الكتيبة «أبو الفضل صادقي» ينشد الشعر وهو يضرب على وعاء

خالٍ، فيما أخـذ عشرة أشخاص أو أكثر يقومون بالحركات الرياضيّة التقليديّة وبأيديهم بندقيّات بلا أمشاط.

ناديت بحماسة: «أيها المنشد، إنّه وقت الحرب، وإخماد العار!».

فضحـك وزاد ضربـات أصابعه على الوعاء. كـرّرت شعار «ضُرب صـادق..» عدّة مرّات. فما كان من جميع مـن كان في النادي، ما خلا المنشـد، إلّا أن خرجوا من الملعب والتحقوا بنا. في تلك اللحظات كانت نار الحرب تزداد اضطرامًا.

كنـت حامـل لواء تلـك المجموعة. قبيـل أن نصـل إلى مبنى كتيبة «كميـل» مررنا بالحمّام الذي كان قـد بناه «قاسم باقرنجاد» المعروف بـ«الدولاب الواحد». فجأة خرج من الحمام العم مرتضى وعلي أصغر سرافـراز؛ قائـد كتيبة كميـل، يعلو وجهيهمـا ويديهما دخـان أسود. كأنّهمـا كانا يصلحـان الحمام معًا. تسمّرت في مـكاني وجمُد الشّعار على لساني! طال نظر العمّ مرتضى إلينا فيما غدت شعارات المجموعة كصوت المسجّل ممدودة وبطيئة ما لبثت أن انطفأت. انسحب الجميع مـن خلفي الواحـد تلو الآخر حتّـى لم يبقَ غيري وصـادق! تقدّم العم مرتضـى منّا وألقى نظرة علـى وجه صادق المهشّم ثـمّ ضحك، وكأنّ شيئًـا لم يكن، قائلًا له: «الحمّام جاهـز. اغسل نفسك بقليل من الماء السّاخن حتى تستعيد عافيتك!».

أردت أن أنجـو بنفسي وألوذ بالفـرار وإذا بالعم مرتضى يناديني: «يا محمد خوشقدم!».

وقفـت في مـكاني كعجلات الدرّاجة حين تـدور عبثًا في مكانها من دون أن تتحرّك. التفتّ إليه قائلًا: «في خدمتك يا عم!».

- اغتسل أنت أيضًا مثل صادق، لعلّ نارك تنطفئ!

92

عهد الدم

5/ ك[2]/ 1984

عصـر ذلـك اليوم أخـذت أدور بين غـرف ثكنة الإمـام الخميني بحثًـا عمّن يتوسّط لي للانتساب إلى كتيبة الفجر. قرب باحة المراسم الصباحيـة التقيت برجل ذي وجه لطيف يرتـدي بدلة كاكيّة. ناديته: «هاي، يا أخي!».

التفت إليّ وقال: «في خدمتك، أتأمرني بشيء؟».

– أنت تابع لهذه الثكنة؟

– إن شاء الله، ماذا عنك، هل أنت من القوّات الجديدة؟

– أجل، وصلنا اليوم.

– هل أنت من شيراز؟!

– من أين عرفت؟

– إنّ ذلك واضح جدًّا من لهجتك!

أمدّتنـي عيناه البرّاقتان ومحيّاه المُشرق البشوش بالجرأة فقلت: «لا بدّ أنّك من القوّات القديمة، أليس كذلك؟». فرفع الكلفة وغمزني بعينه.

– ولا بدّ أنّك قمت بتزوير بطاقة الهويّة خاصّتك!

عقدت حاجبيّ.

– كيف عرفت ذلك؟

– من وجهك!

أدنيـتُ فمي بهدوء نحو أذنه وهمست قائلًا: «لستَ مسؤولًا فتفضح أمري، أليس كذلك؟!».

فقال بجدّية: «ماذا تريد بالضبط يا أخا شيراز!».

رفعت كتفيّ وقلت باقتضاب وجفاء: «كائنًا من تكون لا يهمّ، ولكن أخبرني أيّ الكتائب تُعنى بالقتال؟».

- كلّ مكان في ميادين الجهاد جيّد، حتى المطبخ!

عبستُ مجدّدًا.

- لمَ لا تفهم؟ جئت للقتال لا للطبخ!

- الحرب حرب أينما كانت.

فقلت مقطّبَ الحاجبين: «أرأيت أنّك لا تفهم ما أقول. يقولون إنّ كتيبة الفجر كتيبة حربيّة».

- وماذا تختلف عن غيرها؟!

- تختلف بأنّ قائدها هو «اشلو!».

- هل تعرفه؟

- أوووه.. إذن أنت لا تعرف شيئًا، من ذا الذي لا يعرفه!

- إن دخلت كتيبة الفجر فلن تعمّر طويلًا!

فهززتُ يدي قائلًا: «لا عليك مِن هذا، هل تتوسّط لي؟».

- إن دخول كتيبة الفجر مشروط بأمرين!

- قبلتهما قبل أن أسمعهما.. ولكن ما هذان الشرطان؟

- أوّلًا: عليك أن توقّع عهد الدم!

- هذا أمر بسيط!

- دعني أقرأ عليك عهد الدم، فقد لا توقّعه!

قلبتُ شفتي، فقرأ: «نحن مجاهدو كتيبة الفجر، عاهدنا قائدنا أن نضحّي بأنفسنا دفاعًا عن الإسلام والثورة الإسلاميّة حتّى آخر

قطرة دم!».

- قل لي ما هو الشرط الثاني؟

- ذاك ستقوم به عمليًّا في ساحة القتال. ما اسمك؟

- السيد محمد شعاعي.

أخرج الشاب من جيبه قلمًا وكتب رسالة وقدّمها لي قائلًا: «أنت سيّد أيضًا، وبات حقّك علينا أكبر. ذاك المبنى على جهة اليمين هو مكان استراحة كتيبة الفجر. في الطابق الأول منه أعطِ هذه الرسالة إلى الأخ «خوشقدم»؛ مسؤول شؤون الأفراد، سيتولّى ترَتيب أمورك».

أخذت الرسالة. كان توقيعه مثيرًا للغرابة. قلت في نفسي: لعلّه قد استهزأ بي.. إن كان الأمر كذلك سأرجع وألقّنه درسًا!

قصدت مسؤول شؤون الأفراد يملأني الشكّ والتردّد، وأنا أرجو الله أن لا يكون ذلك الشابّ هازلًا. قرأ المسؤول الرسالة، ومن دون أي جدال كتب رسالة جديدة وسلّمها لي.

- خذها إلى إدارة الاستقطاب التابعة للّواء! وحين تأخذ ورقة التعريف بك تأتي بها إلى الكتيبة!

أخذت نفسًا عميقًا ثمّ زفرته بشدّة من فمي. تعجّبت من نفوذ ذلك الشاب وقدرته على الحسم فسألت: «يا أخي، ما اسم ذلك الشخص الذي أتيتك برسالته؟». رفع رأسه وفتح عينيه.

- أتريد أن تقول إنّك لا تعرف العم مرتضى؟!

93

الشرط الثاني

15/ ك2/ 1984

مـرّت عشـرة أيام على دخـولي كتيبـة الفجر. قبـل الظهر وعلى الخط الأمامي في «شلمجه» التفتَ إليّ محمد رضا بديهي، معاون قائد الكتيبـة، وذكـر لي الشرط الثاني لكتيبة الفجر قائـلًا: «يا سيّد علي، تقف على الساتر الترابي تحت نيران العراقيّين وتنادي عشرًا:

«سأدعو اللّه أن يهبني ألف روح لكي أقتل في سبيلك ألف مرّة»

حدّقـت في السيد بديهي الذي زادت شفتاه العريضتان من جاذبية محيّاه وقلت: «الآن؟!».

- متى إذًا، إن أردت لا..

- كلّا سأذهب!

في تلـك اللحظة سقطت قذيفة (هـاون 120) خلف الساتر الترابي وزلزلـت أرجـاء المكان فجلسـت على الأرض. ما لبـث العراقيّون أن أمطـروا الساتـر بوابل من الرصاص. حـين رأى السيد بديهي تردّدي حكّ لحيته السوداء الغبراء.

- الأمر ليس إجباريًّا. تستطيع أن تخدم في كتيبة أخرى.

- قلت لك سأذهب وأقف على الساتر الترابي!

قـرأت الشهادتين. وما إن هممتُ بالصعود إلى الساتر حتى أمسك السيد بديهي يدي.

- دعني أوّلًا أخبرك بقصّة هذا الشرط، بعد ذلك تذهب.

أخـذ بيدي وأدخلنـي إلى الدشمـة المفتوحة الواقعة خلـف الساتر

الترابـي وأخـذ يقصّ علـيّ: «في ذلك اليوم وفي منطقـة «فكّة» تكوّمنا جميعًـا خلف السـاتـر الترابي خوفًا مـن نيران أسلحـة العراقيّين. لم نملـك الجرأة على النهوض وإطلاق النـار عليهم وكانوا يطلقون النار ويتقدّمون باتّجاهنا. فجأة، وعلى وقع دويّ انفجارات القذائف سمعت صوت العم مرتضى: «لماذا أنتم مستلقون؟ انهضوا..».

قلـت في نفسـي: أولستَ تـرى حدّة النـيران يا عم مرتضـى؟ وإذ بمرتضـى واقف فوق رأسي والدم يسيـل من مرفقه. هممتُ بالنهوض لكـنّ توالي سقوط القذائف حالَ دون ذلك فالتصقت بالأرض مجدّدًا كالآخريـن لكي لا أصـاب بشظية. صحتُ به مرارًا لكـي يستلقي لكنّه لم يستجـب لي. ثم وقـف وأعطى أوامـره: «إن بقينا كذلـك فسيكون مصيرنا إمّا القتل أو الأسر، هاااي! أريد عددًا من الرجال!».

لم ينتظر أحدًا، ما لبـث أن خلع، وبحركة واحدة، قميصه وسترته الداخلية. رأيت أثر جرح الشظية على مرفقه الأيسر. أخذ من أحدهم قبضة الـ(B7) مع قذائفها ثمّ صرخ صرخة حيدريّة مدوّية: «يا علي!».

صعـد إلى حرف الساتر الترابي ووقف على قمّته، فانهمر وابل من الرصاص باتجاهـه. وضع القذيفـة في القبضة وأطلقهـا. ولمّا نفدت القذائف نظر حوله وقال:

«سأدعو اللّه أن يهبني ألف روح لكي أقتل في سبيلك ألف مرة!».

بعـد ذلك حمـل بندقيّته ووقف على السـاتر وشـرع يطلق النار نحو العراقيّين وهو يكرّر هذا البيت الشعري. اقشعرّ بدني، ولم أجد نفسي إلّا وقد نهضت وصعدت الساتر ثم أخذت أطلق النار نحو العراقيّين. في تلـك اللحظة ألقيتُ نظرة على يمين الساتر ويساره لأرى من تبقّى من أفراد الكتيبة قد وقفوا عليه عُراة الصدور وجعلوا يطلقون الرصاص».

حين أنهى السيد بديهي حديثه ربّت على كتفي.

- بعد تلك الحادثة، اشترط شباب كتيبة الفجر هذا الأمر على كل من يريد الانضواء تحت لواء الكتيبة علاوة على الشرط الأول!

كنت أصغي إلى كلماته بدقّة. أحسست أنّ ثمّة تحوّلًا جميلًا ولطيفًا وخفيًّا قد حدث في نفسي. في تلك اللحظة، سقطت قذيفة خلف الدشمة المفتوحة فرمتنا أرضًا. وبعد أن انجلى الدخان والغبار رأيت الابتسامة قد علتْ وجه السيد بديهي.

- يا سيد علي، هل ستصعد إلى أعلى الساتر أم لا؟!

خلعت قميصي وسترتي كلمح البصر ونهضت لكي أصعد وإذا بالسيد بديهي يصدّني.

- لقد قُبِلت!

94

مثيرٌ للعَجَب

4/شباط/1984

في الصباح الباكر، وقفتُ مصغيًا لحديث عدد من الجنود وقد تجمّعوا أمام إدارة شؤون الاستقطاب في فرقة المهدي.

- ينادونه «اشلو!».

- خِصاله عجيبة!

- لقد قبّل الإمام الخميني جبهته..

- إنّه صديق لمحسن رضائي وصياد شيرازي!

- لقد خصّص الشيخ رفسنجاني خطبة الجمعة للحديث عن شهامته وبطولات كتيبته!

- كتيبته حوزة علميّة.. وفيها نادٍ للحركات الرياضية التقليدية (الزورخانه)، فريق كرة قدم، نادٍ للترفيه، إضافة إلى القتال. إنّها عائلة تضمّ ثلاثمئة أو أربعمئة نفر..

- العمّ مرتضى مثيرٌ للعَجَب!

قلبتُ شفتي وشعرت حقيقةً أنّي أحسده. قلت في نفسي: «سعيد عليزاده»، لا بدّ أنّ هؤلاء يُغالون فيه ويعظّمون الأمر.. ليس هناك أقوى منك ولا أشجع.

مضت سنوات لي في سوح القتال، لكنّها كانت المرّة الأولى التي سمعت فيها ثناءً وتبجيلًا لشخص بهذا الشكل. عندما سمعتُ الجميع في اللواء وفي المدينة يتحدّثون عن مرتضى ثار فضولي، وعزمت على الانتساب لبعض الوقت إلى كتيبته لكي أتحقّق من الأمر بنفسي.

أخذت ورقة التعريف من إدارة شؤون الاستقطاب في فرقة المهدي

وقصـدت مبنـى الكتيبة. مـا إن دخلت المبنـى حتى وجـدتُ مرتضى بانتظاري. تقدّم منّي: أهلًا وسهلًا بك يا أخ «عليزاده!».

أخذ بيدي وأدخلني إلى غرفة القيادة ثمّ قدّمني إلى قادة الفصائل: «السيد سعيد، من خيرة أفراد اللواء القدماء! يشرّفنا بأن يخدم في كتيبتنا!».

ثـمّ عرّفنـي بالآخريـن: «جليـل إسلامـي، محمـد رضـا بديهي، خوشقدم...».

دُهشـتُ! أطرقتُ برأسي وأخذت أفكّر: من أين عرفني؟؟ كأنّه كان بانتظاري!

كنـت مضطربًـا مـن الداخـل وكان لا بدّ لي مـن سيجـارة تهدّئ مـن روعـي. أخرجت علبـة السجائر من جيبي وقد اعـتراني الذهول والدهشة، ثمّ قدّمتها لمرتضى.

- تفضّل، تناولْ سيجارة!

- شكرًا لك يا أخي.

ثمّ قدّمتها للآخرين فردًا فردًا لكنّ أحدًا لم يأخذ. أخرجت سيجارة وأشعلتهـا. ما إن أخذت النفس الأوّل ثـم نفثته في الهواء حتى انتبهت إلى أنّ الجميع ما عدا مرتضى قد تغيّر حالهم وغابت ابتساماتهم!

حين أنهيت سيجارتي أخذ مرتضى بيدي وأدخلني الصالة وخاطب «مسلـم رستـم زاده»، قائد «السريّة1»، قائلًا: «عليـزاده من العناصر ذوي الخبرة في الحرب، أحسِن الاستفادة من خبرته في السرية!».

أخـذني «مسلم» إلى شبـاب «فسا» وعرّفهم إليّ فـردًا فردًا. فرفع الجميـع أصواتهم بالصلـوات ثمّ تقدّموا منّي وأخـذوني في الأحضان وقبّلوا وجهي ويدي. كأنّها كانت العادة عند استقبال الأفراد الجدد!

مرّت نصف ساعة وخطـرت السيجارة على بالي مجدّدًا. أخرجت

سيجارة من العلبة ووضعتها بين شفتيّ، فما كان من أحد شبّان «فسا» إلّا أن تقدّم نحوي ووضع يده على كتفي قائلًا: «أليس لديك اطّلاع على المقرّرات يا أخي!».

فسألته مستغربًا: «أيّ مقرّرات؟!».

– التدخين ممنوع في الكتيبة!

نظـرت إلى وجه الشابّ وقلت: «دعـك من هذا الكلام يا هذا، قبل نصف ساعة، في غرفة القيادة وأمام عين..».

ثمّ سكـتُّ وضربتُ بباطن إحدى كفَّي على ظهر الأخرى: «يا لقلبي الغافل!».

95

جُفير

21/شباط/1984

عصـر ذلك اليوم علا النداء من مكبّر الصوت في معسكر «جُفير» مخاطبًا أفراد كتائب فرقة المهدي.

- اصطفّوا.. سريعًا.. كميل .. فجر..

عصّبـتُ رأسـي بعصابـة خضراء كُتـب عليها «لبيك يـا خمينـي»، وخرجـتُ وبضعةَ آلاف مـن قوّات التعبئة من الدشـم الكبيرة والخيم العسكريّة، تغمرني مشاعر البهجة واللهفة كما لو أنني شابّ عشرينيّ لا كهـلٌ ناهزَ الخمسـين من عمره! قصدتُ باحـة اصطفاف الطوابير المصنوعة من سواتـر رملية منخفضة ومن فوارغ قذائف المدافع. كان مكـبّر الصوت يتوقّف بين الفينة والأخرى ليُبَثّ شريطٌ مسجّل بصوت «صادق آهنكران» وهو ينشد:

«يا جيش صاحب الزمان استعدّوا استعدّوا..».

وقفـتُ بين عناصر كتيبة الفجر وعليّ لامة الحرب أنتظر على أحرّ من الجمر صدور الأمر بشروع العمليّة المنتظرة.

- عافاك الله يا حاج مختاري!

شعـرتُ للحظة بيد القائد «اشلو» تمسّ كتفي. وصل العم مرتضى إلى مقدّمة طابور الكتيبة ثم نادى: «يا جنود الإسلام، تراصفوا!».

مددنا الأيادي اليمنى ونادينا: «الله أكبر!».

لم تكن الفرحة تسعني! كنت أراقب شفتَي العم مرتضى الذي وافق بعـد توسّط وَلدي أن أشارك في هـذه العمليّة في صفوف كتيبة الفجر. كان كلامـه لا يزال يـتردّد في أذني: «يا حاج أحمـد مختاري، أنت في

مقـام والدي إلّا أنّ الانضمام إلى كتيبـة الفجر له شروطه. لكن نظرًا لإصـرارك، وكرمى لعينيك، سأسمح لـك بذلك لهذه العمليّة فحسب. بعد ذلك عليك أن تعود إلى وحدة الدعم والتموين!».

فجأة نادى «اشلو»: «انتباه!».

- الله أكبر.

- أيّهـا الإخوة، اجلسوا. سيتحـدّث معكم الحاج أسدي قائد اللواء لبضع دقائق!

التفتّ مـن حولي ورحت أجيـل بطرْفي في محيـط معسكر «جفير» الذي يقع قرب هَـور «الهويزة»، على بعد سبعين كيلومترًا من الأهواز. علـى جوانبه الأربعـة وُضعت أربعة مضادّات جوّيـة. انتظمت الكتائب بحيـث فصل بين الواحدة والأخـرى مسافة معيّنـة، ووقفنا جميعًا في ذلك الجوّ الحارّ والرطـب بانتظار أن يحضر قائد اللواء. كانت بعض الأعـلام الحمراء والخضراء ترفرف هنـا وهناك، وبدا وكأنّنا جميعًا قد دُعينا إلى حفل مروّع!

كانـت جموع التعبويّين الغفيرة تضجّ بالنشاط والعزيمة والشجاعة والبسالة، تعلو وجوههم ضحكات الفرح! أخذ قادة الفصائل يصيحون: «تفقّدوا عتادكم الخاصّ!».

أخـذت أفحص جعبتي ومطرة الماء خاصّتـي. فجأة سُمعت قرقعة المضـادّات الهوائيـة فسـادَ الصمت في الأرجـاء. نظرنـا إلى بعضنا البعض ثم إلى ما حولنـا. كانت المضادّات الجويـة الأربعة تدور حول نفسها وتهتزّ بشدّة.

- طائرات حربيّة.. ماذا علينا أن نفعل!؟

نظـرتُ إلى السماء فاغر الفم! ظلّلتُ عينيّ بيدي وحدّقت كما كنت

أفعـل أيّـام الصبا عند سمـاع صوت الطائرة لألاحـق بنظري دخانها الأبيض.

دوّى انفجـار جديـد تزامن مع ظلال متتابعة مـرّت فوق رأسي. ما لبثـتُ أن سمعـتُ دويّ عدّة انفجـارات مهيبة أخرى. التفـتُّ لكي أرى مـكان الانفجارات، وإذا بثلاثة مـن المضادّات المستقـرّة على جوانب المعسكـر قد دُمّرت بالكامل وارتفع منهـا الدخان والنار، وبقي المضادّ الرابع يعمل ويطلق رصاصات مضطربة نحو السماء!

- غارة جويّة، اختبئوا.. اختبئوا!

- طائرة «ميغ» عراقيّة.. إنّها هناك..

تفـرّق عناصر الكتائب قلقين مضطربين، كما تتناثر حبّات السُّبحة المنقطعة الخيط، وفرّ كل واحد إلى جهة، فيما علت أصواتهم المتداخلة وغير المفهومة في أرجاء المكان. مع دويّ انفجار آخَر عظيم دُمّر آخِر ما بقـي من المضادّات في المعسكر. عندئذ أخـذت طائرات الميغ تُغير على رؤوسـ العناصر مطمئنّـةً كنسر يطارد فريسته، وأخـذت تلقي عليهم القنابـل والصواريـخ! لم يكـن ثمّة ملجـأ في تلك الصحـراء الكبيرة، وسيّان كان الوقوف أو الركض! وقفتُ، ولعلّي تسمّرتُ في مكاني من هول الصدمـة! انفجرت القنابل والصواريخ بـين جموع المجاهدين الغفيرة فقتلـت عددًا منهم، فيما غطّتني الدماء من رأسي إلى أخمص قدمَي. فاحت رائحة الدم الثقيلة في المكان وسرعان ما سمعت صراخًا وأنينًا.

تشتّتـت الجموع فزعة كمـا الحِملان التي هاجمها الذئـب! أمّا أنا فأخذت أركض نحو الأمام يدفعني الذهول والهلع. قلت في نفسي: عليّ أن أركـض بضع خطـوات أُخَر لعلّي أجد منجى من هـذه الهلكة.. هيّا أسـرع يا مختاري.. أسرع يا مختا.. سمعت دويّ انفجار قنبلة صغيرة

أو ربما صاروخ انفجر أمامي فاقتلعني من الأرض ورماني بضعة أمتار إلى الخلف. ملأ الصفير أذني. مرّ بي عدد من الأشخاص وأخذوا يبتعدون عنّي. شعرتُ أنّي في حلم، فقد كان يخيّل لي أنّي أعدو كالريح إلّا أنني كنت أراوح مكاني! وصل من الخلف بعض الأشخاص ومرّوا بجانبي. في تلك اللحظة ملأ ذهني تساؤلات كثيرة: ماذا يعني هذا؟ لماذا لا أتقدّم إلى الأمام؟ هل وقعت؟ هل أصابتني شظية؟ هل قُتلت..؟ رأيت الدماء تسيل من جسدي! لقد جُرحت. أردت أن أنهض من مكاني لكنّي سرعان ما وقعت! لم يكن ثمّة أحد حولي. فجأة أخذ كل الأشخاص الذين عبروا بجانبي يرجعون كمشاهد فيلم تعادُ إلى الخلف، فعرفت أنّهم يهربون من القصف الذي وقع في الأمام. أحسستُ أن يدي اليسرى قد تخدّرت وأنّ شيئًا قد تعلّق بها! كأنّ يدي من المرفق لم تعد لي. تفحّصتها فإذا بالدماء تفور منها. ما لبثت أن باتت ثقيلة كالتي عُلّق بها ثقل من عشر كيلوغرامات. أمسكت يدي المعلّقة بيدي اليمنى وأخذت أزحف على الأرض.

بعد أن أنهت الطائرات إلقاء قنابلها وصواريخها على رؤوس العناصر عادت لتستهدف مَن بقي بنيران رشاشاتها بلا خوف. وحين لم يبقَ لنيرانها أيّ هدف غادرت سماء المعسكر!

بدت أرض المعسكر كأرض محصودة تكدّس في زواياها، عوضًا عن سنابل القمح، عدد من القتلى والجرحى الممدّدين على الأرض. كان بعض الجرحى يزحفون على التراب وقد علت أنّاتهم! لقد ساهم القصف الأوّل الذي رأيته في حياتي في تشويش ذهني عن الحرب. غطّت أجساد الشهداء أرض «جفير». بعدها أغمي عليّ ولم أعد أعرف أين أنا وماذا أفعل!

عندما استعدت وعيي وجدتُ العم مرتضى عند رأسي وقد ربط يدي

المقطوعـة مـن المرفق بتلك العصابة الخضراء التـي كنت قد عصّبت بهـا جبهتي ليقطع نزف الـدم. كان حضوره بقربـي في تلك الظروف العسـيرة مبعثًا للسكينة. تبسّم ابتسامـة مريرة، ثم قال بصوت يضجّ بالحزن والغمّ وهو يحـدّق بيدي المبتورة: «روحي لغربتك الفداء يا أبا الفضل العباس!».

96

حياة الرجال

5/آذار/1984

منتصف الليل وبينما أنا في الحافلة كنت أحلم أنّي جالسة في فندق «قيام» أنظر إلى طفل صغير وجميل. كان الطفل الملفوف بقماط أبيض يبـذل قصارى جهده لكـي يمزّق القمـاط ويحرّر نفسـه منه. صارت وجنتـا الطفل حمراوين إثر الجهد الذي بذله! قلت في نفسي: يا إلهي، إنّ ملامح وجه هذا الطفل وعينيه وحاجبيه تشبه مرتضى كثيرًا!

أحسستُ بيدٍ تهزّ كتفي.

– آمنة.. آمنة..

فتحـتُ عينـيّ فإذا بـ«صدّيقة»، زوجـة السيد ألواني، تخرج صوتها مـن أعماق حنجرتها خوفًا مـن أن توقظ الرجـال في الحافلة وتقول: «استيقظـي.. هذه هـي نيران آبار النفط! لقد طلبـتِ مني أن أوقظك عندما نصل إليها!».

فأجبتها ببرودة وكسل: «أشكرك!».

– هل كنت تحلمين يا آمنة؟

– كان حلمًا جميلًا!

– يا ويلي.. سامحيني!

تثاءبتُ طويلًا ثمّ تبسّمت.

– لا عليكِ يا صدّيقة!

أخذت أراقب نيران آبار النفط. بعد ذلك ألقيت نظرة على مرتضى الـذي كان جالسًا بقرب علي محمد ألواني على المقعد الموازي لمقعدنا.

كان مرتضى نائمًا وكذلك كان معظم الرجال.

أشـرتُ بعيني وحاجبـي إلى مرتضى وقلت لصدّيقـة: «كنت أحلم بطفل يشبه مرتضى!».

ثم أخذت نفسًا عميقًا ملؤه الرضى.

– إننا نكتسب تجارب قد لا يتسنّى لكثير من النساء اكتسابها. أنت لا تعلمـين يا صدّيقة مدى سروري طوال هذه الفترة، حتى عندما كنت أنتظر عودة مرتضى من الجبهة خائفة مضطربة! إنني أشعر أنّي أكبر معه وأعي معنى الحياة أكثر. الشكر للّه!

اغرورقت عينا صدّيقة بالدموع.

رفعتُ حاجبيّ قائلة: «هل قلت شيئًا مسيئًا؟».

سالـت الدمـوع على وجههـا النحيف، ثـمّ غطّت وجههـا بعباءتها السـوداء وجعلت تبكي بهدوء بحيث لم أكـن أرى سوى ارتعاش كتفيها تحت العبـاءة. كأنّها وجـدت كلامي ذريعة لكي تبكـي. مسحتُ بيدي علـى رأسها وقبّلتها. أحسستُ أنّي أحبّ صدّيقة وبقيّة نزيلات الفندق أكثر من أمّي وأخواتي.

– صدّيقة؟!

فأزاحت عباءتها عن وجهها. تحت النور الخافت المنبعث من سقف الحافلة رأيت وجهها وقد غسلته الدموع. ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت: «هذا ما أشعر به بالنسبة لألواني أيضًا. لا أدري إلى متى سنظلّ لائقين بالبقاء مع هؤلاء!».

ثمّ مسحت دموعها بطرف اصبعها وابتسمت ابتسامة باردة وقالت: «إنّ رجالنا عظماء جدًا!».

– حسنًا، ولكن هذا جيد!

- إنّ هذا هو ما يقلقني!

- لماذا يا صدّيقة؟

- عندما تصبح جواهرك غالية القيمة فإنّها لا تبقى تختصّ بكِ!

ثمّ همستْ قائلة: «آمنة، منذ أيّام وأنا أسمع نداءً من أعماقي يقول إننا سنعود سريعًا هذه المرّة إلى فسا!».

فقلت: «ستنتهي الحرب إن شاء اللّه ونعود جميعًا مع أزواجنا».

ثمّ أخذ كلانا يبكي بصمت وهدوء..

97

قصف الأهواز

17/آذار/1984

ظُهر ذلك اليوم الشتوي في الأهواز كنت أجلس داخل غرفة الفندق أقرأ الحوار الذي أُجري مع مرتضى في مجلة «بيام انقلاب»(نداء الثورة)، والذي تحدّث فيه عن عملية «والفجر2». بينما أنا كذلك وإذ بجلبة في الممرّ أثارت انتباهي! دقّقتُ سمعي فسمعت وقع خطى جزمة عسكريّة سرعان ما طُرق الباب. اعتراني هلع لا مبرّر له! وبسرعة البرق وضعت العباءة على رأسي وفتحت الباب لأجد السيد نجفي.

- السلام عليكِ يا حاجة!

دقّقتُ النظر في وجهه الذي علاه الغبار والدخان. لم تكن ملامحه تنبئ بأخبار جيّدة. نظرتُ مضطربة حوله ثم قلت: «عليك السلام.. هل حدث شيء؟».

- استعدّي، علينا الذهاب إلى شيراز!

شعرت بشيء ينسلخ من روحي! قلت له وشفتاي ترتعشان من الخوف: «هل حصل مكروه لمرتضى؟ قل لي الحقيقة يا سيد نجفي..».

- كلا يا أختي!

- إذًا لمَ علينا الذهاب إلى شيراز؟!

فارتبك ولم ينبس ببنت شفة. زاد قلقي وتذكّرت كلام «صدّيقة» في الحافلة قبل أسبوع حين قالت: «أسمع نداءً في أعماقي يقول إننا سنعود سريعًا إلى «فسا» هذه المرة».

- أين مرتضى؟

- إنّه بخير، لقد هدّد العراق بقصف الأهواز، ولذا عليكِ الذهاب إلى شيراز!

قلت بإصرار: «لن أذهب إلى شيراز!».

عندما رأى إصراري نظر بحيطة إلى طرفي ممرّ الفندق، وقال بصوت خافت تشوبه غصّة: «لقد استشهد «ألواني»!. وقد طلب السيد مرتضى منكِ أن تذهبي للمشاركة في تشييع جثمانه!».

شعرت وكأنّ كلًّا من السقف والممرّ والسيد نجفي يدورون حولي. جلست على الأرض ولم أعد أسمع كلام السيد نجفي جيّدًا.

– ما.. هل.. بالله..

بعد أن تحسّنت حالي سألته: «من استشهد أيضًا؟ قل الحقيقة..».

– أقسم بحياة الإمام، «ألواني» فحسب، لا تخبري زوجته!

لم أدرِ متى غادر السيد نجفي. عدت أدراجي وبقيت وحيدة تحاصرني أفكار مقلقة: إنّ مرتضى هو من استشهد وليس ألواني.. تلك هي طريقتهم، يعلموننا بالخبر بشكل تدريجيّ.. عليّ أن أذهب إلى الأخريات.. أكاد أجَنّ..

لم أجرؤ على الذهاب إلى غرف بقيّة النساء. كان الوقت يمرّ ببطء قاتل. بعد صلاتَي المغرب والعشاء جلستُ على سجّادة الصلاة أبكي فيما مرّت في فكري مشاهد رسمتُها مرارًا وتكرارًا لتشييع مرتضى ودفنه.

عند الساعة التاسعة مساءً أقنعت نفسي بأنّي سأتابع العيش بدون مرتضى. ما كنت أرقُبه كلّ يوم وقعتُ فيه.. من هو التالي.. كنت أفكّر بما سيحلّ بي في غياب مرتضى فيما أخذ العرق يتصبّب من أطرافي وشعرت بسهام تمزّق قلبي. حملتُ حقيبتي ونزلت درج الفندق محزونة. دخلت صالة الفندق فرأيت بقيّة النساء وقد اعتراهنّ الحزن والغمّ. تبادلنا تحيات جافّة وابتسامات مريرة.

وصلت سيارة السيد نجفي. أخذتني «فهيمة»، زوجة نجفي، جانبًا وقالت: «سيدة آمنة، تصرّفي بشكل طبيعي، ينبغي أن لا تطّلع صدّيقة على خبر شهادة زوجها!».

فتبسّمتُ بمرارة وقلت في نفسي: لا بدّ أنّها ستقول للأخريات أيضًا: تصرّفن بشكل طبيعي بحيث لا تطّلع آمنة على خبر شهادة زوجها.. يا لتعاستي!

ركبنا سيّارة «تويوتا لاندكروز» كاكية اللون. كان المكان لا يتّسع للجميع، فوضعوا بطّانيّة في القسم الخلفي من السيارة حيث جلس عدد منا. كانت المرّة الأولى التي لم يكن برفقتنا رجلٌ سوى السيّد نجفي! ما إن جدّت السيارة سيرها نحو «شيراز» حتى أجهشت النسوة جميعهنّ بالبكاء إلّا «صدّيقة» التي كانت تنعم بسكينة غريبة!

وصلنا إلى شيراز في صباح اليوم التالي من ذلك الشتاء ومن ثَمّ دخلنا جادّة «فسا». عند الساعة الحادية عشرة مررنا بمقام الولي الصالح إسماعيل. فجأة التفتت «صدّيقة» إليّ كأنّها استفاقت من تأثير صدمة، وقالت لي: «آمنة، ثمّة شيء تخفينه عنّي!».

احترت بماذا أجيبها. تبسّمتُ ابتسامة مصطنعة. حدّقتْ بعينين ضيّقتين في وجهي. أمّا أنا فاغرورقت عيناي بالدموع. قالت لي: «هل حدث مكروه لعلي؟».

علت وجهها صفرة وغدت بشرة وجهها كالشمع! لم أحتمل نظراتها كما ولم يسعفني أحد. كنت أرى ارتعاش أطراف أنفها بوضوح. غير أنّ سكوتي حفّزها على الكلام فقالت: «آمنة، لا قدّر الله أن يكون علي قد استشهد بهذه السرعة! لقد أراد أن تُفتح طريقا كربلاء والقدس!».

ثم سكتت. أمّا أنا فوضعت عباءتي على رأسي وبكيت بصمت. لم أدرِ في من أفكّر، أبمرتضى أم محمود ستودة أم ألواني والآخرين!

وصلنا إلى «فسا» قرابة الظهر. توقّفت السيّارة أوّلًا قرب باب بيت «ألواني» فترجّلت صدّيقة من السيّارة. كنت أخشى أن أنظر في عينيها عند الوداع..

بعـد مرور ثلاثة أيّام على تشييع جثمـان علي محمد ألواني، وحين كنـت جالسـة في فناء الدار أساعـد خالتي في الخبز دخـل «قدمعلي» الفناء وقال: «لقـد جُرح مرتضى!». شعرت على الفور بالعرق يتصبب من شعري. نهضت سريعًا من مكاني.

- هل جُرح فقط؟

- أجل!

- احلِف بحياة الإمام!

- وحياة الإمام!

تنفّسـتُ الصعـداء، وسرعـان مـا سرح فكـري: ترى أيـن أصيب هـذه المرّة.. ما حال جرحه.. إلهي هل بقي مـكان في جسده لم يُصَب بالجراح.. جرحٌ فوق آخر..

عـاد مرتضى وستـوده من الجبهة وحضرا مراسـم أسبوع ألواني. بعد المراسم كان محمود ستوده بحال عجيبة. لقد ملأت الدموع عينيه ووجنتيه! عندما أراد الانصراف حدّق في جسم مرتضى الذي لم يكن فيـه مكان سليم ثم قال: «عزيزي مرتضى انتبه لنفسك، لم أعد أقوى على تحمّل فراقك أنت أيضًا!».

هـذه المرة رأيته يبكي بصمت. وضع مرتضـى يده على كتف ستوده الذي تابع قائلًا: «ها قد استشهد علي.. ما الذي اقترفتُه حتى أبقى حيًّا إلى الآن يا مرتضى؟! إنني أخجل من النظر في عيون عوائل الشهداء!».

عندما ابتعد عنّا قلت لمرتضى: «ما خطبُه؟».

أمسك مرتضى بيدي وقال: «نحن روح واحدة في خمسة أبدان!».

- أي خمسة؟

- أنـا، علي، محمود، علي أكبر ونجفي. لكـنّ علاقة محمود وعلي على وجه الخصوص كانت من نوع آخر!

98

زينب

27/آب/1984

عصرًا وحين كنت أخيط بالإبرة والخيط ثوبًا لطفلي دخل مرتضى غرفة الفندق ورأى في يدي ثوبًا زهريّ اللون. جلس قبالتي مسرورًا.

- هل أصبحتِ خيّاطة يا بنت خالتي؟!

حدّقت في عينيه اللتين امتلأتا ببريق السعادة وأخذت أنظر إليه من دون شبع! اقترب منّي فيما أخذ الهواء المنبعث من مكيّف الغرفة يتلاعب بمقدّم شعر رأسه. نظر إلى وجهي ثم قال: «إن لم تسامحيني فلا أدري ماذا سيكون موقفي يوم القيامة!».

فقطّبت حاجبيّ بتصنّع.

- ما هذا الذي تقوله!

فسكت. أمّا أنا فوددتُ لو أنظر إليه لساعات طويلة وأطير فرحًا لوجودي بقرب زوج مثله، لكن سرعان ما عشّشت في أعماق نفسي فكرة خسارته. انغرزت الإبرة في إصبعي!

- آخ!

- ماذا حدث، دعيني أرى!

وضعتُ إصبعي في فمي تلقائيًّا ثم أخرجته وضغطت عليه. ظهرت قطرة دم على رأس سبّابتي فغسلتها، ثمّ عدت وحدّقت في وجه مرتضى النحيف المضطرب.

- كم مرة جُرحت يا بن خالتي؟!

انهمكت بالخياطة من دون أن أنتظر جواب مرتضى. تقدّم منّي وقال: «إنّ ثوب زينب جميل!».

فقلت متعجبة: «زينب؟!».

- في المرة السابقة التي زرت فيها «مشهد» نذرت إن رزقني الله بنتًا أن أسمّيها زينب.

- ولماذا زينب؟

- أولًا، لأنّ والدة أحد الشهداء، وهي سيّدة علويّة، طلبت منّي ذلك. وثانيًا لأنني أريدها أن تقتدي بصاحبة هذا الاسم مولاتي زينب عليها السلام، بطلة كربلاء، ما رأيك؟».

- الأمر إليك، «زينب» اسم جيد جدًا.

- حسنًا، كم عمر ابنتنا زينب الآن؟

- أولًا من أين عرفت أنها بنت. وثانيًا إنّها الآن في طريقها إلى الشهر الخامس!

- هل تستطيعين الذهاب للزيارة؟

- للزيارة؟! إلى أين؟!

- إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام.

صرخت من فرط السعادة، وضع يده على فمي ونظر ناحية الباب ثم قال: «ماذا دهاكِ، سيظنّ الجميع أنّ مرتضى يضرب زوجته!».

- أليس الأمر كذلك!

فضحكنا معًا.

بعد يومين استعددنا للذهاب إلى مشهد. في الصباح الباكر جلستُ و«بروين» على المقعد الخلفي للسيارة وجلس محمود ومرتضى في الأمام. اختير المسير بحيث نعرّج على ضريح «شوش دانيال» عليه السلام للزيارة، ثم يكون لنا محطة قصيرة في «دزفول» مدينة البطولة والمقاومة.

ما إن خرجنا من «دزفول» حتى فتح محمود باب الدعابة والمزاح، فخاطب مرتضى قائلًا: «فلتشكر الله يا هذا!».

- على ماذا؟

- على نشوب الحرب وخروجك من قريتك لتشاهد المدينة. لم تكن تحلم حتى أن تشاهد المدن الإيرانيّة يومًا!

لم يسكت له مرتضى الذي كان يقود السيارة وأجابه قائلًا: «يا مسكين، لو لم تقم مؤسسة جهاد البناء بمدّ جسر من قريتك لم تتمكّن أنت أيضًا من الخروج لمشاهدة المدينة!».

كنّا سعداء بزيارة الإمام الرضا عليه السلام. أخذت أتحدّث إلى بروين عن الهدايا التي سأشتريها من مشهد وإذ بمحمود يقول: «مرتضى، توقّف قرب مبنى الاتصالات!».

- لماذا؟

- لأتّصل باللواء وأطّلع على آخر أخبار الجبهة.

فما كان من مرتضى، الذي بدا أنّه ينتظر هذا، إلّا أن توقّف قرب المبنى. ترجّل محمود ودخل المبنى، سرعان ما عاد وتبسّم لمرتضى.

- ماذا حدث يا محمود؟

نظر «ستوده» إلينا بحيطة وقال: «طلب الحاج أسدي منّا أن نعود على الفور إلى الأهواز!».

لم يصدّق مرتضى مثلي كلام ستوده.

- كفّ عن المزاح!

لكن ملامح وجهه لم تتغيّر وقال: «ليته كان مزاحًا يا مرتضى، لكن هناك عرس في الجبهة!».

- عرس؟!

فما كان من مرتضى إلّا أن وضع يده على صدره مسلّمًا من مكانه على الإمام الرضا عليه السلام، ثم أدار مقود السيارة باتجاه الجبهة.

99

الحنّاويّ المشويّ

27/ت2/1984

مـن بين الأشياء التـي أهداها أهل «زرقـان» إلى كتيبة الفجر كان خـروف سمـين بلون الحنّـاء، وكان قـد سلب لبّ الكبـير والصغير في الكتيبـة! أوكل العـم مرتضـى مصير الخـروف إليّ. ولمّـا رأيت عيون القريـب والغريب على ابـن مدينتي الحنّاويّ صـرت حارسه ومرافقه بلا مقابل! إلى أن نفد صبر جميع من في الكتيبة فرسموا خطّة لذبحه وشيّه. وكان حسن مايلر أوّل من رمى سهمه نحو كلينا؛ أنا والخروف.

– يا مسعود همّتي، لقد هلكنا ونحن ننظّف روث هذا الخروف!

ثمّ أدلى كلّ مخالف وموافق بدلوه.

– إنّ لحمه مناسب جدًّا للكباب التركي!

– أليس من الظلم أن يذبح هذا الخروف؟ انظروا إليه! إنّ البراءة تضجّ في عينيه ووجهه!

– فلنطبخه مع الأرز!

أمّـا الحاج صلواتي، إعلامـي الكتيبة، فإنّه لمـا رأى أنّ «البقرة قد وقعـت وكثر سلّاخوهـا» أراد أن يقدّم مبرّرًا إضافيـا فقال: «يا عمّي، هذا الحيوان قد نجّس المكان برمّته!».

– يـا حـاج صلواتـي، إنّ بول هـذا الخـروف المسكين وروثـه ليسا نجسين!

– لا تعلّمني الحكم الشرعي يا بن زرقان، إنّه غير مطابق للشروط الصحيّة!

قـال مسلم رستمزاده: «لـديّ اقتراح، ما رأيكم لـو نغسّله مرّة كل

يومين ونسرّح صوفه ونضعه أمام قسم الإعلام حتى..».

غير أنّ نظرة الحاج صلواتي الحادّة والمريبة أجبرت مسلمًا على تغيير كلامه « أمـ مـ ام قسم الإعلام، وطبعًا نشويه بعد أيّام!».

حضـر عباسـ زمـاني لنجدتـي: «إن أراد أحد ابـن مدينتي بسوء فسأكون له بالمرصاد!».

ربـتُّ علـى كتف عباسـ فالتفـتَ ونظر إليّ ثـم قال: «مـا الأمر يا همّتي؟».

– هل عَنيتني بقولك: ابن مدينتي؟.

ثم أشرت إلى الخروف قائلًا: «أم عنيت هذا؟».

فانفجـر الشباب بالضحك. أمّا عباس الذي احمرّ وجهه فضربني على رأسي.

– تعسًا لك على هذا الكلام يا مسعود همّتي! أهذا جزاء الإحسان!

لم يصـل الجدل إلى نتيجة وذلك، علـى الأغلب، لاستحالة تقسيم لحم خروف واحد، وإن كان سمينًا، على كتيبة مؤلّفة من قرابة أربعمئة عنصر. لذا فالكحل خير من العمى، كما يقول المثل!

أخـيرًا، وفي يوم كان أكثر عناصـر الكتيبة في مأذونياتهم، اغتنمنا الفرصـة. وحيـث لم يعد أحد يهمّه جمال ذلك الخـروف الحنّاوي ولا تربطـه به أواصر، بادرنا إلى ذلـك الحيوان المسكين وذبحناه! طبخنا لحمـه وتناولناه مع من بقـي في الكتيبة. أردنا أن نـأكل كبد الخروف وقلبه، إلّا أنّ العم مرتضى اقترح قائلًا: «دعوا القلب والكبد لنتناولهما على الفطور صباح الغد!».

قلت: «إنّهما لا يكفيان الجميع يا عم!».

– سنقنع بالموجود يا مسعود الأكول!

- ليس لدينا ثلاجة، سيفسدهما الحرّ!

- نضعهما داخل الكيس في سلّة ونعلّقهما في مكان مناسب، كما كانوا يفعلون في الماضي!

وهذا ما حصل فعلاً. عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي أصبنا بالدهشة إذ لم نجد أثرًا للكبد والقلب! ذهبنا للتحاكم لدى العم مرتضى.

- لقد سرقوا الكبد والقلب!

هزّ العم مرتضى رأسه وقال: «ليبقَ الأمر بيننا حاليًا، سأتابعه بنفسي».

عصر ذلك اليوم جاءنا العم مرتضى بالخبر: «لقد تحقّقت من الأمر، إنّها فعلة أبناء مدينة «استهبان».

قصدنا شباب استهبان واعترضنا عليهم: «لماذا خنتم الأمانة؟».

فضحكوا قائلين: «لعلّ القطّة أكلتهما!».

قلنا: «أيّ قطة؟ لا يمكن لأحد غيركم الوصول إليهما!».

لكنّهم رفضوا الاعتراف بفعلتهم. وبتوصية من العم مرتضى كتمنا القضية حتى حين. لحسن الحظ أهدي أبناء استهبان خروفًا أسمن وأجمل من خروفنا ذاك. بدورهم، أخذوا يغذّون الخروف ويعتنون به بدقّة متناهية لكي يذبحوه ويشووه في الوقت المناسب. خطّطنا مع العم مرتضى للانتقام وقمنا، بمساعدة أبناء زرقان، بأخذ الخروف ثم شويناه وأكلناه! قال العم مرتضى: «ضعوا جلده وأرجله ومعدته في صندوق وابعثوه هدية إلى شباب استهبان!».

ظهر اليوم التالي أعددنا مرق اللحم بما تبقّى من لحم الخروف وجلسنا نأكله وإذا بالمنتهَبين قد حضروا وقصدوا غرفة العم مرتضى شاكين: «يا عم، لقد أخذوا خروفنا!».

إلّا أنّ العم مرتضى فضح أمرنا بسهولة ووضع نفسه موضع القاضي المحايد. قلت له: «يا عم، لقد أصبحت شريكًا في القافلة ورفيقًا لقاطع الطريق!».

ضحك. ثم جمع أبناء زرقان واستهبان في المصلّى وقال: «في الواقع، إنّ حادثتَي السطو على الكبد والقلب وعلى الخروف كانتا بتخطيط منّي. في النهاية لا بدّ من اصطناع مثل هذه الأحداث في كتيبة الفجر لكي أخرجكم من الكسل والملل!».

ثمّ قبّل وجوهنا قائلًا: «أرجو المسامحة».

100

أصحاب اليمين

20/ك2/1985

عنـد الظهر، أخذني الطلق. صرت أتلـوّى يمنةً ويسرةً حتى انقطع الألم لبرهـة قصـيرة مـا لبـث أن عاودني ثانيـة. كان طعـام الفطور كالصخرة يقبع على رأس معدتي. أمّا مرتضى فقد ذهب منذ الصباح الباكر لشراء لوحة للسيّارة التي بيعت لنا من قبل لواء المهدي. تذكّرت الحوار الذي دار بيني وبين مرتضى:

– آمنة، إن لم تكوني على ما يرام فلن أذهب إلى شيراز!

– أنا بخير، ستأتي أمّي.

– علينا أن نبيع السيّارة، فلنبعها من دون لوحة!

– لا، سنبيعها بسعر أفضل مع لوحة! بالمناسبة ألا يمكننا الاحتفاظ بالسيارة؟

– أودّ ذلك من كلّ قلبي، ولكنّك أدرى بأنّنا مدينون بنصف ثمنها!

عندما تواصل ألم الطلق، ناديت وبشقّ الأنفس أمّي التي كانت على أهبـة الاستعداد. كما حضر أبي وخالتـي وأخذوني إلى مستشفى فسا تحت رذاذ مطر الشتاء.

في اليـوم التالي لولادة ابنتي عدت إلى القرية. قرابة الظهر وبينما كنت نائمة في البيت دخل مرتضى حاملًا علبة حلوى.

– السلام عليك يا بنت خالتي!

جلـس بقربي ثمّ حمل الطفلـة الملفوفة بقماط أبيض وبدأ يؤذّن في أذنها: «ألله أكبر..».

لا أدري أيّ سـرّ كان في اقـتران أذان مرتضى بصوت الأذان الذي اخـترق سمعي، والـذي انبعث من منارة مسجـد القرية! قبّل مرتضى وجه طفلتي الأبيض ذات الوجنتين الحمراوين، بعد ذلك شرع بقراءة سورة الواقعة برويّة حتّى خلتُ أنّه يزرعها في ذهني كلمة بعد أخرى.

إذا وقعت الواقعة..

.. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة..

فسبح باسم ربك العظيم.

وبعـد أن أنهـى قـراءة سـورة الواقعـة، وبعينـين ملؤهمـا الرضى والطمأنينة، وضع مرتضى طرف أنفه على جبهة طفلتي وجعل يمسّدها بنعومـة فريدة، ثم رفـع رأسه. دقّقت النظر في محيّـا زوجي فوجدته وقـد غمره السـرور وصَفَتْ نفسه من الغموم وعمـرت روحه بالغبطة! طبع قبلة على وجنة طفلتي المتورّدة وقال: «بابا فداءٌ لزينب!».

تبسّمـتُ. لكن بعض الأقارب لم يوافقوا على هـذا الاسم وأخذ كلّ واحـد منهـم يقترح اسمًا. وخلافًـا لعادته، حيث كان يبـدي ليونة مع الآخرين، حسم مرتضى الأمر قائلًا: «زينب، ولا غير!».

كان يهتمّ بزينب ويدلّلها ويكثر من تقبيلها إلى حدّ يفوق التصديق!

في الأسبـوع التالي علـم مرتضى بشهـادة أحـد أصدقائه فوضّب حقيبته وقال لي: «ابقي هنا إلى أن تتحسّن صحّتك، وحين آتي لحضور الذكرى السنويّة لألواني سأصطحبك إلى الأهواز».

101

لعبة الحرب

22/ك²/1985

بعد غياب طال شهرين عاد وَلَدايَ محمد رضا وعباس من الجبهة ولم يكن لهما حديث إلّا عن العم مرتضى: «إننا ننادي قائدنا بالعم مرتضى، شباب الكتيبة يعشقونه!».

سألتهما بفضول: «حسنًا يا عزيزيّ، كم عمر عمّكما هذا؟!».

– لقد أتمّ خمسًا وعشرين سنة.

قلبت شفتيَّ وفتحتُ عينيّ مستغربة.

– خمس وعشرون سنة؟!

عاد عباس ومحمد رضا إلى مدينة «زرقان» لقضاء أيّام مأذونيّتهما، وكلّما أتيا على ذكر جبهة القتال أخذا يتحدّثان عن العم مرتضى وأحيانًا عن معاونه بديهي! في اليوم الأخير قبل مغادرتهما إلى الجبهة التفتُّ إلى ابنَيّ قائلة: «بما أنّ قائدكما حسن السيرة إلى هذا الحدّ ادعياه للمجيء إلى زرقان في المرة المقبلة!».

قال عباس فرحًا: «إذًا ابذلي قصارى جهدك لخياطة أكبر عدد ممكن من ثياب الأطفال الرضّع!».

هززت رأسي.

– هل حقًّا ما سمعتُ، ثياب أطفال؟!

– أجل يا أمي العزيزة!

– وهل الأطفال الرضّع يحاربون أيضًا في الجبهة يا بنيّ؟!

– لا يا أمّي، هل تمزحين!

فغرتُ فاهي.

– آه، مبارك لكما يا عزيزيّ، لا بدّ أنّ عمّكما مرتضى قد زوّجكما في الجبهة ورُزقتما بأطفال من دون علمي!

كاد أن يغمى على محمد رضا من شدّة الضحك. اقترب منّي وقال: «أمّي، كفّي عن مضايقتنا، لقد رُزق العم مرتضى بطفلة جميلة ونريد الثياب لأجلها!».

– أليس لعمّكما هذا أمّ تهتمّ به؟

أخذ محمد رضا نفسًا عميقًا ثمّ قال: «أمّاه، دعك من استفزازنا، إنّ العمّ مرتضى نفسه لا يعلم بهذا. كل ما في الأمر أَننا أردنا إسعاده بطريقة ما ولم يخطر ببالنا سوى فكرة ثياب الأطفال. كما وإنّ لكِ باعًا طويلًا في هذا العمل!».

– أيّها الولدان المحتالان!

وعلى غير عادتهما رجع محمد رضا وعباس من الجبهة قبل مضي شهر، طرقا الباب. فتحتُ الباب فرأيت شابًا متوسّط القامة نحيف الجسم والوجه، ذا لحية سوداء يضجّ بالحيويّة واللطف. قال عباس: «أمّاه، هو ذا العم مرتضى الذي لطالما أخبرناكِ عنه!».

فتبسّم مرتضى، وكان يرتدي ثيابًا كاكيّة متواضعة وينتعل حذاءً خفيفًا، وخاطبني كمن كان على معرفة قديمة بي قائلًا: «السلام عليكِ يا أمّاه!».

قوله «أمّاه» جعل محبّته تسري في قلبي. وكانت الساعات الأربع والعشرون الأولى من التعرّف إليه كفيلة بأن تنسج خيوط علاقة فريدة من الأمومة والبنوّة بيني وبينه. قلت له: «بنيّ، أريد أن أتعرّف إلى زوجتك أيضًا إن أمكن ذلك».

فهزّ رأسه قائلًا: «على عيني، في المرة المقبلة سآخذ مأذونية أطول ونأتي معًا لنكون في خدمتك!».

ثم أشار إلى محمد رضا وعباس.

- لطالما وددتُ لو أتعرّف إلى الأم التي ربّت هذين الأسدين!

في تلك الأيام القلائل في مدينة زرقان الصغيرة اصطحبه محمد رضا وعباس إلى مقرّ الحرس والتعبئة والجيش، فكان يقضي ليله ونهاره متنقّلًا بين المسجد والمدارس وغيرها من الأماكن يخطب في الناس ويخبرهم عن الجبهة والحرب وبسالة المجاهدين. وبالرغم من حضوره للمرة الأولى في زرقان إلّا أنّ المدينة بأسرها، بصغيرها وكبيرها، بدت كأنّها تعرفه. في الليلة الأخيرة سألت عباس: «بنيّ، من أين يعرفه الناس؟».

- كلّما عاد أحد من أبناء زرقان من الجبهة تحدّث عن أخلاق العم مرتضى وبسالته! لقد قام بعمل بطولي فريد من نوعه في عمليات «والفجر2»، وقد ذاع صيته في كلّ أنحاء إيران!

سألته: «ماذا فعل يا بنيّ؟».

- أوووو.. القصّة طويلة يا أمّاه، سأخبرك بها لاحقًا!

بعد ظهر يوم رحيلهم إلى الجبهة، اشتريت بضعة كيلوات من الحلوى المعروفة بـ«حلوى ارده» الخاصّة بمدينة زرقان، ووضّبتها وسلّمتها لهم لكي يحملوها إلى شباب كتيبة الفجر. ما إن ابتعد ولداي قليلًا حتى التفت إليّ مرتضى وقال: «أمّاه، إنّ محمد رضا وعباس زماني هما حاملا راية الكتيبة! هنيئًا لكِ بهذين الولدين!».

عندما انصرفوا متّجهين إلى الجبهة، رميت الماء وزهر الليمون خلفهم. أحسست حينها أنّي أصبحت قلقة على ثلاثة أبناء!

102

جسد مقابل دبابة

16/آذار/1985

- عليكـم أن تتسلّمـوا الليلة خـطّ المواجهات من فيلـق علي بن أبي طالب عليه السلام السابع عشر، التابع لمدينة قم!

عصـر اليـوم الخامـس لعمليات بدر أعطـى أخي جعفـر تعليماته الأخـيرة لـكلٍّ من مرتضى وعلي أكـبر. سأله مرتضـى: «بالمروحيّة يا حاج؟».

أجـاب جعفـر: «بل بالـزورق، لم يوافقـوا على المروحيّـة لأنّ نسبة المخاطرة فيها عالية!».

حمـل مرتضـى وعلـي أكـبر بندقيّتيهمـا وخرجـا مـن دشمـة التكتيك (التخطيط العسكري). أمّا أنـا فكدت أن أفقد السيطرة على أعضـاء جسمـي جرّاء التعب وقلّـة النوم. كنت أتـوق للسباحة في مياه باردة أجد بعدها لنفسي خلوة فأنام ساعة من الزمن، إلّا أنّ أخي جعفر حالَ دون ذلك!

- صالح، عليك أن ترافقهما. أريد تقريرًا تفصيليًّا.

- سمعًا وطاعة يا حاج!

وحين هممتُ بالخروج من الدشمة ناداني: «صالح!».

لقـد صاح باسمـي بصوت عامر بعاطفة جيّاشـة ولم يكن قد فعل ذلـك منـذ زمن. خلال سنـوات الحرب التـي مضت، كانـت تلك من المـرّات النادرة التي شعرت فيها أنّ أخي هو من يتحدّث إليّ لا قائدي! تقدّم منّي وعانقني.

- أخي صالح، انتبه لنفسك، إنّ الخطّ الأمامي نار مستعرة! مدفعيّة

العـدو تطلق نيران مدافعهـا وقذائفها في كل مكان. قـم بالتنسيق مع محمود ستوده. أريدك أن ترجع لي بالتقرير سالمًا!

ثمّ وضع يده خلف رأسي وأدنى جبهتي منه وقبّلها.

- اعذرني إن لم أستطع أن أتعاطى معك كأخ!

احـترق قلبي لأجل أخي جعفر. لقـد كان دائم الجهوزيّة على مدار الساعـة! كنت أرى خلف ذلك الوجه جبلًا مـن التعب الخفيّ. وضعتُ المجاملات جانبًا وارتميت في حضنه. أدركت حينها كم أحبّه. انحنيتُ وقبّلت يده النحيفة اليابسة الخشنة وطفقتُ خارجًا من الدشمة قبل أن يرى دموعي. حملت عتادي الشخصي، وبعد أداء صلاة المغرب وتناول طعـام العشاء، استرحـتُ لوقت قصير، ثمّ انطلقـت برفقة مجاهدي كتيبتي الفجر وكميل باتجاه جزيرة «مجنون» الشماليّة.

خرجنـا من المقـرّ المظلم بسيّـارات مطفـأة المصابيـح، فيما أخذ عناصر التعبئة والحرس يـردّدون مرثية صادق آهنكران وهم يلطمون الصدور:

يا وردة شقائق النعمان الحمراء، يا فتاي الشهيد، يا فتاي الشهيد

أيّها المضرّج بالدماء بلا كفن، يا روحي يا شهيد، يا فتاي الشهيد

منتصـف الليل وصلنـا إلى ساحل الهـور ومن ثـمّ ركبنا مجموعةً بعـد أخرى زوارقَ صغيرةً سريعةَ السـير واتّجهنا نحو خطّ المواجهات الأمامـي. في عتمة الليل البهيـم بدا بريق نيران مدفعيّة العدو في جهة الجنـوب بشكل واضح. كلّمـا دخلنا الهور أكثر تزايـد سقوط القنابل المضيئة ذات الشُّرُر الباهتة اللون فوق مياه الهور الراكدة. شيئًا فشيئًا بتنا نسمع أزيز رصاص الرشاشات الثقيلة والأسلحة الخفيفة. كما كنا نرى في السماء نور رصاص (الخطاط) لتلك الرشاشات. كنت برفقة

العم مرتضى وفتى يافع يحمل جهازه اللاسلكي، بالإضافة إلى محمود في زورق واحد. كان مرتضى يجري عبر اللاسلكي التنسيقات اللازمة بِلُغة الرموز، بغية استلام الخطّ الأمامي.

- شرقي دجلة.. سنتموضع خلف الساتر الترابي والقناة.

أحيانًا كانت القذائف تسقط في مياه الهور فتنقضّ المياه علينا كوحش مخيف لا رأس له ولا ذيل. عبرت زوارق الكتيبتين الطريق المائي بسلام.

عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وصلنا إلى الساتر الترابي الأول في الجبهة. كان مجاهدو لواء «علي بن أبي طالب عليه السلام - قم» قد أمضوا عدّة أيام تحت وطأة نيران العدو بحيث لم يستطيعوا فتح جفونهم من فرط التعب. وقد علت وجوههم طبقات من الدخان والبارود! أجرى محمود الإجراءات اللازمة.

- كلّ من ليس له دور في الحراسة فليسترح في القناة، وليبقَ الآخرون خلف الساتر الترابي.

تسلّم محمود ستوده مسؤوليّة الساتر الترابي فوضع عناصر الكتيبتين بمساعدة مرتضى وعلي أكبر رحمانيان في داخله. قلت لمحمود: «ألا يوجد دشمة هنا؟!».

فضحك وقال: «إن شاء الله، عندما نستولي على غربي دجلة، سنستقرّ في دشمة العراقيّين!».

فتذكّرتُ تلقائيًّا كلام أخي جعفر.

- الخطّ الأمامي نار مستعرة..

كانت حدّة نيران العدو كثيفة لدرجة أنّ عددًا منّا أصيب بجروح عند تبديل القوّات.

عنـد بزوغ ضـوء الصباح وبينما أخذتُ كبـوةً قصيرة وإذا بصوت مرتضـى يعلـو في الساتـر: «هجمـة مضـادّة.. استعدّوا يـا مجاهدي الإسلام، استعدّوا..».

ومـع طلوع الشمس اصطفّت عدة دبّابات من نـوع (T-52)، (T-60) و(T-72) التـي أخذت تحرق وقودها وهي تـراوح مكانها فانبعث منها دخان أبيض وأزرق عكّر صفو هواء الجنوب الرطب والنقي.

- استعدّوا .. استعدّوا للدّفاع..

لم يترك العراقيّون مساحة من القناة -التي كانت تحت سيطرتهم قبـل أيّام قليلة، ولذا كانوا على اطّلاع دقيق بتفاصيلها- إلّا وقصفوها بالقذائـف والمدافع وصواريخ الكاتيوشا. أخـذتُ أركض حيران داخل القناة ركضًا عشوائيًّا بغية الفـرار من الشظايا وعصف الانفجارات. أحسستُ للحظة بطراوة تحت قدمـي وطرق سمعي صوتًا يشبه صوت انتفـاخ بطن إنسان. نظرتُ سريعًـا تحت قدميّ لأرى نفسي واقفًا على بطن جثّة أحد العراقيّين الذي بدا وكأنّه قد انتفخ!

أمطـر العدوّ مـن الجهة المقابلـة الساتر الترابي بوابـل من قذائف الدبابـات والرشاشات، فيما انهمـرت من السماء صواريـخ الكاتيوشا والمدفعيّة. وفي غضون دقائق انعدمت الرؤية جرّاء انبعاث الغبار والبارود، كمـا وحجبت سُحبُ الدخان والغبار نور الشمـس وكدّرت الأجواء. شيئًا فشيئًا أخذ الساتر المنشأ من التراب والحصى يضمحلّ اضمحلال الثلج في الصيف نتيجة القصف المركّز بالأعيرة الثقيلة!

عنـد الساعة الثامنة صباحًا لم يبقَ عمليًّا شيء باسم ساتر ترابي. أمّا من بقي من العناصر الذين لم يستشهدوا أو يجرَحوا فقد انبطحوا على أرض القناة!

إثـر ذلـك تحوّلت المعركـة إلى قتـال مباشر كان عبـارة عن دبابة مقابـل فـرد أو فـرد مقابل فرد! فقـد تقدّمت قوّات الجيشـ العراقيّ ودبّاباتـه إلى أطراف القناة. ومـا إن وصلوا إلى القناة وكادت المعركة تُحسـم لمصلحتهم حتى أعمل العم مرتضى طريقته القتاليّة المعروفة، وفي لمـح البصر جمع من بقي من حمَلة سلاح الـ(B7) في كتيبة الفجر مناديًا: «نَظَر.. فرامرز..».

نـادى إثنين من حاملِي الـ(B7) في الكتيبة، وكانا مـن مدينة «نور آبـاد»، خلـع قميصه وكذلك فعلا، ثـمّ صعد الثلاثـة إلى أعلى القناة ورموا قذائفهم التي نزلت كالصواعق المحرقة على الدبابات العراقيّة. أمّـا العدوّ الذي لم يكن يتوقّع مثل هـذا التصرّف الانتحاري من رماة الـ(B7)، فخسر ثلاثًا مـن دباباته فيما حـارت الدبابات الأخرى في كيفيـة الانسحاب. همّ الشابّان بالرجوع إلى داخل القناة وإذا بقذيفة مدفعيـة تقع بينهمـا، أُصيب «نظر نظري» و«فرامـرز كهري» إصابات بليغة. ولم يطل الأمر حتى تمّ نقلهما إلى الخلف.

عنـد الظهر غدت حرارة الشمس شديـدة ومباشرة. وفي ظلّ ذلك الهـواء الشديد الرطوبة فضلًا عن حـرارة الأرض المحرقة، شنّ عدد كبير من دبّابات الجيش العراقـيّ وناقلات جنده هجمةً مرتدّة ثانية. أخـذت الدبابات الملتصقة بعضها ببعض بالتقـدّم نحونا وقد اتّخذت شكل الرقم سبعة.

تجـدّد القصـف المدفعي وقصـف الدبابـات المباشر علينـا. كانت المواجهـات محتدمة إلى حـدّ أنّ العراقيّـين استهدفـوا دبّاباتهم التي خلّفوهـا صباحًـا فدمّروها تدمـيرًا كاملًا. أخـذ العدوّ يتقـدّم بجرأة متزايدة مشتّتًا جموع المجاهدين بنيران قذائفه ومدافعه! لم يطل الأمر حتـى تمكّنوا من الوصول إلى القناة فبـادر عناصرنا إلى رمي القنابل

اليدويّة عليهم من داخل القناة. لم يكن يفصلنا عنهم أكثر من عشرين مترًا فكانت القنابل اليدويّة هي وسيلة القتال المتاحة، إذ لم يكن بوسع أحد القيام واستعمال الـ(B7). ضاق الخناق وكاد الخطّ الأمامي أن يسقط بيد العدوّ فيستعيد سيطرته على القناة في أيّ لحظة!

لم تتمكّن سيارات الإسعاف من نقل الشهداء والجرحى بسبب زوال الساتر الترابي فانبعثت رائحة الدم الثقيلة في الأرجاء. كان هناك عدد كبير من الذخائر والمعدّات الحربيّة في القناة غير أننا كنّا نحتاج إلى مزيد منها نظرًا لاحتدام المواجهات. أخيرًا أدّى اللطف الإلهي وشجاعة المجاهدين واستخدامهم القنابل اليدويّة إلى صدّ الهجمة المضادّة فعَلَت أصوات الشباب بالتكبير: «الله أكبر.. الله أكبر..».

وبينما أنا في خضمّ زهوة صدّ تلك الهجمة المضادّة وإذا بصوت مرتضى الضعيف المشوب بالغصّة يوقظني من ذهولي.

- صالح، أخبر الحاج أسدي أنّ «جليل إسلامي» قد استشهد!

لدى سماعي نبأ شهادة جليل شعرت بحزن شديد وكدت أن أختنق.

تمّ استدعائي بالإضافة إلى محمود ومرتضى وعلي أكبر من قِبل المقرّ عبر اللاسلكي لحضور جلسة مهمّة. في غضون دقائق درسنا صعوبات الخطّ الأمامي والتدابير التي يجب اتّخاذها لكي يتمّ عرضها خلال الجلسة. عمدة تلك التدابير كانت ضرورة المسارعة إلى بناء ساتر ترابي لصدّ هجمات الدبابات، فكان على الجرّافات أن تبادر في الليلة نفسها لبناء الساتر قبل معاودة العدوّ شنّ هجماته في اليوم التالي!

103

مقرّ المحاربين

17/آذار/1985

كانت إذاعة الأهواز تبثّ آخر الأنباء فضلًا عن الموسيقى العسكريّة دقيقة بعد أخرى.

«مستمعينــا الكــرام نرجو الانتبــاه.. استكمالًا لعمليّــات بدر حقّق مجاهدو الإسلام.. تدمير دبابات.. طائرات ومقتل العملاء البعثيين.. كما تمّت السيطرة على مناطق مهمّة في الهور..».

ساد الصخب أجواء فندق «قيام!». اختلط صوت سيارات الإسعاف ببــكاء زينب. أخــذتُ أهزّ الطفلة وأنــا أحدّق في المــدرج الهوائي عبر نافــذة الغرفة. كانت المروحيّات تحطّ فتهــرع سيّارات الإسعاف لتنقل الجرحى إلى مستشفيات الأهواز. وتعرّضت المدينة لقصف الطائرات العراقيّة عدّة مرّات حتى الظهر.

«يا شعب أهواز المقاوم والأبيّ.. هناك حاجة ماسّة إلى جميع أنواع فئات الدم..».

جميــع نــزلاء الفندق من الرجــال كانوا في جبهــات القتال. جاءت «ماندانــا» المــرأة الخرّمشهريّة بأخبــار وقالت: «يــاااه، المستشفيات تغصّ بالجرحى.. حتى إنّهم أخلوا المدارس لاستقبال الجرحى..».

ثــمّ همســت لي قائلــة: «آمنة، رأيــت ليلــة البارحة حلمًــا.. أشعر بالقلق.. ماذا لو جاء دوري..؟».

مــا إن انصرفت «ماندانا» حتى دخلت «بروين» غرفتي قلقة حائرة ترافقهــا ابنتهــا الصغيرة سمية وقالــت: «لقد أنمتُ مهــدي وزهراء. قلبي ليس مطمئنًّا، طلبتُ منهم أن يصلوا خطّ هاتفي إلى غرفتك!».

لم تكـد تجلسـ على الأرضـ حتى رنّ جرسـ الهاتـف. امتلأ قلبي رعبًـا واجتاحت فكري سُحب مـن الأوهام والأفكار السـوداء: هل هو مرتضـى.. أو لا قدّر الله.. بِتُّ أحمـل همّ شخصين. تجمّدت يدي ويد بروين ولم تستطع كلانا الوصـول إلى الهاتف. أخـذت أصارع نفسي حتى رفعتُ السمّاعة، فيما كانت زينب تبكي بين يدي.

- أأألووو.. تتفضّل.

كانت «عاطفة» زوجة رضازاده. تنفّستُ الصعداء.

- سلام.. هل السيدة بروين موجودة؟

أعطيت السمّاعة لبروين متردّدة.

أمسكتْ بها بريبة وسألتني: «ممن هذا؟!».

- إنّها عاطفة، زوجة رضازاده!

دققـتُ نظري أسفـل عينَي بروين أرقـب أيّ ردّ فعـل تبديه. قالت مرارًا: «محمود.. ماذا.. ماذا عن محمود.. أستحلفكِ بالله.. ».

وضعـت السمّاعـة بـبرودة. تدلّـت شفتهـا العليا وتبلّـت عيناها. بادرتُها بالسؤال: «ماذا قالت؟».

فأجابت بإكراه: «كان لواء المهدي على خطّ المواجهات الأمامي!».

- حسنًا؟!

فأردفـت قائلـة: «لقـد استشهـد كلّ مـن أكـبر نورأفشـان وجليل إسلامـي أو لعلّهما جُرحـا. وقالت إنّ حسين إسلامـي ورفيعي أصيبا بجروح أيضًا».

- مـ مـ ماذا عن مرتضى؟

مسحت دموعها بطرف إصبعها وقالت: «لم تذكر شيئًا عنه. سألتها

أيضًا عن محمود لكنّها لم تجبني!».

- بـالله عليكِ يا بروين.. هل أخبرتكِ شيئًا عن مرتضى.. أستطيع أن أتحمّل .. لا تكذبي عليّ!

- كلا. ولكنّها طلبـت منّا أن لا نخبر زوجتَي رفيعي وإسلامي بأمر شهادتهما.

كان صـوت سيارات الإسعـاف وبكاء زينب يجلـدان روحي. وقفتْ سميّة الصغيرة قرب النافذة وقالت: «ماما، هل أصيب بابا بجروح؟».

انقلب كيان بروين. لم نـدرِ أيّنا عليها أن تسكّن الأخرى وتواسيها! أمسكتُ يد سمية.

- تعالي يا صغيرتي واجلسي هنا!

مـلأتُ قارورة الحليب بمزيج الماء والسكـر ووضعتُها في فم طفلتي الرضيعة زينب ثمّ أنمتها في إحدى زوايا الغرفة.

عندمـا طرق باب الغرفة تبـدّدت -مؤقّتًا- سُحب العذاب والخوف التـي كانـت مسيطرة على قلبي. فتحـتُ الباب فرأيـت مرضية زوجة السيد محسن نيا. اعترتنـي مجدّدًا حال من الهلع غير المبرّر وأخذتُ أخاطب نفسي: أرأيتِ، ها قد جاءتكِ بنبأ شهادة مرتضى.

حين رأت بروين سوء حالي سارعت بالسؤال: «مرضية، ما الخبر.. ستوده!».

بتنا نشكّك بكلّ شخص وبكل شيء. دخلتْ مرضية الغرفة.

- لقد عاد محسن نيا، ولكنّي مهما سألته لم يجب!

سألتهـا بروين: «هـل ثمّة رسالة؟ لقد قال لي محمـود إنّه سيرسل برسالة لي».

– كلا. كلّ ما قاله إنّهم قاموا بعمليّة عسكريّة وإنّ هناك عددًا كبيرًا من الشهداء والجرحى!

قلّصت بروين جلد وجهها استياءً وقالت: «عليّ أن أتحدّث إلى الحاج!».

وعلى الفور انطلقت نحو غرفة الحاج محسن نيا فتبعتُها ودخلنا الغرفة. سلّمنا وحاولنا الاستفسار، غير أنّ الحاج رفع كتفيه واكتفى بالقول: «لقد جُرح حسين إسلامي..بالله عليكما، لا تخبرا زوجته!».

عدنا مكسورتي الخاطر إلى الغرفة. كنت مضطربة اضطراب بحر متلاطم. كلّما حاولت الفرار بتفكيري إلى جهة ما تراءى أمام عينيّ وجه مرتضى. أمّا سمية الصغيرة التي لم تبارح نافذة الغرفة فجعلت تشير إلى باب الفندق قائلة : «سيأتي بابا بالسيارة وسيلوّح بيده لي من الأسفل!».

كان لا بدّ لنا من أن نضع حدًّا لتلك الأوهام وذلك الانتظار القاتل. خطر ببال بروين أن تجري مكالمة هاتفية مع مقرّ اللواء في الأهواز.

– ألو.. أنا زوجة الحاج ستوده.. أريد أن أكلّمه!

وضعتْ سمّاعة الهاتف وسكتت. سألتُها: «ماذا قال لكِ؟».

– قال إنّ الحاج كان موجودًا هناك لكنّه غادر..

حدّقتْ بالجدار وأردفت قائلة: «إنّه يكذب!».

– وكيف علمتِ بذلك يا بروين؟

– وهل من الممكن أن يأتي محمود إلى الأهواز ولا يتصل بي؟!

– لعلّ الرجل لم يكن عنده أي خبر فأراد بقوله ذاك أن لا يقلقكِ!

– لا أعلم يا آمنة.. متى سينتهي هذا الانتظار؟

عصرًا غطّت سحابة حمـراء أشبه ما يكون بالغبار سماء الأهواز. كان معظم نزيلات الفندق موجودات في الغرفة (110) حين رنّ جرس الهاتف. رفعت خديجة ابنة رضازاده السمّاعة. في البداية ساد صمت رهيب المكان سرعان مـا أصغى الجميع إلى الكلام المبهم المنبعث من الهاتـف. وضعت خديجة السماعة وقد دكن لون شفتيها. سألتها: «من كان على الخط؟».

- الحاج أسدي، قائد اللواء!

- ماذا قال؟

فتجمّعت الدموع في عينيها.

- قال إنّ أبي قد أصيب بجروح وإنّه في المستشفى، وقال إنّه سيرسل أحدًا ليأخذنا لرؤيته إن أردنا!

- أين أصيب؟

- في يده.. كانت المكالمة من المستشفى..

خرجت بروين من عزلتها وقالت: «باللّه عليكِ أخبريني، ألم يذكر شيئًا عن محمود؟».

سالت الدموع على وجنتي خديجة الصبيّة. ابتلعت ريقها بصعوبة.

- إنّ الحـاج محمـود بخـير! قـال السيد أسـدي إنّ الحـاج يتولّى مسؤوليّاته في غيابه، لا تقلقي!

فسألتها: «ماذا عن مرتضى؟».

فالتفتت ونظرت إليّ.

- لم يقل شيئًا عنه.

انطويـتُ علـى نفسـي فيما اجتاحـتْ ذهنـي أسراب مـن الأفكار

السريعـة المتلاحقة: ..النـاسـ يُسَرّون لدى سماعهم مـا تبثّه الإذاعة مـن الموسيقـى العسكريّـة وأخبار تقـدّم المجاهديـن.. أمّا أنـا فكلّما سمعت ذلـك أشعر بقلبي ينخلع من مكانه. انتظـار قاتل، اضطراب، حـيرة.. إلهي متى تنتهي المعركة لأعرف ماذا حلّ بمرتضى؟.. هل هو جريـح، شهيد أم أسير! ترى هل سأراه ثانية.. ثمّ انتظار آخر ومعركة جديـدة.. آآآه، هـذا فضـلاً عن الفـترة العادية للحـرب حيث يقضي مرتضـى ليله ونهاره على جبهات القتـال في مواجهة العدو، إذ يحتمل أيضًا أن تصيبه شظيّة أو رصاصة في أي لحظة.. لم أكن قلقة إلى هذا الحد في «جليان»، فهناك تفصلني عن مرتضى مسافة ساعات عدّة!.. لـولا الزحام وضجيج النهار في الأهـواز لأمكن سماع أصوات المدفعيّة والمواجهـات على الجبهة.. تـرى أيّ مصير سيكـون لمرتضى؟ شهيد، جريح، أسير أو سالم معافى.. ماذا عن مصائر بقية رجال الفندق... طُرق الباب ودخلت «فاطمـة» والدة الحاج أسدي -قائد لواء المهدي- الستّينيّـة. كنّـا نناديها «آنا». لقـد حضرت آنا برفقـة زوجها العجوز وأبنائها الأربعة وكنّاتها إلى الجبهة. كنّا نمازحها أحيانًا فنقول: « ألم يبقَ لديك أحد لم تأتي به إلى الجبهة يا آنا؟!».

كانت آنا امرأة قويّة ذات عنفوان تزور جميع النساء عند الضرورة لترفـع مـن معنوياتهنّ. تقدّمـت منها بروين بسرعة فسلّمـت عليها وسألتها: «أقسم عليكِ بحياة الإمام، لماذا جئتِ؟».

ارتسمـت ملامح الغبطة علـى وجه آنا وقالت: «يـا ابنتي العزيزة، عرفـت بالعمليّات فلم تطاوعنـي نفسي إلّا أكـون حاضرة قرب بناتي العزيزات!».

ثـمّ بادرت بسـؤال بروين ووجههـا يضجّ بالفطنـة: «عزيزتي، هل لديك خبر عن زوجك؟».

أرخت بروين شفتيها كما يفعل الأطفال.

- لا خبر لديّ يا أمّاه!

فُتح الباب ودخلت حكيمة زوجة مسلم رستم زاده فرحة وهي تقول: «لقد عاد مسلم!».

تداخلت الأصوات حتى كأنّ حكيمة هي التي عادت من الجبهة. تحلّقنا حولها.

- ماذا قال..

- هل لديه خبر عن إسلامي؟

- رفيعي..

- ...

فأجابت حكيمة: «قال مسلم إنّ العراقيّين ينوون قصف الأهواز انتقامًا، وقد صدرت أوامر بعودة العائلات إلى فسا.. لقد جاء ليخبرنا بهذا فحسب!».

اعترض الجميع.

- لن أذهب إلى أيّ مكان بدون زوجي..

- لن نتحرّك من هنا.

- إننا لا نختلف عنهم!

- من أراد الرحيل فليرحل!

وقالت بروين بحزم: «لقد قال الحاج نفسه إنّه لن يعيدنا إلى فسا حتى لو انقلبت الأهواز رأسًا على عقب»..

أمّا أنا فكان قلبي ينبئني بحدوث مكروه. تقدّمت آنا من بروين التي بدت أكثرنا جزعًا وحيرة.

– سيدة بروين، هل أنت متأكّدة من أنّك لن تعودي إلى فسا!

– لا يا أمّاه، ولماذا أذهب إلى فسا بلا محمود؟ لن أذهب ما دام لم يتّصل أو يرسل رسالة!

ثم التفتت بروين إلى حكيمة وقالت: «أين هو السيد مسلم الآن؟».

على الفور وضعنا عباءاتنا على رؤوسنا وسرنا خلف حكيمة. وصلنا إلى زوجها فسلّمنا عليه وبادرناه بالسؤال: «ماذا لديك من أخبار عن..؟». جعل مسلم ينظر إلينا وقد علا وجهه الغبار والبارود ثم قال: «الجميع بخير، ولا مشكلة!».

سألته بروين: «هل رأيت محمودًا بأم عينك؟».

– لقد تكلّمت معه بالأمس عبر الجهاز اللاسلكي!

فقلت: «ماذا عن مرتضى؟».

– إنّه بخير أيضًا!

فقالت بروين وقد ساورها الشك والارتياب: «سيد مسلم، في العمليات السابقة كنت تأتي إلى الأهواز بعد مرور عدّة أسابيع، فلمَ حضرت مبكّرًا هذه المرّة؟».

فعلت شفتي مسلم ابتسامة قهريّة وقال: «في الحقيقة، لقد واجهتنا بعض المتاعب في هذه العمليّة، وقد جئت لأحلّ مشكلتكنّ ثمّ أعود!». لكننا لم نقتنع وعدنا إلى الغرفة 110 قلقات!

رنّ جرس الهاتف فرفعت آنا السماعة. كان ولدها قائد اللواء. قالت لولدها فيما قالت: «.. لم توافق، وتقول إمّا أن يتّصل بي الحاج أو يرسل رسالة حتى أذهب إلى فسا!».

كلّما حاولت بروين الاقتراب من آنا لتسمع شيئًا من حديثه كانت آنا ترجع إلى الخلف بحنكة. لكنّها في النهاية لم تعد تستطيع إبعاد

بروين فمـا كان منها إلّا أن ودّعت ابنها ثمّ وضعـت السمّاعة. سألتها بروين بريبة: «بالله عليك يا أمّاه، أخبريني ماذا قال لكِ؟».

– لا شيء مهمًّا، كان قلقًا عليكنّ وطلب أن تذهبن إلى فسا. الأوضاع في الأهواز غير مستقرّة هذه الأيام!

– لا يا حاجّة، إنّك تخفين أمرًا ما عنّي! ماذا قال لكِ عندما أخبرته بعدم ذهابي إلى فسا؟

– قـال إنّه سيتواصل مع الحـاج محمود عبر اللاسلكي ويطلب منه أن يتّصل بكِ، هل ارتاح بالك الآن؟!

عندها شعرنا ببعض الهدوء.

104

عشرة أشخاص

17/آذار/1985

عنـد الظهر، وبسبـب اشتداد نـيران القصف العراقـيّ التصقتُ بالساتر الترابي المنخفض وأنا أنظر جائعًا إلى القدر الكبيرة المستقرّة علـى بُعـد خمسة عشر قدمًا منّـا، والتي لم يجرؤ أحـد على الاقتراب منها. فقد نال آخِر من اقترب منها شظيّة عوضًا عن الطعام!

بعـد مضـيّ ساعة عاد محمود ستوده من المقـرّ ووصل إلينا. نهض شابّ تعبويّ وقال: «إنّه لَمِن القبيح أن يبقى الجميع جياعًا!».

أشار بإصبعه إلى القِدر الكبيرة المقابلة لنا وقال: «صالح، سأذهب وأحضر طعام الغداء!».

اقـترب واثقَ الخطى حتى صار على مسافـة خطوتين منها وإذا به ينادي أمّه: «آخ، أمّاه!».

جثا على ركبتيه ثم جلس. سرتُ نحوه أقوم تارة وأقع أخرى. أمّا هو فوضع يده على ظهره فيما انبجست الدماء من بين أصابعه. حملتُه ثمّ نقلناه على الفور إلى الخلف.

بعـد معاينتهم لخطّ الدّفاع توصّـل كلٌّ من محمود ومرتضى وعلي أكبر إلى النتيجة التالية: نظرًا لكثافة إطلاق النار وعدم وصول العتاد والذخائـر فإنّ العراقيّين ليسوا مضطرّيـن لشنّ هجومهم، ومع مرور الوقت سيؤول مصيرنا جميعًا إلى القتل أو الإصابة بجروح!

كانت المنطقة محاصرة والمنافذ المؤدّية إليها بيد العدو! وقد ملأت واجهـة الساتر الترابـي الأمامية والخلفيّة حفرٌ سـوداء قمعية الشكل جـرّاء اختراق قذائف المدافع والقنابل. اتّصل «ستوده» بأخي «أسدي»

عبر اللاسلكي وقال له: «إننا نرزح تحت وابل من نيران المدافع والقذائف. لا يمكننا القيام بقصف مضادّ!».

كان علينا أن نبقى جائعين بانتظار الأوامر. ألقى محمود نظرة إلى الخلف فوقعت عينه على دشمة عراقيّة فقال: « إنّ نسبة سقوط الرصاص هناك أقلّ، فلنذهب ولننتظر الأوامر هناك!».

ولمّا هممت بالانطلاق قال لي محمود: «صالح، نأكل ثم نذهب!».

فأشرتُ إلى حيث قدر الطعام.

- ثمّة قدر كبيرة، إنّها هناك.. تحتاج إلى جرأة!

فربّتَ على كتفي قائلًا: «سأذهب برفقة الآخرين إلى الدشمة، إن استطعتَ فاجلب بعض صحون الطعام لنأكل معًا!».

ركب شابّ من الحرس الثوري سيارة التويوتا وقال: «سآتي لمساعدتك، اركب!». ثم التفّ بالسيارة وانطلقنا باتّجاه الطعام. ترجّلتُ وقرأتُ شهادة الموت وحملتُ وعاءين. في تلك اللحظة سقطت عدّة قذائف وسمعتُ صوت انفلاق الهواء. رميتُ غطاء القدر بسرعة، ملأتُ الوعاءين أرزًا ثمّ صعدتُ إلى القسم الخلفي من السيارة وانطلقنا سريعًا باتّجاه الدشمة ودخلناها. كنّا عشرة أشخاص مع وعاءين من الطعام! لم تسنح الفرصة لكي نجلس ونتناول الطعام معًا. كما وإنّ كثافة النيران واحتدام المواجهات لم يسمحا لنا بانتعال أحذيتنا فبقينا حفاة الأقدام. وصل خبر بأنّ كتيبة «أبو ذر» ستصل للتبديل معنا.

كان على محمود أن ينقل الأمر إلى مسؤول العمليّات عبر اللاسلكي. خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية لاستقرار أفراد اللواء أصيب كلٌّ من مسؤول العمليّات ومساعده بجروح فحضر «رفيعي» مكانهما. كما

وصـل «فرخي» وتبعه «روغنيان» –وهو من شبـاب الاتّصالات– يرافقه شخصــان أو ثلاثة. أحسستُ بازدياد حدّة النــيران على دشمتنا. كان معظم الشبّان يتنقّلون ريثما تتمّ عمليّة تبديل كتيبتي كميل وفجر بكتيبة أبـي ذر، وهذا ما أشعـرني بالقلق. فقد ركّز العراقيّـون قصفهم على دشمتنــا! سرعان ما وصل خبر بأنّ العدوّ بدأ بشنّ هجمة مضادّة، وأنّ جرّافته تتّجه نحو قناتنا الدفاعيّة لملئها بالتراب بمساندة من المروحيّة.. لم يبقَ أثر من الساتر الترابي الذي كان موجودًا أمام القناة..

في ذلـك الهواء النقـي استُهْدِفَـتْ طائرة «ميـغ» عراقية فسقطت كالمذنّب في الهور وسط غيمة من الدخان.

عنـد الساعة الثالثـة والنصف عصرًا اشتـدّت المواجهات إلى حدٍّ لم يعـد يُرى شـيء على الخطّ الأمامـيّ سوى الغبـار والدخان. كانت مجموعتنــا المؤلّفة من عشرة أشخاص لا تزال داخل الدشمة بانتظار وصول كتيبة أبي ذر، وقد علمنا أنّ «عبدالله محسني نيا» انطلق بزوارق أفـراد كتيبة أبي ذر باتّجاه الخطّ الأمامي. فجأة سقطت قذيفة دبّابة مقابلة قرب الدشمة فقال علي أكبر: «لقد انكشف موقعنا! علـ..».

لم يكمـل كلامه حتّى دوّى صـوت انفجار قذيفة سقطت على سقف الدشمة كضربة قويّة من مخلب حيوان مفترس. اسودّت الدنيا للحظات أمـام عينيّ، وانهمـر فوق رأسي وابـل من الحجارة والطـين اليابس. اخترق سمعـي صوت طويل يصمّ الآذان، كمـا وشعرت بضغط شديد مـن داخلي. أحسستُ بـأن حديدًا أصاب رأسـي ولم أستطع الوقوف. كأنّ سقـف الدشمــة أطبـق على أرضهـا. اصطدم رأسي عـدّة مرّات بأعمدة السقف الحديدية. وقد التوى الحديد فسدّ باب الدشمة.

عــاد بصري شيئًا فشيئًا. ولمّا اختفى الدخان والغبار رأيت مشهدًا لا يصـدّق! كان «فرّخي» و«جلال كوشا» غارقَين في دمائهما كأنّهما قد

فارقا الحياة منذ سنوات. نظرتُ إلى حيث كان «كرامت إيرلو» جالسًا قبل سقوط القذيفة فلم أجد له أثرًا. نظرت إلى الأعلى فوجدتُ جسد كرامت وكأنّه قد حِيك بسقف الدشمة وأعمدة الحديد جرّاء الشظايا وعصف الانفجار! في زاوية أخرى من الدشمة رأيت وجه «كرامت رفيعي» وقد اختفت عظامه وذاب جسده على الأرض. لم تتوقّف أذني عن التصفير بسبب عصف الانفجار.

كنت أرتجف من الغضب. استشهد أيضًا كلٌّ من «فرّخي» و«روغنيان». امتلأ جسدي وثيابي بالدماء وقطع اللحم المتناثر من الشباب. غطّت الدماء الدشمة بالكامل، وكلّما حرّكتُ رجليّ انزلقتا في الدماء!

105

بدونك

18/آذار/1985

مســاءً، أخذنا ندور حــول أنفسنا كالظلال حائـرات وإذا بخديجة ابنــة رضــا زاده تقتحــم غرفتي مضطربــة وتقول: «لقــد وصل الحاج محسن نيا إلى الفندق!».

لم أدرِ كيـف اختفت زوجته هاجـر! قالت بروين: «ثمّة خطبٌ ما إن لم أخطئ!».

جمعنــا طعام العشاء الذي تناولنــاه بغصّة ثم اتّصلنا عبر الهاتف بغرفــة «محســن نيــا». رفعــت هاجــر السمّاعــة. قلــت لهــا متوسّلة: «أستحلفك بالله أن تسألي زوجك إن كان لديه خبر عن مرتضى!».

هزّت بروين كتفي.

– آمنة.. اسألي عن محمود..

فتلعثمــت هاجــر: «الحــحاج وصل للتــوّ، لـ.لـ.لـ.ليســ لديه اطّلاع دددقيق».

وخلافًــا لانتظارنا ما كان منهــا إلّا أن أقفلت السمّاعة! طلبت رقم غرفتها ثانية وسألتها: «لماذا قطعتِ المكالمة؟!».

– لديّ ضيوف، سأسأل الحاج ثم أخبرك.

ثمّ وضعــت السماعة. كادت الغصّة تخنقنــي وهممت بالبكاء لكنّ وجــود النســاء منعني من ذلك. كانت آنا تحمــل زينب بعشق فقلت في نفسي: مــن الواضح أنّ مكروهًا قد حصل لمرتضــى.. ها هي آنا تدلّل ابنتي وتفدّيها بطريقة غريبة..

سألتني بروين: «ماذا قالت هاجر؟».

- لم تقل شيئًا.

لم تسأل بروين عن شيء بعدها وجعلت تتكلّم بصوت خافت كأنّها تناجي زوجها! حاولت آنا أن تشدّ من عزائمنا. جلستُ وبروين القرفصاء في إحدى زوايا الغرفة وغرقنا في بحر من الأفكار المقلقة.

قُرع الباب فهببتُ واقفة! لقد بتُّ حسّاسة تجاه طرق الباب وجرس الهاتف. فما إن أسمع صوت أحدهما حتى ينصدع قلبي إمّا لفرحتي برجوع مرتضى أو لسماع خبر محزن! بادرت بروين قبل الأخريات بفتح الباب فإذا بها هاجر. قالت بروين فرحة: «هل تحملين رسالة من محمود؟».

أجابت متردّدة: «بروين، هلمّي إلى غرفتنا. يقولون إنّ محمودًا قد جُرح».

صار لون وجه بروين أبيض كلون الكِلس وأخذت شفتاها ترتعشان. أدارت عينيها في أرجاء الغرفة مشتّتة الذهن ثمّ خاطبت هاجر بتثاقل قائلة: «أقسم عليك بحياة زوجك أن تخبريني إن كان قد استشهد!».

وصل نبأ إصابة محمود بجروح لكنّني أخذتُ أبكي بصمت.

- أعلم، لقد استشهد محمود..

أمّا آنا فخاطبت بروين بحزم: «يا ابنتي، لماذا تعاندين مجدّدًا!».

قالت هاجر: «هيّا نذهب يا سيّدة بروين، لقد حضر الشيخ بنائي ومعه عدد من الأشخاص، تحدّثي إليهم».

مشيتُ خلف بروين الحيرى ونزلت السلّم درجتين درجتين. وما إن وصلنا إلى غرفة هاجر حتى أصبنا بالذهول! لقد كانت الغرفة مكتظّة بجميع زوجات أفراد اللواء بالإضافة إلى الشيخ بنائي وآخرين. شعرتُ

وبرويــن بالخوف من نظراتهم. بعضهم كان ساكتًا والبعض الآخر كان يجيب أجوبة عامّة ومكرّرة. بعد دقائق قال الشيخ بنائي: «.. تعلمون أنّ لــواء المهدي شارك في عمليّات «بدر» وقد حقّق انتصارات كبيرة بحمد اللّه.. في الحــرب هنــاك شهداء وجرحى ومفقــودون وأسرى.. في هذه العمليّة نال كلٌّ من جليل إسلامي وأكبر نورأفشان وسام الشهادة».

دقّقــت النظر بطرف عينــي متفحّصة ملامح وجــه بروين. كلتانا كانت تنتظر سماع اسم زوجها.

- .. أصيــب كلّ من حسين إسلامي، كرامت رفيعي ومحمود ستوده بجروح ونُقلوا إلى مستشفى طهران..

نظــرتُ إلى عينَي برويــن الغائرتين. أمّا هــي فقطعت كلام الشيخ بنائــي بصوتهــا المرتعش قائلــة: «إإإذا كان محمــود قــد استشهــد فأخبروني، أستطيع تحمّل ذلك!».

فتقدّم الحاج «ذو القدر» وقال: «لو كان قد استشهد لأخبرناكِ».

الســرّ يكمن في أنّ زوجات مَن أتوا على ذكر أسمائهم من الشهداء لم يَكــنّ حاضــرات بيننا، وهذا مــا دفعني إلى الشــكّ في الأمر! قالت برويــن: «حسنًا، سلّمتُ بأنّ محمودًا قد أصيب بجروح، أريد أن أذهب إلى طهران لأرى توأم روحي. أعطوني رقم الهاتف وعنوان المستشفى».

أجــاب «ذو القــدر»: «نحــن أيضًــا قلقــون، فعدد الجرحــى كبير، والمستشفيــات لا تجيب على اتّصالاتنا! تفضّلي أنتِ بالذهاب إلى فسا وسنتواصل معكِ عند حصولنا على العنوان».

وافــق جميــع النسوة علــى الذهــاب إلى فسا إلّا برويــن التي بقيت متشبّثــة برأيها. توسّلت آنا إليها قائلة: «يا ابنتي العزيزة، إنّ محمودًا لا يرضى أن تخالفي أوامره..».

وقـع نظر بروين على صالح أسدي فالتجأت إليه كغريق تعلّق بقشّة أملًا بالنجاة وقالـت: «باللّه عليك، أخبرني إن كانوا صادقين ففي أيّ عضو أصيب محمود؟».

أجاب صالح أسدي: «في رجله، ولا مشكلة لديه».

بعد ذلك التفت صالح إلى أمّه وقال: «لا تلحّوا على الحاجّة بالذهاب إلى فسا أكثر. إن بقيت هنا فما من أحد سيأخذها إلى طهران. لكنّها إن وافقت على الذهاب إلى فسا فأعدها بأن أجد العنوان وتذهب عند ذلك إلى طهران برفقة والدَي الحاج محمود!».

في نهاية المطاف رضخـت بروين للأمر، فوضّبنا جميعًا الحقائب. أمسكتُ وصيّة مرتضى وكذلك فعلت بروين، لكنّي لم أجرؤ على قراءة الوصية. أمّا بروين فإنّها قرأت وصية محمود بسهولة وأعادت قراءتها أكـثر من مـرة وهي تبكي. ثمّ قالت: «محمود.. لقـد تذكّرتُ يوم جئتُ لأوّل مرّة إلى الأهواز وحدي، وها أنا أعود من دونك أيضًا!».

انطلقنـا آخر الليل في سيّارة القيادة الخاصّة باللواء. داخل مدينة أهـواز، كلّما رأت بروين سيّارة تويوتا تابعة للحرس كانت تنظر إلى داخلها وتهمس قائلة: «محمود.. لوّح بيدك لي ولابنتنا سمية ولو للمرّة الأخيرة.. اضغط على بوق السيّارة.. لمرّة واحدة فقط.. يا إلهي..».

لم تنم بروين أو تتكلّم حتى الصباح. وبقيت تناجي محمودًا وتبثّه شكواها بصوت خافت. أمّا أنا فقرأت سورة الواقعة مرّات عديدة.

وصلنـا إلى فسا ظهر اليوم التالي. لكنّ أجواء الحداد المخيّمة على المدينـة كانت كالماء البارد المسكوب على رؤوسنا. كأنَّ المدينة كانت في يـوم عطلة وقد نزل الناس بأجمعهم إلى الشـوارع. توجّهت السيّارات نحو بيت والد محمود لتوصل بروين. ما إن وصلنا إلى منعطف الزقاق

حتى رأت بروين الناس وإكليل الورد فأخذت نفسًا عميقًا وخاطبت آنا قائلة: «أنتِ أيضًا كذبتِ عليّ!».

فضمّــت آنا بروين بسرعة وطمأنينــة إلى صدرها. بدا وجه بروين كنــور القمر بوجنتيها المجوّفتين وعينيها الغائرتين. أمّــا أنا فأطبقتُ جفوني وتوقّفتُ لبرهة عن التفكير بأيّ شيء!

106

الحجر والبشر

19/آذار/1985

استيقظتُ في الصباح مُنهكًا إثر الهجوم المضادّ القاسي الذي شنّه العدو: ليتني أستطيع النوم لأيّام متتالية! ملأ رأسي صوتٌ حادّ ورتيب «قررررججججـ..». أدخلت إصبعي في أذنيّ وحرّكته، لكنّ الصوت المزعج لم يتوقّف. تناهى إلى سمعي صوت حامل اللاسلكي الخاص بالعم مرتضى يناديني قائلًا: «علي غياثي، انظر أمامك..!».

قفزتُ خارج القناة (الخندق) ثمّ التصقتُ بالساتر الترابي المنخفض ونظرتُ إلى الأمام.

- يا أبا الفضل العباس.. ما الخبر؟!

كانت أرتال الدبّابات العراقيّة قُبالتنا تُزلزل بمحرّكاتها الأرض فيما انبعث دخانها في الهواء. أتى مسلم ووقف بجانبي.

- سيد علي، يصيب كلّ شخص منّا دبّابتين!

قلت له: «أين العم مرتضى؟».

فأشار بإصبعه إلى الجهة الأخرى من الساتر الترابي.

- إنّه هناك.. لم تغمض عيناه من الأمس. إنّه يعمل كالمحرّك!

نادى مرتضى: «مسلم!».

تقدّمتُ ومسلم نحوه، فقال له: «اتّصل بالمقرّ.. اطلب منهم أنّ يُمدّونا بكلّ شيء!».

اتّصل مسلم عبر اللاسلكي بالمقرّ وناوله السمّاعة. ساق مرتضى كلماته متوالية من دون توقّف.

- ..قوّة مساندة، معدّات وذخائر وكلّ ما تحبّون! ليس أمامنا شيء

سوى دبابات! الأمر إليكم..

ثـمّ أرجع سمّاعـة اللاسلكي إلى مسلم وصـاح: «الجميع إلى خلف الساتر، لا تطلقوا النار حتى أطلب منكم ذلك..».

ارتفع صوت خشّة لاسلكي مسلم.

– مسلم، أرسِل!

مـا لبث أن عـاد إلى مرتضى وقـال: «يقول المقـرّ إنّ كتيبة أبي ذر ستأتي لتأخذ مكاننا».

فقال مرتضى: «أستبعد أن يصلوا إلى هنا في ظلّ هذا الكمّ الهائل من القصف!».

لم يكـد يكمل كلامه حتى بـدأ العدو قصفه بالمدافـع والمروحيّات. لم أجـرّب حتـى ذلك الحـين مثل هذا الحجـم الكثيف مـن النيران. أخـذ عدد عناصر كتيبة الفجر يتناقص ولم يبقَ منهم سوى أربعين أو خمسين شخصًا. ناول مسلم مرتضى سمّاعة اللاسلكي مجدّدًا.

– عـم مرتضـى، إنّه قائد كتيبة أبـي ذر، يقول إنّهـم قريبون منّا، ويطلب إرسال شخص ليرشدهم إلى هنا.

نادى مرتضى أحد عناصر الحرس وأرسله خلف كتيبة أبي ذر.

أخـذت الدبابات بالتقدّم وقد ملأ ضجيـج سلاسلها أرجاء المكان. كانت تطلق قذائفها بشكل منتظم ومباشر على الساتر الترابي المتصدّع القليل الارتفاع، مفرّقةً جمع عناصرنا ورامية الحجر والبشر إلى السماء. أحيانًـا كنت أشعر بقذائف مدافع العـدو ودبّاباته التي أخطأت هدفها وهـي تمرّ من فوق رأسي. لم يستطع أحـد أن يصدّ ذلك الهجوم! كنت أنتظـر بين لحظة وأخرى أن تستهدفنـي قذيفة ما فتحوّلني إلى رميم. حينمـا أدرك مرتضـى أنّ معنويّات أفراد كتيبتـه أخذت تضعف نهض

من مكانه برفقة مسلم حامل اللاسلكي، وجعل يسير قرب العناصر بأعصاب هادئة ويقوّي من عزائمهم. ناداني: «يا علي غياثي!».

- فديتك يا عم!

- فليتحصّن رُماة الـ(B7) خلف الدّشم يفصل بين الواحد والآخر مسافة عشرين مترًا، وليطلقوا النار على الدبابات!

انطلقت من مكاني كالسهم ووصلت بجسدي الهزيل إلى رماة الـ(B7) الذين كانوا من مدينة زرقان. ناديت: «يقول العم..».

كانت الدبابات تقصف الساتر الترابي عن بعد مئة متر، فيما غطّت المكان بأسره سُحُبٌ رماديّة من الغبار والدخان. وقف حَمَلة الـ(B7) الشجعان على الساتر ورموا جميع ما بحوزتهم من القذائف فدمّروا ثلاث أو أربع دبّابات حتى نفدت القذائف. رجعتُ إلى مرتضى وقلت له: «لم يبقَ لدينا سوى ذخائر الرشاشات، ماذا سنفعل؟!».

فأشار إلى مسلم.

- اتّصل بالمقرّ!

علت خشّة الجهاز اللاسلكي فتناول مرتضى السماعة من مسلم وأخذ يطلعهم على الأوضاع بالرموز (الشيفرة). لم يصل أفراد كتيبة أبي ذر وبدا أنّهم قد حوصروا خلفنا جرّاء قصف العدو. أعطى مرتضى السماعة لمسلم وقال لي: «يا غياثي، لقد صدر أمر بالانسحاب! سأبقى هنا لأرجع مع آخر عنصر، اسحب العناصر من خطّ التّماس إلى الخلف!».

قلت له: «لا.. اذهب أنت، وأنا سأبقى!».

صاح في وجهي: «كلّا يا علي، عليّ أن أحمل آخر جثّة وآخر جريح إلى الخلف!».

أخـذتُ أركض خلف الساتر منحنيًا ونقلتُ أوامر مرتضى للعناصر بعجالـة وأنفاسـ متلاحقة قائـلًا: «العـ العم .. مججـ مجموعة بعد أخرى، تراجعوا إلى الخلـالخلف!».

بعد لحظـات أدرتُ بوجهي إلى الخلـف لأرى العم مرتضى يركض كالغـزال بخفّـة وليونة على امتـداد الساتر الترابي وهـو يطلق نيران رشاشه نحو العراقيّين لكي لا يتنبّهوا إلى خلوّ الساتر من العناصر!

وصلتُ إليه وأنا أتصبّـب عرقًا بفضل أجواء الجنوب الرطبة. كان وجهـه قد اسودّ بسبـب الدخان والبارود، وخرج الـدم من كلتا أذنيه. تبسّمتُ وقلت: «لقد أصبحت شبيهًا بالحاج فيروز[1] يا عم!».

فضحـك وقال: «بقي بضعة أيّام حتـى حلول العام الجديد ومجيء الحاج فيروز، لكن هلمّ إليّ لأبارك لك العيد سلفًا!».

وإذ به قد التصق بي وعانقني بشدّة.

- كل عام وأنت بخير!

دمعـت عيناي. همستُ في أذن مرتضى بغصّة: «الجميع تراجع إلى الخلف، هيّا لنذهب قبل أن...».

فقطع كلامي قائلًا: «اذهب أنت يا علي، لديّ عمل أنجزه ثم آتي».

ثم أبعدني عنه ودفعني إلى الخلف.

- هيّا اذهب، هذا أمر!

حدّقـتُ في عينيه الصافيتين كالمرآة واللتـين لا يمكن لأحد النفوذ إليهمـا وأخـذت أسير إلى الـوراء. لم أكـد أبتعد كثـيرًا حتى سقطت قذيفة دبابة قربي فانفجر المكان قبالتي. شعرت بدوار شديد ما لبثَ عيناي أن اسودّتا ثم فقدت وعيي.

1- شخصيّـة تقليديّـة فكاهيّة ترتبط بعيد رأسـ السنة الشمسية - النـوروز- وهو أسود البشرة يرتدي زيّاً أحمر ويقوم بحركات مضحكة ومسلية...

107

الأسير

19/آذار/1985

بعـد ظهر ذلك اليـوم الشديد الحرّ، وتحت وطـأة القصف المركّز للدّبابـات العراقيّة وصلتُ إلى العمّ مرتضى وأنـا أتصبب عرقًا، قلت له: «يا عم، علي غياثي!».

– علي غياثي، ماذا به؟!

– لقد وقع في الأسر!

أدام اللّه رزقـك يـا «حسـن مايلر»، أيّهـا المحتال، أنـا أرسلته إلى الخلف بنفسي!

– أقسم باللّه إنني أقول الحقيقة يا عمّ!

– ولكن كيف؟

– لقد جُرح.. وقد سقطت الجهة اليسرى من الساتر الترابي أيضًا، علينا أن نذهب!

حضر محمد رضا بديهي وأكّد صحّة ما أقول: «حسنٌ محقّ، جميع العناصر انسحبوا إلى الخلف ولم يبقَ سوانا!».

مسـح مرتضـى بيده علـى جبهته السـوداء المتعرّقـة فزالت طبقة الدخـان عنها. كانـت عيناي تحرقاني بسبب البـارود الغليظ. لمّا رأى سكوتـي قال: «حسن مايلـر، ارجع إلى الخلف، سأذهـب لأرى ما حلّ بغياثي، أين رأيته آخر مرّة؟».

شعرتُ بالاستياء وقلت: «ماذا ظنَنْتَني يا عمّ، حسن مايلر لا يترك رفاقـه في وسط الطريق! علينا أن نتحرّك من الجهـة اليمنى فإمّا أن نحيط بهم أو أن يحيطوا هم بنا!».

اتّجهنـا يمينًا منعطفين حول الساتـر الترابي بظهور محنيّة. كانت الرؤيـة معدومة جرّاء الدخـان والغبار. ساد هدوء نسبـيّ الأجواء ما خـلا أصـوات رشقات قنّاص متقطّعـة. سرنا مسافـة قصيرة وإذ بي أسمـع صوتًا قريبًـا لرجل عربي يتلفّظ الحـروف العربيّة بتأنٍّ وهدوء قائلًا: «لا تتحرّك.. جيش الخميني..».

استفقـتُ من ذهولي لأجد أننا قد أُحيـط بنا. لقد حاصرَنا عشرة أو خمسة عشر جنديًّا عراقيًّا. لم يكن أمامنا سبيل للمقاومة. لا أدري لماذا انطلق لساني ببديع الكلام في تلك الظروف الحرجة والقاسية.

– إن كنتُ ثقيل الظلّ فها أنا راحل، وإن كنت قليل العطف فأنا راحل.

ثم أردفت: « ماذا نفعل الآن يا عم مُر..!».

أخرسنـي عن النطـق ألمٌ قاتـل في خاصرتي إثـر ضربة من كعب البندقيـة فأخـذت أتلـوّى كالأفعى. ثـم انهالت الضربـات من كعاب البنادق علـى جسد محمد رضا ومرتضى فارتمينـا نحن الثلاثة على الأرض. نظر مرتضى خلسـة في عيون العراقيّين البرّاقة وقال بصوت خافـت: «إن أخطأنا التصرّف فسيقتلونا نحن الثلاثة! سنسلّم أنفسنا ثمّ نرى ماذا سيحدث!».

قال محمد رضا بديهي: «بهذه البساطة!».

فقال مرتضى: «ربما!».

جلسنا واضعين أيدينـا فوق رؤوسنا. كنّا نحن الثلاثة نرتدي الزيّ الكاكـي البسيط وننتعل أحذية خفيفة. تقدّمـوا منّا وأخذوا يضحكون لتمكّنهـم – بحسب ظنّهم – من أسـر ثلاثة تعبويّين حيارى، ثمّ ربطوا أيدينا من الخلف بالكوفيّات التي كانت حول أعناقنا وجعلوا يسخرون منّا مشيرين إلى أحذيتنا الخفيفة وثيابنا الكاكيّة المملوءة ببقع بيضاء

ناجمة عن العرق الجاف. قال مرتضى من دون أن يفتح شفتيه: «تظاهرا أنّكما خائفان!».

ولأني كنتُ ماهراً في فنّ التمثيل تعلّقتُ برِجل أحد الجنود.

- العفو.. العفو..

نجحت حيلة مرتضى وسُلّمنا إلى ثلاثة جنود عراقيّين فيما ذهب الآخرون لجمع الغنائم.

أخذ الجنود الثلاثة يدفعوننا وهم يسخرون منّي حيث إنني كنت أتظاهر بأنّ يديَّ وقدميّ ترتعش. وصلنا إلى ما بقي من الساتر الترابي بين طرفي المعركة. كانت الأجواء بجانب الساتر الترابي هادئة. أمّا الدبّابات والجنود العراقيّون فكانوا يتقدّمون من الساتر لكي يُحكموا السيطرة على الخطّ الدفاعي الذي صار في قبضتهم. أجلسَنا الجنودُ خلف الساتر وعاودوا الاستهزاء بثيابنا وأحذيتنا الخفيفة والبسيطة. اجتاح سيل من الأفكار السريعة والمتلاحقة ذهني المشوّش المليء بالغموض: لو عرف هؤلاء المساكين أنّ في جوف هذا الصيد الثمين لؤلؤة عظيمة باسم مرتضى ماذا عساهم يفعلون.. تُرى هل انتهى أمرنا..

قبيل حلول الظلام تغيّر لون وجه مرتضى. أشار إلى محمد رضا وقال: «هو ذا المدد الإلهي!».

أشار برأسه إلى قنبلة يدويّة أسفل الساتر الترابي. عندها علمتُ أنّ مرتضى كان يتحيّن الفرصة. قال: «إن أرجعونا خطًّا واحدًا إلى الوراء فسينتهي أمرنا!».

انتبهتُ حينها أنّ مرتضى فكّ قيده. استغفل الجنودَ الثلاثة المتعبين وسار بهدوء نحو القنبلة اليدويّة، فحملها بمهارة وأخفاها في الكوفيّة.

ولّما حلّ الظلام قال: «عندما تسمعان صوت القنبلة اليدويّة تفرّان

باتّجـاه إيران! حاولا أولًا الوصـول إلى مزرعة القمح!». ثمّ أشار بعينه ناحيـة إيران. نظرتُ إلى يـد مرتضى الذي سحب حلقـة القنبلة وقد غمرني الخوف والاضطراب. تهيّأنا. قال مرتضى: «ليس من الضروري أن يفكّر أحدنا بالآخر. إن تمكّن واحد منّا من الفرار فَبِها!».

ثمّ أخرج يده. قرأتُ شفتيه وهو يعدّ: «.. اثنان، ثلاثة..».

رمى القنبلة اليدويّة.

- الآن!

نهضنـا ولم نكد نسير بضـع خطوات حتى سمعـتُ صوت الانفجار وأنين الجنود، كما وشعرتُ بألم جرّاء شظيّة وقعت في ظهري. ركضت نحو مزرعة القمح من دون أن ألتفت إلى الوراء. أخذتْ قطرات العرق تتساقـط من وجهي. أحسستُ أنّ الرصاص ينهمر عليّ من كلّ جانب. أثنـاء الركض شعرتُ بألم شديـد في كتفي الذي أخذ يحرقني. وصلتُ إلى مزرعة القمح مقطـوع الأنفاس، ولكننا تمكنّا من النجاة. أصابت شظيّة من القنبلة اليدويّة يدَ محمد رضا بديهي.

108

ملح البرتقال

20/آذار/1985

عصرًا، وعلى جـادّة الأهواز ألصقتُ جبهتي بنافذة الحافلة بينما مرّ أمام ناظريّ قطيع من الجواميس كان يسير بمحاذاة الطريق. كنت مشغـول الذهـن أفكّر في تشييـع أجساد كلٍّ من محمـود ستوده، جليل إسلامـي، كرامت رفيعي، إيرلو وبقيّة رفاقي. ساد صمت مطبق أجواء الحافلـة المتّجهة إلى شيراز، ولم يكن لأحـد جَلَد على الكلام والمزاح. أوقف مرتضى الحافلة ثمّ ناداني: «محمد بلاغي، انزل!».

ترجّلنـا فاشترى مرتضى صندوق برتقال وحملناه معًا إلى الحافلة وقسّمنـاه بـين الشباب. مـا إن بدأنا تقشير البرتقـال وأكله حتى علا صوت السائق: «آخ رأسي.. لا عافاكم اللّه .. كُفّوا عن التراشق..».

لم يكد السائق ينهي كلامه حتى سقطت قشرة على رأسه. فالتفت إلى الخلف وقال: «بسبب أعمالكم هذه لم تُرزقوا الشهادة!».

أراد السائـق أن يشكـو الشباب إلى العمّ مرتضى مـن خلال المرآة الأماميّة، فرآه يتهيّأ لرمي قشرة! فانفجر ضاحكًا وأنشد بيتًا من الشعر:

«كلّ ما يتعفّن يعالجونه بالملح   ويلٌ ليوم يتعفّن فيه الملح!».

لم تمضِ برهة قصيرة حتى أخـذ جميعٍ من في الحافلة يتراشقون بقشور البرتقال. عمّ النشاط والحيويّة وارتفعت أصوات الضحك.

حـين تعب الشبـاب نهض العـمّ مرتضى وحمل صنـدوق البرتقال الخـالي وراح يجمع مـن آخـر الحافلة قشـور البرتقـال المرميّة على الأرض حتى وصل إلى السائق فقبّل وجهه.

– سامِحنا!

همَّ السائق بالنّهوض فرِحًا وقبّل وجه مرتضى وقال: «خادمك يا عمّ!».

- أوه.. أوه.. ستنحرف الحافلة بنا.. انتبه!

عند الصباح تناولنا طعام الفطور في شيراز وانطلقنا باتّجاه «فسا». علت الأصوات المتداخلة في الحافلة: «لقد احتشد الناس لاستقبال كتيبة الفجر!».

أثناء الطريق انتبهتُ إلى وجه مرتضى يتكدّر حُزنًا كلّما اقتربنا من «فسا». وصلت الحافلة إلى مستديرة «مصلّى» بالتزامن مع وصول الجموع الغفيرة من الرجال والنساء فاغرورقت عينا مرتضى بالدموع. دنوتُ منه.

- هل حصل شيء؟

أخذت الدموع تنهمر من عينيه كالأطفال ولكن بصمت. قلت له: «ولكن ماذا حدث؟».

- أخجلُ أن أنظر في وجه الناس!

- ولكن لماذا يا عمّ؟

أشار بإصبعه إلى الجماهير المحتشدة في الميدان والشارع وقد ارتفع صوته بالبكاء!

- إنّ كثيرًا من هذه العائلات التي حضرت لاستقبالنا قدّمت أبناءها شهداء في كتيبة الفجر.

لم يستطع أن يتابع حديثه فأسند رأسه على المقعد الأمامي فيما كنت أرى كتفيه يرتعشان. قلت له: «هؤلاء اختاروا طريقهم بأنفسهم! وهل الشهادة أمر سيّئ؟».

رفع رأسه وقال:

- كلّا يا محمد، بل إنّها أملُ كلّ مجاهد ومُنيته!

- إذًا ما خطبك؟

- إنّ هذا الأمر هو مبعث خجلي، فكثير من عناصري قد استشهدوا فيما لا أزال أنا على قيد الحياة. بأيّ عينٍ أنظر في وجوه هذه العوائل!

سكتُّ ورحتُ أفكّر في كلامه، فيما حُوصرت الحافلة من قِبل جموع النساء والرجال الذين حملوا الورود والحلوى.

- يحيا مجاهدو الإسلام..

- كتيبة الفجر الأُسُود.. مالك الأشتر اشلو.. اشلو..

ترجّل عناصر كتيبة الفجر من الحافلة بحماسة وسرور واستقبلهم الناس. أمّا مرتضى فبقي حزينًا وقد غرق جسده في مقعد الحافلة الطريّ. قلت له: «يا عم، إنّ أكثر الناس حضروا لرؤيتك!».

- هذا ما يخيفني أكثر يا محمد!

لم تتزحزح الجماهير من حول الحافلة وبدا واضحًا أنّ الجميع ينتظرون نزول «اشلو» لكي يأخذوه في الأحضان. قلت له: «ترجّل، بقاؤك هنا أسوأ، سيظنّون بك الظنون!».

أخذتُ يده وأخرجته من مقعده.

- حسنًا، سآتي خلفك!

تحرّكتُ فسار خلفي بخطوات متردّدة ومضطربة وقد احتمى بي كالأطفال. أخذ يقول مرارًا: «محمد، أقسم عليك بحياة أمّك أن تدعني أعبر من بينهم بأيّ وسيلة!».

- حسنًا يا عم، تعال الآن!

ما إن ترجّلنا من الحافلة حتّى هجم النّاس -على اختلاف

أصنافهـم وأطيافهم- وأحاطوا بمرتضى كجوهـرة ثمينة، وساروا به كعشّاق يهوَون معشوقهم إلى حدّ التقديس.

بعد عدّة أيّام وصل خبر خروج كلٍّ من «نظر نظري» و«فرامرز كهر» - راميـي الـ(B7) في كتيبة الفجر- من مستشفى شيراز، فذهب العم مرتضى ويوسف حيدربور معًا إلى قرية «نظر آباد» لعيادتهما.

109

نظر آباد

30/آذار/1985

صبـاح اليوم العاشر من السنة الجديدة ناداني العم مرتضى وكنّا في مدينة «فسا».

- يا حيدر يوسف بور!

- أجل يا عمّ.

- بَلَغنـي أنّ «فرامرز كهر» و«نظر نظـري» قد خرجا من مستشفى شيراز وذهبا إلى قريتهما «نظر آباد».

- هذا صحيح يا سيد مرتضى!

- أريد أن أذهب إلى «نورآباد» لعيادتهما.

- وأنا سآتي أيضًا. دعني أذهب إلى مقرّ الحرس الثوري في «فسا» لآخذ سيّارة.

- لا داعي لذلك يا حيدر. سأركب الحافلة العموميّة بمفردي.

- أتعني أنّك تريد أن تحرمنا رفقتك؟

- حسنًا عزيزي حيدر!

انطلقنـا نحو شيراز بالحافلـة. أثناء مسيرنا ما بـرح يتحدّث عن عناصر كتيبته وراميَي الـ(B7) الجريحَين: «فرامرز» و«نظري» إلى أن وصلنا إلى شيراز، فركبنا حافلة «نور آباد» الصغيرة.

عنـد الظهر وصلنا إلى مدينـة «نور آباد» وسألنا أحـدَ المارّين عن الطريق المؤدّية إلى قرية «نظر آباد»: «في أيّ اتّجاه تقع قرية نظر آباد؟».

- من جـادّة «كتشساران». تذهبان بالسيّـارة مسيرة نصف ساعة

حتى تصلا إلى جسر «حسين آباد». على بُعد مئة قدم منه تشاهدان لوحةً على رأس الجادّة كُتب عليها «نظر آباد». انعطفا بعدها إلى الجادّة. القرية تقع على بُعد ثمانية عشر كيلو مترًا من هناك!

وقفنا على رأس الجادّة المعبّدة طويلًا حتى توقّفت أمامنا سيّارة من نوع «نيسان» زرقاء اللون.

- نظر آباد!

أرجع السائق السيّارة إلى الوراء. ألقى نظرة على ثيابنا الكاكيّة وقال: «سأذهب إلى رأس جادّة «نظرآباد» فحسب، ومن هناك عليكما أن تركبا سيّارات القرية».

قال العم: «أوصِلنا إلى هناك وسنكون لك من الشاكرين!».

جلسنا بمحاذاة السائق، فقبّل العم مرتضى جبهة السائق الكَهل.

- آجرك الله يا أخي!

ما إن انطلقت السيّارة حتى نظر السائق إلى بذلتينا الكاكيّتين وشرع بالحديث: «هل أنتما ذاهبان لعيادة نظر وفرامرز؟».

فسألناه بدهشة: «وهل أنت من أهل نظر آباد؟».

- لا أنا من «مهرانجان». لكن لديّ بعض الأقارب والمعارف في نظر آباد. لا بدّ أنّكما عنصران في كتيبة الفجر!

هممتُ بأن أجيب بِنَعم، وبأنّ هذا الشابّ النحيف المتواضع الذي يجلس قربي هو قائد كتيبة الفجر مرتضى جاويدي، إلّا أنّ مرتضى أسكتني بقوله: «أجل يا أخي، نحن عناصر في الكتيبة نفسها!».

انحنى السائق نحونا وأخرج سيجارة من «تابلو» السيّارة.

- هل تدخّنان السجائر؟

– كلّا، شكرًا.

– من الجيّد أنّكما لستما مدخّنَين!

أشعل سيجارته بقدّاحة السيّارة. أخذ نفَسًا من سيجارته ثم قال: «لقد خدمتُ لعدّة شهور في فوج «19 فجر». لكن يقولون إنّ الخدمة في كتيبة الفجر لها طعم آخر. سمعتُ الكثير عن قائدها «اشلو».

قال مرتضى: «إذًا، لا بدّ أنّك تعرف «فرامرز كهري» و«نظر نظري!».

نفث دخان سيجارته خارج السيارة.

– أعرف كُلًّا من نظر وفرامرز وجميع العائلات الثلاث عشرة التي تقطن في نظرآباد. إنّ نظرآباد هي القرية الوحيدة التي قدّمت كلّ أسرة فيها شهيدًا!

بعد ذلك أشاح بوجهه عن جادّة نورآباد – كتشساران للحظة وقال للعم مرتضى: «إذًا لقد كان حدسي في محلّه. إنّكما ذاهبان لعيادة نظر وفرامرز، أليس كذلك؟».

عبرت السيّارة الجسر ثمّ توقّفت قرب لوحة «نظر آباد» الخضراء. قال السائق: «أرجو المعذرة، عليّ أن أذهب إلى «كتشساران». أمامكما سبعة عشر كيلومترًا حتى تصلا إلى القرية. انتظرا على رأس الجادّة وستقلّكما سيّارات أهل القرية».

قال مرتضى: «نشكرك لأنّك أوصلتنا إلى هنا! أجرك على الله!».

ترجّلتُ ومرتضى فيما ابتعدت السيّارة عنّا. نظرتُ إلى اللوحة التي كتب عليها «نظر آباد» وأنا أفكّر في كلام السائق: كلّ أسرة قدّمت شهيدًا! كنت أتضوّر جوعًا وقد مضى ساعتان على حلول الظهيرة. وقفنا قرب الطريق الترابيّ. قلت: «يا عم مرتضى، أسأل الله أن لا

يطول مكوثنا هنا وأن تحضر سيّارة..».

لم أكد أكمل كلامي حتى رأيت مرتضى وقد انحنى وخلع حذاءه الخفيف وجواربه. ظننتُ أنّه يشعر بالتعب وقد رأى ساقية فأراد أن يغسل قدميه بمياهها الباردة. جلتُ بنظري في أطراف المكان فلم أرَ أثرًا للماء، لكنّي لمّا نظرتُ ثانية إلى مرتضى أصبتُ بالدّهشة! فقد ربط شريطَي نعليه وعلّقهما على رقبته. تبسّم وقال: «حيدر، ابقَ أنت هنا بانتظار السيّارة! لقد عقدتُ النيّة أن أذهب لعيادة «فرامرز» و«نظر» سيرًا على الأقدام، إنّ تراب «نظرآباد» مباركٌ لأنّه موطئ أقدام الشهداء!».

لم أنتظر وخلعتُ حذائي وجواربي بسرعة البرق. علّقت الحذاء على رقبتي وطفقتُ أسير خلفه!

110

الكابوس

9/نيسان/1985

عنـد الظهـر، مسح مرتضـى - وهو يجلـس خلف عجلـة المقود - بإصبعه دمعات انهملت من عيني اليسرى.

- لماذا تبكين يا بنت خالتي؟

حدّقـتُ في مبنـى فنـدق «كارون». تبسّـمـتُ ابتسامة فاتـرة وقلت: «تذكّـرتُ السفر الأخـير حين كنتَ ومحمود ترميـان قشور الـ«خربزه» على ألواني!. كأنّه كان حلمًا جميلًا تحوّل إلى كابوس بالنسبة لي!».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عميقة وصادقة.

- آمنة، فكّري بالمستقبل!

حملقتُ في عينيـه النافذتين والناعمتين في آن معًا وجعلتُ أفكّر في ما لم أستطع أن أنطق به: أنا قلقة من المستقبل يا مرتضى.. المستقبل المجهول.. هل سيكون مصير زوجي الشهادة كما ألواني، ستوده، رفيعي و... أدخل مرتضى سيّارة الـ«تيوتا لاندكروز» الكاكيّة إلى موقف فندق «قيام». نظر إليّ بهدوء ووقار.

- ما الذي يشغل بالك يا بنت خالتي؟ أخبريني!

التفـتُّ إلى الخلف ونظرتُ إلى رضيعتي زينـب النائمة على المقعد الخلفيّ وقلت: «هل تقرأ أفكار الناس أيضًا؟».

- هذا هو الطريق الذي اخترناه!

- وهذا هو ما يقلقني..

تنفّستُ الصعداء.

– هل أنـا أنانيّة لأنّي أريدك لنفسي ولابنتـي، أم أنتَ الأنانيّ لأنّك تريد الشهادة لنفسك؟!

ترجّلنا. ألصق زينبَ الملفوفة بقماطها بصدره حتى كأنّه لم يرد أن يفصـل بينه وبينها مقدار شعرة. أحنى رأسه وقبّلها وشمّها مرارًا، ثمّ قال بصوت متغيّر لم يشبه صوته: «آمنة، إيّاكِ أن تظنّي أنّ مرتضى لا يحبّ زوجته وابنته!».

كانت مـن المرّات النـادرة التـي أرى عينيه قد اغرورقتـا بالدمع. ابتلعتُ ريقي وقلت: «يا بن خالتي، هل أسأتُ القول، أو بدر منّي خطأ؟».

فأجاب بصوت تخنقه الغصّة، لكنّه كان في الوقت عينه هادئًا ومليئًا بالأسـرار: «كلّا يا بنت خالتي، أنا خجلٌ منـكِ! إنّ الرجل الصالح هو مـن يرسم حدودًا حول عائلته فيحافـظ عليها. والأفضل منه هو ذاك الذي يجعل لأبناء وطنه حدودًا ويذود عنهم! لكنّ حدود الإسلام كبيرة جدًا. فمحمـود وكرامت وجليل وسائر شهداء عمليـات «بدر»، إضافة إلى زوجاتهـم اللواتي يشغلن بالك، وفتيـان التعبئة وشبابها المجهولي الهويّـة، والذين وقّعوا عهد الدم في الكتيبـة بأنّهم صامدون حتى آخر قطرة دم.. جميع هؤلاء هم أفراد عائلتي!».

أصغيـتُ بتمعّـن إلى كلماتـه المختصـرة والبسيطـة والواضحـة. أحسسـتُ أنّ سرًّا جديدًا قد كُشف لي. ومع ذلك كلّه فإنني حين سرت في فنـدق «قيام» شعرتُ بأنني أكره جدرانـه وأبوابه، ولم أطلب مفتاح غرفتي من التعبويّ العجوز المعنيّ بشؤون الفندق إلا مُكرَهة.

– يا سيّدة، لقد سلّموا غرفتك لشخص آخر!

فتبسّم مرتضى وقال: «حاج صلواتي، سنكون الليلة ضيوفًا عندك!».

– أوّلًا، الضيـف حبيب الله. ثانيًا، لقـد هيّأوا لكم بيتًا قرب تقاطع

خرّمشهر، قرب معسكر الإمام الخميني!

كدتُ أطير فرحًـا، لا لأنّ الغرفة أصبحت بيتًا، بل لأنّ رؤية الفندق كانت تثير في ذهني ذكرياتي مع صديقاتي!

ريثمـا ينهـي مرتضـى توضيـب الأغراض أخـذتُ أتمشّـى للمرّة الأخـيرة داخل ممرّ الفندق فيما مـرّ في مخيّلتي شريط من ذكرياتي مـع الشهداء وعوائلهم. عاد مرتضى إليّ وقال: يا بنت خالتي، إن شاء الله سنذهب في الإجازة التالية إلى «زرقان» بدلًا من «فسا».

111

رقائق بطاطا بطعم الملح 21/ت2/1985

لم تكـن المنطقة المحيطة بالبيت الجديد عامـرة بالبيوت السكنيّة، فلم أكن أشعر بالأمن كما في الفندق. ليلاً كنّا نشعر نحن النسوة الأربع مـع أطفالنا بشـيء من الخوف. حين علـم مرتضى بالأمر قـرّر وبقيّة الرجال أن يأتي أحدهم من الجبهة دَوريًّا كل ليلة ويحضر في البيت.

طـرأ عملٌ على مرتضى لبضعة أيّام فقال لي: «آمنة، سيأتي محمد رضا بديهي لعدّة ليـالٍ إلى البيت. لقد أوصيناه بأن لا يترك الجماعة لوحدهم!».

ودّعني وذهب.

في الليلـة الأولى، التـي تزامنـت مع هجـوم جويّ لطائـرات «ميغ» العراقيّة، طال انتظارنا لبديهي، لكن من دون جدوى، ما أثار استغرابنا الشديـد. اضطررنا في النهايـة أن نمضي تلك الليلة الباردة والممطرة بخوف وبـلا تدفئة. أمّا الليلـة الثانية فكانت شديـدة الظلام، ترافقَ ذلـك مع أمطـار غزيرة ورعد وبرق، ناهيك عـن حبّات المطر الكبيرة التي كانت تضرب جدران البيت وأبوابه ونوافذه، فدبّ الذعر في قلوب النسـوة الأربع وأطفالهنّ! ولسـوء حظّي أصيبت طفلتـي زينب بحمّى شديـدة. انتظرنـا بديهـي حتى مللنـا الانتظار ولم يحضـر هذه المرة أيضًـا. جمعنا كلّ مـا لدينا من أقفال وسلاسل وقـد اجتاحنا الخوف والذعر، وعمدنا إلى إقفال نوافذ البيت وأبوابه.

في تلـك الأيّام لم نسمع خبرًا عن بديهي، ولم يكن لدينا حيلة سوى قضـاء تلك الليالي بأيّ شـكل من الأشكال، حتى حضـر مرتضى إلى

البيت. عندما رأى حالنا غضب وقال: «ألم يأتِ محمد رضا؟».

قلت: «كلا!».

ذرع الغرفة جيئة ورواحًا ثم قال: «لقد أكّدت عليه مرارًا بأن لا يترك النسوة والأطفال لوحدهم..».

بعد ذلك نظر إلى وجه زينب المتورّد من شدّة الحرارة وقال: «انهضي لنأخذ الطفلة إلى الطبيب!».

عصرًا ولدى عودتنا من عيادة الطبيب حضر محمد رضا من الجبهة وقد علا وجهه وثيابه التراب. كان مسرورًا كما الأطفال، وقد حمل في يده كيس رقائق البطاطا بطعم الملح. وضع رقاقة البطاطا في فمه وهزّ رأسه وهو يمضغها ثمّ قال وقد علت ثغره ابتسامة لطيفة: «السلام عليك يا سيّد مرتضى!».

ألقى مرتضى نظرة مليئة بالمعاني إلى كيس رقائق البطاطا المالحة ذي اللون البرتقاليّ ثم قال: «بسم الله! أيّ سلام، يا رجل إن لم يكن لديك وقت لذلك لمَ قبِلت؟».

أجابه بأعصاب باردة: «تناول بعض الرقائق، ماذا حصل يا عم؟».

أخذ مرتضى يحدّق باستغراب في عينيه الحمراوين المنهكتين.

- هل تسخر منّا!

تلعثم محمد رضا.

- للـلا أفهم.. مما تتقوله يا عمّ!

فعقد مرتضى حاجبيه.

- اللعنة على الشّيطان..

أخذ نفَسًا عميقًا ثمّ قال: «أليس الاتفاق أن تتفقّد أحوال الجماعة؟».

- أقسم بحياتك يا مرتضى، بل بحياتي إنّني لم أتركهم ولو للحظة!

التفت مرتضى وحدّق في وجهي، أمّا أنا فقلبت شفتي ثم قلت: «إن كنت أكذب فهؤلاء...». وأشرت إلى غرفة النسوة.

- اسألهنّ!

سأل محمد رضا والحيرة على وجهه: «هلّا أخبرتموني بما حدث؟».

أشار مرتضى إليَّ ثمّ إلى سائر الغرف وقال: «أتعني أنّ الجميع يدّعون كذبًا بأنّك لم تأتِ إلى البيت ولو لليلة واحدة!».

تغيّر وجه محمد رضا وضرب على جبهته وقال: «آه .. يا إلهي، كم أنا أحمق! لقد فهمتُ من قولك «لا تترك الجماعة لوحدهم» أنّك تعني شباب الكتيبة! أقسم بأرواح الشهداء إنّني لم أترك شباب الكتيبة طوال الأيّام الماضية ولو للحظة.. إنني ظننتُ...».

ثمّ سكتَ وانهملت عيناه بالدموع. اقترب مرتضى من محمد رضا، قبّل جبهته، ثم أخذ رقاقة من كيس البطاطا البرتقالي ووضعها في فمه.

- إنّها لذيذة جدًّا!

112

قنّــاص

2/ك1/1985

بعـد جهـدٍ جهيد تمكّنـتُ مـن الاتّصال بلـواء المهـدي وتمّ وصلي بمرتضى.

- .. سيّد مرتضى؟!

- أجل يا عزيزي!

- إنّ أخاك الصغير «جعفر» يريد الذهاب إلى الجبهة أيضًا!

- أهلًا وسهلًا به!

- أهلًا وسهلًا به؟! لكنّ عُمر جعفر لا يتجاوز الخمس عشرة!

- يا حاج محمد علي، إنّ أتراب جعفر في كتيبة الفجر كثيرون!

- اللّه أكبر.. كلّما قلت لك شيئًا أجبتني بما يحلو لك!

- لا تبتئس يا صهرنا العزيز، أبلغه فقط بأن لا يأتي إلى كتيبة الفجر!

- سيّـد مرتضى، يبدو أنّـه قد فاتك أنّ عددكـم بقدوم جعفر إلى الجبهة سيصبح أربعة!

- يا حاج محمد علي، إنّ شهادتي الثانويّة هي في فرع الرياضيات!

- إذًا أنت مسؤول عمّا ستجيب به أباك «مش رضا» وأمّك! بدلًا من أن تفكّر في حلٍّ لأمر أخيك تقول أهلًا به!

- اسمع يا حاج محمد علي، إنّ دم جعفر ليس بأغلى من دماء بقيّة شباب الكتيبة! إن التحق جعفر بالكتيبة، فسيصبح أحد قنّاصي الخطّ الأمامي فيها!

- إنّ جعفرًا الآن موجود في معسكر الإمام الحسين عليه السلام في شيراز،

وإن لم تبادر إلى فعل شيء فسيرسلونه غدًا إلى الجبهة!

– لا تشغل بالك يا حاج! كيف حال أختنا؟

– تُسلّم عليك، إنّ صدّيقة هي الأكثر قلقًا لذهاب جعفر، ومن الطرف الآخر ماذا أفعل مع «مش رضا» وأمّك؟

– افعل ما تريد فعله هناك، وإلّا فإن صار جعفر في عداد عناصر الكتيبة فسأرسله إلى إحدى الفصائل ليصبح أحد قناصيها!

– اللعنة على الشيطان، بالله عليكم انظروا إلى واسطتنا!

– حاج محمد علي، إنّ فاتورة هاتفك ستصبح مكلفة! من الممكن أن تقوم صدّيقة..

– لا عليك، لا تقلق على فاتورة هاتفي..

– أنا خجل منك يا حاج، ولكن لو كنت مكاني ماذا كنت لِتفعل؟!

أنهيتُ المكالمة آيسًا. خطر ببالي أن أقصد مقرّ الحرس الثوري في «فسا» وأطلب منهم المساعدة.

قبيل الظهر وصلتُ إلى مبنى الحرس وأخبرت قائد حرس «فسا» بقضيّة جعفر.

– إنّ أمّه شديدة القلق عليه، وهي تطلب على الأقلّ أن يرجع أحد الثلاثة ليذهب هذا!

– لا تغتمّ يا حاج، سأتّصل بشيراز وأخبرهم بالأمر، سنجد حلًّا.

أجرى مكالمة هاتفيّة مع المعنيّين في شيراز وبعد التنسيق معهم قال لي: «اذهب إلى الأخ «كديور» في شيراز وسيحلّ لك المشكلة! ستذهب وترجع في سيّارة الحرس».

عصرًا وصلتُ برفقة سائق سيّارة الحرس إلى ثكنة «عبد الله

مسكـر». اتّصلت من غرفة حراسة الثكنة بالأخ «كديور» وبعد التنسيق معه دخلنا بالسيّارة إلى الثكنـة. كانت ساحة المراسم الصباحية تعجّ بقوّات التعبئة المتطوّعين الذين كانوا يهمّون بركوب الحافلات المتوجّهة إلى جبهـة الحرب. أخذني «كديـور» إلى منصّة الساحة ونادى جعفرًا عبر مكبّر الصوت: «جعفر جاويدي إلى المنصّة..».

بعدهـا قال لي «كديـور» الـذي كان يرتدي زيّ الحرسـ الأخضر: «اذهب واجلس داخل السيّارة، سأسلّمك إيّاه بنفسي لكي تأخذه!».

قلت: «يا أخ كديور، إن حاول الفرار فلن أقوى على الإمساك به!».

فتبسّم وقال: «سأتولّى حلّ هذه المشكلة، اذهب أنت إلى السيّارة!».

جلسـتُ داخل السيّارة فما لبـث أن وصل كديور برفقة جعفر ووقفا بجانـب السيّارة. حاول جاهدًا أن يتكلّم معـه، لكنّ جعفرًا لم يقبل أن يرجع. أخذ يتوسّل إليـه باضطراب مشيرًا إلى جموع التعبويّين الذين كانوا يستعدّون لركوب الحافلات. احترق قلبي لأجله. وحين لم يستطع كديـور إقناعه بالـكلام نادى جنـديّ حراسة الثكنة، فقيَّـد يدَ جعفر وأدخله إلى السيّارة. قـال كديور: «يا حاج، إنّه بعهدتك! ولكي يطمئنّ قلبك فسأقيّده بالمقعد الخلفيّ!».

اغرورقـت عينا جعفـر بالدموع. ولمّـا علّق «كديور» قيـده بقضيب يتوسّـط المقعد الخلفيّ للسيّارة ناولنـي مفتاحه وقال: «سلّم القيد إلى مقرّ الحرس في فسا!».

انطلقـت السيّارة لكنّ جعفرًا لم ينبس ببنت شفة. كان مستاءً لحدّ بدا وكأنّ الدماء قد جفّت في عروقه!

113

القبلة الأسبوعيّة

8/آذار/1986

عنـد الغروب كانت زينب ذات العـام الواحد تبعثر أغراض البيت، فيمـا انشغلتُ بالدردشـة مع «فرشته» زوجة السيـد «بني أسد». بينما نحـن كذلك علا صـوت مرتضى قائلًا: «يـا اللّه..». ودّعتني «فرشته» وغـادرت، أمّا مرتضى فدخل وحمل زينب وانهـال عليها تقبيلًا. كأنّه كان يطبـع على وجنتيها ما فاته من قبلات الأسبوع. وضع طفلتي على الأرضـ ثم حـدّق في وجهي قائلًا: «ما رأيك أن تذهبي إلى فسا لبعض الأيّام ثم تعودين؟».

دبّ ذعـر غامضـ في قلبي، وتسلّلت الـبرودة سريعًـا إلى أطرافي. ألقيتُ نظرة ملؤها الدهشة والاستغراب على عينيه الملتهبتين من فرط النعاس. كانت مؤشّرات الحسّ والتجربة لقربي من جبهة القتال تنبئني بـأنّ نار الحرب تستعر ثانيـة، وأنّ ثمّة هجومًا قريبًا. فتحتُ عينيّ على وسعهما وقلت: «يا بن خالتي، أعلم أنّ ثمّة خبرًا ما، لا تقلق عليّ!».

غمـز عينه وقال: «يا بنـت خالتي، هكذا سأكون أكـثر ارتياحًا! إنّ النسوة الأخريات سيذهبن أيضًا، سيأخذكنّ أخي قدمعلي إلى فسا!».

كان يتكلّم متوسّلًا، فلم أستطع أن أرفض!

– إن أذنتَ لي فسآخذ أغراض البيت وأرجع إلى فسا!

سكت مرتضى متأمّلًا.

– لن ترجعي إلى أهواز ثانية؟!

– من بعد إذنك!

– كما تريدين يا بنت خالتي، إن تعبتِ من هذه الحياة فلا بأس!

أجهشـتُ بالبكاء وقلت: «لم أقصد ذلك يا بن خالتي! ولكنّك تترك عملك ليلًا لكي تتفقّد أحوالنا! فليُمِتني اللّه إن تعبتُ من العيش معك!».

– لكنّني أشعر بالسرور عندما أتفقّد أحوالكما وأراكما!

– أنـا لا أشكـو من هـذا الوضع. لكـن في الواقع هناك مـا يعذّبني وهـو أنني أتعرّف لمدّة من الزمـن إلى عدد من أصدقائك وأتقرّب من زوجاتهم وأطفالهم ثمّ يستشهدون، إنّ هذا يؤلم روحي بشدّة!.

لم يتكلّم مرتضى، وفي صباح اليوم التالي انطلقنا برفقة «قدمعلي» وعائـلات كلّ مـن بنـي أسد، حسـين إسلامـي ومحمد رضـا بديهي متوجّهـين إلى فسـا. وصلـتُ إلى قرية «جليـان»، ومـا إن رآني الناس بـدون مرتضى حتى ظنّوا أنّ خطبًا مـا قد وقع. لكنّهم لما رأوا قدمعلي وشاهدوا روحيّتي علموا بأن شيئًا لم يحدث.

بعـد مضيّ يومـين، جلستُ في الصبـاح تحت أشعّـة شمس الشتاء الضعيفـة أسرّح شعر زينب وإذ بمكبّر صوت المسجد يصدح بموسيقى العمليّات العسكريّة.

– .. أيّهـا المستمعـون الأعـزّاء نرجو الانتباه إلى هـذا الخبر الذي وصلنا للتوّ..

صـار قلبـي يخفـق بشدّة، أخـذت يـداي ترتعشان، وجـفّ حلقي. عاودتنـي تلـك الأحجيـة المخيفـة ذات الاحتمـالات الأربعـة: إلهـي! مرتضـى.. الآخرون.. أسـأل اللّه أن يكون الجميع بخير.. تراءت أمام عينـيّ تلقائيًّـا وجوه زوجـات كلٍّ من «بذرأفكـن»، «ألـواني»، «ستوده» وجميـع زوجـات الشهـداء الواحدة تلو الأخـرى، تلاها صـوَر النسوة اللّاتي عقدت معهن ميثاق الأخوّة حديثًا.

أخرجـت المشط من بين خصلات شعر زينـب التّمريّ اللون، الذي

كان يلمع تحت أشعّة الشمس، ثمّ رفعت يديّ نحو السماء قائلة: «إلهي، رضًى برضاك!».

بثّ مكبّر صوت المسجد النبأ التالي:

– ليلة الأمس ، وضمن عمليّات «والفجر 8» وبنداء «يا زهراء» عليها السلام ، تمكّـن مجاهدو الإسـلام من عبور نهـر «أروند»، وشنّـوا هجومًا على خطوط البعثيّين الكفرة..

114

نهر الجنة

11/آذار/1986

عند المساء، وحين دخلتُ مِياه نهر «أروند» الباردة برفقة الغوّاصين المهاجمين، أدنيتُ رأسي من أُذن «عزيز بابائي» مستغربًا.

– يا عزيز، ألم يحدث المدّ الكبير لنهر «أروند» قبل الآن؟!

– بلى يا حسن إشراقي، هل نسيتَ إلى أيّ حدّ ارتفع منسوب المياه، الشهر الماضي، حتى دخل الدُّشم؟

– لكن يبدو أنّ هناك مدًّا كبيرًا الليلة؟ ما العمل؟

– حسن، لقد أطلقوا نداء العمليّة، ليس باليد حيلة، علينا أن نبدأ الهجوم!

تمام الساعة الثامنة مساءً تمّ إعلان رمز عمليّات «والفجر 8»: ..يا زهراء.. يا زهراء..

في عتمة الليل غطستُ ببدلة الغوص السوداء الملساء وسبحتُ نحو شاطئ العدو. وعلى الرغم من اتصال كلّ مجموعة منّا بحبل، إلّا أنّ الحركة كانت صعبة، بل غير ممكنة بسبب ذلك المدّ الكبير والسرعة الشديدة لجريان المياه، بحيث وصل في بعض الأماكن من النهر حتى خمسين، بل سبعين كيلومترًا في الساعة. خلال الدقائق الأولى شتّتتْ أمواج النهر معظم الغوّاصين وقذفتهم إلى أماكن مجهولة! غير أنّ فصيلتنا التي طوت مسافة الثمانمئة متر تلك لعشرات المرّات، ذهابًا وإيابًا، خلال شهرين، تمكّنت من الوصول إلى السفينة الغارقة في الوحل قرابة الساحل العراقيّ. وقع نظري على حُجرة القيادة التي دخلتُها برفقة عزيز بابائي قبل أيّام. مرّت أحداث ذلك اليوم أمام

عينـيّ كمشاهـد فيلم سينمائـيّ.. في تلك الليلة خرجـتُ من مياه نهر أرونـد وتسلّلـتُ إلى السفينة الغارقة في الوحل. ثـمّ خرج عزيز بعدي وأخـرج حـذاء الغوص من قدميـه. نظـر إلى الصاريـة أعلى حجرة القيادة وقال: «حسن إشراقي، هل تستطيع أن تتسلّق إلى الأعلى؟».

- إنّه خطر جدًّا، لكنني سأصعد!

وصلـتْ إلى مشامّي رائحة خضرة طازجة. وضعتُ يدي على عشب طويل يشبه سنابل القمح، كان قد نبت أسفل السفينة!

- ما هذا يا عزيز؟

- شعير!

- شعير في هذا المكان؟

- عندمـا غرقـت السفينـة كانـت محمّلة بحبـوب الشعـير، ومن الطبيعي أن يتحوّل المكان إلى حقل شعير!

اخترقـت أنفي رائحـة الحديد المهترئ والصـدئ. خاطبني عزيز قائـلًا: «حســن، عليك أن تصعد تلك الصاريـة، وحين تشرق الشمس تباشر بالتقاط الصور لخطّ دفاع العراقيّين، وابقَ حتى حلول الليل ثمّ ارجع، هل لديك أي مشكلة؟».

- كلا.

أمضيت طـوال ذلك اليوم على صارية السفينة ألتقط صورًا لمواقع العدوّ وتجهيزاته ثمّ عدت أدراجي مساءً.

كان العـدوّ يقظًـا وأمطر سطح ميـاه «أروند» بوابـل من الرصاص الخطّاط الملوّن. ابتعدنـا عن سفينة الشعير وسبحنا باتّجاه خطّ دفاع العراقيّـين. ساهم المدّ الكبير للمياه بتغطية جميـع العوائق الحديديّة والأسـلاك الشائكـة وأعمدة الحديد المضـادّة للحوّامـات (المائية).

كانـت المياه قـد اخترقت جذوع النخـل التي رصفها العراقيّـون أفقيًّا كاللّـبِن فـوق بعضهـا البعض حتـى وصلـت إلى قمّة السـاتـر الترابي والدّشم! تغيّر مشهد الخطّ الدفاعي بالكامل ولم يبقَ مجال للمواصلة، فاضطررنا إلى الرجـوع حتى نفكّر في طريقة أخرى للوصول إلى خطّ العـدوّ الدفاعـي! وبعد إجـراء اتصـال لاسلكيّ وتحديـد المطلوب، تمّ إعـلان الخطّة الجديدة لاخـتراق الخطّ الساحلي للعـدو: ليس لدينا فرصـة لاقتحام المحـاور.. لقد تبدّلت الخطّة.. علـى الجميع الوصول إلى شاطئ العدوّ عبر الزوارق.. عودوا الآن إلى شاطئنـا..

بعـد مضيّ ساعـة استقرّت مجموعـات مؤلّفة من اثنـي عشر إلى خمسـة عشـر عنصرًا في الـزوارق الآليّـة تحت النخـل المحترق على شاطئنا. نظرتُ إلى ساعة اليد الليليّة.

- إنّها الواحدة والنصف!

أدنى حامل اللاسلكيّ في فصيلتنا السمّاعةَ من أذني بانتظار صدور أمر الانطلاق. أمّا أنا فسرح نظري في الشبّان الجالسين داخل الزوارق وهـم يلهجـون بالدعاء. كنـت أرى في كلّ فرد منهم الصفـاء والليونة المشهودَيـن ليـالي العمليّات. كانـوا يذرفون الدمع بهـدوء ويتعاهدون بالشفاعـة لبعضهم البعض إن رُزقوا الشهادة. وقـد أخذ عدد منهم عهـد الشفاعة يـوم القيامة خطّيًـا في دفاتر مذكّراتهـم. لفت نظري أحد الغوّاصين وهو ينوح ويندب رفاقه الذين قذفهم التيّار المائيّ لنهر «أروند» إلى عمق مياه الخليج الفارسي قبل ساعة.

أمّا من بقي من الغوّاصين الذين دخلوا مثلنا مياه أروند قبل ساعة على أنهم الفوج الأوّل للهجوم، فعلى الرغم من تمكّنهم من الوصول إلى مواقع العراقيّين المحصّنة لكنّهم لم يفلحوا في قطع الأسلاك الشائكة والموانـع الحديديّة وتعطيل عمل الألغـام وبالتالي في فتْحِ الطريق أمام

الـزوارق المليئة بالكتائب، أما الآن فقد التحقوا بمهاجمي كتيبة الفجر بقيادة مرتضى جاويدي. بقي الشبّان إلى حين يعانقون بعضهم بعضًا ويتضرّعـون مردّديـن آية «أمّن يجيـب المضطرّ» للبقـاء مخفيّين عن عيـون العدوّ ولأجـل نجاح العمليّة. ناداني عامـل الإشارة: «أخ حسن، إنّه العمّ مرتضى!». تناولتُ سمّاعة جهاز (PRC) اللاسلكي.

- مرتضى، أرسل.

- إشراقـي، شغّلوا محـرّكات الزوارق، سوف ننطلـق.. استعدّوا.. فلتنطلق زوارق سريّة مسلم أولًا.

مـا إن أصدرتُ الأوامر حتى شغّل مديرو الدفّات الخمس محرّكات زوارقهم الملفوفةَ ببطّانيّات.

كان نهـر أروند هائجًا، وقد أضاءت سمـاءه قنبلة ضوئيّة جديدة، فضـلًا عن الرعب الـذي ولّده هدير حركة مياه النهـر في جنح الليل. قُبيل أن نهمّ بالانطلاق أحسستُ بيد استقرّت على كتفي.

- السلام عليك يا سيد حسن! ما الأخبار؟

التفتُّ إلى الخلف، فدُهشتُ لدى رؤيتي مرتضى وجعفر أسدي قائد اللـواء. تضاعفت معنويّات العناصر. دبّـت حماسة وشوق عجيبان في نفوس الجميع الذين باتوا ينتظـرون بفارغ الصبر لحظة بدء الهجوم على خطوط دفاع الفاو! ركب كلٌّ من مرتضى وعزيز بابائي في زورقنا. قال عزيز: «بما أنّ منسوب المياه قد وصل إلى دشم العدوّ فمن الأفضل أن نذهب عبر نهر «بهشت»، وبمشيئة الله سوف نصل إلى عُقر دارهم عبر الزورق!».

انطلقنا على متن الزورق نحو ساحل الفاو. شيئًا فشيئًا بدت علامات المواجهـات من الجهـة المقابلة. عبرت الزوارق ميـاه «أروند» وتقدّمت

سريعًـا. فجأة لفتَ انتباهي أضواء مصابيح عدد من الغوّاصين الذين تمكّنوا من البقاء على شاطئ العدو! عندما توسّطنا نهر «أروند» أشار مرتضى إلى نيران الرشّاش الثقيل قبالتنا.

- ماذا سنفعل بالرشّاش الثقيل!

قال عزيز: «علينا أن ننهي أمره بأنفسنا!».

أخـذ الـزورق ذو المحرّك الملفـوف ببطّانيّة عسكريّـة يشقّ العباب متّجهًا نحو نهر «بهشت». إلى جهة الشمال كانت نيران أحد الرشّاشات تُطلَـق من دون انقطـاع على المحاور الأخرى. بـدت فوّهة الرشاش في تلك العتمة متوّردة كحمـرة الجمر! أمّا الجنود العراقيّون المتمترسون في تلك المحاور فقد أشعلوا السماء والأرض بنيران الرصاص الخطّاط والقنابـل الضوئيّـة. بـدت سماء نهـر أرونـد وكأنّها تتزيّـن بالألعاب الناريّـة، فيما بدأت سحب من البخـار والدخان تغطي تدريجيًّا أجواء ذلك النهر العظيم. وعلى الرغم من أنّ المدّ الكبير للنّهر أفشل خطّتنا الأولى إلّا أنّ ارتفاع منسوب المياه التي غطّت الأسلاك الشائكة والموانع الحديديّـة، ساهم في اجتيازنـا تلك الحواجز والحفـر الموجودة على طـول الساحل. عندما رأيت الزورق وقد وصل إلى أعلى جذوع النخل، ناديت: «اللّه أكبر.. اقفزوا داخل الماء!».

بُغِت العـدوّ بحيث لم يتمكّـن رشّاشه الثقيل الموجـود على محورنا إلّا مـِن إطلاق ثلاث رصاصات، ما لبث أن غـدا طُعمة لقذيفة (B7) أطلقهـا مرتضـى. استطعنا بيُسر أن نعبر مياه نهـر «بهشت» الغزيرة حتـى وصلنـا إلى أطراف الدشمـة والساتر الترابي للعـدو، ثمّ ترجّل عناصـر الحرس والتعبئة من الـزوارق وانقضّـوا على رؤوس العدوّ كالصاعقة. قفزتُ من الـزورق مُكبّرًا ودخلت الماء. غصتُ تحت الماء وعمـتُ فوقه عدّة مرّات إلى أن وطئـتّ قدماي قعر النهر! كانت حرب

ضروس قد اشتعلت على الشاطئ الذي تمّت السيطرة عليه!

أخـذ العراقيّـون المرعوبون يطلقون النـيران بشكل عشوائـيّ. أمّا أنـا فتركت عامل الإشـارة وطفقتُ أطلق نيران رشاشـي متقدّمًا نحو الدشم، فرميـتُ رمّانة في كلّ واحدة منها. وقبل انبلاج ضوء الصباح تمّـت السيطرة سريعًا علـى خطّ الدفاع العراقـيّ، بعد ذلك صافحنا سريّتي اليمين واليسار في كتيبة الفجر!

115

خور[1] عبد الله

12/آذار/1986

صباح اليوم الأول للعمليّات كنت مستقرًّا خلف الدّشمة على مقربة من خور «عبد الله»[2]. كان قد سقط لنا عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من الشهداء والجرحى. على الجبهة المقابلة أبدى العراقيّون مقاومةً شديدة بالدبابات وناقلات الجند بغطاء من نيران المدفعيّة. قلتُ لعامل الاشارة: «اتّصل بأشلو!».

- سيّد «دهقان»، أشلو على الخطّ.

تناولتُ سمّاعة اللاسلكي وقلت: «يا عم، إنّ العراقيّين يقاومون بِشدّة. إن بقيتِ الأمور على هذا المنوال سنضطرّ إلى الانسحاب. لقد أُنهِك عناصرنا. نريد قوّات مساندة!».

فقال كلمتين بنبرة حاسمة: «سآتي بنفسي!».

هممتُ مع نفسي: «سآتي بنفسي!! ماذا يعني.. طلبتُ قوّات مساندة لا قائد كتيبة.. !»

وصل في لمح البصر.

- عافاك الله يا أخي رحيم! ما المشكلة؟

بدا واضحًا من وجهه النحيف المصفرّ أنّه قد طوى عدّة ليالٍ ساهرًا. سقطت قذيفة بقربي فانحنيت، ثمّ استويتُ وتسلّقتُ الساترَ

1- الخور أو مصبّ النهر هو مسطّح مائيّ ساحلي يأخذ شكل خليج شبه مغلق، يصب فيه نهر أو مجرى مائيّ من جهة، ويتّصل بالبحر من الجهة الأخرى، تمتزج فيه المياه المالحة بالمياه العذبة.

2- خور عبد الله، يقع في شمال الخليج الفارسي ما بين جزيرتي «بوبيان» و«وربة» وشبه جزيرة الفاو مشكّلاً خور الزبير الذي يقع عليه ميناء أم قصر العراقي.

الترابي بحيطة مشيرًا إلى الدبّابات والمدرّعات العراقيّة.

- إنّهم يفوقوننا عددًا بأضعاف، ونيران المدفعيّة تؤذينا!

أشرتُ إلى عناصر سريّتي المنهكين الذين كانوا يقاومون برشّاشاتهم الخفيفة خلف الساتر الترابي.

- إنّهم متعبون، إنّك ترى الأوضاع!

وقفتُ بشكٍّ وارتياب أرقُب المعجزة التي سيُحدِثها لحلّ هذه المعضلة: لقد سمعتُ أنّه حلّال مشاكل الحرب.. الكرة في ملعبه الآن، لنرَ ماذا سيفعل! كنت لا أزال أفكّر فيه فإذا به يخلع حذاءه الخفيف. التفتَ إلى يمينه حيث همَّ شابّ تعبويّ، يحمل قاذف (B7)، بتسلّق الساتر. خلع قميصه الكاكي ذا الجَيبَين بحركة سريعة وسار نحو التعبويّ عاري الصدر. أخذ منه القاذف مع قذيفته ووضعه على كتفه.

- ستبقى معي أمانة، إن استطعت أوصل إليّ القذائف!

تحت نيران العدوّ تسلّق مرتضى الساترَ بخفّة النّمر. بُهِت جميع العناصر بحركاته المتألّقة. توقّعتُ أن يطلق القذيفة من الأعلى، إلّا أنّه انحدر إلى الأسفل ثم دوّى صوته في قلب الساتر كالرعد: «يا علي!».

صرختُ: «يا عمّ..!».

اعتراني الخوف عوضًا عنه! أحسستُ أنّي جبانٌ إلى أقصى الحدود. لكنّ غبار الشكّ زال منّي وصرختُ في نفسي: رحيم دهقان، إنّ الحدود التي تفصلك عنه كانت حتى أعلى الساتر! من الآن فصاعدًا عليك أن تحني جبهتك أمام توكّل مرتضى وشجاعته.. إلهي لا تُخزِني أكثر من هذا! كان الشاب التعبويّ يقف مبهوتًا وبيده القذائف، ركضتُ نحوه، وأخذتُ عددًا منها. تسلّقتُ الساتر الترابي، وانحدرتُ خلف مرتضى باتّجاه الدبابات. فجأة وقف وصوّب نحو دبّابة احتمى بها

جنود عراقيّون يتقدّمون باتّجاهنا. وصلتُ إليه متقطّع الأنفاس. أطلق القذيفة عامدًا بين الجنود العراقيّين، فناولته القذيفة التالية.

- تفضّل يا أشلو!

أخذها وبدّل موضعه واضعًا القذيفة الثّانية في فوّهة قاذف الـ(B7). شددتُ رُكَبي وصرخت في نفسي مجدّدًا: تحرّك يا رحيم، لقد تخلّفتَ عن القافلة، لا تدع الفاصلة تكبر أكثر فتخزى! ناديت: «يا حسين!». وصلتُ إليه مجدّدًا ووضعت القذيفة بقربه.

- سأعود يا عمّ!

لم أدرِ كيف حرّكتُ جسمي الرياضيّ الضخم. ركضتُ إلى الخلف كالريح: عليّ أن أساعده. أحسستُ وكأنّ الأرض قد شُحنت بالطاقة وأنها سرَتْ في جسمي عبر باطن قدميّ. كنت أتصبّب عرقًا حتى تبلّل شعر رأسي بالكامل. لم أعِ كيف أخذتُ قاذف (هاون 60) فوضعتُ قذائفها داخل عَربة وعبرتُ مِن خلال فتحة في الساتر الترابي حتى وصلت إلى مرتضى ثانية. وكلّما سنحت الفرصة وضعتُ قذيفة في فوّهة القاذف وأطلقتها نحو العدو. عندما التفتُّ إلى نفسي وجدتُ عناصر سريّتي المتعبين كأنّهم قوّاتٌ جديدة ذات معنويّات عالية وقد انحدروا إلى أسفل الساتر وأخذوا يستهدفون العدوّ بما لديهم من ذخائر وأسلحة.

أمّا العدوّ المبغوت فقد أصيب بالحيرة ولاذ بالفرار سريعًا، فيما أخذ عناصرنا يتعقّبون جنوده ودبّاباته! اقترب مرتضى منّي ضاربًا على كتفي.

- يا بطل، دع العربة واحمل الرشاش المتوسط(BKC)!

لم أصدّق ما جرى، لقد وصلت إلى خطّ العدوّ! تركتُ العربة حيث هي، وحملتُ الرشاش المتوسط غنيمةً، فيما أجبرْنا العراقيّين على

التراجـع حتى خور عبد اللّه. كان جسدي ما يـزال يرتعش من الإثارة والحماس. حينها أحسستُ بتحوّل عذب جميل وخفيّ قد وُلد في داخلي.

116

العقدة المستعصية

12/آذار/1986

عصرًا نادى قائدُ اللواء، الموجود في المقرّ التكتيكيّ لمدينة «الفاو»، قائدَ الكتائب ووحدات العمليّات.

– .. الخطّ الدفاعي، مصنع الملح.. العراقيّون يقاومون بشدّة في هاتين النقطتين ويَحُولون دون تثبيت الخط.. ينبغي كسر مقاومة العدوّ في هاتين النقطتين الليلة.

رفعتُ إصبعي.

– يا حاج أسدي، ما هو عديد العراقيّين في هاتين النقطتين؟

– حوالي أربع سرايا من المُشاة!

أردف القائد: «سيّد جلال اعتمادي، هل لديك خطّة ما؟».

في تلك الأوضاع والفوضى لم يخطر في ذهني أدنى فكرة. تكلّم مرتضى عوضًا عنّي: «حاج أسدي، هل شُنّ أيّ هجوم على العدوّ في هاتين النقطتين حتى الآن؟».

أشار القائد بالمسطرة إلى النقطتين الموسومتين على الخارطة قائلًا: «لم يتمّ ذلك في هذين المحورين، لكنّ العدوّ صدّ هجمتنا مرتين في هذه النقاط».

سرح الجميع بفكرهم، أمّا أنا فانتظرت حلّ مرتضى الذي لم يخيّب ظنّي.

– يا حاج، لقد كان سلاح التوكّل ضعيفًا في هاتين النقطتين! علينا أن نقوّيه!

قلت: «سلاح التوكّل؟!».

ربّت على كتفي متبسّمًا.

- سيّد جلال، التوكّل هو أكثر أسلحة المؤمن تطوّرًا!

بعد ذلك قال بحزم: «أعتقد أنّه يمكن السيطرة على تلكما النقطتين بواسطة سريتين».

قال القائد لي: «يا اعتمادي، انظر من هي كتيبة الاحتياط الآن؟».

قال مرتضى: «يا حاج، إنّ كتيبة الاحتياط ليس لديها الخبرة الكافية لإنجاز هذا العمل، دع هذا الأمر على كتيبة الفجر!».

- لكنّ عناصرك متعبون!

- ولكنّهم في المقابل مدرّبون وذوو تجربة!

عند المساء نادى كلًا من حيدر يوسف بور ومسلم رستم زاده. طلب بعض المعلومات عن السريتين، ثمّ قال: «علينا أن نسيطر على النقطتين الليلة!».

قال يوسف بور: «أين يا عم!».

فتح مرتضى خارطة منطقة العمليّات وأخذ يشرح للرجلين، وقسّم العمل عليهما.

- خذوا العتاد والذخائر.. نظّموا جهاز اللاسلكي على موجتي.. تحدّثوا بالرموز.. المسافة قريبة والعدو يتنصّت.. كما إنّ العراقيّين لديهم رادار «رازيت» في المحور، عليكم أن تتوخّوا الحذر..

ربّت على كتفي وقال لمسلم رستم زاده: «اعتمادي هو نائبي، ورأيه رأيي! يا عليّ!».

عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل انطلقت برفقة سرية مسلم

رستم زاده الذي تسلّم المحور الأصعب. في غضون نصف ساعة وصلنا أسفل المحور العراقـيّ. وبالتنسيق عبر لاسلكيّ مرتضى بدأنا الهجوم مـن الجناحين. على الرغم مـن أنّ هجومنا كان مباغتًـا إلّا أنّ العدوّ أبدى مقاومة شديدة بسبب استقراره في دشم مناسبة، بالإضافة إلى الإسنـاد الناري الثقيل، فاضطررنا إلى الانسحـاب بعد أن سقط منّا عدد من الجرحى والشهـداء. أمّا حيدر بور فتمكّن من السيطرة على المحور والاستقرار فيه خلال ساعة واحدة.

في تلـك الليلة الشتويّة البـاردة كان العدوّ متيقّظًـا، فأمطر المحور الشرقي لبحيرة الملح بقنابـل ضوئيّة، وأخذ يطلق نيرانه على عناصر السرية من ثلاث جهات لدى أدنى تحرّك.

اتّصل مرتضى بنا.

– مسلم.. مسلم.. مرتضى.. الموقعيّة (الأوضاع)! أرسل..

فأجاب مسلم بالرمـوز: «مرتضى.. مرتضـى.. مسلم.. لقد تعقّد الأمر، ولا نستطيع الحركة..».

– مسلـم.. مـاذا كنتم تفعلون خـلال هذه الساعـات.. لقد استقرّ حيدر على هدفه منذ وقت طويل!

– يـا عـم، إنّ العراقيين يطلقـون علينا النيران مـن ثلاث جهات، وأرى أنّه من المستحيل أن نتمكّن من التقدّم!

قال مرتضى: «أعطِ السمّاعة لاعتمادي».

تناولت اللاسلكيّ.

– في خدمتك يا عم.

– ما الخطب يا جلال؟

– إنّ مسلمًا محقّ!

- قل لمسلم بأن لا يدعهم يعيقون حركتكم.. سأصل إليكم سريعًا!

صُعق مسلم لسماعه جملة مرتضى الأخيرة.

- تسوّد وجهي! قال إنّه سيأتي بنفسه. عليّ أن أنهي الأمر قبل وصوله!

باءت محاولة مسلم للتقدّم بالفشل مجدّدًا. نادى حاملُ اللاسلكي: «إنّه العم مرتضى!».

لقد أضفى حضوره قوّة عجيبة في مسلم وعناصر كتيبته. كأننا جميعًا اعتدنا على أنّه متى ما واجهتنا عقدة مستعصية في الحرب كان مرتضى لها. وصل مرتضى بزيّه الكاكي وكوفيّته الملفوفة حول عنقه. ناداني ومسلمًا وأخذنا إلى خلف الساتر الترابي قائلًا: «موقعيّة العراقيّين؟».

مدّ مسلم يده وقال: «هناك.. خلف الساتر.. عدّتهم وعديدهم ومواقعهم...».

تناول مرتضى الخارطة الملفوفة من الفتى حامل اللاسلكي، ومدّها على الأرض، ووضع على زواياها أمشاط الأسلحة. وجّه عليها نور المصباح وأخذ يدرس الوضعيّة الجديدة. استخبر عن عديد قوّات العدو وتجهيزاتهم الدفاعيّة بدقّة. ثم أجرى اتّصالًا لاسلكيًّا مع جهة لا أعلمها وطلب استشارتهم. وفي النهاية أجرى حسابات شاملة كما الحاسوب المتنقّل ثم نهض.

- حضِّر عناصرك!

مكث هنيهة.

- لا، سأوجّههم بنفسي. علينا أن نسيطر على مواقع العدوّ قبل شروق الشمس، وإلّا فسيضطرّ حيدر إلى الانسحاب من موقعه أيضًا!

تحـت نيران مدفعيّة العدوّ الثقيلـة وقذائفه أخذ يدور على عناصر السريـة مُثبتًـا حضـوره بينهم. ثم قـال: «سنبدأ الهجـوم مع التكبير الأوّل، ومع التكبير الثالث سنجمع الأسرى!».

قسّـم عناصر السرية إلى عـدّة مجموعات بغية الهجوم على العدوّ مـن ثلاث جهـات. قاد بنفسـه رأس الهجمـة. سلّمني قيـادة الجناح الأيسـر وسلّـم مسلمًا الجنـاح الأيمن. أخـذ القـوّات الأساسيّة وبدأ الهجـوم بنفسه. ولا أبالغ إن قلت إنّني لـو وضعت مسطرة لوجدت أنّ مرتضى وقاذف الـ(B7) الذي يحمله كانا يتقدّمان الجميع!

استطاع عناصرنا، بمساندة مرتضى، التقدّم والسيطرة على مواقع العـدو من خلال مواجهة سريعة وبأقلّ عدد مـن الضحايا. كأنّ جنود العدوّ أنفسهم عرفوا أنّ مرتضى قد حضر، وأن لا فائدة من المقاومة.

117

سكر حافظ

13/آذار/1986

استعدادًا للمرحلة الثانية من عمليات «والفجر 8» توجّهتُ بصحبة عدد من عناصر سريّتي، في سيّارة من نوع «إيفا»، باتّجاه تقاطع «الموت». كنت لا أزال أجادل نفسي إثر ما قام به مرتضى البارحة: إنّ الحضور في ركب أشلو يتطلّب لياقة! الآن فهمتُ ما قاساه العراقيّون من هذا الرجل في تلّة «بردزرد». إنّ تصرّفاته لَتنفذ في أعماق نفوس الشباب وتسلب ألبابهم بحيث ينسون أنفسهم.. أنا سعيد بكوني قائد سريته! إلهي لا تسلبني نعمة الحضور في ركابه حتى الموت! استفقتُ من ذهولي جرّاء حدّة النيران العراقيّة.

– ما العمل يا سيّد رحيم؟

سأل سائق السيّارة الذي أصيب بالحيرة بسبب اشتداد القصف. خفّف سرعته قرب تقاطع الموت. بدا متردّدًا. ملأ الدخان والغبار الفضاء فيما فلقت الشظايا الصغيرة والكبيرة الهواء.

قلت: «إن توقّفتَ فسنستحيل والسيّارةَ إلى دخانٍ!

على تقاطع الموت اصطدمت سيّارتا إسعاف ببعضهما البعض نتيجة اشتداد النيران فبادرت على الفور جرّافة بإزالتهما عن الطريق. أمّا سائق السيّارة فقد أصيب بصدمة إثر انسداد طريق التقاطع، فتوقّفت السيّارة عن الحركة، وباتت هدفًا لرصاص العدو!

أصيب شخصان أو ثلاثة ببعض الشظايا كما انكسر الزجاج الخلفي للسيّارة. كان تقاطع الموت تحت مرمى الرصاص العراقيّ المباشر من ثلاث جهات. بِتنا على شفا حفرة من الهلاك وإذ بصوت مرتضى يطرق سمعي: «يا دهقان البطل، لماذا لا تتحرّك؟».

كأنّه ملاك نجاة نزل عليّ. قلت: «لقد انطفأ محرّك السيّارة!».

- اجلس بنفسك خلف عجلة المقود!

سحبتُ السائق نحوي. كانت رجلاه قد جمدتا من الخوف والتصقتا بالدوّاسة. أخرجت رجليه بصعوبة وجلستُ خلف المقود. حاولت أن أشغّل السيّارة لكن عبثًا حاولت. أحسستُ أنّ شيئًا يدفع السيّارة إلى الأمام. نظرتُ فإذا بمرتضى قد جلس خلف مقود الجرّافة وجعل يدفع بها. في النهاية دار محرّك السيّارة جرّاء الحركة وعبرنا تقاطع الموت متّجهين نحو مصنع الملح في مدينة الفاو! سألني السائق بعد أن سيطر على خوفه: «من هو ذاك الرجل؟».

- إنّه حافظ!.

فقال السائق الذي كان مأمورًا من قسم آليات اللواء: «هل أنت تحت تأثير عصف انفجار ما؟! أو لعلّك سكران!».

- في أقصى درجات السّكر! إنّ قصّتي مع ذلك الرجل تشبه قصّة ذلك الشاعر الذي أنشد أبياتًا من الشعر ثمّ قال لنفسه: إنّ أشعاري لا تقلّ عن أشعار حافظ! فرأى ذات ليلة في المنام أنّه دخل مسجدًا قد امتلأت جوانبه بجِرار من شراب طهور. ناداه شخص وناوله كأسًا من ذلك الشراب ليشربه. وما إن أدنى الشاعر الكأس من فمه واخترقت رائحة الشراب أنفه حتى غشي عليه! عندما أفاق قال له الرجل الغريب: «أيّها الشاعر، لقد احتسى حافظ كلّ هذه الجرار دفعة واحدة من دون أن يرفّ له جفن، وأنت شممت رائحته فغُشي عليك!».

عندما رأيت دهشة السائق وحيرته قلت: «هذه القصّة تشبه قصّتي مع ذاك الرجل الذي رأيتَه!».

قلب السائق شفتيه مجدّدًا وأمسك شاربه الغليظ الأسود.

- ألم أقل لك إنّك تعاني من تأثير عصف الانفجار!

118

عاد المطر

16/آذار/1986

في اليـوم السادس للمعـارك في الفاو، وعقـب السيطرة على شرق بحيرة الملح، التحقت كتيبة الفجر بكتيبة من لواء سيّد الشهداء التابع لطهران، وتمّ تثبيت خطّ الدفاع.

غـير أنّه ومع شـروع الهجمات المرتـدّة الثقيلة من قِبَـل العراقيّين تغـيّرت ظروف اللّعب على طاولـة الشطرنج! فقد بـدأ العدوّ هجماته المرتـدّة مستعينًـا بدبّابـات حديثة مدرّعـة من نـوع (T- 72) روسيّة الصّنـع! كانت كتيبتنا أولى الكتائـب التي وقفت بعد الهجوم متصدّية للهجمـة العراقيّـة المرتدّة. لكـنّ المسألة التي أقلقـت مرتضى صارت مـدار همس عناصر كتيبة الفجـر: إنّ دبّابة (T- 72) مضادّة لقذيفة الـ(B7).. كيف السبيل إلى تدميرها؟!

في البدايـة وقعـت الاشتباكات بين حمَلة الـ(B7) من دفعة مدينة «زرقان» ودبّابـات (T- 72) الروسيّة! عندما أصابت قذائف الـ(B7) الوسائـد اللولبيّة المحيطة بالدبّابات أيقنـتُ أنّ تلك الدبّابات مجهّزة بالـدروع حقًّـا. كان مسلـم رستم زاده من بـين رماة الـ(B7) أيضًا. أخـذت الدبابـات التي اتّخذت شـكل الرقم سبعة تقـترب أكثر فأكثر تتقدّمها دبابة (T- 72)، لكنّ مسلمًا عاجلها بقذيفة عطّلت سلاسلها فصارت هدفًا ثابتًا له، ما لبثت قمرة قيادتها أن تطايرت إثر القذيفة التالية! قطـع مرتضى اتّصاله اللاسلكي وصـرخ قائلًا: «لقد أصابت نيران مسلم قلب العراقيّين!».

فعرض مسلم عضلات ساعده.

- هكذا نحن.

وقبل أن ينهي كلامه مرّت قذيفة دبابة فوق رأسه فالقةً الهواء. أحنى رأسه.

- كنت أقصد: اللّٰه!

أدّى تدمير دبابة (T-72) إلى تبدّل الأوضاع برمّتها. قطع مرتضى الاتّصال اللاسلكي وجاء إلينا. قلت: «ما العمل يا عمّ؟».

فقال ببشاشة وتبسّم: «حاج كاظم رضائي، لا مجال لهذا السؤال هنا، علينا أن نذهب لاستقبال الدبابات!».

تناول من الأرض قاذف (B7) وحمله على كتفه. كنت أعلم طريقة عمله. حذا الآخرون حذوه وتبعناه إلى أعلى الساتر الترابي، ثم انحدرنا مستهدفين الدبابات، وتمكنّا في اللحظات الأولى من تدمير دبابتين أو ثلاث فيما لاذ ما تبقى منها بالفرار.

عند المساء جلستُ، برفقة مرتضى وأحد مجاهدي فيلق «بدر» المعارض لنظام البعث العراقي، داخل دشمة التكتيك، وأخذنا نشاهد التلفاز الذي غنمناه، والذي كان يعمل بواسطة المولّد الكهربائي. كانت القناة العراقيّة تبثّ أخبارًا وتقارير مصوّرة عن الهجمة المرتدّة التي حصلت صباحًا قرب بحيرة الملح. أتت مذيعة التقرير على ذكر اسم مرتضى جاويدي مرّات عدّة. جعل المجاهد العراقي يترجم بيان النظام العراقيّ لمرتضى ضاحكًا: في هذا الهجوم البطولي أصيب قائد لواء المهدي، مرتضى جاويدي، ما أدّى إلى قتله أو جرحه..

ضحك مرتضى.

- هؤلاء يظنّون أنّ «صدّام» وحده لديه رجل بديل، ولا يعلمون أنّ لمرتضى ملايين البدائل!

في اليوم التالي، أرسلني مرتضى إلى مركز التكتيك لكي أُطلِع قائد المركز، حسين أعلائي، على الأوضاع الحساسة لجبهة مصنع الملح. عند الظهر دخلتُ المركز فشعرتُ بقلق كلٍّ من قائد لواء المهدي وحسين أعلائي إذ كانا يتناجيان. كأنّ شيئًا ما قد حدث خلال تلك الساعات القليلة التي غبت فيها عن الجبهة.

- إنّ هجمة العراقيّين المضادّة في جادّة «أم القصر» ومصنع الملح مثيرة للقلق!

- إن لم نجد حلًّا فقد تصبح الجزيرة بكاملها عُرضة للخطر!

أنصتُّ للمكالمة اللاسلكيّة بين مرتضى وحسين أعلائي.

- مرتضى، ما هي الأوضاع؟

- ليست على ما يرام يا حاج حسين، لقد أصبحوا على بعد مئتي متر جنوب مصنع الملح!

- مرتضى، مئتا متر ليست بقليلة، عليكم أن تَحولوا دون تقدّم العدوّ!

- كلّما دمّرنا دبابة جاءت الأخرى ورمتها جانبًا ثمّ فتحت طريقها!

- أشلو، اقصفوهم قدر ما استطعتم ولا ترحموهم!

- يا حاج، لا أبالغ إن قلت إنّهم مستعدّون لأن يكونوا عرضة للقصف ولا يتراجعوا!

- حاولوا المقاومة حتى المساء على الأقلّ، عند حلول الليل سيوقفون هجماتهم!

- لم يسبق لهم أنّ شنّوا هجومًا في الليل حتى الآن، لكنّ شباب التنصّت يقولون إنّ من المقرّر أنّ يهجموا الليلة أيضًا!

- أشلو، ما أخبار جناحيك اليمين واليسار؟

- على الجهة اليمنى منعت فرقة «الرسول»ﷺ العدوَّ من التقدّم خطوة واحدة، وهم يقاومون جيّدًا، ومقاومة فرقة علي بن أبي طالب عليه السلام على الجهة اليسرى لا بأس بها أيضًا.

- مرتضى، إنّ أملنا معلّق عليك، عليك أن تتولّى الأمر بطريقة ما!

- الاتّكال على الله، سنقوم بما نستطيع القيام به، لكنّ مركز التكتيك الخاص بكم قريب من الخطّ، تراجعوا للاحتياط إلى الخطّ الخلفيّ!

- مرتضى، هل تعني أنّ الأوضاع..

- أجل يا حاج حسين..يبدو أنّ هؤلاء العراقيّين مختلفون!

- كيف هي أوضاع قوّاتك؟

- لدينا عدد كبير من الشهداء والجرحى! جميعهم سقطوا بقذائف الدبّابات. كلّما دمّرنا دبابة ظهرت مكانها أخرى. ليس لدينا فرصة لنقل الشهداء والجرحى الآن!

- أشلو، ازرعوا ألغامًا على جادّة «أمّ القصر»، وإن لزم الأمر فجِّروا الجادّة بلغم بحري لكي تمنعوا الدبابات من العبور!

- مسير الدبابات ليس مرهونًا بالجادة، إنّهم يتقدّمون من كلّ مكان!

- مرتضى، إن واصلوا التقدّم على طريق أم القصر سيقع جميع قوّاتنا تحت الحصار! فإن أحسنتَ أحسنت لنفسك!

- الخير فيما اختاره الله يا حاج حسين!

كان مرتضى يتكلّم عبر اللاسلكي بهدوء وثقة بالنفس كبيرين. وحين انقطع الاتصال قال أسدي لأعلائي: «إنّ بقاءك هنا خطِر! من

الأفضل أن تغادر وتُخْلي مركز التكتيك!».

خاطب حسين أعلائي أسدي قائلًا: «ما قولك في قائدك؟».

– حـاج حسين، إذا كان من المقرّر أن يصـدّ أحدٌ هجوم العراقيّين فهـو مرتضـى! إنني على ثقـة بأنّه سيحـارب حتى آخر نفسٍ إن لزم الأمر. إن أراد العراقيّون مواصلة الهجمات المرتدّة ليلًا فعلينا أن نفكّر في طريقة للانسحاب.

اضطررتُ بأمـر من أسدي لقضاء الليل قـرب الجهاز اللاسلكي، وكمـا توقّعنا فإنّ العـدوّ لم يوقف هجماته ليلًا ، فتمكّن من التقدّم مئة مـتر على الجادّة، وأحدث خرقًا في محـور كتيبة الفجر. كانت النهاية وشيكـة وأخذتُ أتمتم بالدعاء: أمّن يجيـب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء.. أخذت القوّات تستعدّ لإخلاء المركز وإذ بمرتضى يتّصل.

– جعفر جعفر، مرتضى!

– أشلو أرسل!

– جعفر، هل تمطر السماء هناك؟!

نظر أعلائـي وأسدي أحدهما إلى الآخر. قلبا شفتيهما قائلين: «لا بدّ أنّ مرتضى قد أصيب بعصف انفجار وهو يهذي!».

أنصـتُّ إلى خـارج الدشمـة فسمعتُ صـوت إيقاع قطـرات المطر الكبيرة التي كانت تسقط على ألواح دشمة المركز!

– ماذا حدث يا مرتضى؟!

– إنّه المدد الغيبي، عاد المطر بأنغامه..

ثـمّ طفق ينشد أنشودة «عاد المطـر»، التي كنت قد قرأتها في كتاب اللغة الفارسيّة للمرحلة الابتدائيّة.

- عاد المطر بأنغامه بجواهره الوفيرة يسقط على سطح البيت..

وما إن أنهى قراءة الأنشودة حتى قال جملته الأخيرة ثم قطع الاتّصال.

- الحمقى، لقد غرقوا في الوحل!

ارتسمت على شفتي أسدي وأعلائي ابتسامة.

علمنا حينئذ أنّ أمطار الجنوب الغزيرة اخترقت بسرعة التراب الناعم والرقيق في منطقة مصنع الملح فحال ذلك دون تحرّك دبّابات العدوّ الثقيلة، ما عدا الدبابات التي كانت تتحرّك على الجادّة، والتي دمّر عناصر كتيبة الفجر عددًا منها، ما أدّى إلى انسداد الطريق وفشل الهجمة.

119

ليلى والمجنون

11/ك[1]/1986

- .. حلمتُ أنّ زينب قد ماتت!

استيقظتُ من نومي عند الصباح وتصلّبتُ في فراشي. أحسستُ بثقل في صدري وأخذ العرق يتصبّب من جبهتي. فقد رأيت في المنام مرتضى وهو يقول لي: «حلمتُ أنّ زينب قد ماتت!».

دبّ الذعر في قلبي: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.. أستغفر الله.

التفتّ صوب زينب ونظرتُ إلى وجهها وكانت لا تزال نائمة. وضعتُ يدي على جبهتها قلقةً. كانت حرارتها مرتفعة كالجمر!

امتلأ قلبي رعبًا واجتاحت الأوهام فكري: هل استشهد مرتضى؟! نهضتُ وناديتُ خالتي: «إنّ زينب مصابة بالحمّى.. أنا خائفة، عليّ أن آخذها إلى الطبيب!».

قالت خالتي التي حطّ على وجهها غبار الشيخوخة: «أفي هذا الطقس العاصف والممطر؟».

قلت: «يا خالتي، أنا خائفة، لقد رأيت حلمًا مزعجًا!».

- دعيني أرافقك يا ابنتي!

- لا يا خالة، سأذهب بنفسي.

نذرتُ مبلغ مئتي تومان للوليّ الصالح «شمس الدين». وضعت عباءتي على رأسي وغطّيت زينب بها وطفقت خارجة من المنزل من دون أن أتناول الفطور. كانت الأمطار تهطل بغزارة كأنّ السماء قد ثُقبت. في ذلك الجوّ البارد الممطر وصلت إلى الطريق المعبّدة. على جانبي الطريق كانت الريح تلعب بأغصان الأشجار المتدليّة من ثقل

المطر الغزير.

ركبت الحافلة الصغيرة، بذهن مشوّش، وتوجّهتُ إلى «فسا». أخذت زينب إلى أقرب عيادة. بعد أن اشتريتُ دواءً لزينب من الصيدليّة وقع في قلبي أن أقصد بيت خالي لعلّي أوفّق للاتّصال بالأهواز والاستفسار عن مرتضى. لم يتوقّف المطر عن الهطول وامتلأت جميع الشوارع والأزقّة بالمياه. وصلتُ إلى بيت خالي بشقّ الأنفس.

لم أكد أنتهي من تنشيف نفسي حتى رنّ جرس الهاتف. رفع الخال السمّاعة. ثمّ ضحك وقال: «قلب المرء دليله! تعالَي، إنّ المجنون على الخطّ!».

تناولتُ السمّاعة. كان صوت مرتضى كماء بارد أطفأ النار المستعرة في أعماق نفسي. سكن روعي.

- ما حال زينب؟

أجهشتُ بالبكاء. مسحتُ دموعي بطرف إصبعي.

- بخير! أخذتها إلى الطبيب.. من أين عرفتَ أننا هنا؟!

- وهل يُعقل أن يشتمّ المجنون رائحة ليلى فلا يجدها؟ بالصدفة! قلت فلأتّصل بالخال وأنسّق معه لكي تأتي إلى بيتهم بعد أيّام، حينها سنبقى على اتّصال على الأقلّ.

- ألن تأتي إلى فسا؟

- لماذا؟!

- للحصول على قرض الإسكان لبناء البيت، هل نسيت؟

- ثمّة عرس الآن، تعلمين ماذا أقصد؟

عاد الحزن ليجثم على صدري ثانية. ففهم مرتضى وحاول تغيير الموضوع: «ما أخبار طفلنا القادم؟!».

- بالمناسبة، ماذا تريد أن تسمّيه؟

- أم كلثوم، أو زهراء!

- وهل هي أنثى؟

- إن شاء اللّه!

- الاتّكال على اللّه، متى ستأتي؟

- انتبهي لنفسك ولأمانتَيّ!

وضعتُ السمّاعة وأحنيتُ رأسي على مرفقي: مجدّدًا.. هجوم آخر..

120

المختضبون بالحنّاء

22/ك[1]/1986

عنـد الظهر أشار لي مرتضى فجعلـتُ أجيل نظري في الحاضرين مسجّـلاً حضور وغياب قـادة السرايـا ومعاونيهم. نـادى قائد اللواء أخـاه، «صالح أسدي»، بحضور مبعـوث المقرّ وقال له: «أوضح لنا آخر استطلاعاتك حول أوضاع المحور».

قـام صالح وتناول خارطة محاور جزيرة «أمّ الرصاص» الواقعة في نهر «أروند»، وعلّقها على جدار دشمة المقرّ.

– أقـوم برصـد تحرّكات العراقيّـين منذ أيّام. يعملـون على زيادة العوائق ويُحكمون مواقعهم ليـل نهار! لقد زادوا من حجم إمكانيّاتهم وتجهيزاتهم على ساحل «أروند» أكثر من الحدّ اللازم!

فسأله مبعوثُ المقرّ ذو البـزّة الخضراء، وكان عنصرًا في الحرس الثوري: «وهل ترى في ذلك مشكلة معيّنة؟».

– إنني قلق بعض الشيء!

– ممَّ؟

– نَحتـاج إلى موطـئ قدم! نظرًا للاستطلاعـات التي قمتُ بها في الأيّام القليلة الماضية فإنّه ليس لدينا عمق للقتال، لذا، على عناصرنا أن يواجهوا العدوّ من زوارقهم!

أخـذ مبعوث استخبـارات ومعلومات المقرّ يفكّر، ثـم وضع إصبعه على الخارطة قائلًا: «عليكم تكثيف القتال، بعد عبوركم الساحل، على جـادّة «البهار» العراقيّة. في ذلك المكان ينبغي لعناصر المشاة مواجهة دبابات العدوّ ومدرّعاته!».

ثم التفت إلى جعفر أسدي؛ قائد اللواء، وقال: «ما رأيك يا حاج؟».

أيّد الحاج أسدي كلام أخيه صالح وقال: «بعد البحث والتقصّي الذي تمّ فإنّ مشكلتنا الأصليّة هي عبور نهر «أروند!». لقد وضع العدوّ في جزيرة «أم الرصاص» مضادات (23 ملم) لكي يتسنّى له القصف على امتداد «أروند»، كما رفع منصّات الدبابات بحيث يتيسّر لها أن تمطر سطح «أروند» بقذائفها! وبغضّ النظر عن ذلك فقد أعدّوا خندقًا على هيئة حرف «ن»* واجتثّوا شجر النخيل الموجود على الساحل حتى مسافة ثلاثمئة متر تسهيلًا لحركة الدبابات. زد على ذلك التحصينات الطويلة والدّشم المنيعة!».

فقال مبعوث استخبارات المقرّ: «ينبغي أن تُؤمَّن «أم الرصاص» بواسطة وحدة عسكريّة أخرى تقوم بتدمير المضادات والرشّاشات الثقيلة! ثمّ إنّكم تمتلكون تجربة كسر خطّ الفاو!».

أجاب صالح: «ظروف جزيرة الفاو مختلفة. فقد كنّا في مواجهة خطّ دفاعي واحد هناك، وكان ذلك الخطّ بعد ساحل العدوّ! فضلًا عن ذلك، فقد كان لنا في الساحل موطئ قدم لننزل من القوارب. أمّا هنا فقد أنشأوا عدة خطوط دفاعيّة، وأوّلها جعلوه على شفير الماء!».

– ليس من المقرّر أن نخبر العراقيّين بقدومنا! إنّ ورقتنا الرابحة تكمن في عنصر المباغتة!

لكنّ صالحًا لم يقتنع.

– لم آخذ جوابي بعد!

– أيّ جواب؟

* استخدم هذا النوع من الخنادق في الحرب ويقال لها (نوني صفر) الخنادق أو المواقع النونية.

– أنّى لنا أن نكسر الخطّ؟

– سبق أن قلتُ: بالمباغتة! ما هي المشكلة الأصليّة؟

– إنّ نقطة ضعفنا تكمن في عدم توافر عمق لقوّات الكتيبة وبذلك سيضطرّ عناصرنا إلى القتال من داخل الزوارق كما سبق وذكرت!

– على الغوّاصين أن يؤمّنوا موطئ قدم!

في تلك المدّة كان مرتضى ساكتًا. رُفعت الجلسة ورجعنا إلى مقرّ كتيبة الفجر. وبعد انضمام قادة الفصائل تناولتُ دفتر أسماء العناصر وبادرتُ إلى تسجيل الحضور والغياب مجدّدًا.

ربّت «روح الله عبد اللهي» على كتفي.

– يا محمد جواد خوشقدم، لا تُكثر من عدّ العناصر وإلّا فسينقصون!

وأردف «كريم آزاديان» قائلًا: «خلافًا لشُهرتك «خوشقدم»[1] فإنّك لم تكن كذلك بالنسبة لنا! ليس لديك عمل سوى تقصير مدّة مأذونيّات العناصر!».

تصنّعتُ هيئة الغضبان.

– لولا أنّ ساعدي ليس على ما يرام لكنتُ!

رمقني محمد رضا بطرفه فابتلعت بقية كلامي.

أمّا مرتضى، الذي كان قلقًا حيال هذا الهجوم المرتقب خلافًا لعادته، فقد أخذ يفصّل لقادة السرايا والفصائل الأوضاعَ على خارطة العمليّات.

– لقد تمّ اختيار لواء المهدي على رأس الهجمة، سيكون هناك

1- أي: ميمون الطلعة.

محـوران في جزيـرة «أمّ الرصاصـ»..؛ محـور اليمين لكتيبـة الفجر ومحور اليسار لكتيبة كميل.

ثـمّ سكت لبرهـة بعدها نـادى «مسلم رسـتم زاده» قائـد السرية الأولى: «ما الخطب يا مسلم، بمَ تفكّر؟».

تبسّم مسلمٌ.

– يا عم، خطر ببالي الآن أن أذهب لزيارة كربلاء!

فقال كريم آزاديان: «إن لم أكن مخطئًا فإنّ وجه مسلم يشعّ نورًا!».

التفـت مسلـم إلى كـريم قائلًا: «أنا لـن أستشهد قبـل أن آكل من ضيافة عزائك!».

ثم نظر إلى مرتضى وقال: «تحت أمرك يا عمّ مرتضى».

– إنّ الدفعة الأولى في هذا الهجوم بعهدة سريّتك.

وضـع مسلم يده علـى عينه فتابع مرتضى قائـلًا: «على عناصرك العبـور من عرض خمسمئـة متر في نهر أروند وتأمـين موطئ قدم في ساحـل العـدو حتى يصل البقيّة! عليكم الحذر مـن رشاش (23 ملم) الثقيل المستقرّ في جزيرة أمّ الرصاص. مسلم، بلا مجاملات، إنّ آمال مقـرّ القيـادة معلّقة على لـواء المهدي، وآمال اللـواء معلقة على كتيبة الفجر، وآمالي معلّقة على سريّتك!».

قـال مسلم: «سأنطلق مع مجموعـة الهجوم الأولى وسيكون «جعفر شكربور» مع المجموعة الثانية».

فقال مرتضى: «كن مع المجموعة الأولى فيطمئنّ قلبي بأنّك ستأخذ أوّل موطئ قدم، وستكون أوّل من يجمع الغنائم من سجائر بغداد!».

121

أربعة جنود

24/ك1/1986

مساءً، تمّ إبلاغي بالأوامر.

صالح أسدي، بصفتك أحد عناصر الاستطلاع، ستكون مشرفًا على المحور الشمالي للهجوم ضمن كتيبة الفجر..

بعد أداء الصلاة وتناول طعام العشاء أقيمت في كتيبة الفجر مراسم حفلة الاختضاب بالحنّاء. أتى «محمودي» و«كاظم زاده» بأوعية الحنّاء، أمّا «حسن مايلر» فنادى أفراد الكتيبة: «هلمّوا إلى حفلة الاختضاب بالحنّاء!».

جعل العناصر يَحضُرون الواحد تلو الآخر فيما أخذ أولئك الثلاثة يخضّبون أيديهم وأحيانًا أقدامهم بالحنّاء.

عند منتصف الليل، وفي ذلك الجو الرطب والبرد القارس، انطلق عناصر كتيبتَي الفجر وكميل بالإضافة إلى الغوّاصين نحو الخطّ الدفاعي لنهر أروند. بدا الخطّ هادئًا على عكس حركة المياه الصاخبة. تمّ انتخاب زمان العمليّة في ليلة يستتر فيها القمر حتى السّحر! دخلت طلائع الغوّاصين مياه النّهر الباردة وبحوزتهم مصابيح غمّازة مؤلّفة من إصبعين من البطّاريّات، مصباح قليل الاستهلاك، وعين إلكترونيّة. كانت المرّة الأولى التي يُستخدم فيها مصابيح غمّازة. فنظرًا لضعف الأقراص المضيئة ليلًا، إذ سرعان ما كانت تتجلّل بالغبار والوحول خلال الهجمة، فقد بادرَ مصنع الاتصالات الخارجيّة في شيراز إلى ابتكار هذا النوع من المصابيح، وقد تميّزت بأنّها كانت تغمز منيرةً باتّجاه إيران مستمدّة الطاقة من ضوء القمر، أمّا في النهار فكانت تنطفئ!

كانــت أسنــان الغوّاصين تصطــكّ بعضها ببعض مــن شدّة البرد. قال «محســن ظريفكار»؛ مسؤول فريق الغوّاصــين: «علينا وضع أربعة مصابيح غمّازة على أطراف كلّ معبر في ساحل العدوّ باتّجاه مواقعنا».

سبــح الغوّاصون في الظــلام الحالك نحو شواطئ العــدوّ. أحيانًا، في وسط عرضــ النهر، كان يُرى بريق انفجــار ويُسمَع ضجيجه الذي كان يطغى على صوت الأمــواج الخفيفة. كأنّ العراقيّين أحسّوا ببعض التحرّكات!

قلــت لنفســي عدّة مــرّات: فليرحمنــا الله يا صالح، ثمّــة خللٌ ما! أخذتُ ألهَجُ بالدعاء.

عند الساعة الواحدة بعد منتصــف الليل اندلعت الاشتباكات على ساحــل العدوّ ولم تظهر بوادر إخمادها! أشارت عقارب ساعتي الليليّة إلى الثانية. اقتربتُ من مرتضى.

- إنّ قلبي يغلي، المواجهات على الساحل تنبئ بأنّ ثمّة خللًا ما!

نظر إليّ وقال: «لديّ الشّعور ذاته! من المفترض أن يكون الغوّاصون قد أحكموا السيطرة على رأس الجسر حتى الآن!».

مــا زاد من قلقي هــو طريقة ردّ فعل العدوّ الذي بــدأ دفعة واحدة. استهدفــت وحدة الإسنــاد الناريّ في قوّاتنا الخطــوط الخلفيّة لجبهة العدوّ بنيرانها. بعد مرور نصف ساعة أُعلِن عن رمز العمليّة.

- محمد رسول الله ﷺ.. تقدّموا..

أُبلِغنا عبر الجهاز اللاسلكي للواء: «فلتنطلق الدفعة الأولى!».

نــادى مرتضى عبر اللاسلكــي: «محمد رســول الله ﷺ.. انطلق يا مسلم!

انطلقت الزوارق الحربيّة السريعة الموجودة على حافّة النهر، تحت

وطـأة نيران العراقيّـين، باتّجاه ساحل العدو، على مـتن كلّ زورق منها عشـرة إلى خمسة عشر جنديًّا! لفت نظري نحو السماء السوداء فوقنا صوتُ تحليق الطـيران. فجأة أمطرت السمـاءُ بقنابلَ مضيئة أضاءت سماء النهر، منها المنفرد المِظَليّ ومنها العنقودي. ترافق ذلك مع دويّ المضادات الجوية (23ملم) المستقرّة في جزيرة أمّ الرصاص، مستهدفة سطح مياه «أروند» التي باتت مضيئة كالنهار.

علـى مـتن الزورق الـذي كان يجـول في النهر أخـذ مرتضى يحثّ العناصـر على المُضيّ قُدُمًا. لم يسبق أن أمطِر النهر بمثل هذه الكمّية مـن النيران، إذ كانـت الدبابات تقصـف قذائفها الثقيلـة على طول النهـر وعرضه. مـلأت الانفجـارات كلّ بقعة من النهـر فكانت المياه ترتفع فوقنا ضعف قامتنا طولًا. بموازاة ذلك طرق سمعي أصوات أنين الشبّان الذين أصيبوا بالرصاص والشظايا. لم يتوقّف سقوط القنابل المضيئة، حيث تعاقبت الطائرات على رميها، ثمّ رمي القنابل المنفجرة على الخطّ وخلف الجبهة.

تواصلت الاشتباكات على ساحل العدوّ، أمّا المصابيح الغمّازة فإمّا أنّ نورهـا لم يكن يُرى بسبـب شدّة نور القنابل المضيئـة، وإمّا أنّها لم تُنصَب مـن الأساس. في بعض الأحيان كانت أصوات الغوّاصين تتردّد عبر أمواج لاسلكيّ مرتضى.

– العراقيّـون بانتظارنا! لا يمكننا دخول الساحل.. إننا نحارب من داخـل الـزوارق. إن رفعنا رؤوسنـا أُصِبنا.. الرشّاشـات الثقيلة تعيق عملنا.. ما هي الأوامر..

مع ازدياد سقوط قذائف العدوّ على النهر ازدادت صعوبة الاتصال اللاسلكي بالغوّاصين!

- لماذا لا يجيبون؟

- قد تكون الأجهزة اللاسلكيّـة أصيبت بالرصاص أو أنّها سقطت في الماء!

لم يعد يعمل، من بين الأجهزة اللاسلكيّة، سوى لاسلكيّ مسلم.

- إننـا نحـارب علـى المـاء. إنّهـم يستهدفوننـا بالنار مـن جميع الاتّجاهات! لقد أصيب معظم العناصر بالرصاص والشظايا..

لم تتـمّ السيطرة علـى الساحل ولا فُتِح المحـور! لم يكن باليد حيلة سوى السيطرة على الساحل. ثمّ صدر الأَمر التالي: فلتنطلق الدفعات التالية لأخذ رأس الجسر!

اشتعـل وسط نهر «أروند» كنار مضطرمة! كانت السماء فوقنا تعجّ بالقنابـل المضيئة. تـوالى سقوط قذائف المدفعيّـة والدبابات في الماء، فيمـا درزت الرشاشـات الثقيلة (23ملـم) سطـح الميـاه برصاصها. كان رصاص تلـك الرشاشات يسقط في الماء محدثًـا ضجيجًا رهيبًا، محطّمًـا الـزوارق ومسقطًا مَن عليهـا في الماء. أمّا الـزوارق فبعضها اشتعـل بالنـيران، فيما انقلب بعضهـا الآخر رأسًا علـى عقب. سالت الدمـاء في كل مـكان. وصـل إلى السـاحـل مـن كلّ عشـرة أشخاص شخصـان. انقطع الاتصال اللاسلكي بالقيادة من بداية الاشتباكات. بقي الجرحى وأجساد الشهداء في مياه أروند من دون أن يستطيع أحد القيـام بشيء. عـدتُ إلى رشدي وأنا على متن الـزورق لأجدَ الشظايا قـد أصابت جميع ما ظهَر خارج الزورق من أجزاء جسدي وثيابي! ما إن اقتربنا من الساحل حتى أضيف على ما سبق قذائف الـ(B7) التي أشعلـت النيران في الزوارق. كأنّ جميع الجنود العراقيّين قد تحصّنوا في الدشـم الموجودة علـى الساحل وأخذوا يطلقون النـار. تحتّم علينا

كسـر الخطّ. علّقنـا الآمال على توقّف نـيران الرشّاشـات الثقيلة في جزيـرة أمّ الرصاص لكنّها لم تخمد لحظة واستمـرّت بحصد أرواح الشباب. كدتُ أختنق حَنَقًا!

– إنّ المياه تتسرّب إلى داخل الزورق.. علينا أن نرجع وإلّا فسنغرق!

استجمعـتُ تركيـزي فلم أجِد سـوى مرتضـى ومدير الدفّـة! أمّا الآخرون فقـد أصيبوا بالرصاص والشظايا. علت طبقـة من البخار سطحَ النهر جرّاء دخان الأسلحة الثقيلة والخفيفة. تناهى إلى سمعي مـن بين ضجيج الانفجارات المصِـمّ أنينُ جريح وقع على جثمان عامل الإشارة الخاص بمرتضى. في تلك الظروف الرهيبة أُسقِط في أيدينا! كنـت أشمّ رائحة الدمـاء فيما سبحت رجلاي في مزيـج المياه والدم! غطّت سحابة غليظة وثقيلة من الدخان والبارود والبخار البارد سماء النهـر. تراءت لي شـرارات نيران الرصاص، ثمّ سمعـتُ أنين مدير الدفّـة فالتفتّ نحـوه. أمّا هو فقد بقي يتقلّب مـن جنب إلى آخر حتى قضى نحبه.

– آخ.. يا عمّ..

أخـذ الـزورق يدور حـول نفسه. أمّـا مرتضى، الـذي كان في تلك الأثناء منحنيًا ينظّم أمواج الجهاز اللاسلكي، صاح بي قائلًا: «صالح، استلم دفّة الزورق!».

لـو لم أتحرّك لاصطدم الزورق بزورق آخـر. قفزت نحو الدفّة. لم تـذَر مضادات الـ (23ملم) بقعةً آمنـةً على النهر، وكان من المحال أن يتمكّن أحد الزوارق من الاقتراب من الساحل العراقيّ تحت وطأة تلك النيران الكثيفة. كان العناصر يطوفون في نهر «أروند» على متن الزوارق بلا هدف، فتنـال منهم، الواحد تلـو الآخر، الرصاصـات والشظايا،

فيسقطون في النهر الذي جرفَ تيّارُه الجريحَ منهم والقتيل. لم يكن ثمة سبيل سوى العودة. انعطفتُ وهديتُ الزورق نحو ساحلنا. انتبه مرتضى فصاح: «صالح، لماذا ترجع؟».

– يا عم، إن لم أرجع فسينتهي أمرنا.. لقد انكشف أمر الهجوم!

نادى: «إذًا، الأفضل لنا أن نموت.. انعطِف وعُدْ إلى الساحل».

أشرتُ إلى الماء في قعر الزورق.

– لقد ثُقِب الزورق!

في تلك اللحظة أُبلغنا عبر اللاسلكيّ بالانسحاب. أوقفتُ الزورق على شاطئنا لكي يتسنّى لمرتضى تفقّد أوضاع البقيّة.

عند الساعة الثالثة وصل خبر من لاسلكيّ مسلم تفاجأ مرتضى إثر سماعه.

– مسلم، مسلم، مرتضى!

أجاب مرتضى بسرعة: «مسلم، أين أنت؟».

– على ساحل العدوّ!

– على الساحل العراقيّ!

– وهل كان من المقرّر أن نذهب إلى سواحل كاليفورنيا؟!

– هل أنت متأكّد؟

– لقد أخذنا رأس الجسر، قل للشباب أن يأتوا!

تبادلتُ ومرتضى النظرات. لم نصدّق أن أحدًا قد تمكّن من الوصول إلى تلك الجهة في ظلّ ذلك الحجم الكبير من النيران وتأهّب العدو. في تلك اللحظة اتّصل إسماعيل مسعودي، أحد عناصر الاستطلاع، على جهاز لاسلكيّ آخر. ناولت مرتضى الجهاز.

- يقـول إسماعيـل إنّـه زرع مصباحًـا غمّازًا على تلـك الجهة من الساحل!

خطـف مرتضـى سمّاعـة اللاسلكي وقـال: «كم عددكـم، وما هي أوضاعكم؟».

- أنا وحامل اللاسلكي (عامل الاشارة)!

- لماذا تئنّ؟

- لقد قُطِعت رجلي اليمنى، لا يهمّ، هلمّوا فحسب!

- في أيّ محور وضعتَ المصباح؟

هـمّ إسماعيـل أن يعطينـا عنوان المحـور والمصبـاح، وإذ بصوت إطلاق نار يُسمعُ من الجهاز ثمّ انقطع الاتّصال.

- لقد انكشف موضعه .. أعتقد أنّه استشهد!

دققـتُ النظر في ساحـل العدوّ لكنني لم أرَ أثـرًا للمصباح الغمّاز. قال مرتضى: «اتّصل بمسلم ثانية».

اتّصل مسلمٌ نفسُه.

- مسلم، مسلم، مرتضى!

- مسلم، أرسل، كيف هي الأوضاع؟

- الأوضاع ممتازة! إنّ الساحل مستهدف بدقّة من قِبل الرشّاشات «الثقيلة للإخوة من المرتزقة العراقيّين».. اسمع!

ثمّ وجّـه سمّاعة اللاسلكيّ نحـو رشّاش «دوشكا» تابـع للعدو. كأنّ الرشّاش الثقيل كان على بُعد قَدم منهم! قال مرتضى: «كم عددكم؟».

- أربعة جنود!

- أربعة!

- مسلم، أعطني عنوان مكانك بالدقّة لكي آتي إليكم!

- لا حاجة لذلك!

كان صوت مسلم مختلفًا عنه في العمليّات السابقة، حين كان يسيطر على موقع ما!

- يا عمّ، لقد سيطرتُ وكريم آزاديان على رأس الجسر، لكنّها آخر مرّة لكلَينا على ما يبدو! سأعطي السمّاعة لكريم لكي أنهي قراءة سورة الواقعة بعد إذنك.

استلم كريم الحديث. قال مرتضى: «ما الذي يقوله مسلم؟ هل تستطيعون المحافظة على موقعكم حتى أصل إليكم!».

ضغط كريم على زرّ اللاسلكي وقال: «إنّ ما يقوله مسلم صحيح يا عم! لا تُهلك نفسك! إنّ الأوضاع هنا حرجة بحيث لو وصل جميعنا لَما كان ذلك مُجديًا! لقد كان المرتزقة البعثيّون بانتظارنا!».

سُمع عبر الجهاز اللاسلكي دويّ زخّات رصاص، فضحك كريم.

- لقد كشفوا مكاننا. يا عمّ ليتني أحضرت معي عجلة البئر.

نظرتُ إلى مرتضى. وعلى الرغم من أنّ كلينا كان يرزح تحت ضغوط الهزيمة والخسائر الكبيرة في صفوف الكتيبة، إلّا أننا ضحكنا لا إراديًّا. ضحك مرتضى بمرارة وقال: «يا حفّار آبار الكتيبة، ماذا ستفعل بعجلة البئر في هذه الظروف؟».

علا صوت خشخشة الجهاز اللاسلكيّ تبعه صوت كريم الضعيف: «كنت سأحفر بئرًا جيّدة جميلة في الساحل العراقيّ».

- يا حفّار الآبار، أنا متأكّد أنّ ماء بئرك ستخرج، كما العادة، مالحة جدًّا.

سمعنا صوت رصاص وأنين. صرخ مرتضى: «ماذا حصل؟».

قال كريم: «عمّ مرتضى!».

- أجل يا عزيزي!

- لقد استشهد عزيزك مسلم!

حدّقتُ في وجه مرتضى فرأيت تحت نور القنابل المضيئة بريقَ الدموع في عينيه. مسح بإصبعه الدمع من طرفي عينيه وقال: «هل قرأ مسلم سورة الواقعة؟!».

- أجل، لقد أتمّ عزيزك مسلم سور الواقعة، وقد أغمضتُ عينيه.

- كريم، هل تستطيع أن تعود؟

- لا يا عمّ، ألا تسمع صوت «الدوشكا!». إننا على أطراف الشاطئ، تحت دشمة العراقيّين بالدقّة! يا عمّ!

- أجل يا عزيزي!

- إن انقطع الاتصال فاعلم أنّي حلّقت في السماء! عِدني بأنّك ستشفع لي في الآخرة!

ثمّ طفق يهمس منشدًا أبيات الشعر التي نظمها له الشباب:

- كريم حفّار الآبار أينما حلّ حفر بئرًا

لكن مياه بئره شديدة الملوحة..

وانقطع الاتّصال!!

122

الإعدام

25/ك[1]/1986

ألقيت نظرةً داخل النهر على جثّة إسماعيل مسعودي وجثث أخرى لعـدد مـن الغوّاصين، التـي علقت بين العوائـق الحديديّـة والشريط اللولبيّ الشائك على الشاطـئ العراقيّ، ثمّ رفعت طرّيْ في نحو السماء. كانت الريح تُسرّح سريعًا قِطعَ الغيوم البنفسجيّة القاتمة الضاربة إلى الاحمرار بشعاع الفلَق، فيما أخذ النور بالانبساط شيئًا فشيئًا. أخذتُ نفسًـا عميقًا: إلهي، رضًى بقضائـك... كنت قد بدأتُ الهجوم، برفقة نفـر قليـل ممّن بقي مـن تعبويّي الكتيبـة، من حقـل القصب المتاخم للشاطئ وأشجار النخيل المقطوعة وواصلنا التقدّم حتى أطراف خندق العـدوّ، ومن ثَمّ عجزنا عن مواصلة التحرّك. وجدتُ جهازًا لاسلكيًّا لا يزال يعمل وأجريت اتّصالًا.

– أشلو، أشلو.. أنا عزيز بابائي.. أشلو، أشلو..

لم أسمع جوابًا. اتّصلتُ على موجة استطلاع لواء المهدي.

– .. كاظم.. كاظم.. عزيز..

لم يكن ذلك مُجديًا. حوّلتُ نظري إلى نهر «أروند» الذي بدا خائرًا جرّاء الحرارة. لم يتمكّن من الوصول إلى الساحل سوى عدد قليل من العناصـر المنهَكين أو المجروحين. وصول هـؤلاء إلى الساحل كان بحدّ ذاته معجـزة! أمّا العراقيّون المطمئنّون مـن النصر فقد كانوا يرمون طلقات متقطّعة وقنابـل ضوئيّة بين الفينة والأخرى. كان عليَّ أن أجد سبيـلًا للنجاة لكي لا نُقتل أو نقع في الأسر بالحدّ الأدنى. لكنّ المشكلة الرئيسـة كانت تكمن في انقطـاع الارتباط بالخطـوط الخلفيّة وعدم اطّلاعنـا علـى أيّ شيء! ومـع كلّ ذلك، فنظرًا لكـوني عنصرًا قديمًا

في قسـم الاستطـلاع والمعلومات في لـواء المهدي، إضافـة إلى تجربة اشتراكي في العمليّـات الصعبة، حاولت أن أجد طريقةً ما لأنجو ومن بقي معي. إذ سرعان ما سيكتشف العدوّ أمرنا مع طلوع ضوء النهار.

وصلـتُ إلى حيث «كـريم آزاديان» الذي تلقّـى رصاصة قاتلة قرب جـدار إسمنتي. على مقربـة منه رأيت «مسلم رستـم زاده» الذي اتكّأ على جـدار إسمنتي لمتراسـ أحد الرشاشـات. تقدّمتُ منـه وحدّقتُ في وجهـه الذي انعكس فيـه نور القنابل المضيئـة. كانت عينه مفتوحة وبـين شفتيه سيجارة لم تشتعل أبدًا. بدا كأنّه يضحك. أمّا صدره فقد اخترقه عدد كبير من رصاص الرشاش فتجلّل بالدّماء.

عندمـا انقشع الظلام كامـلًا هدأ صخب المعـارك، ما خلا بعض المواجهـات المحـدودة وإطلاق نـار متقطّعًـا داخل السـاحـل. قصدتُ يرافقنـي جنديّان من قوّات التعبئة في كتيبة الفجر دشمةً مهجورة قد امتـلأت بالماء. سمعت أصوات جنود العـدوّ. كان الشابان منهكَين ولم يقويا على الحراك. صار العراقيّون على مقربة منّا. قلت لهما: «علينا الذهاب من هنا!».

- يا أخي، اذهب وحدك، سنبقى نحن. سنجد سبيلًا في النهاية..

- انهضا وإلّا أطلقت عليكما النار بنفسي!

دفعتُهمـا، تحت التهديد، مـن باب المتراس! ابتعدنا حتـى وصلنا إلى طـرف السـاحل وأخفينا أنفسنا في حقـل القصب. كان جسمي قد تجمّد جرّاء الضعف والبرد كما جعلتْ أسناني تصطكّ. لم يكن مُرافقاي أفضل حالًا منّي. فهِمنا من الجلبة والضجيـج أنّ العراقيّين يمشّطون الساحل، فيُجْهِزون على عنصر جريح أو على آخر قد خارت قواه.

كلّما مضـى الوقت ضاق الخناق علينـا أكثر. أمّـا العراقيّون الذين غمرتهـم نشوة النصر فقد واصلوا تنقيـب الساحل مرتاحي البال. وقع

نظري من بين القصبات على مجموعة مؤلّفة من حوالي عشرة أشخاص من عناصرنا، عرفتُ منهم «حسن نكوئي» و«إيلي»، وقد قيّد العراقيّون أيديهم. قال أحد الشابَّين التعبويّين: «ليتنا سلّمنا أنفسنا أسرى».

لم يكد ينهي كلامه حتى قال الآخر: «يا حسين عليه السلام، يريدون إعدامهم، علينا أن نفعل شيئًا!».

قلت: «لا طائل من ذلك، ألا ترى حالنا! ثمّ إنّنا قد تجمّدنا هنا!».

– ما العمل؟ يا لهم من أوغاد!

قُسّم الأسرى إلى مجموعتين. وضِعت المجموعة الأولى وسط الساتر الترابي فيما وقف قبالة الأسرى عدد من المسلّحين العراقيّين الذين جَثَوا على ركبهم استعدادًا لإطلاق النار عليهم على مرأى من المجموعة الثانية. أطبقتُ جفني ولم أسمع سوى صوت رمي الرصاص. وقع الشباب الستّة على الأرض كأوراق الخريف. وحين أوقفوا المجموعة الثانية في صفّ بانتظار إعدامهم وصل الضابط العراقيّ فتوقّف العمل، ونشب جدال بينه وبين الضابط الذي أصدر أوامر إطلاق النار. تضرّعت إلى الله أن تكون الغلبة للضابط الذي وصل حديثًا وهذا ما حصل.

كنت جائعًا وعطشان. سألني أحد التعبويّين ماذا سنفعل يا أخي؟».

– أنا عنصر قديم في قسم استطلاع العمليّات، اعتمدا عليّ!

ففرحا.

أردفتُ قائلًا: «إن عمِلتما بما أقول فأعدكما بأنّكما، على الأقلّ، لن تقعا في أيدي العراقيّين».

قال أَحْدَثُهُما سنًّا: «أودّ أن تسنح لي الفرصة لكي أنتقم للشهداء!».

على الرغم من رباطة جأشي وخبرتي الاستطلاعيّة فإنّ فرصة

نجاتنــا كانت ضئيلة. قلت: «التزما بفعل ما أطلبه منكما. أمّا الأعمار فهي بيد اللّه!».

دللــتُ الشابّين على السفينة الصينيّة الجانحة وسط مياه «أروند»، بين الخطّ الدفاعي لإيران والعراق.

- علينا أن نصل إلى تلك السفينة بأيّ طريقة ممكنة!

- كيف ذلك يا أخي؟ سيروننا!

- سنستتر حتى حلول الليل، بعد ذلك نتحرّك!

دوّى صــوت انفجار مترافق مع كلمات بالعربيّة. لم يكفّ العراقيّون عــن تمشيط الساحل وحقل القصب وتطهيرهمــا. اخترتُ مكانًا قليل العمق في النهر بحيث وطئت أقدامنا القعر، فيما استترنا حتى الرؤوس بالقصب والأعشاب المائية.

- تذكّرا، لا تُصدرا صوتًا حتى لو أُصبتما برصاص أو شظايا!

نظــر إليّ التعبويّــان باستغــراب. وحــدث مــا توقّعــت، حيث رمى العراقيّــون قنبلــة يدويّة بين القصب والأعشــاب. وعندما وصلوا إلينا دعــوتُ اللّه أنّ إذا كان لا بــدّ من أن يصاب أحدنا بشظايا فلأُصب أنا دونهما! فقد احتملتُ أن لا يقويا على تحمّل الألم فيُفتضح أمرنا. كانت القنابــل اليدويّــة تُرمى بين القصــب فيفلق عصــف انفجارها الهواء وتملأ شظاياها الأرجاء. أخذت الأسماك المتأثّرة بعصف الانفجارات تطفــو مَيّتة على سطح الماء. أصابــت أوّل شظيّة ظهري فاخترقته، ثمّ انتقــل الــدور إلى الشابّين اللذين اخترقــت الشظايــا جسديهما. بَيد أنّهما، وخلافًا لما توقّعتُ، لم ينطقا ببنت شفة! كان صبرهما وطاقتهما مثيرين للعجب. خاطبتُ مرتضى في نفسي قائلًا: « نِعمَ ما ربّيت!».

في الواقــع، كأنّ هذين الشابّين، اللذين لم يتجاوز عمرهما الثمانية عشــر ربيعًا، قد اتّخذا مرتضــى قدوة في الصبر والثبــات. لم يتوقّف

العراقيّـون عن رمي القنابـل اليدويّة باستمرار. كنـت والشابّين كمن أجرى مسابقة في الإصابة بالشظايا.

قبيل الظهر كفّ العراقيّون عـن رمي القنابل وتركونا والشظايا في أجسادنـا التي ما برحت تنـزف دمًا. تذكّرت رفيقـي لسنوات، مسلم آشنا، وكان عامل الإشارة في سريّة مسلم رستم زاده. سألت الشابّين: «هل لديكما خبر عن مسلم آشنا؟».

فقال أصغرهما سنًّا: «تقصد حامل اللاسلكي؟».

- أجل!

- عندمـا وصلنا معًـا إلى متراس العراقيّين اتّصـل ببديهي وقال: «وصلنا أسفل الرشاش الثقيل، ماذ نفعل؟». فقال بديهي: «ارفع صوتك قليلًا!». أجابه مسلم آشنا: «لا أستطيع أن أرفع صوتي وإلا فسيسمعني الجندي العراقـيّ خلف الرشاش. فطلب بديهي منّا أن نبدأ الاشتباك فقلنـا: «لا نستطيـع، ليس بحوزتنـا سوى قنبلتين يدويّتـين». بعد ذلك ذهب نحو قائد سريته، مسلم رستم زاده، واستشهدا معًا.

عند المساء، ناديتُ الشابّـين لكي ننطلق لكنّهما كانا قد استشهدا. سحبـت جثّتيهمـا إلى الساحل، لعلّ العراقيّين يرونهمـا فيبادرون إلى دفنهما، وذاك خير من أن تجرفهما المياه إلى الخليج الفارسي!

أنهيـتُ عملـي وسبحتُ بهـدوء، يعتصـرني الحزن، حتـى وصلتُ إلى السفينــة الصينيّـة. وهناك صادفتُ سبعـة أو ثمانية عناصر من الوحـدات الأخرى. وفي الليل انتُخِبتُ لكي أعـبر النهر بمفردي لطلب قوّة مساعدة.

سبحـتُ حتى الضفّة الأخرى لأروند ووصلتُ إلى مقرّ فرقة المهدي. وهنـاك كان «جليـل خـادم صادق»، مسـؤول إعلام الفرقـة، قد أقام مراسم الدعاء والتوسّل مهداة إلى روحي!

123

زياد المشهدي

26/ك[1]/1986

– أيّها المستمعون الأعزّاء نرجو الانتباه .. وردَنا من..

مجـدّدًا صدع صـوت الموسيقى العسكريّة المألوفـة من مكبّر صوت مسجـد «جليـان» ودكّان بقالة «زيـاد المشهدي!»(مش زيـاد) . ومعها عـادت أجـواء الفـرح والشـوق في القريـة إلى جانـب التكهّنات حول انتصـار العمليّة والجرحى والشهداء في جليان! بدا واضحًا من طبيعة لغـة البيان الذي بثّته الإذاعة أنّ العمليّـة لم تتكلّل بالنجاح هذه المرّة. لم يفارقني الاضطراب والهلع لحظة، ولم يأتِ أحد على ذكر مرتضى. لم أجِز لنفسي أن أجلس مكتوفة اليدين أتجرّع الغصص. كان عليّ أنّ أفعل شيئًا.

نهضت بعد الظهر، وحملت «زينب» وذهبتُ إلى بيت خالي في فسا. كنـت آملُ أن يكون مرتضى قد اتّصل لكنّـه لم يفعل، أمّا أنا فلم أعلم بمـن أتّصل. في اليوم التالي اتّصل مرتضى. ما إن سمعتُ صوته حتى أجهشت بالبكاء.

– مرتضى هل أنت سالم؟

– لا أنا جاسم!! لا تبكي يا بنت خالتي..

مسحـتُ دموعي وسكـن روعـي. أحسستُ أنّـه يخفي عنّـي أمرًا، فبـادرني بالقول وبدون مقدّمة: «آمنة، علـيّ أن أنهي المكالمة، سأعاود الاتّصال بكِ في المساء!».

بمجرّد أن علمتُ بأنّ مرتضى على قيد الحياة هدأت.

مساءً اتّصل ثانيةً.

– آمنة، أنتِ من الآن فصاعدًا لن تكوني امرأة عاديّة، بل مُجنّدة!

– ماذا تقصد؟

– سأطلعك على أمر، وليبقَ سرًّا بيننا، هل تعدينني بذلك؟!

– سمعًا وطاعة!

– اسمعي آمنة، لقد فُقِد «قدمعلي!»..!

– أخوك؟! أين؟

– في عمليّات (كربلاء 4)، ذهب إلى تلك الجهة من النهر ولم يعد!

أقفلتُ السمّاعة وسالت دموعي على خدّي. كان قدمعلي بمنزلة أخي. قال خالي: «والله إنّه لأمر جيّد أنّ مرتضى بخير!».

تمالكتُ نفسي بصعوبة وقلت: «إنّها دموع الفرح يا خالي!».

في صباح اليوم التالي عدتُ وخالي إلى «جليان». ما إن دخلتُ البيت حتى انهمر عليّ وابل من الأسئلة من خالتي وزوجها.

– هل هناك خبر عن «قدمعلي».. ألم يخبرك مرتضى بشيء.. لقد أشيع بأنّه في هذه العمليّة قد.. لا قدّر الله..

شكرتُ الله أنّ خالي الذي لم يكن على علم بالحقيقة أصلح الأمر بقوله: «إنّه بخير.. تحدّثت آمنة مع مرتضى عبر الهاتف.. عساه خيرًا..».

قالت خالتي: «إذًا لماذا آمنة ليست على ما يرام؟».

قلت: «لا شيء يا خالة، أشعر بالتعب قليلًا».

حملقت الخالة في وجهي.

– لقد تورّم وجهُكِ؟!

تبسّمتُ محدّقةً في عينيّ.

– مبارك! إنّها حامل!

شعرتُ بالخجل.

– لماذا لم تُخبرينا يا ابنتي؟ منذ متى؟

– منذ مدّة قصيرة يا خالة!

– أسأل الله أن يرزقك صبيًّا جميلًا!

– الخير فيما يختاره الله!

124

مسرحيّة التكفين

28/ك[1]/1986

شكّلت الهزيمة في عملية (كربلاء 4) ضربة موجِعة لكتيبة الفجر. فقد سقط العديد من شبابها بين شهيد وجريح، كما وقع بعضهم في الأسر فيما فُقد آخرون. في اليوم الذي تلا العمليّة تلقّينا اتّصالات على مدار الساعة من عوائل العناصر وأقربائهم ورفاقهم من زرقان، فسا، مرودشت، كازرون، وغيرها من مدن محافظة «فارس».

- ما هي أخبار ولدنا.. هل هو بخير، إن حصل له مكروه فإننا نستطيع تحمّل الخبر...، سيد جاويدي، يقولون إنّك لا تكذب.. أسألك بالله، هل حقًّا أصيب الشبّان بأذى.. إنّهم أمانة..

كنت أسمع مرتضى يقول لهم عبر الهاتف أو وجهًا لوجه، حذَرًا من أن يقع في الكذب: «إنّ الشبّان مع أخي قدمعلي!».

في ذلك الوقت بالذات علمتُ أنّ العمّ مرتضى كان يزور عائلات أفراد كتيبته!

في اليوم التالي رنّ هاتف الكتيبة فرفعتُ السمّاعة بنفسي فإذا بي أسمع شخصًا يبادر بالقول بصوت مرتبك وبلا مقدّمات: «ولدي مرتضى، هل لديك خبر عن «قدمعلي».. إنّهم يُشيعون أخبارًا عنه هنا.. إن أصابه مكروه فلا تخفِ عنّي.. إنّ أمّك تكاد تموت..».

عرفتُ أنّه والد مرتضى. قلت له: «أرجو المعذرة يا عم، أنا «ذبيح الله فريد بخت»، سأناديه من بعد إذنك».

ناديتُ مرتضى، فحضر ورفع السمّاعة.

- سلام.. كيف حال أمّي.. أبي، إنّ «قدمعلي» في الجهة الأخرى

من النهر مع الشبّان، ولا أستطيع الاتصال به.. لا تبتئس.. لو استشهد لعلمت بالأمر..

عنـد منتصف الليل سمعتُ من خلف بـاب غرفة قائد الكتيبة أنينَ مرتضى وبكاءه وهو يناجي ربّه سرًّا.

– .. أرشـدني مـاذا أصنع، دُلّنـي.. علّمني ماذا ينبغـي أن أفعل.. في أيّ طريـق علـيّ أن أُعمِـل إرادتك.. خذ بيدي لكـي أخرج من هذا الامتحـان مرفوع الرأس.. إلهي، هذه ليست عمليّات «بدر» حتى أحمل الجرحـى وجثث الشهـداء على كتفي وأعـود.. الشبّـان موجودون في الجهة الأخرى من النهر وأنا في هذه الجهة..

لم تكن أرواح عناصر الكتيبة عزيزة على مرتضى فحسب، بل كان حريصًـا جدًّا على جثثهم إذا ما استشهدوا. فكان لا يسامح أحدًا كان بمقدوره أن يسحب جثّة شهيد وتغافل عن هذا الأمر.

بعـد عمليّة (كربـلاء 4) كفّ مرتضـى عن الضحـك والمزاح. ولم تعـد تقام مراسم «حفلة البطّانيّة»[1] وتكفـين الموتى ودفنهم! أذكر أنّي في الليلـة الأولى لخدمتـي في الكتيبة، ولدى دخـولي غرفة الاستراحة أُصبتُ بالصدمة! فقـد وقع نظري على ميّت ممدّد وسط الغرفة فيما كان عناصر الكتيبة، وبالأخصّ مرتضى، يقيمون عزاءه ويلطمون على الرؤوس. حدّقـتُ حائـرًا في مراسم تكفين الميّـت وعزائه حيث كانت تجـري بجدّية تامّة. لقد كانوا يخمشـون وجوههم وشعورهم وينوحون ويندبـون كالثّكالى! كمـا كان لمرتضى الدّور الأسـاس بعنوانه صاحب العـزاء. أمّا أنا فقد انخرطـتُ لا شعوريًّا في مراسـم التكفين والعزاء تلك. عندها أخذ الشبّان يضحكون عليّ.

– ذبيح الله فريد بخت، فلتكن ذا حظّ عظيم ، هذه مسرحيّة ليس إلّا!

1- اجتماع الاخوة على المزاح باللعب بالبطانيات.

عندمـا عرفـتُ أنّ تلـك المراسـم إنّما هـي لهْو ولعـب، حيث أخذ الشبّـان يضحكون في النهاية، ضحكـتُ من سذاجتي. فيما بعد صرتُ أشـترك في تلك المراسم التي كانـت تُجرى في أوقات استراحة الكتيبة في الخطوط الخلفيّة للجبهة. مراسم كانت تبدو لي بدايةً أنّها للترفيه والضحـك، لكنّي أحسسـتُ أنّها تربطني بالمـوت تدريجيًّا حتى أبادت الخوف من داخلي!

125

القنّاص الثاني

8/ك2/1987

قـال لي قائد اللـواء: «ناطقي، اذهب الليلـة برفقة مرتضى وخليل مطهرنيا لتعاينوا المحور عن كَثب استعدادًا لهجوم الغد..».

عنـد المساء أُقيمت صلاة جماعة صغـيرة داخل دشمة التكتيك في «شلمجه». تناولنا طعام العشاء، بعد ذلك حملتُ بدلة الغوص ومعدّاته وانطلقتُ مع الآخرين بهدوء في سيّارة «لندكروز» باتّجاه محور العمليّة.

وصلنـا بعد ساعـة إلى محور مياه سـدّ شلمجه. كانـت بركة المياه كبـيرة نسبيًّا وقد ضخّها العراقيّون بـين خطّي الدفاع بعمق يصل إلى مسـتوى الصّـدر. عمقٌ لم يكـن بالإمكان اجتيازه بالـزوارق، كما كان يَحُول دون تحرّك القوّات من الجنود المُشاة!

دخلـتُ ميـاه الشتاء الباردة خلـف مرتضى وتحرّكـتُ، بكيفيّة بين السباحـة والمشـي، نحو الموانـع الحديديّة والأسـلاك الشائكة وحقول الألغام العراقيّة. غـاب القمر من السماء وعمّت الظلمة الأرجاء، فلم يُضَأ سطـح البركة وأطرافها إلّا عند رمي القنابـل المضيئة العراقيّة. أثناء الطريق شرع مرتضى يمازحنا.

- إذا وقعنـا في الأسـر فسأقول إنّني جنـدي في الخدمة العسكريّة وقد أجبروني على المجيء إلى الجبهة!

فقال مطهرنيا: «وأنا سأقول إنّني قصدتُ مجلس البلديّة في قريتنا لآخـذ ثلاجـة وتلفـازًا، فقيـل لي: عليـك أن تحضـر في الجبهة. وقد حضرت إلى الجبهة لأجل الثلاجة والتلفاز!».

قال مرتضى: «ألن يقول العراقيّون: قرويّ في مهمّة استطلاع وعليه

زيّ الغوّاصين! لا يمكن الجمع بينهما!».

ربّت مطهّرنيا على كتفي.

- ناطق، لماذا جئت إلى الجبهة؟

- التفتُّ إليه قائلًا: «ذهبتُ لأخطب فتاةً، فقال لي والدها: يجب أن تقضي ستة أشهر في الجبهة!».

وصلنا إلى خطّ دفاع العراقيّين وسمعنا ضجيجهم. قال مرتضى: «يا شباب، من بعد إذنكم، سأذهب إلى الجهة الأخرى من الخطّ.. سأعود سريعًا!».

فصدّقتُ كلامه وقلت: «لماذا؟».

فتبسّم قائلًا: «لعلّي أجد قدمعلي فأرجعه! إنّها منطقة عمليّة «كربلاء 4» التي ذهب فيها قدمعلي ولم يعد. لقد أعجزني «مش رضا!».

فسألتُ مستغربًا: «من هو مش رضا؟».

- إنّه أبي!

في اليوم التالي كان لي طلب مُلِحّ من الحاج أسدي قائد اللواء.

- أريد أن أنضمّ إلى كتيبة مرتضى بعنوان قنّاص.

عند العصر دُعي جميع أفراد الكتيبة للتّجمع في المصلّى. وصلت إلى الصفّ الأوّل وجلستُ كأحد العناصر العاديين. ضرب تعبويّ شيرازيّ بمرفقه على خاصرتي.

- هل ثمّة هجوم حقًّا يا أخي؟

- أجل، إن شاء الله!

ارتفعت أصوات العناصر بالصلوات، ثمّ عمّ السّكوت. لاحت منّي التفاتة نحو باب المصلّى. دخل مرتضى يغمره النشاط والحيويّة على

عكس حاله في الأيام القليلة الماضية. تبسّم.

- بسم اللّه.. كما قال نابليون بونابارت: في الحرب تتغيّر الظروف من لحظة إلى أخرى.. صحيح أنّ عمليّات (كربلاء 4) لم تتكلّل بالنجاح، ولكنّ في ذلك حكمة إلهيّة. لقد فُجعنا بكثير من الشهداء، شهداء من كتيبة الفجر، ممّن لا نستطيع أن ننساهم، ولا بدّ أنّ في ذلك مصلحة ما.. ما يبعث فينا الأمل، كما يقول الإمام الخميني، هو أداء التكليف والإسلام والثورة! أبشّركم اليوم أنّ زمن أداء التكليف التالي قد حلّ.. علينا أن نهجم على العدوّ..

ملأت تكبيراتُ أفراد الكتيبة فضاء المصلّى وزلزلت السقف والأرض! ومع كلّ تكبير كانت البندقيّات في أيدي المجاهدين تعلو وتهبط.

- اللّه أكبر.. اللّه أكبر..

امتلأت صدور الشبّان بالحيويّة والثورة. أمّا أنا فقد انعكس صفاء مرتضى وارتياحه في نفسي: على الرّغم من وجودي لسنوات في اللواء إلّا أنني عثرتُ عليه متأخّرًا.. ليت الحاج أسدي يوافق على بقائي في الكتيبة.. على أن أكون قنّاصًا!

ساد الضجيج والصخب. هتف أحدهم: لبيك يا خميني..

وردّد الآخرون وراءه.

ثمّ قال مرتضى آخر ما عنده: «بعد أن أنصرف سيضعكم قادة السرايا في أجواء العمليّة المقبلة».

أخذ قادة السرايا ومن بعدهم قادة الفصائل يشرحون للعناصر أوضاع المنطقة وسير العمليّة.

في المساء وبعد أداء الصلاة وتناول العشاء، أمضينا ساعة من

الوقت لإقامة حفل الخضاب بالحنّاء، فخضّبنا أيدينا وأرجلنا بالحنّاء، ثم أخذنا نستعدّ للانطلاق.

في مقرّ التكتيك الذي يبعد ثلاثين مترًا عن محور شلمجه ركبنا شاحنات «تويوتا» كاكيّة اللون. كان مرتضى يتنقّل بين أفراد كتيبته باستمرار. لمّا وصل إليّ ربّت على كتفي قائلًا: «أنا خجل منك أيّها القنّاص.. أسألك الدعاء!».

عند الساعة العاشرة مساءً انطلقتُ في شاحنة «تويوتا» أقلّت مجموعة من العناصر باتّجاه حدود شلمجه. لقد اعترتني حال عجيبة بين شبّان الكتيبة. لم أتمالك نفسي وأخذت دموعي تسيل على خدّي بهدوء. مع اقترابنا من المنطقة ازدادت حدّة نيران العدوّ. كانت السماء مظلمة وقد غاب عنها القمر كما في معظم الأزمنة التي كانت تُنتخب للهجوم! شيئًا فشيئًا وصلت كثافة نيران القذائف إلى حدٍّ باتت فيه حركة الشاحنة بطيئة. كانت الطريق ترابيّة وقد امتلأت بحفر خلّفتها القذائف، فكانت عجلات الشاحنة تسقط في تلك الحفر باستمرار.

اقتربتُ من الخطّ الأوّل للجبهة. وصل مرتضى وقال: « بسرعة.. ترجّلوا، إلى خلف الساتر الترابي.. هيّا أسرعوا.. ما شاء الله..».

أخذنا قسطًا من الراحة، وعندما انتصف الليل سرنا صفوفًا عموديّة خلف عناصر الهندسة والاستطلاع من عدّة محاور، وعبرنا من شقوق الساتر باتّجاه العدوّ. وكان مرتضى، كما العادة، يتقدّم الرّتل. أحيانًا كانت القنابل المضيئة تسقط بين السواتر الترابيّة فتضيء العتمة. كنت أعلم أنّ عليّ في مثل تلك المواقع أن أسكن ثم أعاود المسير! سمعتُ صوت مرتضى: «لا ينفصل بعضكم عن بعض.. إنّ مستوى بركة الماء يصل إلى الصدر، لا تظنّوا أنّكم ستختنقون..!».

فضحكتُ.

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل أُبلغنا برمز عمليّة (كربلاء5) عبر اللاسلكي، فبدأنا الهجوم. كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة إلى العراقيّين على خلاف عمليّة (كربلاء4). قلت في نفسي: يا ناطقي، لم يتصوّر العراقيّون حتى في أحلامهم أن نشنّ هجومًا آخر عليهم بعد مرور أسبوعين من هزيمتنا في (كربلاء4).. هذا وقت الانتقام لدماء الشهداء!

سيطرنا على مواقع العدوّ، الواحد تلو الآخر، بأقلّ الخسائر. في تلك العمليّة كان مرتضى يتقدّم الجميع، وكنت أراه من خلال أضواء الانفجارات والقذائف والقنابل المضيئة واقفًا على القلعة الحدوديّة يجري اتصالًا لاسلكيًا حينًا، ويطلق قذائف (B7) نحو العدوّ حينًا آخر.

126

خمسمئة شخص

10/ك2/1987

بعـد السيطرة على مواقع العدوّ استقررنـا داخل القناة الدفاعيّة. عندمـا وصلـت الكتيبـة البديلة عـدتُ برفقـة عناصر كتيبـة الفجر المنهكـين إلى معسكر الإمام الخمينـي في الأهواز. بقي نصف عناصر الكتيبة، البالغ عددهم خمسمئة شخص، سالمين، فيما سقط الآخرون ما بين شهيد وجريح، ووقع آخرون في الأسر. سادت بين الشبّان أجواء النصـر من جهـة وحزن على فقـد الأصدقـاء من جهة أخـرى! أخذ الشبّان يتهامسون في زوايا المقرّ.

– لقد تخلّفنا عن قافلة الشهداء.. لا بدّ أننا عصاة..

لم يعـد لأحد جَلَد على المزاح أو إقامة مراسـم «حفلة البطانيّة» أو تمثيل دور الميّت. اتّخذ أكثر الشبّان خلوة مع الله في أحد زوايا المقرّ.

أمّا مرتضى فقد تحمّل خلال هذا الشهر مصائب كثيرة.

قبيـل الظهـر نـاداني. حدّقـتُ في عينيـه الصافيتين. فقـال: «يا خوشقدم، اطلب من الشبّان أن يجتمعوا في المصلّى!».

وبعد أن تجمّع العناصر المنهكون والفاقدون لرفاق دربهم في الكتيبة داخل المصلّى، شرع مرتضى بحديثه: «فلنتسامح من بعضنا البعض.. خصوصًا أنا العبد الفقير..».

تنفّس الصعداء.

– الليلة نعـزم على القيام بعمليّة مجدّدًا.. بنفس هاتين السريّتين. هناك حاجة لذلك.. والله إنني أقولها من أعماق قلبي. أنتم حتى الآن أبديتم كل شهامة ورجولة، وإنّ مكانكم في الجنّة..

لم يستطع أن يتمالك نفسه من دون أن يبكي. أخذ نفسًا عميقًا.

- أُقسِمُ مئة مرّة بأن ليس ثمّة أشجع منكم.. لذا فأنتم جميعًا مبرّأون من الجبن، لأنّكم جميعًا؛ شيبًا وشبّانًا، حرسًا وتعبويّين، أثبتّم شهامتكم مرارًا. أقول لكم بكلّ تأكيد: من الآن فصاعدًا، الاشتراك في العمليّات أمر اختياريّ.. كلّ من لا يريد ذلك فليصفِّ حسابه وليرجع إلى مدينته!

كان حديث مرتضى البليغ ووجهه الجذّاب كشمس أمدّت العناصر بأشعّة من المحبّة والعظمة، وأحسسنا جميعًا أننا وقعنا في أسر تلك الأشعّة. لقد أنعش بطاقته الخارقة عناصر الكتيبة الحيارى والمتعبين قولًا وفعلًا. تعالت أصوات نحيب العناصر. نهض الحاج صلواتي، ذلك العجوز السبعيني إعلاميّ اللواء، ثم نادى:

ارفعوا أصواتكم بالصلوات يا ورود بستان الخميني..

بعد الصلوات تابع قائلًا: «لقد وقّعنا على ميثاق الدم.. ماذا ظننت بنا يا عم.. هيهات منّا الذلّة..

- هيهات منّا الذلّة..

ثمّ أدلى كلّ واحد بدلوه.

- هل صدر منّا خطأ!

- لماذا تضعنا على مفترق طريقين هذه المرّة..

- لن نتخلّى عنك يا عمّ مرتضى أو نُقتل..

عندما علم مرتضى أنّ العناصر خجلون، مثله، من رفاقهم الشهداء لأنّهم ما زالوا أحياء قال: «أرجو المعذرة منكم جميعًا.. أستحلفكم بالله أن تدعوا الله لكي يتفضّل عليّ ويكرمني بالشهادة! أطلب من أولئك الذين سيبقون على قيد الحياة بعد العمليّة أن يحفظوا كتيبة

الفجر، وأن لا يشوب إيمان الكتيبة وقوّتها أيّ شائبة!».

لم يستطع عناصر الكتيبة تحمّل كلام مرتضى فقطعوا كلامه وتوجّهوا نحوه وعانقوه. جعلوا يقبّلونه ولم يتركوه إلّا بشقّ الأنفس. سادت أجواء لم يسبق لها مثيل في المعسكر، أشبه ما تكون بوداعٍ دامَ لساعات.

127

اقتلوني

10/ك²/1987

عند الغروب انطلقتُ برفقة مئتي عنصر ممّن بقي من الكتيبة على متن أربع حافلات نحو شلمجه. وقف مرتضى في مقدّمة الحافلة قرب السائق واضعًا يده على صدره وجعل يُنشد مرثيّة «آهنكران»، فيما أخذنا نلطم على صدورنا مردّدين معه:

شهيدًا وا شهيدًا وا شهيداه!

غريبًا وا غريبًا وا غريباه!

حسينًا وا حسينًا واحسيناه!

وبعد أن ردّد الشبّان خلفه أنشد مرتضى:

أنا مسلم عاشق لابن الزهراء

أنا مسلم أفدي نفسي في سبيل المولى

ثمّ تابع إنشاده والدموع تتحادر على خدّيه:

لم يرَ الزمان عاشقًا مثلي!

إنني ذاهب إلى الموت برجلي!

ارشقوا قلبي الحزين بسهم الغمّ!

إنني عاشق عاشق فاقتلوني!

إنّ روحي تزهق حزنًا عليك

يا حسين يا حسين يا حسين!

كأنّ الجميع قد أيقنوا بأنّهم سيرتفعون شهداء في هذه العمليّة، ولم يكن أحد مستعدًّا للرجوع بعدها.

مساءً ترجّل العناصر من الحافلة في مقرّ التكتيك الذي يبعد ثلاثين مترًا عن الجبهة. أدّينا الصلاة. تناولنا الأرز بالدجاج ثمّ أخذنا بالاستعداد. حضر مرتضى وأخذ يشرح قائلًا: « بما أنّ ثمّة نقصًا في كتيبتنا فقد تقرّر أن نكون قوّة مساندة لكتيبة كميل! سنستقرّ على مقربة من الخطّ بانتظار وصول الأوامر!».

عند منتصف الليل صدر أمر بالتحرّك. انطلقت سريتا كتيبتنا باتّجاه الخطّ الأمامي في شلمجه؛ حيث المناطق التي تمّ تحريرها في اليوم السابق خلال عمليّات (كربلاء5) التكميليّة. كنتُ جالسًا في مقدّمة السيّارة إلى جانب السائق. حين عبرنا نقطة حراسة (مخفر) الحدود العراقيّة وقرية «دوعيجي»، لاحظتُ أنّ السيّارة تصعد وتهبط كأنّها تسير على مطبّات. سألت السائق: «على ماذا تعبر العجلات؟».

– إنّها جثث قتلى العدو في مواجهات ليلة أمس والذين لم يتسنَّ له سحبهم!

كانت نيران المدفعيّة كثيفة لم يسبق لها مثيل، إلى درجة أنّ الوصول إلى الخطّ بسلام كان يتطلّب حظًّا. في نهاية المطاف توقّفنا خلف ساتر ترابي قصير. ترجّلنا وأخذ محمد رضا بديهي يوجّه العناصر.

– .. إنّ حدود منطقة عمليّاتنا هي «قناة الأسماك»، قرب السواتر الترابيّة (النونية) التي اتّخذت شكل حرف «ن!».

سرنا خلف بعضنا البعض بحذر. تَرافق سقوط قذائف المدفعيّة مع القنابل المضيئة التي كانت تسبح في السماء. ملأتْ مشامّي رائحة الدخان والغبار. فجأة رأيتُ العمّ مرتضى على إحدى السواتر العراقيّة الكبيرة النونية الشكل، وهو يتكلّم مع محمد رضا بديهي عبر الجهاز اللاسلكي: «سيّد رضا، هيّئ جميع من لديك من رماة الـ(B7)!».

استقررنا على حدود تلك الدّشم. أخذنا استراحة بين النوم واليقظة حتى الفجر. تيمّمنا ثمّ أدّينا الصلاة بأحذيتنا. غطّت المنطقة سحابة رماديّة ضاربة إلى السواد جرّاء كثافة نيران المدفعيّة، بحيث حجبت ضوء الشمس عن الأرض. وصل مرتضى.

– علينا صدّ هجوم العراقيّين المضاد.. إنّهم يتقدّمون، تأهّبوا.. رماة الـ(B7)..

كانت نيران العدوّ تتساقط على كل متر من الأرض بحيث سقط في الدقائق الأولى عشرة أشخاص منّا بين شهيد وجريح. نظرًا لشدّة النيران لم يظنّ أحد أنّه سيبقى سالمًا. ناداني مرتضى: «يوسف بور!».

– أجل يا عمّ!

تبسّم ثمّ قال: «سيّد حسن، أكلتَ حلوى «أرده»[1]، أليس كذلك؟».

ثنيتُ يدي من المرفق وعرضتُ عضلات ساعدي كلاعبي كمال الأجسام.

– عندما عدتُ ورماة الـ(B7) مؤخّرًا من الإجازة، قمنا بجمع كلّ حلوى «أرده» الموجودة في زرقان وأكلناها. انظر إلى قوّة عضلاتي! نحن تحت أمرك!

– يوسف بور، إنّه وقت النّزال، اجمع رماة الـ(B7) وهلمّوا معي إلى السواتر النونية.

نظّمتُ مع معاوني «نظري» حَمَلة الـ(B7) في صفّ، وانطلقنا خلف مرتضى نحو الدشمة والسواتر المذكورة.

بدأ العراقيّون هجومهم المضادّ بالدبابات. نشبت مواجهات دبابات في مقابل أفراد. تقدّم مرتضى كعادته حاملًا قاذف (B7). واصلت

1- حلاوة الطحينة.

الدبابات تقدّمها يتبعها عناصر المغاوير العراقيّين حتّى وصلوا إلى حدّ معيّن، حينها نادى مرتضى: «الآن!».

وقفنا، يتقدّمُنا مرتضى، وأخذنا نستهدف الدبابات التي باتت في مرمى قذائفنا. عقِب تدمير عدد من الدبابات لم يجد العراقيّون بُدًّا من الانسحاب!

128

أيْ شي لونك

11/ك2/1987

– يـا حاج قاسم سليماني، إنّ نيران العراقيّين شديدة لم يسبق لها مثيل، إنّهم يقصفون كلّ متر من الساتر الترابي ويتقدّمون بدبّاباتهم.

ظُهـر اليوم الخامس مـن عمليّات (كربلاء5)، اتّصـل بي لاسلكيًّا حسـين تاجيك، قائد الكتيبة، الذي كان مستقـرًّا على خطّ دفاع «نهر جاسـم»، طالبًا منّي المساعدة. قلت له: «اصمـد وإلّا فسيحاصَر لواءا المهدي والغدير! سأفكّر في حلّ ما..».

اتّصلـتُ من المقرّ التكتيكـي لفرقة «41 ثـار الله»، والذي كان على مسافة قصيرة من الخطّ، بمقرّ خاتم الأنبياء.

– أنـا قاسـم سليمـاني.. كتيبتي بحاجـة إلى قوّة إسنـاد في «نهر جاسم»..

– سمعت. حاج قاسم، ينبغي الحفاظ على نهر جاسم! إن تراجعتم فسيحاصَر جناحاكم!

– سأتقـدّم بنفسي .. سأرى مـا يمكنني فعله. لا تتوانوا عن إطلاق النار!

بصفتي قائد فرقـة «41 ثار الله» لم أستطع الصبر بانتظار وصول عناصر الهجوم. ناديتُ عامل الاشارة قائلًا: «أحضر الجهاز اللاسلكي والدراجة النارية لكي نمضي إلى الأمام».

جلستُ على الدرّاجة الناريّة خلفه وانطلقنا باتّجاه نهر جاسم. كانت الطريـق مكتظّة بجثث القتلى العراقيّين، وعبثًا حاول عامل الاشارة أن يعبر بينها، فصار يمشي عليها فيفقد السيطرة على الدرّاجة.

- انتبِه يا فتى!

كانت نيران المدفعيّة والقذائف كثيفة بحيث غطّت سحابة غليظة من الدخان والغبار الأجواء، ويكاد يخيّل للرائي أنّ السماء ملبّدة بغيوم سوداء. وصلنا إلى نهر جاسم، فبحثتُ عن قائد كتيبتي «حسين تاجيك».

- هو في الجهة اليسرى من الساتر الترابي، على بعد أربعين مترًا!

استغرق الوقت ثلاثين دقيقة حتى طويتُ مسافة الأربعين مترًا تلك، وذلك بسبب كثافة نيران العدوّ الذي كان يقصف بمدفعية حديثة نمساويّة الصنع كلّ متر من الأرض! وصلتُ إلى حسين تاجيك. كان وجهه الأبيض المشرب بالحمرة قد اسودّ جرّاء الدخان والتراب، كما امتلأت أذناه بالغبار. لم أعرفه بدايةً. وضعت يدي على شعره الأغبر، تبسّمت وقلت: «عافاك اللّه، الآن لن يشكّ أحد أنّك ابن «بم»، ما هي الأوضاع؟».

اندفع قائلًا: «حاج قاسم، كيف جئت إلى هنا؟ سوف يسيطرون على الساتر الترابي في لحظات!».

- ما الخبر؟

- حاج قاسم، هناك مجموعة واحدة ما زالت سالمة، أمّا الآخرون فقد أصيبوا بالشظايا وتمّ نقلهم إلى الخلف! إنّ نيران المدفعيّة هي الأشدّ إيذاءً. إنّها لا تسمح لنا برفع رؤوسنا!

ثمّ أشار بإصبعه إلى نهر جاسم.

- الدبّابات تضيّق علينا بشدّة! إنّهم يستعدّون للهجوم التالي، ومن المستبعد أن نصمد. نحتاج إلى قوّات مساندة!

ألقيتُ نظرة على رتل دبابات «T 72» العراقيّة التي كانت تتهيّأ خلف الساتر الترابي لشنّ هجوم مضاد. كنّا على بُعد أقلّ من مئة متر

من الساتر، وكان عدد الدبابات يفوق عدد عناصرنا. قلت: «اطلب من الجميع أن يحملوا قواذف (B7) وأعطني واحدًا منها!».

بُعيد الظهر خرجت الدبابـات وعناصر المغاوير العراقيّين من شقّ في الساتر الترابي وشرعوا بالتقدّم. قلت: «لا يطلقنّ أحدٌ قذيفةَ (B7) قبل أن أطلب منكم!».

أخذت الدبابات تتقدّم مدمّرة الساتر الدفاعيّ بقذائفها. هذا ولم يتوقّف سقوط قذائف المدفعيّة لحظة. عندما صاروا على بُعد خمسين مترًا منّا هتفتُ قائلًا: «أطلقوا النار..».

اندلعـت المواجهـات، إلّا أنّ الدبابـات لم تتـورّع عن التقـدّم، فيما أصيب عدد من عناصرنا بالرصاص والشظايا. أطبقت الدبابات على جهتَـي الساتر الترابـي وكاد الأمر أن ينتهي! وقد سدّت دبابتان طريق الجبهـة الخلفيّة من الجهة اليسرى. قال حسين تاجيك: «حاج قاسم، لقد حوصرنا.. عليك أن تعود إلى الخلف بطريقة ما وإلّا..».

وقبـل أن ينطـق كلمته الأخيرة أصابته رصاصــة مباشرة في ظهره فوقع في حِجري.

- حسين.. حسين..

كان جرحه بليغًا. وضعته على واجهة الساتر الترابي بحيث لا يلتفت العناصر إلى أنّ قائد الكتيبة قد أصيب برصاصة.

عـدتُ إلى رشدي لأرى أنّه لم يبقَ منّـا سوى عدّة أشخاص. عندما زاد احتمـال وقوعـي في الأسر وجدتُ الموت أسهـل، خصوصًا بصفتي قائـد فرقة في الحرس الثوري، ناهيك عمّـا سيثيره الإعلام العراقيّ! لـذا كان علـيّ القيام بعمل مـا. خطر ببـالي أن أطلـب المساعدة من جناحنـا الأيسر؛ فرقة المهدي. قلت لعامل الاشارة: «اذهب على موجة

الحاج جعفر أسدي؛ قائد لواء المهدي».

اتّصل سريعًا.

- حاج سليماني، الحاج أسدي على الخطّ.

خطفتُ سمّاعة الجهاز وضغطت على الزر.

- جعفر، جعفر.. معك قاسم!

- السلام عليك، هل حدث شيء؟

- جعفر، لقد كسر العدوّ خطّنا وبِتنا محاصرين!

- قاسم، أين أنت؟

- نهر جاسم، الساتر الترابي يسقط الآن!

- قاسم، انسحب إلى الخلف! هل تعلم ماذا سيحدث إن وقعتَ في يد العراقيّين!

- إننا محاصرون! ليس لديّ قوّات لفكّ الحصار.

- قاسم، إلى متى يمكنك أن تصمد؟

- ربما لعشر دقائق!

- حافظ على وضعيتك، سأرى ماذا يمكن أن نفعل!

قطعتُ الاتّصال ونظّمتُ العناصر، وكانوا بعدد الأصابع، بغية الدفاع.

كان الرصاص ينهمر علينا من كلّ حدب وصوب. جلست عند رأس حسين تاجيك. كان يلفظ أنفاسه. فتحتُ الكوفية الملفوفة حول عنقي، ومسحتُ التراب والدخان عن رأسه ووجهه. تبسّم بفتور.

- هل تنظّفني من أجل التشييع!

أدرتُ رأسي ومسحتُ دمعي من طرفي عينيّ. تبسّمتُ وقلت: «على

الرغم من أنّي من «كرمان» ولكنّي لطالما أحببتُ مدينة «بم!».

– ماذا يعجبك فيها؟

– لهجة أهل «بم» اللطيفة، صوت «إيرج بسطامي!».

تبسّم بفتور ثم قال: «أنا لست من «بم» يا حاج!».

ثمّ طفق ينشد بصوت خافت شِعر «أزهار النعناع»:

يا أزهار النعناع أحرقتني نارُ القَسوة

يا أزهـار النعناع أحرقتني نارُ الهجران

سأواصـل الإنشـاد حتـى السّحَـر

فأنـا كئيـبٌ، مجنـون، وروحـي تتـألم

ناداني عامل الاشارة: «الحاج أسدي على الخط».

أخذتُ بسرعة سمّاعة اللاسلكي من يد الشابّ.

– أسمعُك!

– قاسـم، إنّ مرتضـى آتٍ لمساعدتـك مـن الجهة اليسـرى برفقة مجموعة من القوّات!

– اشلو، قائد كتيبة الفجر؟!

– أجل يا أخي!

رجعـت إلى حسين تاجيك الذي كان قد أسلم روحه متبسّمًا! عدتُ إلى الساتر الترابي وشرعت بإطلاق النار.

– اللّه أكبر.. اللّه أكبر..

لم تمضِ عشـر دقائق حتى حدثت ضجّة في الجنـاح الأيسر وعلت هتافات التَكبير. التفتُّ نحو الجهة اليسرى. في غضون دقائق معدودة تحوّلت الدبابتان اللتان سدّتا الطريق إلى كُتلتي نار ملتهبتين واحترقتا. بعد ذلك وقعت عيناي على مجموعة من قوّاتنا يتقدّمهما شاب نحيف، متوسّـط القامـة، حافي القدمين، يحمل على كتفـه قاذف (B7)، وقد

ظهر من خلف ستار الدخان والغبار. هتفتُ مدهوشًا: «اشلو!».

تغـيّر مشهد المعركة بقدوم مرتضـى وعدد من العناصر! لقد نزلوا كالصاعقـة علـى الدبّابتين ففتحـوا الجهة اليسـرى. في تلك اللحظة غبطـت الحـاج أسدي علـى وجود قائـد الكتيبـة ذاك في لوائه! وصل مرتضـى بوجهه اللطيف، فجمـع أصابع يده وأدارها قائـلًا بالعربيّة: «أي شي لونك؟».

حملقـتُ طويلًا في وجهـه البشوش وقد غمرتنـي الفرحة. قلت له: «ماذا تعني هذه الكلمات؟».

– ما حال لونك ووجهك! مختصرها: اشلو!

كلّما حدّقتُ في وجه مرتضى النحيل والبريء زاد ألم فقدي لحسين تاجيك، لا أدري سبب ذلك. فقد علا وجهه ورأسه الغبار والدخان، كما ملأ الـتراب أذنيه اللتين يبست فيهما بضع قطـرات من الدم القاتم. سالـت الدموع على خـدّي. قال لي: «حاج قاسم، عليك أن تتراجع إلى الخلف، سنتولّى أمر بقيّة الدبابات!».

– أشكرك لأنّك أنقذتنا! لكنّي سأبقى لصدّ الهجوم المضادّ!

فقال وقد علا قَسماتِ وجهه التصميـمُ والإصرار: «أرجو المعذرة، لقد طلب منّي الحـاج أسَدي أن أساعدك على الانسحاب إلى الخلف! سيبقى الآخرون لمواجهة الدبابات!».

نقلتُ أوّلًا جثّة حسين تاجيك إلى الخلف، ثمّ ركبت الدرّاجة الناريّة وخرجت من دائرة الحصار

بصحبـة عامل الاشارة. كنت طوال الطريق أكرّر لا إراديًّا: أَيّ شَي لونك.. اشلو..

129

مرتضى آويني

12/ك²/1987

لم يمضِ أكثر من خمسة أيام على عمليّات (كربلاء5) حتّى أخذت فرقـة المهدي تستعدّ للعمليّات مجـدّدًا. كان الأخ ناظم بور يهيّئ قسم الهندسة (التخزيـن). قصد أحدُ العناصـر، وكان يؤدّي دور المراسل، كاظـم الذي انشغـل بالوضوء. حاول كاظـم الهروب لكـنّ الشبّان لم يسمحوا بذلك، وأجبروه على الوقوف أمام عدسة الكاميرا. أمّا كاظم فجعل يتهرّب من الكاميرا بصبر وابتسامة يحكيان عن خجله وعفّته، منتظرًا أن يدعوه وشأنه.

بعـد كاظم جـاء دور مصطفى الذي حـاول في البداية أن يصرف الكامـيرا عنـه أيضًا. أخذ يهـزّ رأسه ضاحكًا محـاولًا أن يمحو تأثير الكامـيرا من نفسه. وكان النّصر حليفه هو الآخر، على الرغم من أنّه تقبّـل الأمـر في النهاية وتكلّم بضع كلمات عن نفســه. قال له الشبّان: «قل إنّك طالب علوم دينيّة أيضًا».

علت وجهه حمرةُ الخجل بشـكل جليّ، لكنّه ضحك مجدّدًا وتهرّب من هذا الحديث بذكاء، فنجا بنفسه.

أينما اتّجهتِ عدسة الكاميرا فرّ منها الشبّان. وإن أقبل عليها أحدٌ فلم يكن يتحدّث إلّا بما ينمّ عن استقامته ووعيه.

لقـد علم أولئك أنّ النّفس تمثّل حجابًا لهم، ولكي يصلوا إلى مقام القـرب الإلهي عليهم أن يغضّوا الطرف عـن أنفسهم. هذا الأمر وإن كان كافيًـا لنيل مرادهم لكنّه ليس سهل المنال لكلّ وافد. ولا عجب إن قيل بأنّ ليس في هذا العالم أحد لديه القدرة على الإيثار وإنكار الذات كهؤلاء الأوفيـاء. «أكبر» حامل اللاسلكي، الحاج علي أكبر رحمانيان،

وبعدهمـا أحد قادة سرايا كتيبة كميل في فرقـة المهدي. أينما اتّجهت عدسـة الكاميرا فرّ العناصر منها. لقد حاول هؤلاء أن يخفوا أنفسهم بـين الجمع، فالاسم والشهرة أثقال يفرّ منها سالكو الطريق إلى اللّه. ولو تكلّم أحد عن نفسه فلا يشوب حديثه أدنى علامات العجب.

في نهاية المطاف وجدنا ضالّتنا مرتضى جاويدي؛ قائد كتيبة الفجر. مـا إن يقع نظرك عليه حتى تتذكّر تلك الأيـام الأربعة والليالي الخمس التي حوصر فيها من قِبل العدوّ برفقة خمسين نفرًا من أفراد كتيبته في عمليّات (والفجر 2)، وعندما كاد أمرهم أن ينتهي قال مرتضى:

– إننا سنقاوم ولن نسمح أن تتكرّر هزيمة وقعة أحد.

وكانت عاقبـة مقاومتهم البطوليّة النصر. لم يستسلم مرتضى هو الآخر لإلحاح الكاميرا.

المرة الأخـيرة التي التقينا فيها مرتضى جاويدي كانت قرب بركة تربية الأسماك. لم يكن قد مضى أكثر من ثلاث ساعات على سيطرة مجاهدي الإسلام على ذلك الخط، وكان العناصر لا يزالون يواجهون مدرّعـات العـدوّ بشـدّة بُغية تثبيت تلـك المواقع كامـلًا. كان مرتضى يخطّـط للتقـدّم بعناصـره إلى الأمـام، لكنّه في الوقـت عينه لم يجد سبيلًا للفرار من الكاميرا، ما اضطرّه إلى الإجابة عن أسئلتنا بعجالة وهو ينظر إلى عدسة الكاميرا نظرته التي لطالما بدت وكأنّها ترنو إلى ما لا نهاية. بعد ذلك هبّ ومضى حاملًا بيده قذيفة (B7).

كان مرتضـى يُعـرف في الجبهـة باسـم «أشلـو». وإن أمعنّا النظر جيّـدًا فـإنّ تقدير مستقبل العـالم ليس بيد ذوي الأسمـاء اللامعة في عالم السياسة الأسـود، بل هو بيد أبطال مجهولين من أمثال مرتضى جاويـدي وطمراسـ جكيني، وغيرهما ممّن يتـولّى مهمّة تغيير العالم بعيدًا عن الاسم والشهرة.

130

عزيزي أبا عَجَلة

26/ك²/1987

عند الصباح، ركنتُ سيّارة الـ«تويوتا» الكاكيّة اللون المحمّلة بالعتاد خلـف ساتر ترابي هلاليّ الشّكل في منطقة شلمجه. تحت وطأة نيران العراقيّـين الثقيلـة أفرغـتُ بمساعدة عـدد من الأشخاص الحمولة ورتّبناهـا في دشمـة المعدّات. عندمـا ركبت السيارة نـاداني مرتضى بلقبي: «عزيزي أبا عَجَلة!».

علّقتُ نظري على عينيه اللطيفتين. كان التراب قد علا جسده من رأسه حتى أخمص قدميه حتى بدا كالعجائز. سلّمتُ عليه وأشرتُ إلى رأسه ووجهه قائلًا: «لقد أصبحت عجوزًا! ألا تريد أن تستحمّ!».

ضحك ثمّ قَضم تفاحة حمراء كانت في يده.

– لقد وضعتَ يدك على الجرح يا عزيزي أبا عَجَلة.

سقطت قذيفة خلف الدشمة. قلت له: «يا عمّ، اركب قبل أن نُقتل!».

ركب بجنبي، وقُدتُ السيّـارة على طريق شلمجه الترابي. رأيت في أذنـه اليسـرى دمًا يابسًا، فسألتـه: «لقد خرج الدم مـن غشاء أذنك مجـدّدًا، وصارت عيناك كالـدم من شدّة الاحمرار، منذ متى لم تنم؟ أين هم عناصر الكتيبة؟».

– لقد قمنا بصدّ عدد مـن الهجمات المرتدّة، وبقينا تحت النيران الكثيفـة والمتواصلة لثلاثة أيام بلياليها في نهر جاسم. وقد أرسلت من بقي من الكتيبة إلى الأهواز لاستعادة قواهم!».

– إذًا لهذا السبب أنت قادم إلى الأهواز! ما هي أخبار العدو؟

– إنّـه يلفـظ أنفاسه الأخـيرة! ثمّة مواجهـات، رَجُـلًا لرَجل على أطراف قناة الأسماك ونهر جاسم.

ثـمّ فـرك عينه. أمّا أنـا فقُدتُ السيّـارة على الجـادّة المعبّدة نحو خرّمشهـر. قال لي: «عزيزي أبا عَجَلـة، لقد سمعتُ أنّك أقمتَ حمّامًا في الأهواز، وأنّك تغسّل فيه الشبّان غسل الشهادة!».

– لي الشرف حاليًّا أن أكون مدلّك المجاهدين!

– متى يصل دور كتيبة الفجر؟

– في الحال! الحمّام كلّه تحت أمر العمّ مرتضى!

علـى الرّغم مـن شدّة تعبـه إلّا أنّ جفنيه لم يطبقـا حتى الأهواز، وبقـي يتحدّث عـن الشبّان ويضحك لكـي يشغلني بحيـث لم أدرِ متى وصلنا إلى الأهواز.

في الأهواز أوقفت السيّارة مقابل الحمّام الذي استأجرناه. قال لي: «عزيزي أبا عَجلة، هل لديك حمّام خاصّ أيضًا؟».

– أجل يا عم مرتضى، لماذا تريد ذلك؟».

– أريد أن أغسل نفسي جيّدًا هذه المرّة!

دخلنا الحمّام معًا. قال: «هل تساعدني على الاستحمام؟».

وضعتُ يدي على عيني.

– على عينـي!

شرعـتُ بتدليكه وتغسيله بسرور وفرح. أمّا هو فأخذ يتبسّم ويدعو اللّه أن يرزقه الشهادة. قلت له: «يا عمّ مرتضى، لقد سئمت!».

– ممّ يا قاسم أبا عَجلة؟

– مـن أنّـك طوال هـذه الفـترة تحارب علـى الجبهـات ولكنّك لا تستشهد!

كان مطأطـئ الرأس، فرفع رأسه وتبسّـم قائلًا: «لا تبتئس يا سيّد باقر نجاد، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة!».

131

انتهت الحرب

26/ك²/1987

لم يكـن لي جَلد على العمل. حملتُ أَلبوم صور مرتضى وتصفّحته. كلّمـا نظـرتُ إلى صورة من صـوره قبع جبل من الغمّ علـى قلبي. وقع نظـري على صورة لـه في الجبهة وهو يضحك مع محمـود، علي، علي أكبر... أمعنتُ النظر فيها فإذا جميع من فيها قد استشهد إلا مرتضى.

وجـدتُ شيئًا مخفيًّـا خلف إحـدى الصور! مددتُ يـدي وأخرجتُ الورقة، ثـمّ فتحت طيّاتها. كانت وصيّة مرتضـى. دبّ الذعر في قلبي ويبست شفتاي. أخذتُ نفسًا عميقًا ثمّ طفقتُ أقرأ بعض مقاطعها:

.. لا أدري ماذا اقترفتُ حتى أُحرَم الشهادة. لعلّ قلبي أسود. رحم الله الحاج محمود ستوده، عندما كنّا نتحدّث معًا كنّا نقول: «إن انتهت الحرب وبقينا على قيد الحياة فماذا سنفعل؟ في الواقع لا يمكن العيش ونحـن ننظر إلى وجوه عوائل الشهداء..». وهنا لا يسعني وغيري ممن تخلّف عن قافلة النور إلّا أن نقول: هنيئًا لأولئك الذين نالوا الشهادة..

سالت الدموع من مقلتيّ.

طويـت الوصيّـة وعزّيـتُ نفسـي بـأنّ جميـع المجاهديـن يكتبون وصاياهم قبل خروجهم..

في أيّ جهة من البيت حدّقت بنظري تراءى لي وجه مرتضى.

وصل أخي وأخرجني ممّا أنا فيه.

- ما الخطب يا أختاه!

- إنّ قلبي يغلي. هلمّ لنذهب إلى بيت خالتي، لعلّ لديهم خبرًا عن مرتضى!

- من المقرّر أن يأتي السيّد نجفي بخبر لوالد زوجك!

- لنذهب إلى هناك يا أخي!

طالت المسافة القصيرة بين منزلينا مقدار عُمر. وهناك لم يتحدّث أحد بشيء. قلت: «لنذهب إلى فسا ونستطلع الأخبار!».

لم تقلّنا أي سيّارة في القرية! أينما وصلتُ استخبرتُ عن مرتضى. وصل ابن خالي.

- إلى أين يا أختاه!

- أريد الذهاب إلى فسا لأسأل عناصر الحرس عن مرتضى!

- ليس هناك من خبر! ارجعي إلى بيتك وسآتيك بالأخبار بنفسي!

- لا أريد يا بن خالي! تنحَّ جانبًا..

في النهاية ركبتُ الحافلة الصغيرة التي بدت لي أنّها تسير أبطأ من إنسان يمشي على قدميه. بدا لي أنّ كلّ شيء بات بطيئًا، وأن جميع الأشياء والأشخاص حولي يقومون باستفزازي!

كادت روحي أن تزهق حتّى وصلنا إلى بيت خالي. كان البيت مكتظًّا على غير العادة. وكان من بين الحاضرين والدة الشهيد «ناظم بور». سلّمتُ وسألت عن أحوالهم ثم جلست. شرعت والدة الشهيد بالحديث:

- إنّ الشهادة آخر درجات المعرفة.. وإذا أحبّ اللّه عبده رزقه الشهادة. فهذا ابني..

أخذتُ أتمتم مردّدة بعض الأذكار، وعقدتُ نذرًا لسلامة مرتضى. فجأة أقامني من مكاني صوت جرس هاتف البيت.

- مرتضى..

أردتُ أن أرفع السمّاعة لكنّ أحدهم رفعها. تكرّر ذلك مرارًا. وددتُ لو أستطيع أن أبكي عاليًا. وفي المرّة الأخيرة رفعت زوجة خالي سمّاعة الهاتف بنفسها. أنصتُّ بدقّة.

– أجل، إنّ أمّ زينب هنا! السيدة آمنة!

قلت: «مرتضى؟».!

ركضت نحو الهاتف، بل طرتُ! فيما انمحت الغموم والغصص والاضطراب من قلبي. ما إن دنوتُ من الهاتف حتى أقفلت زوجة خالي السمّاعة بشكل غير متوقّع.

– لا أحد، إنّها إحدى القريبات، تسلّم عليك..

عاد الاضطراب والتوتّر والحزن. لم أدرِ ماذا عليّ أن أفعل. كدت أصاب بالجنون. نظرتُ من خلال نافذة الباحة. السماء ملبّدة بالغيوم. كانت تلك إحدى السنوات النادرة التي يهطل فيها المطر غزيرًا بهذا الشكل. أخذتُ أتحدّث مع نفسي: سأذهب إلى فسا إلى بيت خالي، إنني على يقين بأنّ مرتضى سيتّصل! هنا سيقتلني الانتظار! بيت خالي جيّد..

– آمنة.. يا ابنتي، هل أنتِ بخير..

أيقظتني زوجة خالي من عالم الخيال. تداعت إلى ذهني ذكريات الماضي الجميلة.. لم أكد أجفّف ثيابي داخل بيت خالي حتى رنّ جرس الهاتف. رفعت زوجة خالي السمّاعة.

– آمنة، إنّه مرتضى؟!

أمسكتُ السمّاعة فقالت زوجة خالي بصوت خافت: «كيف عرف أنّها هنا؟! إنّكما ليلى والمجنون!».

ضحكتُ.

– يا زوجة خالي، القلوب عند بعضها!

ابتعـدت زوجة خـالي فبادرت بالقول: «مرتضـى، لقد طال غيابك هذه المرّة، ألن تأتي لقد اشتقنا لك!».

– اشتقتُم!

– حسنًا، إنّ زينب تفقدك أيضًا!

– زينب فحسب!

– لا تمزح يا مرتضى، باللّه عليك متى ستأتي؟ أريد أن أراك!

– ألا تشاهدين التلفاز؟

– ما علاقة هذا يا بن خالتي؟

– لقد بثّوا مشاهد لي قبل عدّة ليال!

– متى تأتي لأراك عن كثب؟

– قريبًا جدًّا!

أتمّ حديثـه فسكتُّ. فبادر بالقول: «هل غضبتِ منّي يا بنت خالتي! لم لا تتكلّمين؟».

كنت أفكّر في كيفيّة مجيئه.

– مرتضـى، عندما تأتي هذه المرّة سنكون نحن الثلاثة بانتظارك! هل ثمّة خبر عن قدمعلي؟

– إنّه مفقود!

– افعل شيئًا لأجل خالتي وأبيك المسكينَين!

قطـع كلامي: «ماذا أفعل، لقد ذهـب إلى الجهة الأخرى من النهر ولم يعـد! تلـك الجهة بيد العـدوّ! الأمر ليسـ كما في المـرّات السابقة لأحمـل جسـده الجريـح أو جثّته على ظهـري وأعـود. وبالمناسبة فإنّ

أمثاله كثيرون!».

- افعل ما تراه مناسبًا!

- آمنة، انتبهي لنفسك! هل يمكنك أن تعطي السمّاعة لزينب؟

أدنيت سمّاعة الهاتف من وجه زينب. نادى مرتضى: «زينب، يا ابنتي.. أجيبيني..»، لكنّ زينب لم تجبه.

- زينب، زينب، بابا.. زينب، زينب، بابا أرسِل!

عبثًا حاول، أمّا زينب فأخذت تحملق في السمّاعة باستغراب. أخذتُ السمّاعة.

- ماذا دهاك؟ إنّها لا تستطيع أن تتحدّث!

- يا ابنة خالتي، اشتقتُ لسماع صوتها. لم أرها منذ وقت طويل.

- أجل!

- اعتني بتربية زينب وطفلنا القادم جيّدًا! تحلّي بالصبر لأجل الله!

ثمّ ودّعني.

132

العمّ الخالد

28/ك2/1987

عصرًا هـدأ نهر جاسم قليـلًا وتراجع العـدوّ إلى مواقعه. ناداني مرتضى: «ذبيح اللّه!».

انتفضـتُ مـن مـكاني ووصلـت إليه، حيـث وقف قـرب «طمراس تشكيني» في دشمة القلعة، وهو يقرأ أبياتًا من الشعر:

السماء رفعت يديها قانتة نحو قامات النجوم

أنفاسها تتساقط صوب كعبة ربّنا

إن اخضرّت الأرض، وإن دار الفَلَك

إن أوكل اللّه أمر النسيم إلى المَلَك

فذلك كلّه ليس إلّا في محبّة عليّ والزهراء عليهما السلام!

تبسّم وقال: «هنا بداية العشق!».

ثـمّ أردف قائـلًا: «ما زلتُ حتـى الآن لا أعـرف شهرتك، هل هي: فريد بخت أم خوش بخت[1]؟».

- ما الفرق يا عمّ، أسأل اللّه الحظّ السعيد!

- فريد بخت، اذهب وأحضر طعام الفطور للعناصر!

أمدّني مزاح مرتضى بالطاقة. كانت الرؤية معدومة جرّاء الدخان والنـار الشديدَيـن. خرجت بحذر مـن الدشمة قاصـدًا الدشمة التي كانت على شـكل حرف «ن»، وأخذتُ من «مشـ موسى» بعض المعلّبات والكعك والعسل، ثمّ رجعتُ إلى مرتضى.

1- بخت : حظ؛ فريد بخت: حظ فريد؛ خوش بخت: حظ سعيد.

- تفضّل!
- لماذا لم تُعطِ الشبّان أوّلًا؟
- أنت أقرب منهم!

أخـذ مُكرَهًا بضع كعكات وعلب صغيرة من العسل ثم قال: «أوصل الفطور إلى العناصر بسرعة، فهم لم يأكلوا شيئًا منذ ليلة أمس!».

هممتُ بالانطلاق فأوقفني.

- قـل للعناصر أن لا يتلـكّأوا، فليهيّئوا الذخائر قبل أن يعاود العدوّ الهجوم. ليستغلّوا الفرصة ويعدّوا لأنفسهم ملاذًا آمنًا!».

قلت له: «على عيني».

توجّهـت نحو العناصر فردًا فردًا فصـرتُ أناولهم الفطور وأبلّغهم رسالة العـمّ. عندما عُدتُ إلى مرتضى التفـتُّ إلى أنّه لم يجد فرصة لتنـاول الكعك والعسل. وافيتـه بأخبار العناصر، فمـا كان منه إلّا أن تبسّـم ثمّ فتحِ علبة العسل وقدّمهـا لي مع الكعكة قائلًا: «عافاك اللّه، تناول هذه أولاً!».

- يا عمّ أنت جائع ومضنى، تناوله أنت!

ففتح الثانية.

- سنأكل معًا يا سيّد ذبيح اللّه!

كانـت فرصة لكي نجلس تحت وطأة نـيران قذائف الهاون ونُدخل إصبعنـا داخـل علبـة العسل ثـمّ نأكلـه بنَهـم واشتياق. وبعـد تناول الفطور الحربي المتواضع نظـر العمّ من خلال المنظار إلى نهر جاسم حيـث استقـرّ العدوّ. بعدهـا أجرى اتّصـالًا ثمّ أطلع المقـرّ من خلال الرموز (الشيفرة): «العدوّ يستعدّ لشنّ هجوم مضاد!».

بعد ذلك التفت إليّ.

- انطلق إلى جميع العناصر وقل لهم أن يستعدّوا. أبلِغني بحصيلة

الشهداء والجرحى أيضًا.

نهضتُ وانطلقتُ. لم أكد أبتعد عنه بضعة أقدام حتى رماني انفجارٌ مروّع بقوة إلى الأرض. لم أصب بمكروه. قلت في نفسي: مرتضى!!

تمـدّدتُ وأدرتُ رأسـي إلى الوراء ونظرتُ مذعـورًا. لم أرَ من تلك الدشمـة سـوى الدخـان والتراب! صحـتُ لا إراديًّـا: «يا إلهـي، العمّ مرتضى!».

نهضـتُ من مـكاني غير آبه بالقذائـف. سرتُ مترنّحًـا وأنا أشعر بـدوارٍ حتـى دخلتُ في الدخان والـتراب والبارود ألـذي أحرق مجرى تنفّسي. وصلـتُ إلى القلعة حيث متراس مرتضى. غطّى المكان بأسره ستار من التراب والغبار. وبعد أن سكن الغبار والتراب رأيت «تشكيني» وأحـد رماة الـ(B7) غارقَـين في دمائهما وقد استشهـدا. بحثتُ عن مرتضـى لكن كأنّه استحـال دخانًا وصعد إلى السمـاء! أخذتُ أحدّث نفسي: ليتني بقيت وتحوّلت مثله إلى دخان! ما لبثت أن واسيت نفسي: لا بدّ أنّ العم قد خرج من الدشمة.. أجل إنّ العم خالد.. لا بدّ أنّه يعدّ العناصر لصدّ الهجوم المرتدّ..

ملأت رأسي شحنة من الأفكار السوداء: وامصيبتاه! لقد استشهد العـم.. أيـن جثّته.. يا لتعاستنـا.. لم يكن لي طاقة علـى النهوض ولا جرأة على البحث أكثر. أجهشت بالبكاء بلا اختيار. كانت حالي يُرثى لهـا، وكان عليّ أن أخبر أحدهم. خرجت مـن المتراس في القلعة حتى وصلتُ إلى «نظري». قلت متردّدًا: «لقد استشهد العم!».

حملـق «نظري» في وجهي المصفرّ الذي علاه التراب والدموع فظنّ أنني تحت تأثير عصف انفجار.

- هل أصابك عصف الانفجار؟! إنّ «إشلو» لا يفنى.

لم يصدّق. قصدتُ «زماني» قائد قوّات «زرقان».

- أعتقد أنّ العمّ مرتضى قد استشهد!
نظر إليّ مستغربًا.
- هل رأيت ذلك بأم عينيك؟!
- لا، أجل..
- أين؟
أشرت بإصبعي نحو التحصين (القلعة).
- في القلعة، مع «تشكيني» وأحد العناصر.
لم يصدّق هو الآخر وأخذ يحدّق في رأسي الأشعث الأغبر.
- هلمّ لتدلّني على مكانه!

انطلقتُ برفقته. لم أتمالك نفسي وأخذت بالبكاء، ما أثار استغراب زماني. وقفت أسفل القلعة فيما صعد زماني إليها. قلت في نفسي: إنني مخطئ.. سينزل العمّ معه في الحال..

بعد عدّة دقائق نزل زماني والدموع قد ملأت وجهه. جلس القرفصاء قرب الساتر الترابي.

- هل رأيتَه؟
هزّ رأسه.
- إنّه في الأعلى!

لم تسعني الفرحة. صعدتُ نحو القلعة كالمجانين. دخلتُ الدشمة. كان الغبار والدخان قد سكنا. أمّا مرتضى فقد كان متّكئًا على أحد جدران الدشمة. «يا عمّ.. ». اختنق الصوت في حلقي. وقع نظري على رجله اليمنى التي بُترت وجسمه المليء بالشظايا. أمّا جفناه فكان قد أطبقهما وخلد إلى النوم!

133

أبو التراب

29/ك2/1987

دخل خالي برفقة أخت مرتضى فنهضتُ وتقدّمتُ منهما.

- هل حصل شيء؟ باللّه عليكما!

قال خالي: «لقد استشهد بديهي، عامل الاشارة لدى السيد مرتضى!».

أغمضتُ عينيّ، فقالت زوجة خالي: «آمنة، هل أنتِ بخير؟».

قال خالي: «لمَ أنتِ مرعوبة؟ قلت إنّ رضا قد استشهد!».

- هو فحسب!؟

- ها! أجل!!

- خذوني إلى بيت السيّد نجفي!

- إنّه ليس في البيت!

اتّصلتُ بمنزل محمد رضا بديهي.

- إيّاكِ أن تذكري شيئًا عن محمد رضا!

رفعت زوجة السيد بديهي السمّاعة.

- هل لديكِ خبر عن محمد رضا ومرتضى؟!

- لا، قبل يومين عاد السيّد يوسف بور من الجبهة وقال: إنّهما بخير!

وضعتُ السمّاعة والقلق يساورني. قلتُ لخالي: «خذوني إلى بيت يوسف بور».

- تعلمين أنّ بيته بعيد جدًّا! لن نجد سيّارة لتقلّنا!

صرفوني عن رأيي بأيّ وسيلة ممكنة.

– سأبقى في بيت خالي بشرط واحد: وهو أن تأتوا بأسماء الشهداء من مركز الحرس!

وافق ابن خالي وخرج من البيت، سرعان ما عاد بصحبة أخي.

– ذهبتُ، لكنّهم لم يعطونا أسماء الشهداء.

ناديتُ أخي: «اذهب أنت، أسألك بالله..».

– سمعًا وطاعة!

ذهب هو الآخر، لكنّه لم يعد!

مساءً لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، فجعلتُ أبكي دونما سبب. تناهى إلى سمعي صوت سيّارة من الزقاق. جاءت ابنة خالتي وقالت: «أبي، حضرت سيّارة الحرس، إنّهم يريدون التحدّث إليك».

عضّ خالي على شفتيه في وجه ابنته مشيرًا إليّ بطرف عينيه، ثمّ خرج بعجالة إلى الزقاق. لكنّه ما لبث أن عاد وانتهر ابنته قائلًا: «ماذا دهاكِ يا فتاة، لم تكن تلك سيّارة الحرس!».

أخذت ابنة خالي تقسم أيمانًا مغلّظة أنّ السيّارة كانت تابعة للحرس الثوري وأنّ بداخلها عددًا من عناصر الحرس، لكنّها قُوبلت بإنكار شديد من قبل خالي وزوجته.

كنت أشعر بألم شديد في رأسي. تركتُ زينب وشأنها. كثر دخول الناس وخروجهم. قلت لابنة خالي: «إن كان محمد رضا بديهي قد استشهد فلمَ صار بيت خالي محطّ زيارة النّاس؟!».

لم تُجب. أحضروا طعام العشاء لكنّي لم آكل. اقترب خالي منّي.

– كلي يا ابنتي!

– خالي، أنا لست طفلة، هل حدث شيء؟!

أخذت ركبتا خالي ترتعشان وكذلك أصابعه. خنقتني الغصّة. وبعد التي واللتيّا قال لي: «يا ابنتي، قومي واذهبي إلى جليان!».

– أريـد أن أبقى لأشارك غدًا في مراسـم تشييع محمد رضا! لعلّي أجد أحدًا لديه خبر عن مرتضى! خالي، لمَ لا يتّصل مرتضى؟

– لا أعلم، لا بدّ أنّه لا يعلم بوجودك هنا!

– بلى، إنّه يعلم.

– اسمعي يا ابنتي، لقد اتّصل مرتضى بمركز حرس «فسا» وتحدّث إلى السيّد نجفي. سمعتُ أنّ السيّد نجفي قد ذهب إلى جليان لرؤيتك. اذهبي إلى جليان!».

وضّبـتُ أمتعتـي وانطلقتُ مع ابن خـالي في سيّارة أجـرة. عندما وصلـتُ إلى جليان كانت زينب قد غفت على كتفي، أمّا ابن خالي فعاد أدراجـه بالسيّارة نفسهـا. عند الساعة العاشرة دخلـتُ باحة المنزل، فتقـدّم أخـي منّي، قلـت له: «إلى أيـن ذهبتَ، ألم يكن مـن المقرّر أن تأتيني بخبر!».

أطـرق برأسه إلى الأرض ساكتًا، فيما تناهت إلى سمعي من غرفة خالتي الكبيرة ذات الأبواب الخمسة أصواتُ البكاء.

ملحق الهوامش

1- قـراءة الطالع من شعر حافظ، عادة منتشرة في أنحـاء إيران، يدور قراء الطالع وهم فـي الأغلـب صبية صغار يحملـون صندوقًا صغيرًا فيـه أوراق كتب عليهـا أبيات من شعر حافظ الشيرازي، وعلى أيديهم طائر عشق مدرّب يختار هو ورقة الطالع للمسافر أو المار. فيقرأها الصبي، وتكون في الأغلب عدة أبيات عرفانية تنبئ بالمستقبل.

2- كعب آخيل أو عين اسفنديار؛ مصطلح يشير إلى نقطة ضعف مميتة (في شخص) على الرغم من كل القوة التي يمتلكها، والتي إن أصيبت تؤدي إلى سقوطه بالكامل. ويعود أصل مصطلـح كعب آخيل إلـى الميثولوجيا الإغريقية حيث تقول الأسطورة أن آخيل عندما كان طفـلًا، تنبئ له بأنه سوف يموت في معركة، ومن أجل منع موته قامت أمه ثيتس بتغطيسه فـي نهر ستيكس الذي يعرف عنه بأنه يمنح قوة عدم القهر. لكن بما أن ثيتس كانت تحمل آخيـل من كعب قدمـه أثناء غسله في النهـر، فلم يصل الماء السحـري إلى كعبه. وهكذا كبـر آخيل ليصبـح أحد الرجال الأقوياء الذين لا يقهرون، إلا أنه في إحدى المعارك (فتح طروادة) أصابه سهم مسموم في كعبه وتسبّب في مقتله بعد فترة قصيرة.
وأمـا مصطلح عيـن اسفنديار فيعود إلى الأسطورة الإيرانية حيـث يظهر فيها اسفنديار بطلًا منيعًا أمام المهالك، إلا أن نقطة ضعفه الأساسية في بدنه الخارق كانت عينيه لأن المياه المقدسة التي أكسبته المنعة والقوة عندما نزل فيها لم تصل إلى عينيه، حيث كان قد أغمضهما لحظة غطسه فيها وهكذا تمكّن منه البطل الأسطوري رستم وأصابه بسهم في عينه كان فيه مقتله.

3- كوملـه بالفارسيـة؛ كومه لـه بالكردية: مجموعـة كردية معارضة يساريـة التوجه في كردستـان، تعتبـر الفرع الكردستانـي للحزب الشيوعـي الإيراني. دمكـرات بالفارسية: الحـزب الديمقراطي لكردستان إيران.قامت هاتـان الجماعتان بأعمال عدائية ووحشية ضد الناس المؤيدين للثورة.

4- «عمو زنجيير باف»: (العم «رابط السلسلة» أو «رابط الجنزير») من الألعاب التقليدية الجماعية للأطفال، وموطنها الأصلي منطقة كازرون في إيران، لكنها مشهورة إلى درجة أن جميـع الأطفال فـي كل مناطق إيران يلعبونهـا بكثرة. وهي أشبـه بالاستعراض الذي يهـدف إلى تعليـم أصوات الحيوانات ويعزز روح التعاون بحيـث يتحلق الأطفال في دائرة مفتوحـة ممسكين بأيـدي بعضهم بعضًا ويترأسّـهم على الطرفين قائـد الفريق و(العم «رابـط السلسلـة»).. ويجري حـوار منظوم بين قائـد الفريق (وبقية الأطفـال)، و«عمو زنجير باف» ضمن سياق معروف:

قائد الفريق وبقية الأطفال	«عمو زنجير باف»
عم رابط السلسلة!	نـــعـــم؟
هل ربطتَ سلسلتي؟	نـــعـــم!
هل وضعتها خلف الجبل؟	نـــعـــم!
جاء البابا!	ماذا جلب؟

زبيب وقضامة (حمّص محمّص)!   زبيب وقضامة؟
بأي صوت؟   بصوت القطة!
و«عمو زنجير باف» مخيّر في تسمية أي حيوان، وعندما يذكر اسم حيوان ما يبدأ الجميع بإصدار صوته ويتحرك قائد الفريق (وبقية الأطفال معه) ليصل إلى العنصر الأول الواقف بالقرب من العم رابط السلسلة فيدخل تحت ذراعيهما ويعود إلى مكانه والأطفال يتبعونه ممسكين بأيدي بعضهم بعضًا حتى تعقد أوّل حلقة من السلسلة، فيتكتّف الطفل الأول مديرًا ظهره بعكس البقية؛ وهم يردّدون: مياو مياو مياو
وتتكرر العملية كل مرة باسم حيوان مختلف مع ترديد صوته حتى تعقد كل حلقات السلسلة ويتكتف الجميع بالعكس ما عدا القائد والعم رابط السلسلة. وتبدأ عندها مرحلة الشد من قبلهما لمحاولة كسر السلسلة المشبوكة بعد الحوار التالي:
عم رابط السلسلة!   نـــعـــم!
هل ربطتَ سلسلتي؟   نـــعـــم!
مستحكمة أو متزعزعة؟   شُدَّ لنرى!
يستمر الشد من قبل قائد الفريق والعم رابط السلسلة، وبقية الأطفال يحاولون الإبقاء على تماسك السلسلة حتى تنكسر في محل ما، فيتوجب على الطفلين حيث انكسرت السلسلة أن ينفذا طلبًا لبقية الفريق، كالركض لمسافة معينة، أو القفز أو ما شابه.
و«عمو زنجير باف» هو نفسه «عمو نوروز» في الثقافة الإيرانية الذي يأتي بفصل الربيع أو بالسنة الجديدة (حيث تبدأ مع بداية فصل الربيع)، والمقصود بالسلسلة سلسلة الشتاء والربيع والفصول عمومًا.
في هذا الفصل، يردد المجاهدون هذا اللحن مع تعديل مناسب في الكلمات.

5- الدشمة -اصطلاحًا- مكان عسكري محصّن يُحتمى به من الأعداء؛ قد يكون كبيرًا بحجم غرفة أو قاعة، وقد ورد كثيرًا في كتب أدب الجبهة من قبيل: دشمة المصلى، دشمة القيادة، دشمة الذخيرة..؛ وقد يكون حجمها أصغر لاحتماء عدة عناصر او عنصر واحد وهو المعروف. والمتراس تحصين لسلاح أو فرد أو أفراد يكون له عادة فتحات تسمح بإطلاق النار والحراسة.

6- **رنگينك**: ranginak : حلوى تصنع من طحين القمح والسمن والتمر وتضاف إليها المطيّبات: الهال والقرفة، وقد يضاف إليها الجوز والفستق الحلبي.

7- زورخانه أو بيت القوة؛ مكان مخصص لرياضة الفتوة التقليدية القديمة في إيران. ليتمّ فيها استعراض القوة ورفع الاثقال وما يشبه المصارعة الكثير. ولها أدوات خاصة تستخدم عند ممارستها كالهراوات والأقواس والأحجار ويرافقها تلاوة أشعار وأناشيد.

آية الله الخامنئي في زيارة للواء المهدي.

أصفهان- تدريبات الكومندوس- مرتضى إلى جانب الشهيد صياد الشيرازي.

كتيبة الفجر- مرتضى الشخص الأوّل من اليسار

آية الله الخامنئي في كتيبة الفجر.

مرتضى إلى جانب قادة الحرس والجيش.

الشهيد إسلامي ومرتضى إلى جانب الشهيد صياد الشيرازي.

مناجاة المجاهدين الخالصة.

عرض من كتيبة الفجر- منطقة الغرب

جهوزيّة كتيبة الفجر للعمليات.

فريق الفوتبول- مرتضى هو الحارس.

كتيبة الفجر- سباق ومباريات.

حجة الإسلام بنائي، المسؤول الثقافي في كتيبة الفجر.

محاور الدفاع.

عشق مرتضى للحرب وعلاقته بالحرس مشهود في هذه الصورة.

الشباب في كتيبة الفجر.

كتيبة الفجر مستعدّة للعمليات- مرتضى الشخص الأوّل.

كتيبة الفجر في عمليات (والفجر 8)- الفاو.

مزاح الجرحى- مرتضى الشخص الاوّل عن اليمين.

الغرب- جلي الصحون في النبع.

بجانب النار.. مستعدّ للنار!

برامج ثقافيّة في كتيبة الفجر.

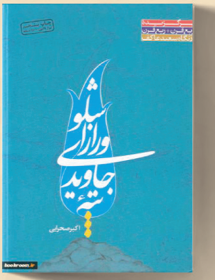

يروي أحد القادة ما جرى في لقاء مرتضى مع الإمام الخميني قدس سره: «أطلق "اشلو" العنانَ لنفسه وتخطّى الجميعَ مقتربًا بقامته المتوسّطة من الإمام، فوضع يده السليمة خلفَ رقبة الإمام وأدنى رأس سماحته من وجهه، وجعل يقبّل ويشمّ عمامته وجبهته وعينيه ووجنتيه ولحيته وعباءته ويديه؛ كما الظمآن في الصحراء أو كالعاشق الولهان!.. وقف الإمامُ بكلّ هدوءٍ ووقار بانتظار أن ينهي "مرتضى جاويدي" قبلاته. أردنا أن ندني مرتضى منا وإذ بنا نرى الإمام ينحني ويقبّل مرتضى في جبهته قبلة لم أرَ مثلها في حياتي!».

لقاء في الردهة – ٨٢

مركز المعارف للترجمة: مركز متخصص بنقل المعارف والمتون الإسلامية؛ الثقافية والتعليمية؛ باللغة العربية ومنها باللغات الأخرى؛ وفق معايير وحاجات منسجمة مع الرؤية الإسلامية الأصيلة.

ISBN: 978-614-467-047-7

9 786144 670477

المعارف
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb